محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن ابن العربي الحاتمي الطائي

المتوفى سنة 638 هـ

ضبط نصه وصححه

محمد عبد الكريم النمري

الجزء الثاني
[تتمة محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ومن باب الحياء

ما قرأته في كتاب المنقطعين إلى الله تعالى ، قال بعضهم : رأيت شيخا يأتي إلى باب المسجد ، فيصلي عنده ولا يدخل فيه ، فقلت له : يا شيخ ، ما لك لا تدخل المسجد ؟ قال:
يا أخي ، خلوت يوما في بعض المساجد ، فأعجبتني خلوتي ، فإذا بمناد ينادي : يا شيخ ، أما تحتشم ؟ وقد عصيته ، تدخل بيته ، فما قدرت بعد على دخول مسجد حشمة وحياء.

ومن باب الصبر

وقع كسرى بن هرمز إلى بعض المسجونين : من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به ، ومن طوّل له في الحبل كان فيه عطبه ، ومن أكل بغير مقدار تلفت نفسه.

موعظة في هذا الباب

دخل ابن الزيات على الأفشين وهو محبوس فقال:
اصبر لها صبر أقوام نفوسهم * لا تستريح بلا غلّ ولا قود
قال الأفشين : من صحب الزمان لم ينج من خيره أو شره ، ووجد الكراهية والهوان.
ثم قال:
لم ينج من خيرها أو شرها أحد * فاذكر إساءتها إن كنت من أحد
خاضت بك السنة الحمقاء غمرتها * فتلك أمواجها ترميك بالزبد
حكي أن يوسف عليه السلام شكى إلى الله تعالى طول السجن ، فأوحى الله إليه : أنت حبست نفسك حين قلت : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، فلو قلت : العافية أحب إليّ لعوفيت .
ثم أخرجه الله تعالى كما ذكره في كتابه العزيز ، فلما خرج من السجن ،

واصطفاه العزيز ، أمر أن يكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء ، وشماتة الأعداء ، ومحزنة الأصدقاء.
من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه
قال يوما لابنه الحسن رضي الله عنه : يا بنيّ ، أبذل لصديقك كل المودة ، ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة ، وأعطه كل المواساة ، ولا تفش له كل الأسرار.
ومن كتاب التراجم
إن عيسى عليه السلام قال : عاشروا الناس معاشرة ، إن عشتم حنّوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم .
وأنشد:
قد يمكث الناس دهرا ليس بينهم * ودّ فيزرعه التسليم واللطف
يسلي الشقيقين طول النأي بينهما * وتلتقي شعب شتى فتأتلف

وفي الحكمة القديمة
ليس للعقلاء تنعم إلا بمودة الإخوان . وقال العباس بن جرير : المودة تعاطف القلوب ، وائتلاف الأرواح ، وإنس النفوس ، ووحشة الأشخاص عند تنائي اللقاء ، وظهور السرور بكثرة التزاور ، على حسب مشاكلة الجواهر ، يكون الاتفاق في الخصال.

وروينا من حديث رباح بن عبيد الله ، قال : خرج عمر بن عبد العزيز قبل خلافته ، وشيخ متكئ على يده ، فقلت في نفسي : إن هذا الشيخ جاف ، فلما صلى ودخل لحقته ، فقلت : أصلح الله الأمير ، من الشيخ الذي كان متكئا على يدك ؟ فقال : يا رباح ، رأيته ؟
قلت : نعم ، قال : ما أحسبك يا رباح إلا رجلا صالحا ، ذاك أخي الخضر ، أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة ، وأني سأعدل فيها.

وحكى محمد بن فضالة ، فيما رواه أبو نعيم ، أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وقف براهب في الجزيرة في صومعة له ، قد أتى عليه فيها عمر طويل ، وكان ينسب إليه علم من الكتاب ، فهبط إليه ، ولم ير هابطا إلى أحد قبله ، فقال له : يا عبد الله ، أتدري لما هبطت إليك ؟ قال : لا ، قال : الحق بأبيك إنّا نجده في أئمة العدل بمنزلة رجب من أشهر الحرم . قال : فسرّه له أبو أيوب بن سويد ، فقال : ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، والحجة ،

والمحرم ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، ورجب منفرد ، منها عمر بن عبد العزيز.
قلت : تكلم أبو أيوب في هذا التفسير ببادئ رأيه ، ولم يتحقق مقصد المتكلم ، فلم يرد الراهب بقوله العدد ، فإنه ما تعرض إليه ، وكيف يتعرض للعدد وأئمة الهدى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحسن رضي الله عنهم أجمعين . وإنما أراد بالمثال أنه كان بين رجب والأشهر الحرم شهور ليست بحرم ، وليست لها تلك المرتبة ، كذلك بين أئمة العدل وبين عمر بن عبد العزيز خلفاء ليست لهم في العدل مرتبة ، هؤلاء المذكورين.
حكى لنا بعض الأدباء ، عن أبي الجهم ، وكان بدويا جافيا ، لمّا قدم على المتوكل
وأنشده يمدحه بقصيدته التي يقول فيها يخاطب الخليفة:
أنت كالكلب في حفاظك للودّ * وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدمناك دلوا * من كبار الدلا كثير الذنوب

فعرف المتوكل قوته ، ورقة مقصده ، وخشونة لفظه ، فعرف أنه ما رأى سوى ما شبّه به ، لعدم المخالط ، وملازمة البادية ، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة ، فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف ، يغذي الأرواح ، والجسر قريب منه ، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به . وكان يركب في أكثر الأوقات ، فيخرج إلى محلات بغداد ، فيرى حركة الناس ، ولطافة الخضر ، ويرجع إلى بيته ، فأقام ستة أشهر على ذلك ، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته ، فاستدعاه الخليفة بعد هذه المدة لينشده ، فحضر
وأنشد:
عيون المها بين الرصافة والجسر * جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
فقال المتوكل : لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة . وخرجت القصيدة عن فكري ، فإن وجدتها فسألحقها إن شاء الله في بعض مجالس هذا الكتاب.
وأنشدنا أبو حامد الخشني الليلي عن بعض أشياخه ، عن ابن مغيث ، قال :

قال علي بن الجهم من باب الرجوع إلى الله تعالى:
توكلنا على رب السماء * وسلّمنا لأسباب القضاء
ووطنا على غبر الليالي * نفوسا سامحت بعد الآباء
وأبواب الملوك محجبات * وباب الله مبذول الفناء
هذه الأبيات قالها لمّا حبسه المتوكل.

وقال أيضا في حبسه ذلك:
قالت حبست ، قلت ليس بضائري * حبسي وأي مهنّد لا يغمد
أو ما رأيت الليث بألف غيلة * كبرى وأوباش السباع تردّد
والنار في أحجارها مخبوءة * لا تصطلي ما لم تثرها الأزند
والبدر يدركه الظلام فينجلي * أيامه فكأنه متجدّد
والراعبية لا يقيم كعوبها * إلا الثقاف وجذوة تتوقد
غبر الليالي باديات عوّد * والمال عارية يفاد وينفد
لا يؤيسنك من تفرج كربة * خطب أتاك به الزمان الأنكد
فلكل حال معقب ولربما * أجلى لك المكروه عما تحمد
كم من عليل قد تخطاه الردى * فنجا ومات طبيبه والعود
صبرا فإن اليوم يعقبه غد * ويد الخليفة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنيئة * شنعاء نعم المنزل المتورد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لا تستذلك بالحجاب الأعبد
بيت يجدد للكريم كرامة * وتزار فيه ولا تزور وتقصد
يا أحمد بن أبي داود إنما * تدعى لكل كريهة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه * خوف العدو مخاوف لا تنفد
أنتم بنو عم النبي محمد * أولى بما شرع النبي محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله * كرمت مغارسكم وطاب المحتد
أمن السوية يا ابن عم محمد * خصم تقربه وآخر تبعد
إن الذين سعوا إليك بباطل * أعداء نعمتك التي لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا * فينا وليس كغائب من يشهد
لو يجمع الخصمين عندك منزل * يوما لبان لك الطريق الأقصد
والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وفي نقيض هذا ما أنشده عاصم بن محمد الكاتب لنفسه لما حبس أحمد بن عبد العزيز أبا دلف ، فقال:
قالت حبست فقلت خطب أنكد * أنحى عليّ به الزمان المرصد
لو كنت حرا كان سر بي مطلقا * ما كنت أحبس عنوة وأقيّد
لو كنت كالسيف المهند لم يكن * وقت الكريهة والشديدة يغمد

لو كنت كالليث الهصور لما رعت * فيّ الذئاب وجذوتي تتوقد
من قال إن الحبس بيت كرامة * فمكابر في قوله متجلد
ما الحبس إلا بيت كل مهانة * ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارني فيه العدو فشامت * يبدي التوجع تارة ويفنّد
أو زارني فيه العدو فشامت * يبدي التوجع تارة ويفنّد
أو زارني فيه الصديق فموجع * يذري الدموع بزفرة تتردّد
يكفيك أن الحبس بيت لا يرى * أحد عليه من الخلائق يحسد
تمضي الليالي لا أذوق لرقدة * طعما وكيف حياة من لا يرقد
في مطبق فيه النهار مشاكل * لليل والظلمات فيه سرمد
فإلى متى هذا الشقاء موكل * وإلى متى هذا البلاء مجدد
ما لي مجير غير سيّدي الذي * ما زال يقبلني ونعم السيّد
غذيت حشاشة مهجتي بنوافل * من سيبه وصنائع لا تجحد
عشرين حولا عشت تحت جناحه * عيش الملوك وحالتي تتزيد
فخلا العدو بموضعي من قلبه * فحشاه جمرا ناره لا تخمد
فاغفر لعبدك ذنبه متطولا * فالحقد منك سجية لا تعهد
واذكر خصائص خدمتي وتعاوني * أيام كنت جميع أمري تحمد

وقال بعضهم : سئل عمار بن ياسر عن الولايات ، فقال : هي حلوة الرضاع ، مرّة الفطم.
وطلبني بعض السلاطين للولاية ، وعزم عليّ فيها ، فامتنعت عليه إلى أن قال : لا أعزلك ، وعليّ العهد بذلك ، قلت : الأحوال بروق تلمع ، ولا تقم ، وهذه الحالة منك غير دائمة ، ولا سيما إذا جاء سلطان نقضها.

روي في سبب عزل الحجاج بن يوسف عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عيسى بن طلحة بن عبد الله وفد على عبد الملك بن مروان في وفد أهل المدينة ، فأثنى الوفد على الحجاج ثناء كثيرا ، وعيسى بن طلحة ساكت ، فلما انصرفوا ثبت عيسى مكانه حتى خلا له وجه عبد الملك ، فقام فجلس بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من أنا ؟
قال : عيسى بن طلحة بن عبيد الله ، قال : فمن أنت ؟
قال : عبد الملك بن مروان ، قال : أفجهلتنا أم تغيرت بعدنا ؟
قال : وما ذاك ؟ قال : ولّيت علينا الحجاج بن يوسف يسير فينا بالباطل ، ويحملنا على أن نثني عليه بغير الحق ، والله لئن أعدته علينا لنعصينك ، وإن قاتلتنا أو غلبتنا أو أسأت إلينا قطعت أرحامنا ، ولئن قوينا عليك غصبناك ملكك . فقال له عبد الملك

انصرف والزم بيتك ، ولا تذكرن من هذا شيئا . قال : وقام إلى منزله . قال : فأصبح الحجاج غاديا إلى عيسى بن طلحة ، فقال : جزاك الله خيرا عن خلوتك بأمير المؤمنين ، أبدلكم بي غيري وولّاني العراق.
أنشدنا يونس بن يحيى بمكة ، قال : قرأ عليّ محمد بن علي الطائي وأنا أسمع ، قيل له : أنشدنا ، قال : أنشدنا أبو محمد الحسن بن منصور السمعاني ، قال : أنشدنا والدي الشريف المظفّر السمعاني ، لأبي بكر بن داود السختياني:
تمسّك بحبل الله واتبع الهدى * ولا تك بدعيا لعلك تفلح
ولذ بكتاب الله والسنن التي * أتت عن رسول الله تنجو وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم * فقول رسول الله أزكى وأرجح
ولا تك من قوم تلهّوا بدينهم * فتطعن في أهل الحديث وتقدح
إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هذه * فأنت على خير تبيت وتصبح

روينا من حديث أبي نعيم ، انا الوليد ، قال : بلغنا أن رجلا ببعض بلاد خراسان قال : أتاني آت في المنام فقال : إذا قام أشجّ بني مروان فانطلق فبايعه ، فإنه إمام عدل.
فجعلت أسأل كلما قام خليفة ، حتى قام عمر بن عبد العزيز ، فأتاني ثلاث مرات في المنام ، فلما كان آخر ذلك زبرني فأوعدني ، فرحلت إليه ، فلما قدمت عليه لقيته فحدثته الحديث ، فقال : ما اسمك ؟ ومن أنت ؟ وأين منزلك ؟ قلت : بخراسان ، قال : ومن أمير المكان الذي أنت فيه ؟ ومن صديقك هناك ؟ ومن عدوّك ؟ فألطف المسألة . ثم حبسني أربعة أشهر ، فشكوت إلى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ، فقال : إنه كتب فيك ، فدعاني بعد أربعة أشهر ، فقال : إني كتبت فيك فجاءني ما أسرّ من قبل صديقك وعدوك ، فهلم فبايعني على السمع والطاعة والعدل ، فإذا تركت ذلك فليس لي عليك بيعة ، قال : فبايعته ، قال : ألك حاجة ؟ فقلت له : أنا غني في المال ، إنما أتيتك لهذا ، فودّعني وودّعته ومضيت.

وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في خلافته ، وقد صعد المنبر ، فخطب الناس ، فقال : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم.
وقال علقمة بن ليث لابنه : يا بنيّ ، إن نازعتك نفسك إلى صحبة الرجال ، إذ قد تمسّ الحاجة إليهم ، فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإن تخفضت له صانك ، وإن نزلت بك مئونة مانك ، وإن قلت صدّق قولك ، وإن صلت به شدّد صولتك ، اصحب من إذا مددت يدك إليه لفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن بدت منك ثلمة سدّها ،

اصحب من لا يأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق.
شعر
أخوك أخوك من تدنو وترجو * مودته وإن دعي استجابا

وقال الآخر:
ومولاك مولاك الذي إن دعوته * أجابك طوعا والدماء تصيب
حكي عن عكرمة ، قال : كنا جلوسا عند ابن عباس وعبد الله بن عمر ، فطار غراب يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن عباس : لا خير ولا شر.

شعر
ما فرق الأحباب بعد الله إلا الإبل * والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل * ولا إذا صاح غراب في الديار ارتحلوا
وما غراب البين إلا ناقة أو جمل
ولنا في هذا المعنى:
نعقت أغربة البين بهم * لا رعى الله غرابا نعقا
ما غراب البين إلا جمل * سار بالأحباب نصحا عنقا

رؤيا آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت حملها به وما قيل لها فيه
روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، ثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، انا حفص بن عمر بن الصباح البرقي ، ثنا يحيى بن عبد الله البابلي ، ثنا أبو بكر بن أبي مريم ، عن سعيد بن عمرو الأنصاري ، عن أبيه ، عن كعب الأحبار في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس : وكان من دلالات حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة ، وهو أمان الدنيا ، وسراج أهلها ، ولم يبق كاهنة من قريش ولا في قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبتها ، وانتزع علم الكهنة منها ، ولم يبق سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا ، والملك مخرسا لا ينطق يومه ، ومرت وحش الشرق إلى وحش الغرب بالبشارات ، وكذلك أهل البحار يبشر بعضها بعضا ،

وفي كل شهر من شهوره نداء في الأرض ونداء في السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض ميمونا مباركا.
قال : وبقي في بطن أمه تسعة أشهر كملا لا تشكو وجعا ولا ريحا ولا مغصا ، ولا ما يعرض للنساء من ذوات الحمل ، وهلك أبوه عبد الله وهو في بطن أمه ، فقالت الملائكة:
إلهنا وسيدنا ، يبقى نبيك هذا يتيما . فقال الله عز وجل للملائكة : أنا له وليّ وحافظ ونصير وتبركوا بمولده ميمونا مباركا ، وفتح الله عز وجل لمولده أبواب السماء وجنّاته . فكانت أمه تحدث عن نفسها وتقول : أتاني آت حين مرّ لي من حمله ستة أشهر ، فوكزني برجله في المنام ، وقال لي : يا آمنة ، إنك قد حملت بخير العالمين طرّا ، فإذا ولدتيه فسميه محمدا ، واكتمي شأنك .
قال : فكانت تحدث عن نفسها فتقول : لقد أخذني ما يأخذ النساء ، ولم يعلم بي أحد من القوم ذكرا ولا أنثى ، وإني لوحيدة في المنزل ، وعبد المطلب في طوافه ، قالت : فسمعت وجبة شديدة ، وأمرا عظيما ، فهالني ذلك ، وذلك يوم الاثنين ، فرأيت كأن جناح طير أبيض قد مسح على فؤادي ، فذهب عني كل رعب وكل فزع ووجع ، كنت أجد ، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء ظننتها لبنا ، وكنت عطشى ، فتناولتها ، فشربتها ، فأضاء مني نور عال ، ثم رأيت نسوة كالنخل الطوال ، كأنهن من بنات عبد مناف ، يحدقن بي ، فبينما أنا أعجب من ذلك ، وأقول : وا غوثاه ، من أين علمن بي هؤلاء ؟ واشتد بي الأمر ، وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول ، فإذا أنا بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض ، وإذا قائل يقول : خذوه عن أعين الناس.
قالت : ورأيت رجالا قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق فضة ، وأنا أرشح عرقا كالجمان ، أطيب ريحا من المسك الأذفر ، وأنا أقول : يا ليت عبد المطلب قد دخل عليّ ، وعبد المطلب ناء عني ، قالت : فرأيت قطعة من الطير قد أقبلت من حيث لا أشعر حتى غطت حجرتي ، مناقيرها من الزمرد ، وأجنحتها من الياقوت ، فكشف الله عن بصري ، فأبصرت ساعتي تلك مشارق الأرض ومغاربها ، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبة : علما في المشرق ، وعلما في المغرب ، وعلما على ظهر الكعبة ، فأخذني المخاض ، واشتد بي الأمر جدا ، فكنت كأني مستندة إلى أركان النساء ، وكثرن عليّ حتى إني لا أرى معي في البيت أحدا ، وأنا لا أرى شيئا ، فولدت محمدا صلى الله عليه وسلم . فلما خرج من بطني درت فنظرت إليه ، فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه كالمتضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء نزلت حتى غشيته ، فغيّب عن وجهي ، فسمعت مناديا ينادي ويقول : طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شرق الأرض وغربها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ،

ويعلمون أنه يسمى فيها الماحي ، لا يبقى شيء من الشرك إلا محي به في زمنه ، ثم تجلت عنه في أسرع وقت ، فإذا أنا به مدرج في ثوب صوف أبيض أشد بياضا من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، وقد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ،
وإذا قائل يقول:
قبض محمد صلى الله عليه وسلم على مفاتيح النصرة ، ومفاتيح الريح ، ومفاتيح النبوة . ثم أقبلت سحابة أخرى أعظم من الأولى ، ونور يسمع فيها صهيل الخيل ، وخفقان الأجنحة من كل مكان ، وكلام الرجال ، حتى غشيته ، فغيّب عن عيني أكثر وأطول من المدة الأولى ، فسمعت مناديا ينادي : طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الشرق والغرب ، وعلى مواليد النبيين ، وأعرضوه عن كل روحاني من الجن والإنس ، والطير والسباع ، وأعطوه صفاء آدم ، ورقّة نوح ، وخلة إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، وصبر يعقوب ، وجمال يوسف ، وصوت داود ، وصبر أيوب ، وزهد يحيى ، وكرم عيسى ، واغمروه في أخلاق النبيين.
ثم تجلت عنه في أسرع من طرفة عين ، فإذا أنا قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيا شديدا ، ينبع من تلك الحريرة ماء معين ، وإذا قائل يقول : بخخ بخخ ، قبض محمد صلى الله عليه وسلم على الدنيا كلها ، لم يبق خلق من أهلها إلا دخل في قبضته ، طائعا بإذن الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قالت آمنة : فبينما أنا أتعجب إذا أنا بثلاثة نفر ، ظننت أن الشمس تطلع من خلال وجوههم ، في يد أحدهم إبريق من فضة ، وفي ذلك الإبريق ريح المسك ، وفي يد الثاني طست من زمرد أخضر ، عليها أربع نواحي ، في كل ناحية من نواحيها لؤلؤة بيضاء ، وإذا قائل يقول : هذه الدنيا شرقها وغربها ، برها وبحرها ، فاقبض يا حبيب الله على أي ناحية شئت ،
قالت : قدرت لأنظر أين قبض من الطست ؟
فإذا هو قد قبض على وسطها ، فسمعت قائلا يقول : قبض على الكعبة ورب الكعبة ، أما إن الله تبارك وتعالى قد جعلها له قبلة ومسكنا مباركا.
قالت : ورأيت في يد الثالث حريرة بيضاء مطوية طيا شديدا ، فنشرها فأخرج منها خاتما تحار أبصار الناظرين دونه ، ثم حمل ابني فناوله صاحب الطست ، وأنا أنظر إليه فغسله بذلك الإبريق سبع مرات ، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم ختما واحدا ، ولفه في الحريرة ، واستدار عليه خيطا من المسك الأذفر ، ثم حمله فأدخله بين أجنحته ساعة . قال ابن عباس : كان ذلك رضوان خازن الجنان .
قالت : وقال في أذنه كلاما كثيرا لم أفهمه ، وقبّل بين عينيه ، ثم قال : أبشر يا محمد ، فما بقي لبني علم إلا وقد أعطيته ، فأنت أكثرهم علما ، وأشجعهم قلبا ، معك مفاتيح النصرة ، وقد ألبست الخوف والرعب ، فلا يسمع أحد بذكرك إلا وجلّ فؤاده وخاف قلبه ، وإن لم يرك يا رسول الله .
قالت : ثم رأيت رجلا قد

أقبل نحوه ، حتى وضع فاه على فيه ، فجعل يزقه كما تزق الحمام فرخها ، فكنت أنظر إلى ابني يشير بإصبعه ، يقول : زدني زدني ، فزقه ساعة ، ثم قال : أبشر يا حبيب الله ، فما بقي لبنيّ حلم إلا وقد أوتيته ، ثم احتمله فغيّبه عني ، فجزع فؤادي ، وذهل قلبي فقلت : ويح قريش ، والويل لها ، ماتت كلها ، أنا في ليلتي وفي ولادتي ، أرى ما أرى ويصنع بولدي ما يصنع ، ولا يقربني أحد من قومي ، إن هذا لهو العجب العجاب ، قالت : فبينا أنا كذلك إذا أنا به قد ردّ عليّ كالبدر ، وريحه يسطع كالمسك ، وهو يقول : خذيه ، فقد طافوا به الشرق والغرب ، وعلى مواليد النبيين أجمعين ، والساعة كان عند أبيه آدم ، فضمه إليه ، وقبّل بين عينيه ، وقال : أبشر حبيبي ، فأنت سيد الأولين والآخرين ، ومضى ، وجعل يلتفت ، ويقول : أبشر يا عزّ الدنيا ، وشرف الآخرة ، فقد استمسكت بالعروة الوثقى ، فمن قال بمقالتك ، وشهد بشهادتك ، حشر غدا يوم القيامة تحت لوائك ، وفي زمرتك ، وناولنيه ، ومضى ، ولم أره بعد تلك المرة .

زاد العباس رضي الله عنه في حديثه ، قلت : يا آمنة ، ما الذي رأيت في ولادتك من علامة هذا الصبي ؟ فقالت : رأيت علما من سندس على قضيب من ياقوت ، قد ضرب بين السماء والأرض ، ورأيت نورا ساطعا من رأسه قد بلغ السماء ، ورأيت قصور الشام كلها شعلت نارا ، ورأيت قربي سربا من القطا قد سجدت له ، ونشرت أجنحتها ، ورأيت نابغة شعيرة الأسدية ، قد مرت وهي تقول : ما لقي الأصنام والكهان من ولدك هذا ؟ هلكت شعيرة ، والويل للأصنام ، ثم الويل لها ، ورأيت شابا من أتم الناس طولا ، وأشدهم بياضا ، فأخذ المولود مني ، فتفل في فيه ، ومعه طاس من ذهب ، فشق بطنه ثم أخرج قلبه فشقه شقا ، فأخرج منه نكتة سوداء ، فرمى بها ، ثم أخرج صرة من حرير أخضر ففتحها ، فإذا فيها شيء كالدرّة البيضاء ، فحشاه به ، ثم ردّه إلى مكانه ، ثم مسح على بطنه ، فاستيقظ ، فنطق فلم أفهم ما قال ، إلا أنه قال : أنت في أمان الله ، وحفظ الله ، وكلامه ، قد حشوتك علما ، وحلما ، ويقينا ، وإيمانا ، وعقلا ، وشجاعة ، وأنت خير البشر ، فطوبى لمن اتبعك ، وآمن بك ، وعرفك ، والويل ثم الويل ، قالها سبع مرات ، لمن تخلف عنك ، وخرج منها ولم يعرفك ، ثم تفل فيه أخرى تفلة شديدة ، ثم ضرب الأرض ضربة ، فإذا هو بماء أشد بياضا من اللبن ، فغمسه في ذلك الماء ثلاث غمسات ، فما ظننت إلا أنه قد غرق ، وما من مرة يخرجه إلا رأيت ضوء وجهه كالشمس الطالعة ، ولقد رأيت بريق وجهه يقع على قصور الشام كوقوع الشمس الحديث ، ثم قال : أمرني ربي عز وجل أن أنفخ فيك بروح القدس ، فنفخ فيه ، فألبسه قميصا ، فقال : هذا أمانك من آفات الدنيا ، الحديث رواه أحمد بن أبي عبد الله ، عن محمد بن عبد الله بن جعفر ، عن محمد بن أحمد بن أبي يحيى ، عن

سعيد بن عثمان الكريزي ، عن أبي أحمد الزبيري ، عن سعيد بن مسلم مولى لبني مخزوم ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : سمعت أبي العباس يحدث ، فذكره.

لطف خفيّ من لطيف بعبد مهين ضعيف

حدثنا عبد الرحمن بن علي كتابة ، نبأ أبو بكر الصوفي ، انا علي بن أبي صادق ، انا محمد بن عبد الله الشيرازي ، قال : سمعت محمد بن فارس يقول : سمعت خير النسّاج يقول : سمعت إبراهيم الخواص . وقد رجع من شدة سفره وكان قد غاب عني سنين ، فقلت : ما الذي أصابك في سفرك ؟ فقال : عطشت عطشا شديدا حتى سقطت من شدة العطش ، فإذا أنا بماء قد رشّ على وجهي ، فلما أحسست ببرده فتحت عيني ، فإذا رجل حسن الوجه ، والذي عليه ثياب خضر ، على فرس أشهب ، فسقاني حتى رويت ، ثم قال:

ارتدف خلفي ، وكنت بالحاجر ، فلما كان بعد ساعة ، قال : أيش ترى ؟ قلت : المدينة ، قال : انزل واقرأ على رسول الله مني السلام ، وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ، وقال : أخوك الخضر يسلم عليك.

وفي رواية : قال له : رضوان يقرأ عليك السلام كثيرا.

نعت معشوق

حدثنا يونس بن يحيى العباسي ، انا ابن ناصر السلامي ، عن أبي طاهر بن أبي الصقر ، ثنا مكي ، انا طاهر بن أحمد ، أنا أبو محمد بن زيد ، ثنا العباس بن محمد ، ثنا الأصمعي ، عن أبي الهذلي ، عن رجال من قومه ، أن أصيلا الهذلي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقال له : « يا أصيل ، كيف تركت مكة ؟ » ، قال : يا رسول الله ، تركتها قد ابيضّت بطحاؤها ، واخضرّت مسلاتها ، وأمشر سلمها ، وأحجن ثمامها ، وأغدق أدخرها ، فقال:

»يا أصيل ، دع القلوب تقرّ ، لا تشوّقها إلى مكة. «

المسلان : الشعاب . والمشار : ثمر السلم ، وهو ثمر أحمر . والإغداق : اجتماع أصول الشجر . والإحجان : انعقافه ومنه سمي الحجون.

شعر في الوطن

ما من غريب وإن أبدى تجلّده * إلا تذكر بعد الغربة الوطنا

ولا يزال حمام باللوا غرد * يهيج مني فؤادا طال ما سكنا
وأنشد محمد بن مالكون لبعضهم في ذلك:
إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي * وأضحى فؤادي نهبة للهماهم
حنينا إلى أرض بها اخضرّ شاربي * وحلت بها عني عقود التمائم

وأنشد ابن سكرة لبعضهم في ذلك:
يقرّ بعيني أن أرى في مكانه * ذرى عطفات الأجرع المتقاود
وإن أرد الماء الذي عن شماله * طروقا وقد مل السرى كل واحد
وألصق أحشائي ببرد ترابه * وإن كان ممزوجا بسم الأساود
خبر عبد الله بن الثامر والأخدود من حديث ابن إسحاق

حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : كان أهل نجران أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ، فإن نجران هي القرية العظمى ، يأتي إليها جماعة أهل تلك البلاد ساحر ، يعلّم غلمان أهل نجران السحر ،
فلما نزلها ميمون قالوا : رجل ابتنى خيمة بين نجران وبين ملك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلّمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن ثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحّد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيهم جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلّمه ، فكتمه إياه ،
وقال له : يا ابن أخي ، إنك إن تحمله أخشى ضعفك عنه ، والثامر أبو عبد الله يظن أن ابنه يختلف إلى الساحر كما تختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضنّ به عليه ، وتخوّف ضعفه عنه ، عمد إلى قداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسما يعلمه إلا كتبه على قدح ، لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا ، فجعل يقذفها فيها قدحا قدحا ، حتى إذا مرّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضرّه شيء ، فأخذه ثم أتى صاحبه ، فأخبره أنه قد علم الاسم الذي كتمه ، فقال : وما هو ؟
قال : هو كذا وكذا ، قال : وكيف علمته ؟
فأخبره بما صنع ، قال : أي ابن أخي ، قد أصبته ، فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل ،
فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يبق أحد به ضرر إلا قال له عبد الله : أتوحّد الله ، وتدخل في ديني ، وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟
فيقول : نعم ، فيوحّد الله ويسلم ، ويدعو له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به

ضرر إلا أتاه ، فأتبعه على أمره ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه ، فقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك ، قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه ، فيقع على الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه ، قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله ، فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلّطت عليّ فقتلتني .
قال : فوحّد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه . فاجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم عليه الصلاة السلام من الإنجيل وحكمه ، فسار إليهم ذو نواس ذرعة بن شنار بجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك والقتل ، فاختاروا القتل ، فخذلهم ، فحرق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثّل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا ، وفيه نزل قوله تعالى : قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ .
والأخدود : الحفر الطويل في الأرض كالخندق ، والجمع أخاديد.

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد عمرو بن حزام ، أنه حدّث أن رجلا من أهل نجران في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حفر خربة من خرد نجران لبعض حاجة ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت الحفيرة التي دفن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة في رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخّرت يده عنها تنبعث دماء ، وإذا أرسلت يده ردّها عليها فأمسكت دمها ، في يده خاتم مكتوب فيه : ربي الله . فكتب به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بأمره ، فكتب إليهم : إن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه ، ففعلوا.

وممن قتله القرآن

ما حدثنا به عبد الرحمن بن علي كتابة ، عن عمر بن ظفر ، عن جعفر بن أحمد ، عن عبد العزيز بن علي ، عن علي بن عبد الله ، عن محمد بن داود ، عن أبي زكريا الشيرازي ، قال : تهت في بادية العراق أياما كثيرة لم أجد شيئا أرتفق به ، فلما كان بعد أيام رأيت في الفلاة خباء شعر مضروبا ، فقصدته ، فإذا ببيت وعليه شيء مسبل ، فسلّمت ، فردّت عليّ عجوز من داخل الخباء ، فقالت : يا إنسان ، من أين أقبلت ؟ قلت : من مكة ، قالت : وأين تريد ؟ قلت : الشام ، قالت : أرى شبحك شبح إنسان بطّال ، ألا لزمت زاوية تجلس فيها إلى

أن يأتيك اليقين ؟ ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها ؟ ثم قالت : تقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ، قالت : اقرأ عليّ آخر سورة الفرقان ، فقرأتها ، فشهقت وأغمي عليها ، فلما أفاقت قرأت هي الآيات ، فأخذت مني قراءتها أخذا شديدا . ثم قالت : يا إنسان ، اقرأها عليّ ثانيا ، فقرأتها ، فلحقها مثل ذلك ، غير أنها لم تفق ، فقلت : كيف أستكشف حالها ؟ ماتت أم لا ؟
فتركت البيت على حاله ومشيت أقل من نصف ميل ، فأشرفت على واد فيه أعراب ، فأقبل إليّ غلامان معهما جارية ، فقال أحد الغلامين : يا إنسان ، أتيت البيت في الفلاة ؟ قلت:
نعم ، قال : وتقرأ القرآن ؟
قلت : نعم ، قال : قتل العجوز وربّ الكعبة ، فرجعت معهم حتى أتينا البيت ، فدخلت الجارية ، فكشفت عنها الحجاب فإذا هي ميتة ، فأعجبني خاطر الغلام ، فقلت للجارية : من هذان الغلامان ؟ فقالت : هذه أختهما ، منذ ثلاثين سنة ما تأنس بكلام الناس ، تأكل في كل ثلاثة أيام أكلة وشربة.

ومن باب البكاء عند رؤية القبر
ما حدثنا به حنبل بن أبي الحصين ، عن ابن المذهب ، عن أبي بكر بن مالك ، عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه ، عن أبي عبد الرحمن المقري ، عن عبد الله بن واقد ، عن محمد بن مالك ، عن البراء بن عازب ، قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بصر بجماعة ، فقال : « علام اجتمع هؤلاء ؟ » ، قيل : على قبر يحفرونه ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه ، قال : فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يفعل ، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا فقال : « يا إخواني ، لمثل هذا فاغدوا. «

شعر
أيها المغرور في الد * نيا بعزّ تقتنيه
وبأهل وبمال * وبقصر تبتنيه
كم سحبناكم عليها * ذيل سلطان وتيه
تحسب الأفلاك تجري * بخلود ترتجيه
إذا طوانا الدهر طيّا * فاعتبر ما نحن فيه
روينا من حديث الهاشمي بسنده إلى ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ، إن الرزق مقسوم لن يعدو امرؤ ما كتب له ، فأجملوا في الطلب . وإن العمر محدود لن يجاوز أحد ما قدر له ، فبادروا قبل نفاد الأجل . والأعمال محصاة لن يهمل منها صغيرة

ولا كبيرة ، فأكثروا من صالح العمل . أيها الناس ، إن في القناعة لسعة ، وإن في الاقتصاد لبلغة ، وإن في الزهد لراحة ، ولكل عمل جزاء ، ولكل أجل كتاب ، وكل آت قريب. «
رؤيا المنصور أمير المؤمنين التي كانت سببا لبعض حججه التي أحرم بها من بغداد
حدثنا يونس بن يحيى ، عن ابن أبي منصور ، عن المبارك بن عبد الجبار ، عن أبي بكر ، عن ابن المنكدر الصلت ، عن أبي بكر بن الأنباري ، عن محمد بن أحمد المقدمي ، عن أبي محمد التميمي ، عن منصور بن أبي مزاحم ، عن ابن سهل الحاسب ، عن طيفور قال : كان سبب إحرام المنصور من بغداد أنه نام ليلة فانتبه مرعوبا ، ثم عاود النوم فانتبه كذلك فزعا مرعوبا ، ثم راجع النوم فانتبه كذلك ، فقال : يا ربيع ، قال الربيع : قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : لقد رأيت في منامي عجبا.
قال : ما رأيت جعلني الله فداءك ؟ قال : رأيت كأن آتيا أتاني فهينم بشيء لم أفهمه ، فانتبهت فزعا ، ثم عاودت النوم فعاودني يقول ذلك الشيء ، ثم عاودني بقوله حتى فهمته وحفظته وهو:
كأني بهذا القصر قد باد أهله * وعرّي منه أهله ومنازله
وصار رئيس القوم من بعد بهجة * إلى جدث تبنى عليه جنادله
وما أحسبني يا ربيع إلا وقد حانت وفاتي ، وحضر أجلي ، وما لي غير ربي ، قم فاجعل لي غسلا . ففعلت ، فقام فاغتسل وصلى ركعتين . وقال : أنا عازم على الحج فهيّئ لي آلة الحج ، فخرج وخرجنا حتى إذا انتهى إلى الكوفة ونزل النجف فأقام أياما ، ثم أمر بالرحيل ، فتقدمت نوّابه وجنوده وبقيت أنا بوّابه ، وهو بالقصر ، فقال لي : يا ربيع ، جئني بفحمة من المطبخ ، وقال لي : اخرج فكن مع دابتي إلى أن أخرج ، فلما خرج وركب رجعت إلى المكان كأني أطلب شيئا ، فوجدته قد كتب على الحائط بالفحمة:
المرء يهوى أن يعي * ش وطول عيش قد يضرّه
تفنى بشاشته ويبقى * بعد حلو العيش مرّة
وتصرف الأيام حتى * ما يرى شيئا يسرّه
كم شامت بي إن هلك * ت وقائل لله درّه
للسهيس أنشدني عمي رحمه الله:

زمان يمر وعيش يمر * ودهر يكر بما لا يسر
ونفس تذوب وهم ينوب * ودنيا تنادي بأن ليس حر

ومن وقائع بعض الفقراء ما حدثنا به عبد الله المروزي قال : قال لي بعض الصالحين : رأيت في واقعتي أبا مدين ، وأبا حامد ، وجماعة من الصوفية ، فقالوا لأبي مدين : قل لنا في التوحيد شيئا ، فقال أبو مدين : التوحيد همة المرسلين والنبيين ، وهو سر الخلفاء الصديقين ، وقطب الورثة من العارفين ، به حنّت أسرارهم إلى الحضرة الإلهية ، وبه انكشفت لهم الأمور الربانية ، فأمدهم بالحياة والقيومية ، وأظهر لهم أسرارا لا تكاد تطيقها الأرواح البشرية ، منها السر القائم بالوجود الذي منه بدأ وإليه يعود ، ووراء ذلك أسرار لا ينبغي بثّها ، ولا يليق بالعارف كشفها ، إذ هي أسرار إذا طالعها اضمحلت رسومه ، وتلاشت أفكاره وعلومه ، وفني ما هو محصور مقيد ، وبقي الواحد الفرد الصمد فالعارف المحقق الذي يسير بسيره ، ولم يكن له في قلبه متسع لغيره ، هو قلبه وحياته ، وبه حسنت أخلاقه وصفاته ، فكثيفه ظاهر لكل كثيف ، ولطيفه يلاحظ أسرار اللطيف ، فتوحيد العارفين محض التحقيق ، والقصد القصد بلا تخليق ، ففي التخليق فناء العمر ، وفي القصد الوصول والظفر . فالعارف مقيم بين الخلق بجسمه ، ومسافر إلى جمال الحضرة العلية بسرة ، فثمرة هذا التوحيد مناله بالسفر فيه تشرفوا وتنعموا ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : « سافروا تصحوا وتغنموا » ، فغنيمة العارف تظهر عليه بالصفات والنعوت ، إن اختبرته وجدته بالله قائل ، وإن تحققته ألفيته مع سيده كالميت بين يدي الغاسل.

وروينا من حديث الهاشمي ، بلغ به النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم وفضول المطعم ، فإن فضول المطعم يسم القلب بالقسوة ، ويبطئ بالجوارح عن الطاعة ، ويصم الهمم عن سماع الموعظة . وإياكم وفضول النظر ، فإنه يبذر الهوى ، ويولد الغفلة ، وإياكم واستشعار الطمع ، فإنه يشرب القلب شدة الحرص ، ويختم على القلب بطابع حب الدنيا ، فهو مفتاح كل سيئة ، وسبب إحباط كل حسنة. «

وأنشدني محمد بن عبد الواحد لبعضهم:
وأحيائي من عليم * ليس يخفى عنه حالي
منطقي يبدي جميلا * والبلايا في فعالي
ليت شعري ما اعتذاري * يوم أدعى للسؤال
كيف قولي وجوابي * كيف فعلي واحتيالي
ليتني لم أك شيئا * قبل تحقيق السؤال

ومن حسن التلطف في المكاتبة
ما ذكره إسماعيل بن أبي شاكر قال : لما أصاب أهل مكة السيل الذي شارق الحجر ، ومات تحته خلق كثير ، كتب عبد الله بن الحسن العلوي ، وهو والي الحرمين ، إلى المأمون : يا أمير المؤمنين ، إن أهل حرم الله ، وجيران بيته ، وآلاف مسجده ، وعمرة بلاده ، قد استجاروا بعزّ معروفك من سيل تراكمت جريانه في هدم البنيان ، وقتل الرجال والنسوان ، واجتاح الأصول ، وجرف الأثقال حتى ما ترك طارفا ولا تالدا للراجع إليها في مطعم ولا ملبس ، فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الأمهات والأولاد ، والآباء والأجداد ، فأجرهم أمير المؤمنين بعطفك عليهم ، وإحسانك إليهم ، تجد الله مكافئك عنهم ، ومثيبك عن الشكر منهم.
قال : فوجّه المأمون إليهم بالأموال الكثيرة ، وكتب إلى عبد الله : أما بعد ، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته وأنجدهم بسيب نعمته ، وهو متّبع لما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم ، عاجلا وآجلا ، أن أذن الله في تثبيت نيته على عزمه.
قال : فكان كتابه هذا أسرّ لأهل مكة من الأموال التي أنفذها إليهم.

ومن حسن الجواب
ما حكي أن أمير المؤمنين وقف على امرأة من بني ثعل ، فقال لها : ممن العجوز ؟
قالت : من طي.
قال : ما منع طيّا أن يكون فيها مثل حاتم ؟ قالت : الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك ، فأعجب بقولها ووصلها.

وقال معاوية حين أتاه سعيد بن مرّة الكندي : أنت سعيد ؟ فقال : أمير المؤمنين أسعد ، وأنا ابن مرّة . وقال الحجاج للمهلب : أنا أطول أم أنت ؟ قال : الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة منه.
وقيل للعباس بن عبد المطلب : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو عليه السلام أكبر مني ، وأنا ولدت قبله.
قيل : دخل سيد ابن أنس على المأمون ، فقال له المأمون : أنت السيد ؟ قال : أنت السيد يا أمير المؤمنين ، وأنا ابن أنس

حكم

رب قول أشدّ من صول . لكل ساقطة لاقطة . لكل داهية ناهية . لكل قاصمة عاصمة . مقتل الرجل بين فكيه يعني لسانه.

وقال المهلب : اتقوا زلة اللسان ، فإني وجدت الرجل يعثر قدمه فيقوم من عثرته ، ويزلّ لسانه فيكون فيه هلاكه.

وقال يونس بن عبيد : ليست خلة من خلال الخير تكون في الرجل هي أحرى أن تكون جامعة لأنواع الخير كلها من حفظ اللسان.

ومن قولهم في الكتمان : كان أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور يقول : الملوك تحتمل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثة : إفشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح في الملك.

وقال بعض الحكماء : سرّك من دمك ، فانظر من يملكه.

وفي الحكمة القديمة : سرّك لا يطلع عليه غيرك.

وقيل لأبي مسلم : بأي شيء أدركت هذا الأمر ؟ قال : ارتديت الكتمان ، واتّزرت بالحزم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت طلبتي ، وحزت بغيتي.

وأنشد في ذلك:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم * والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولّى رعيها الأسد

روينا من حديث البغوي ، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الظاهري ، انا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزّار ، أنا أبو بكر بن محمد بن زكريا الغدافري ، أنبأ إسحاق بن إبراهيم ، ثنا عبد الرزاق ، انا معمر ، عن قتادة ، عن نصر بن عاصم الليثي ، عن خالد بن خالد اليشكري ، قال : خرجت زمن فتحت تستر حتى قدمت الكوفة ، فدخلت المسجد ، فإذا أنا بحلقة فيها رجل صدع من الرجال ، حسن الثغر ، يعرف فيه أنه رجل من أهل الحجاز قال : فقلت : من الرجل ؟ فقال القوم : أو ما تعرف ؟

قلت : لا ، قالوا : هذا حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقعدت ، وحدث القوم . فقال : إن الناس كانوا يجيئون فيسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، فأنكر ذلك القوم عليه ،

فقال لهم : إني سأخبركم بما أنكرتم من ذلك : جاء الإسلام حين جاء ، فجاء أمرا ليس كأمر الجاهلية ، وكنت قد أعطيت فهما في القرآن ، وكان رجال يسألون عن الخير ، فكنت أسأله عن الشرّ ، قلت : يا رسول الله ، أيكون بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر ؟ قال:
»نعم » ، قلت : فما العصمة يا رسول الله ؟ قال : « السيف » ، قلت : وهل بعد السيف بقية ؟ قال : « نعم ، يكون جماعة على أقذاء وهدنة على دخن » ، قال : قلت : ثم ما ذا ؟ قال : « ثم ينشأ دعاة الضلالة ، فإن كان لله في الأرض خليفة جلد ظهرك ، وأخذ مالك ، فالزمه ، وإلا قمت وأنت عاص على جذل شجرة » ، قال : قلت : ثم ما ذا ؟ قال : « ثم يخرج الدجال بعد ذلك ومعه نهر ونار ، فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره ، ومن وقع في نهره وجب وزره وحبط أجره » . قال : ثم قلت : ثم ما ذا ؟ قال : « ثم ينتج المهر فلا يركب حتى تقوم الساعة » . قال البغوي : الصدع من الرجال مفتوحة الدال : الشاب المعتدل . ويقال:
الصدع : الربعة في خلقة رجل بين الرجلين . وقوله : فما العصمة ؟ قال : « السيف » . قال قتادة : يضعه على أهل الردة كانت في زمن الصديق رضي الله عنه . وقوله : « هدنة على دخن » : صلح على بقايا من الضغن .
وقوله : « على أقذاء » : يكون اجتماعهم على فساد من القلوب ، شبّهه بأقذاء العين.

ومن أشراط الساعة
ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشراط الساعة فقال : « إذا رأيت الناس قد ضيّعوا الحق ، وأماتوا الصلاة ، وأكثروا القذف ، واستحلّوا الكذب ، وأخذوا الرشوة ، وشيّدوا البنيان ، وعظّموا أرباب الأموال ، واستعملوا السفهاء ، واستحلّوا الدماء ، فصار الجاهل عندهم ظريفا ، والعالم ضعيفا ، والظلم فخرا ، والمساجد طرقا ، وتكثر الشرط ، وحليت المصاحف ، وطوّلت المنارات ، وخربت القلوب من الدين ، وشربت الخمور ، وكثر الطلاق ، وموت الفجأة ، وفشا الفجور ، وقول البهتان ، وحلفوا بغير الله ، وائتمن الخائن ، وخان الأمين ، ولبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب ، فعندها قيام الساعة. «
وروى حذيفة بن اليمان قال:
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقا بأستار الكعبة ، وعيناه تذرفان بالدموع ، فقلت : ما يبكيك لا أبكى الله لك عينا ؟ قال : « يا حذيفة ، ذهبت الدنيا ، أو كأنك بالدنيا لم تكن » ، قلت : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، فهل من علامة يستدل بها على ذلك ؟ قال : « نعم يا

حذيفة ، احفظ بقلبك ، وانظر بعينيك ، واعقد بيديك ، إذا ضيّعت أمتي الصلاة ، واتّبعت الشهوات ، وكثرت الخيانات ، وقلّت الأمانات ، وشربوا القهوات ، وأظلم الهوى ، وغار الماء ، وأغبرت الأفق ، وخيفت الطريق ، وتشاتم الناس وفسدوا ، وفجرت الباعة ، ورفضت القناعة ، وساءت الظنون ، وتلاشت السنون ، وكثرت الأشجار ، وقلّت الثمار ، وغلت الأسعار ، وكثرت الرياح ، وتبينت الأشراط ، وظهر اللواط ، واستحسنوا الخلف ، وضاقت المكاسب ، وقلّت المطالب ، واستمروا بالهوى ، وتفاكهوا بينهم بشتيمة الآباء والأمهات ، وأكل الرّبا ، وفشا الزنا ، وقلّ الرضا ، واستعملوا السفهاء ، وكثرت الخيانة ، وقلّت الأمانة ، وزكى كل امرئ نفسه وعمله ، واشتهر كل جاهل بجهله ، وزخرفت جدران الدور ، ورفع بناء القصور ، وصار الباطل حقا ، والكذب صدقا ، والصحة عجزا ، واللؤم عقلا ، والضلالة هدى ، والبيان عمى ، والصمت بلاهة ، والعلم جهالة ، وكثرت الآيات ، وتتابعت العلامات ، وتراجموا بالظنون ، ودارت على الناس رحى المنون ، وعميت القلوب وغلب المنكر المعروف ، وذهب التواصل ، وكثرت التجارات ، واستحسنوا البطالات ، وتهادوا أنفسهم بالشهوات ، وتهاونوا بالمعضلات ، وركبوا جلود النمور ، وأكلوا المأثور ، ولبسوا الحبور ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، وذهبت الرحمة من القلوب ، وعمّ الفساد ، واتخذوا كتاب الله لعبا ، ومال الله دولا ، واستحلوا الخمر بالنبيذ ، والنّجش بالزكاة ، والرّبا بالبيع ، والحكم بالرشا ، وتكافأ الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وصارت المباهاة في المعصية ، والكبر في القلوب ، والجور في السلاطين ، والسفاهة في سائر الناس ، فعند ذلك لا يسلم إلى ذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق ، ومن واد إلى واد ، وذهب الإسلام حتى لا يبقى إلا اسمه ، واندرس القرآن من القلوب حتى لا يبقى إلا رسمه ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيّهم ، لا يعلمون بما فيه من وعد ربهم ووعيده وتحذيره وتنذيره وناسخه ومنسوخه ، فعند ذلك تكون مساجدهم عامرة ، وقلوبهم خاربة من الإيمان ، علماؤهم شر خلق الله على وجه الأرض ، منهم بدت الفتنة وإليهم تعود ، ويذهب الخير وأهله ، ويبقى الشر وأهله ، ويصير الناس بحيث لا يعبأ الله بشيء من أعمالهم ، قد حبب إليهم الدينار والدرهم ، حتى أن الغني ليحدّث نفسه بالفقر. «
ثم ذكر حديث خراب الأرض في باقي الحديث ، وقد ذكرناه في هذا الكتاب.

رؤيا سهل بن عبد الله التستري

حدثنا محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بمدينة فاس ، قال : رويت فيما رويت أن

سهل بن عبد الله قال : نمت ليلة النصف من شعبان عندما غلب عليّ السهر ، فرأيت جبريل عليه السلام والناس يعرضون عليه ، فقدم إليه رجل ، فقال للملائكة الموكلين : كيف وجدتم هذا العبد ؟ قالوا : عبد سوء أنعم عليه فما شكر ، وابتلي فما صبر ، وعوهد فخان وغدر ، وأمر فما أطاع ولا امتثل ، وسوّف نفسه بعسى ولعلّ ، يتبرم لقضاء المولى ، ويتحكم فيما يهوى ، ويقول : هذا أحق وهذا أولى . قل محمد بن قاسم : لما انتهى عمر بن عبد المجيد حين حدّثني بهذا الحديث إلى قوله : وهذا أولى ، بكى وقال : فهذه صفتي التي عرفتها ، وحالتي التي ألفتها ثم أنشد فلا أدري أمن قبله أم متمثلا:

ساعدوني في بكائي * واسمعوا وصفي لحالي
كل ذنب هو عندي * وهو ذخري وهو مالي
وأنا عن قبح هذا * في غرور واشتغال
هل لمثلي من عزاء * ضاق بي وجه احتيالي

ثم رجع إلى الحديث قال : قال سهل : فأمر جبريل عليه السلام ملكا ، فأخذ بيديه ، ونادى بين الملائكة الموكلين به عليه : هذا عبد خلع ربقة العبودية من أعماله ، فخلّوا بينه وبين أشكاله . قال سهل : ثم قدم إليه رجل آخر ، فقال للملائكة الموكلين به : كيف وجدتم هذا العبد ؟ قالوا : هذا عبد صالح شكر الله على النّعما ، وصبر على البلوى ، وامتثل أمر المولى ، وجانب الخيانة والجفا ، واتّبع سنّة المصطفى ، ثم أمر ملكا فأخذ بيديه ، ونادى بين الملائكة عليه : هذا عبد لزم آداب العبودية فاعرفوه ، فإن نزل به أمر فلا تخذلوه.

ومن باب قول الله عز وجل : وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

قالت العلماء : إذا استخار الرجل ربه ، واستشار نصيحه واجتهد ، فقد قضى ما عليه ، ويقضي الله في أمره ما يحبّ . وإياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن . وقال بعضهم : حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة.

حكمة

إذا قدرت فاصفح ، وإذا استشرت فانصح ، النصيحة في الملا تقريع ، يقال : من وعظ أخاه شرا زانه ، ومن وعظه جهارا شانه.

قال بعض الحكماء : نصف عقلك مع أخيك فاستشره ، فإن الاعتصام بالمشورة ، لأنها تقيم اعوجاج الرأي ، وقلّ من هلك إلا برأيه ، ولا يغرّنك قول من قال : لو لم يكن في

ترك المشورة إلا استضعاف صاحبك ، وظهور فقرك إليه ، لوجب اطراح ما يفيده من المشورة ، وإلقاء ما يكسبه الامتنان.
وقال بعضهم : أمر الحجاج بحضور الشعبيّ ، فجاءه ابن الأشعث قادما ، فلقيه كاتب الحجاج أبو مسلم ، فقال له الشعبيّ : أشر عليّ يا أبا مسلم فأنت أعلم بما هناك ، فقال أبو مسلم : لا أدري بم أشير ، ولكن اعتذر بما قدرت عليه . قال الشعبي : وأشار عليّ بذلك كل من استشرته من أهل ودّي . قال الشعبي : فلما دخلت على الحجاج اعتمدت على ربي الذي بيده تقليب قلوب الملوك ، وعزمت على مخالفة مشورة أصحابي ورأيت والله غير الذي قالوا ، وهان عليّ الأمر ، فسلّمت عليه بالأمارة إعطاء لحق المرتبة ، ثم قلت : أصلح الله الأمير ، إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق ، ولك والله أن لا أقول في مقامي هذا إلا الحق : قد جهدنا وحرصنا ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا ، وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا ، وإن عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فقال الحجاج : أنت والله أحب إلينا قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ، ويقول : والله ما فعلت ولا شهدت ، أنت آمن يا شعبي .
قال الشعبي : فقلت:
أيها الأمير ، اكتحلت والله بعدك السهر ، واستحليت الخوف ، وقطعت صالح الإخوان ، ولم أجد من الأمير خلفا ، قال : صدقت وانصرفت ، فنعم المستشار العلم ، ونعم الوزير العقل.
وقال بعض الأعزّاء من العقلاء : ما استشرت أحدا إلا كنت عند نفسي ضعيفا ، وكان عندي قويا ، وتصاغرت له ، ودخلته الغيرة ، فإياك والمشورة وإن ضاقت بك المذاهب ، واختلفت عليك المسالك ، وأداك الاستبهام إلى الخطأ الفادح ، فإن صاحبها أبدا جليل في العيون ، مهيب في الصدور ، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوي العقول ، فإذا افتقرت إليها حقرتك العيون ، ورجفت بك أركانك ، وتضعضع بنيانك ، وفسد تدبيرك ، واستحقرك الصغير ، واستخف بك الكبير ، وعرفت بالحاجة إليهم . انتهى.

ولاية خزاعة الكعبة بعد جرهم

روينا من حديث أبي الوليد ، عن جده ، عن سعيد بن سالم ، عن عثمان بن ساج ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، قال : لما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أمورا عظاما ، ونالوا ما لم يكونوا ينالون ، واستخفوا بحرمة الحرم وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها سرا وعلانية ، وكلما عدا سفيه منهم على منكر وجد من أشرافهم من يمنعه ويدفع عنه ، وظلموا من دخلها من غير أهلها ، حتى دخل رجل منهم بامرأة الكعبة ، فيقال فجر بها أو

قبّلها ، فمسخا حجرين ، فرق أمرهم فيها وضعفوا ، وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا ، وكانوا قبل ذلك من أعزّ حيّ في العرب ، وأكثره رجالا وأموالا وسلاحا ، وأعزه غرة.
فلما رأى ذلك رجل منهم يقال له مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو ، قام فيهم خطيبا فوعظهم وقال : يا قوم ، اتقوا على أنفسكم ، وراقبوا الله في حرمه وأمنه ، فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمم قبلكم ، قوم هود وصالح وشعيب ، فلا تفعلوا ، وتواصلوا ، وتواصوا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، ولا تستخفّوا بحرم الله تعالى وبيته ، ولا يغرّنكم ما أنتم فيه من الأمن . وبالغ في وعظهم ، فما ازدادوا إلا طغيانا وتجبّرا ، فلما رأى ذلك مضاض منهم ، عمد إلى غزالين كانا في الكعبة من ذهب ، وأسياف ، فدفنها في موضع زمزم ، وكان زمزم إذ ذاك قد ذهب ماؤه ودرس ، فبينما هم كذلك إذ كان من أهل مأرب ما ذكر أنه ألقت طريفة الكاهنة إلى عمرو بن عامر ، وهو الذي يقال له مرتقب ابن ماء السماء ، وهو عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث ابن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن ساس بن يعرب بن قحطان ، وكانت رأت في كهانتها أن سدّ مأرب سيخرب ، وأنه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنتين.

وقال فيما حدثه أبو زيد الأنصاري أن عمرا رأى جردا يحفر في سدّ مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء ، فعلم أنه لا بقاء للسدّ على ذلك ، فباع أمواله ، وسار هو وقومه من بلد إلى بلد ، لا يطول بلدا إلا غلبوا عليه ، وقهروا أهله حتى يخرجوا منه ، فلما قاربوا مكة ساروا ومعهم طريفة الكاهنة.
فقالت لهم : سيروا ، سيروا ، فلن تجتمعوا أنتم ومن خلفتم أبدا ، فهم لكل أصل ، وأنتم لهم فرع ، ثم قالت الكاهنة : وحق ما أقول ما علمني ما أقول إلا الحكيم المحكم رب جميع الإنس من عرب وعجم.

قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير الشذقم فخضبوه بالدم ، تسكنوا أرض جرهم جيران بيته المحرم . قال : فلما انتهوا إلى مكة ، وأهلها جرهم قد قهروا الناس ، وحازوا ولاية البيت على بني إسماعيل وغيرهم ، أرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر : يا قوم ، إنّا قد خرجنا من بلادنا ، فلم ننزل بلدا إلا فسح أهلها لنا ، وتزحزحوا عنّا ، فنقيم معهم حتى نرسل روّادنا فيرتادون لنا بلدا يحملنا ، فأفسحوا لنا في بلادكم حتى نقيم بقدر ما نستريح ، ونرسل روّادنا إلى الشام وإلى الشرق ، فحيث ما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيرا.
فأبت جرهم ذلك ، وبعثوا إليهم أن ارحلوا عنّا ، فأرسل إليهم ثعلبة أنه لا بدّ لي من المقام في هذا البلد حولا ، حتى ترجع إليّ رسلي ، فإن تركتموني طوعا نزلت وحمدتكم ،

وواسيتكم في الرعي والماء ، وإن أبيتم أقمت على كرهكم ، ثم لم ترتعوا معي إلا فضلا ، ولم تشربوا معي إلا زيفا ، وإن قاتلتموني قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سبيت النساء ، وقتلت الرجال ، ولم أترك منكم أحدا ينزل للحرم أبدا . فأبت جرهم أن يتركوه طوعا فاقتتلوا ثلاثة أيام ، وأفزع عليهم الصبر ، ومنعوا النصر ، ثم انهزمت جرهم ، فلم يلتفت منهم إلا الشريد ، وكان مضاض بن عمرو بن الحارث قد اعتزل جرهم ، ولم يعنهم في ذلك وقال : قد كنت أحذركم هذا . ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا فنونا وحلى وما حول ذلك ، فبقايا جرهم بها إلى اليوم وأفنى جرهما السيف في تلك الحرب ، فأقام ثعلبة بمكة وما حولها في قومه وعساكره حولا ، فأصابتهم الحمى فشكوا إلى طريفة ما أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون ، وهو مفرّق ما بيننا .
قالوا : فما ذا تأمرين ؟
قالت: فيكم ومنكم الأمير ، وعلى التيسير .
قالوا : فما تقولين ؟ قالت : فمن كان منكم ذا همّ بعيد ، وحمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد ، فكانت أزد عمان . ثم قالت:
من كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على أن يأتي الدهر ، فعليه بالإدراك من بطن مرة ، فكانت خزاعة . ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطعمات في المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج.

ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأمير ، ويلبس الديباج والحرير ، فليلحق ببصرى وغوير ، وهما من أرض الشام ، فكان الذي سكنوها جفنة من غسان.
ثم قالت : من كان منكم يريد البنات الرقاق ، والخيل العتاق ، وكنوز الأوراق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق . فكان الذي سكنها آل جذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة من غسان ، وآل مخرق ، حتى جاءهم روّادهم ، فافترقوا من مكة فرقتين : فرقة توجهت إلى عمان وهم أزد عمان ، وسار ثعلبة بن عمرو بن عامر نحو الشام ، فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وهم الأنصار بالمدينة ، ومضت غسان فنزلوا الشام ، وانخزعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحيّ ، فولي أمر مكة وحجابة الكعبة ، فلما حازت خزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها ، جاءهم بنو إسماعيل ، وقد كانوا اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة ، فلم يدخلوا في ذلك ، فسألوهم السكنى معهم وحولهم ، فأذنوا لهم ، فلما رأى ذلك مضاض بن عمرو بن الحارث ، وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة ما أحزنه ، أرسل إلى خزاعة يستأذنها في الدخول إليهم والنزول معهم بمكة في جوارهم ، وبث إليهم براءته وتوزيعه قومه عن القتال ، وسوء السيرة في الحرم ،

واعتزاله الحرب ، فأبت خزاعة أن يقرّوهم ، ونفتهم عن الحرم كله . وقال عمرو بن لحيّ وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه : من وجد منكم جرهميا قد قارب الحرم فدمه هدر . ففزعت إبل مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي من فنونا تريد مكة ، فخرج في طلبها حتى وجد أثرها قد دخلت مكة ، فمضى إلى الجبال من نحو جياد حتى ظهر على أبي قبيس يتبصر الإبل في بطن وادي مكة ، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل لا سبيل له إليها ، فخاف إن هبط الوادي أن يقتل فولى منصرفا لأهله ،

وأنشأ يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطا فجنوبه * إلى المنحنى من ذي الإزالة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا * صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربي بها دار غربة * بها الذئب يعوي والعدو المحاصر
فإن تنثني الدنيا علينا بحالها * فإن لها حالا وفيها التشاجر
فإن تمل الدنيا علينا بكلّها * سيصلح حال بعدنا وتشاجر
ونحن ولّينا البيت من بعد ثابت * نطوف بذاك البيت والخير حاضر
ملكنا فعزّزنا وأعظم بملكنا * فليس لحيّ غيرنا ثم فاخر
فكنا ولاة البيت من بعد ثابت * بعزّ فما يخطى لدنيا المكاثر
وأنكح جدّ خير شخص علمته * فأبناؤنا منه ونحن الأساهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة * كذلك بل للناس تجري المقادر
أقول إذا نام الخليّ ولم أنم * إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدلت منهم أوجها لا أحبها * وحمير قد بدّلتها والبحاتر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة * كذلك غضتنا السنون الغوابر
وسحّت دموع العين تبكي لبلدة * بها حرم أمن وفيها المشاعر
بواد أنيس ليس يؤذي حمامة * تظل به آمنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أنيسة * إذا خرجت منها فما أن تقادر
فيا ليت شعري هل تعمّر بعدنا * جياد فمعضني سيله فالظواهر
فبطن منى وحش كأن لم يسر به * مضاض ومن حيي عديّ عمائر
وقال عمرو أيضا يذكر بكرا وغسان ومن خلفهم في مكة بعدهم:
يا أيها الحيّ سيروا إن قصركم * أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
إنّا كما كنتم كنّا فغيّرنا * دهر فسوف كما صرنا تصيرونا
حثّوا المطيّ وأرخوا من أزمّتها * قبل الممات وقصّوا ما تقصّونا

قد مال دهر علينا ثم أهلكنا * بالبغي فيه وبذء الناس تأسونا
وقال حسان بن ثابت الأنصاريّ يذكر الخزاع خزاعة بمكة ، ومسير الأوس والخزرج إلى المدينة ، وغسان إلى الشام:
فلما هبطنا بطن مرو تخزّعت * خزاعة منا في حلول كراكر
حموا كل واد من تهامة واحتموا * بسمر القنا والمرهفات البواتر
فكان لها المرباع في كل غادة * تشنّ بنجد والفجاج العوابر
خزاعتنا أهل اجتهاد وهجرة * وأنصارنا جند النبي المهاجر
وسرنا فلما أن هبطنا بيثرب * بلا وهن منا ولا بتشاجر
وجدنا بها رزقا غدا من بقية * من آثار عاد بالخلال الظواهر
فحلّت بها الأنصار ثم تبوأت * بيثربها دارا على خير طائر
بنو الخزرج الأخيار والأوس إنهم * حموها بفتيان الصباح البواكر
نفوا من طغى في الدهر عنها وديّنوا * يهودا بأطراف الرماح الحواطر
وسارت لنا سيّارة ذات قوة * بكوم المطايا والخيول الجماهر
يؤمّون نحو الشام حتى تمكنوا * ملوكا بأرض الشام فوق المنابر
يصيبون فضل القول من كل خطبة * إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر
أولاك بنو ماء السماء توارثوا * دمشقا بملك كابرا بعد كابر
قال الخطّاب بن نفيل بن عبد العزّى ، وبلغه أن أبا عمرو بن أمية يتواعده:
أتوعدني بنو عمرو ودوني * رجال لا ينهنها الوعيد
رجال من بني تميم بن عمرو * إلى أبياتهم يأوي الطريد
جحاجحة شياظمة كرام * مراجحة إذا فرع الحديد
خضارمة ملاوية ليوث * خلال بيوتهم كرم وجود
ربيع المعدمين وكل جار * إذا نزلت بهم سنة كئود
هم الرأس المقدّم من قريش * وعند بيوتهم تلقى الوفود
فكيف أخاف أو أخشى عدوا * ونصرهم إذا ادعوا عتيد
فليس بعادل بهم سواهم * طوال الدهر ما اختلف الجديد

ومن مكارم ابن المبارك

ما حدثنا به محمد بن عبد الله ، عن أبي منصور القزّاز ، عن أبي بكر الخطيب ، عن

أبي محمد الخلّال ، عن إسماعيل بن محمد ، عن محمد بن حسن المقري ، سمعت عبد الله بن أحمد الزورقي ، سمعت محمد بن علي بن حسن بن شقيق ، سمعت أبي يقول : كان ابن المبارك رضي الله عنه إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون : نصحبك يا أبا عبد الرحمن ؟ فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم ، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها ، ثم يكتري لهم ، ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، فلا يزال ينفق عليهم ، ويطعمهم أطيب الطعام والحلو ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي ، وأكمل مروءة ، حتى يصلوا إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم:
ما أمر عيالك أن تشتري لهم من متاع المدينة ؟
فيقول : كذا وكذا ، فيشتري لهم ، ويخرجهم من المدينة إلى مكة ، فإذا صاروا إلى مكة قال لكل رجل منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟
فيقول : كذا وكذا ، فيشتري لهم ، ويخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم حتى يصيروا إلى مرو ، فإذا وصل إلى مرو جصّص دورهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم ، فإذا أكلوا وشربوا دعا بصندوق ففتحه ودفع إلى كل واحد منهم صرّته بعد أن كتب عليها اسمه .
قال أبي : أخبرني خادمه أنه عمل آخر سفرة سافرها دعوة ، فقدم على الناس خمسة وعشرين خوانا فالوذج .
قال أبي : وبلغنا أنه قال للفضيل بن عياض : لولاك وأصحابك ما اتجرت . وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم.

ومن سماع أهل الله على قول ابن الدمينة
أما والراقصات بذات عرق * ومن صلى بنعمان الأراك
لقد أضمرت حبك في فؤادي * وما أضمرت حبا من سواك
سماعهم في الراقصات التي هل الإبل هم العارفين ، وذات عرق انبعاثها من أصل صحيح . ومن صلى بنعمان الأراك ، من طلب الوصال ليتنعّم بالرؤية .
والبيت الثاني على أصله فإنه متوجه.
وسماعهم في قول الصّمة وهو:
وحنّت قلوصي آخر الليل جنة * فيا روعة ما راع قلبي حنينها
فقلت لها حنّي فكل قرينة * مفارقها لا بدّ يوما قرينها
وقلت لها حنّي رويدا فإنني * وإياك تخفي غولة سنبينها
سماعهم في القلوص : مركب الحسن . وآخر الليل : انقضاء العمر . فيا روعة هول

المطلع ، والروح والنفس قريبان يتفارقان بالموت ، تخفي غولة سنبينها يوم تشهد عليهم ألسنتهم.
ومن باب حنين الإبل وسيرها قوله:
ثورها ناشطة عقالها * قد ملأت من بدنها حلالها
فلم تزل أشواقه تسوقها * حتى رمت من الوجا رحالها
ما ذا على الناقة من غرامه * لو أنه أنصف أو رثا لها
أراد أن يشرب ماء حاجر * أربها تطلب أم كلالها
إنّ لها على القلوب ذمّة * لأنها قد عرفت بلبالها
كانت لها على الصبا تحيّة * أعجلها السائق أن تنالها
كم تسأل البارق عن سويقة * ولا يجيب عامدا سؤالها
خوفا على قلوبها إن عملت * إن الغوادي أدرست أطلالها
فعلّلوها بحديث حاجر * ولتصنع الفلاة ما بدا لها
وأمدت الفلاة دون خطوها * كأنها قد كرهت زوالها

ومن هذا الباب ما أنشدناه محمد بن عبد الله لأبي عبد الله البارع رحمه الله تعالى:
دع المطايا تسم الجنوبا * إنّ لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا * يشهد أن قد فارقت حبيبا
شامت بنجد بارقا كذوبا * أذكرها عهد هوى قريبا
فغادر الشوق لها حبيبا * يضرم في أكبادها لهيبا
تزرم إن ما استشرفت كثيبا * فإن بالرمل لها سقوبا
ما حملت إلا فتى كئيبا * يسرّ مما أعلنت نصيبا
يمسي إذا حنت لها مجيبا * لو غادر الشوق لها قلوبا
إذا لآثرن بهنّ النيبا * إن الغريب يسعد الغريبا

ولعلي بن أفلح من هذا الباب:
دعها لك الخير وما بدا لها * من الحنين ناشطا عقالها
ولا تعقها عن عقيق رامة * فإنها ذاكرة أفعالها
ولا تعلّلها بحيّ بابل * فهو أهاج بالجوى بلبالها
نشدتك الله إذا جئت الرّبى * فرد أضاها واستظلّ ضالها
وبارح الورق بشجو ثاكل * أطغى لها ريب الرّدى أطفالها

وقال أبو نواس في النسيب:
لولا تذكر من ذكرت بحاجر * لم أبك فيه مواقد النيران
يا واقفين معي على الدار طلبا * غيري لها إن كنتما تقفان
منع الوقوف على المنازل طارق * أمر الدموع بمقلتي ونهاني
إنّا ليجمعنا البكاء وكلنا * نبكي على شجن من الأشجان

حماية إلهية

حدثنا عبد الرحمن ، ثنا أبو بكر الصوفي ، أنا أبو سعيد الحميري ، انا ابن باكويه ، سمعت محمد بن أحمد النجار ، سمعت أبا بكر الكتاني يقول : كنت بطريق مكة فإذا أنا بهميان تلمع منه الدنانير ، فهممت أن آخذه فأحمله إلى فقراء مكة ، فهتف بي هاتف من ورائي : إن أخذته سلبناك فقرك.
وبالإسناد إلى البخاري قال : أخبرني أبو علي الروزبادي قال : سمعت بنان الجمال يقول : دخلت البرية على طريق تبوك وحدي ، فاستوحشت ، فإذا بهاتف يهتف : يا بنان ، نقضت العهد ، لم تستوحش ؟ أليس حبيبك معك ؟
ومن باب هوان الدنيا على أهل الله
ما حدثنا به محمد بن الفضل ، ثنا أبو منصور ، ثنا أبو بكر بن ثابت ، ثنا عبد العزيز القرميني ، ثنا ابن جهضم ، ثنا الخالدي ، ثنا ابن مسروق ، حدثني محمد بن سهل البخاري قال : كنت أمشي في طريق مكة ، إذ رأيت رجلا من أهل المغرب على بغل وبين يديه مناد ينادي : من أصاب هميانا فله ألف دينار ،
فإذا إنسان أعرج عليه أطمار رثة يقول للمغربي:
أيش علامة الهميان ؟ فقال : كذا وكذا ، وفيه بضائع للقوم ، وأنا أعطي من مالي ألف دينار.
فقال الفقير : من يقرأ الكتابة ؟ فقلت : أنا ، قال : اعدلوا إلى ناحية ، فعدلنا ، فأخرج الهميان ، فجعل المغربي يقول : حبتين لفلانة بنت فلان بخمسمائة دينار ، وحبة لفلان بمائة دينار ، وجعل يعدّ فإذا هو كما قال ، فحلّ المغربي هميانه وقال : خذ ألف دينار التي وعدت ، فقال الأعرج الفقير : لو كان قيمة الهميان عندي بعرتين ما كنت تراه ، فكيف آخذ منك ألف دينار على ما هذا قيمته ، ومضى ولم يأخذ منه شيئا.
أخبرني الوجيه الفاسي بمدينة مائد ، في سنة إحدى وستمائة قال : كان ببخارى والي

يظلم ويجور ، فركب في يوم شديد البرد ، فرأى في بعض الأزقة كلبا أجرب قد أنكاه البرد ، فدمعت عيناه وأخذته عليه شفقة ، فقال لبعض جماعته : احمل هذا الكلب إلى البيت حتى أرجع ، فلما رجع من وجهه إلى البيت تولى موضعا من داره جعله مربطا لذلك الكلب ، وأطعمه وسقاه ودهنه وكساه جلا ، وأوقد حوله نارا يستدفي بها على بعد . فلم يلبث الوالي بعد هذه الفعلة سوى ليلتين ومات رحمه الله . فرآه بعض الصالحين ممن كان يعرف ظلمه وجوره قال : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال له : يا هذا ، أوقفني الحق بين يديه ، وقال لي:
كنت كلبا فوهبناك لكلب ، فغفر لي ، وضمن عني ، وأدخلني الجنة . فقلت : يصدق هذا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغي من بغايا بني إسرائيل رأت كلبا على بئر يلهث عطشا ، فنزعت موقها من رجلها ، واستقت له ، وسقته وانصرفت ، فشكر الله تعالى فعلها وغفر لها.

فتوة ومروءة

حدثنا عبد الرحمن ، عن أبي بكر الصوفي ، عن علي الحبري ، عن ابن باكويه ، عن أبي الحسن الحنظلي ، عن أحمد بن علي الإصطخري ، عن أبي عمر الدمشقي قال : خرجنا مع أبي عبد الله بن الجلاء إلى مكة ، فمكثنا أياما لم نأكل ، فوقعنا في البرية إلى أعرابية عندها شاة ، فقلنا لها : بكم هذه الشاة ؟ قالت : بخمسين درهما ، فقلنا لها : أحسني ، فقالت : بخمسة دراهم ، فقلنا لها : تهزئين ؟ فقالت : لا والله ، ولكن سألتموني الإحسان ، ولو أمكنني لما أخذت شيئا . فقال ابن الجلاء : أيش معكم ؟ قلنا : ستمائة درهم .
فقال:
أعطوها واتركوا الشاة عليها . فما سافرنا سفرا أطيب منها.
سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك.
استنصار دوس ذي ثعلبان قيصر ملك الروم على ذي نواس
روينا من حديث ابن إسحاق ، عن المكي ، عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، عن ابن عباس ، أن زرعة ذا نواس لما قتل أصحاب الأخدود وقد ذكرنا قصته في هذا الكتاب ، أفلت رجل منهم يقال له دوس ذو ثعلبان ، فذهب على فرس له يركض عليه حتى أعجزهم في الرمل ، فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم ذو نواس ، واستنصره ، فقال : بعدت بلادك ، ونأت دارك عنّا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على ديننا فينصرك . فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره . فلما قدم على النجاشي بعث معه رجلا من الحبشة يقال له

أرباط ، وقال : إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها ، وأخرب ثلث بلادها . فلما دخلوا أرض اليمن وهم في سبعين ألفا من الحبشة ، من جملتهم أبرهة الأشرم أحد أجناد أرباط ، وكان طريقهم إلى اليمن في البحر ، فلما نزلوا بساحل اليمن سار إليهم ذو نواس في حمير ، ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجّه فرسه في البحر فضربه فدخل به حتى لجّج في البحر ، فكان آخر العهد به ، فدخل أرباط اليمن ، ففعل ما أمره به النجاشي من القتل والتخريب.

فقال ذو جدن فيما أصاب أهل اليمن:
دعيني لا أبا لك أن تطيقي * لحاك الله قد أنزفت ريقي
لدى عزف القيان إذا انتشينا * وإذ نسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس عليّ عار * إذا لم يشكني فيه رفيقي
فإن الموت لا ينهاه ناه * ولو شرب الشفاء مع النسوق
ولا مترهب في أسطوان * يناطح حدره بيض الأنوق
وغمدان الذي حدّثت عنه * بنوه مسمّكا في رأس نيق
بمنهمة وأسفله حروث * وحرّ الموحل اللثق اللزيق
مصابيح السليط تلوح فيه * إذا تمسي كتوماض البروق
ونخلته التي غرست إليه * يكاد البسر يهصر بالغدوق
فأصبح بعد جثته رمادا * وغيّر حسنه لهب الحريق
وأسلم ذو نواس مستكينا * وحذر قومه ضنك المضيق

المنهمة : التجارة . والحروث : أرض الزرع . وحرّ الموحل : يعني الطين الحرّ الذي هو كالوحل من شدة ريّه.
وقال ذو جدن الحميري أيضا:
هونك ما أن يردّ الدمع ما فاتا * لا تهلكا أسفا في إثر من ماتا
أبعد بينون لا عين ولا أثر * وبعد سلحين يبني الناس أبياتا

بينون وسلحين وعمدان : من حصون اليمن الذي هدم أرباط.
زاد ابن هشام في هذا الحديث ما قاله ربيعة بن عبد ياليل الثقفي في ذلك:
لعمرك ما للفتى من مفرّ * مع الموت يلحقه والكبر
لعمرك ما للفتى صخرة * لعمرك ما إن له من وزر
أبعد قبائل من حمير * أبيدوا صباحا بذات العبر

بألف ألوف وحرابة * كمثل السماء قبيل المطر
بضمر صباحهم المقربات * ينفون من قاتلوا بالذفر
سعالى مثل عديد التراب * تيبّس منهم رطاب الشجر
يعني من أنفاسهم . وذات العبر : الداهية التي فيها عبر العين ، أي سخنتها . وصار ملك اليمن بين أرباط وأبرهة ، وكان أرباط فوق أبرهة . فأقام أرباط سنتين في سلطانه لا ينازعه أحد ، ثم نازعه أبرهة الحبشي الملك ، وكان في جند من الحبشة ، فانحاز إلى كل واحد من الحبشة طائفة ، ثم سار أحدهما على الآخر ، وكان لأرباط في صنعاء وأحوازها ، وكان لأبرهة الجند وأحوازها ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض ، أرسل أبرهة إلى أرباط : إنك لا تصنع شيئا بأن تلقي الحبشة بعضهم ببعض فتفني ما بيننا فيضعف أمرها ، فابرز إليّ بنفسك ، وأبرز إليك ، فمن ظهر على صاحبه منّا كان الأمر له .
فقال أرباط:
أنصفت . وكان أرباط طويلا في الرجال وسيما عظيم الخلق . وكان أبرهة قصيرا دحداحة ، وكان ذا دين في النصرانية ، وعقل وحلم . فجعل أبرهة خلفه عبدا له يحمي ظهره يقال له عتودة ، فلما دنا كل واحد من صاحبه رفع أرباط الحربة يريد نافوخ أبرهة فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفتيه ، فبذلك سمي أبرهة الأشرم ، وحمل غلام أبرهة عتودة على أرباط من خلف أبرهة فزرقه بالحربة فقتله . فانصرف جند أرباط إلى أبرهة واجتمعت عليه الحبشة باليمن.
وكان ما وقع من هذا الأمر كله بين أبرهة وأرباط عن غير علم ولا أمر من النجاشي ملك الحبشة ، وكان مسكنه باكسوم من بلاد الحبشة ، فلما بلغه ذلك غضب غضبا شديدا وقال : عدا على أميري بغير أمري فقتله ، وما كنت أمّرته ، ثم حلف النجاشي لا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ، ويجزّ ناصيته . فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه ، ثم ملأ جرابا من تراب أرض اليمن ، ثم بعث به إلى النجاشي ، وكتب إليه : أيها الملك ، إنما كان أرباط عبدك ، وأنا عبدك ، اختلفنا في أمرك وكلنا طاعة لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة منه ، وأضبط وأسوس لهم منه ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك ، وبعثت به إليه مع جراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه ، فيبرّ بذلك قسمه .
فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه ، وكتب إليه : أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري . فأقام أبرهة باليمن إلى أن هلك . وقد ذكرت قصة هلاكه في حديث الفيل.
روينا من حديث ابن أبي الدنيا ، عن القاسم بن هاشم ، عن علي بن عباس ، عن إسماعيل بن عيّاش عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد أن بني إسرائيل لم يكن فيهم

ملك إلا ومعه رجل حكيم ، فإذا رآه غضبان كتب له صحائف ، في كل صحيفة ارحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة . فكلما أخذ الملك صحيفة قطعها حتى يسكن غضبه.
وحدثنا عبد الصمد بن علي قال : كان ببلاد فارس في زمان الأكاسرة ينادي كل يوم مناد على باب قصر الملك : لا يكون ملك إلا بالرجال ، ولا يثبت الرجال إلا بالمال ، ولا يحصل المال إلا بالعمارة ، ولا تصحّ العمارة إلا بالعدل.
وحدثنا بعض الهنود أن الملك فيهم إذا خرج ركب على الفيل وبين يديه راكب مشرف على الناس ينادي بلسانهم وفي يده طشت من ذهب فيه جمجمة إنسان ، وفي يده اليمنى قضيب ، فيقول : يا أيها الناس ، وقال : ينظر إلى الملك ويقول : يا أيها الملك ، أنت ملك الناس قد ركبت على ملك السباع وإلى هذا مصيرك ، ويشير بالقضيب إلى الجمجمة ، والملك يبكي وينظر في أمور الناس إلى أن يرجع.
ووقفت في كتاب « سر الأسرار » لأرسطو على دائرة اصطنعها للإسكندر يوصيه فيها:
تتضمن العالم بستان سياجه الدولة .
الدولة سلطان يحجبه السّنة . السّنة سياسة يسوسها الملك . الملك راع يعضّده الجيش . الجيش أعوان يكفلهم المال .
المال رزق تجمعه الرعيّة . الرعية عبيد يعبدهم العدل . العدل مألوف فيه صلاح العالم . تصل الكلام بأوله.
وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام : معاشر الفقهاء ، قعدتم على طريق الآخرة ، فلا أنتم مشيتم فوصلتم إليها ، ولا أنتم تركتم أحدا يجوزكم إليها ، فالويل لمن اغتر بكم.
روينا من حديث ابن مروان ، عن عبد الله بن مسلم ، عن الرياشي ، عن الأصمعي قال : كان بلال بن سعد يصلي الليل أجمع ، فكان إذا غلبه النوم في الشتاء ، وكان في داره بركة ، فيجيء فيطرح عنه ثيابه وينغمس في الماء ليذهب عنه النوم ، فعوتب في ذلك فقال:
ماء البركة في الدنيا خير من صديد أهل جهنم.
وكان عندنا بإشبيلية رجل عابد ، حسن الصوت ، كثير الاجتهاد ، سريع الدمعة ، دائم العبرة ، كثير الفكرة والتهجّد ، بتّ معه ليالي عدّة فلم يكن يفتر ، فربما أسمعه في بعض الأحايين ينشد بصوت طيّب غرد ، ودموعه تنحدر على خدّيه:
قطع الليل رجال * ورجال وصلوه
رقدوا فيه أناس * وأناس سهروه
لا يميلون إلى النو * م ولا يستعذبوه
فكأن النوم شيء * لم يكونوا يعرفوه

لبسوا ثوبا من الخد * مة حتى خلعوه
مع جلباب من الحز * ن فما أن نزعوه
وروينا من حديث الدينوري ، عن سعيد بن عمر الأزدي ، عن أبيه ، عن يونس بن حازم قال : قال العتابي : مررت بدير فصحت : يا راهب ، فلم يجبني أحد حتى قلت : يا صاحب الدير ، فإذا به قد أشرف عليّ ، فقلت له : ما منعك أن تجيبني ؟ قال : لأنك سمّيتني بغير اسمي ، فقلت : وما اسمك ؟ قال : الكلب العقور ، وإنما حبست نفسي في هذا الموضع لكي لا أعقر الناس.
وقال العتّابي أيضا : مررت بدير فإذا راهب ينادي ، فرفعت رأسي إليه فقال لي:
ويحك ، هب أن المسئ قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب الصالحين ؟
وقال أبو سليمان الداراني : لقيت راهبا فقلت له : يا راهب كيف ترى الدهر ؟ فقال:
يخلق الأبدان ، ويجدد الآمال ، ويباعد الأمنية ، ويقرّب المنية . فقلت له : فكيف ترى أهله ؟
فقال : من ظفر بها نصب ، ومن فاتته تعب . قال : فما الغنى عنه ؟ قال : قطع الرجاء منه .
قال : فقلت له : فأي الأصحاب أبرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح والتقى . قلت : فأين المخرج ؟
قال : في سلوك المنهج ، قلت : وما هو ؟ قال : بذل المجهود وخلع الراحة.
قلت : فأوصني ، قال : قد فعلت.
رويناه من حديث المالكي ، عن أحمد بن عبّاد ، عن أحمد بن أبي الحواري ، عن أبي سليمان ، ورويناه من حديث العتابي قبله من حديثه أيضا ، عن علي بن الحسين عنه.

واقعة لبعض الفقراء

حدثنا عبد الله ابن الأستاذ بمرشانة بدار شمس العابدات أم الفقراء ، رأى بعض الفقراء في واقعته أبا مدين وبعض مشايخ الصوفية ، فقال بعضهم لأبي مدين : ما معنى الوصول ؟ فقال : إذا دلك به عليه كنت منه وإليه ، وإذا أفناك عن الإحساس كنت في حضرة الإيناس ، وإذا كاشفك بحبه لم تتلذذ إلا بقربه ، وإذا غيّبك عن شهودك تجلّى لك من وجودك.
قلت : وأفدت ليلة في واقعة ، وذلك أني بتّ في جماعة من الصالحين ، منهم أبو العباس الحريري الإمام بزقاق القناديل بمصر ، وأخوه محمد الخياط ، وعبد الله المروزي ، ومحمد الهاشمي اليشكري ، ومحمد بن أبي الفضل ، فأريت نفسي والجماعة في بيت

شديد الظلمة ، وليس لنا فيه نور سوى ما ينبعث من ذواتنا ، فكانت الأنوار تنفهق علينا من أجسامنا فنضيء بها ، فدخل علينا شخص من أحسن الناس وجها ومنطقا ، فقال : أنا رسول الحق إليكم ، فكنت أقول له : فما جئت به في رسالتك ؟ فقال : اعلموا أن الخير في الوجود ، والشر في العدم ، أوجد الإنسان بجوده ، وجعله واجدا ينافي وجوده ، تخلق بأسمائه وصفاته ، وفني عنها بمشاهدة ذاته ، فرأى نفسه بنفسه ، وعاد العدد إلى أسه ، فكان هو ولا أنت.
فأخبرت الجماعة بالواقعة ، فسروا وشكروا الله.
ثم وضعت رأسي في عبّي فنظمت في نفسي أبياتا في المعرفة ، ونام أصحابي فاستيقظ عبد الله وناداني : يا أبا عبد الله . فلم أجبه كأني نائم . فقال لي : ما أنت بنائم ، أنت تعمل شعرا في معرفة الله وتوحيده . فرفعت رأسي وقلت له : من أين لك هذا ؟ فقال لي : رأيتك تعقد شبكة رفيعة ، فأوّلت الخيوط المنثورة تعقدها شبكة معاني متفرقة تجمعها ، وكلاما منثورا تنظمه . فقلت : هذا يعمل شعرا . قلت له : صدقت ، فمن أين عرفت أنه معرفة الله وتوحيده ؟ قال : قلت : الشبكة لا يصاد فيها إلا ذو روح حيّ عزيز المأخذ ، فلم أجد شعرا فيه روح وحياة وعزة إلا فيما يتعلق بالله تعالى . فكان تأويل رؤياه أعجب إلينا من الرؤيا رضي الله عنهم أجمعين.

حكاية من لم يقيّد جوارحه أتعب قلبه

حدثنا أبو محمد بن يحيى ، ثنا المبارك بن علي بن محمد ، عن عبد الملك بن بشران ، عن أحمد بن إبراهيم الكندي ، عن جعفر الخرائطي ، عن أبي العباس المبرّد ، عن هشام ، عن معمر بن المثنى ، قال : حجّ عبد الملك بن مروان ، وحج معه خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان من رجالات قريش المعدودين وعلمائهم ، وكان عظيم القدر ، جليل المنزلة ، مهيب المجلس ، موقرا معظّما عند عبد الملك ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام ، فعشقها عشقا شديدا ، وأخذت بجميع قلبه ، وتغير عليه الحال ، ولم يملك من أمره شيئا . فلما أراد عبد الملك القفول ، همّ خالد بالتخلف عنه فبعث إليه فسأله عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رملة بنت الزبير ، رأيتها تطوّف بالبيت فأذهلت عقلي ، فو الله ما أبديت لك ما بي حتى عيل صبري ، ولقد عرضت النوم على عيني فلم تقبله ، والسلو على قلبي فامتنع منه . فأطال عبد الملك التعجب من ذلك وقال : ما كنت أقول إن الهوى يستأثر مثلك . فقال خالد : وإني لأشدّ تعجبا من تعجبك مني ، فقد

كنت أقول إن الهوى لا يتمكن إلا من صنفين من الناس : الأعراب ، والشعراء . أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء والغزل ، فمال طبعهم إلى النساء ، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا له منقادين . وأما الأعراب ، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها.
وجملة أمري ما رأيت نظرة حالت بيني وبين الحرم ، وحسن عندي ركوب الإثم مثل نظرتي هذه . فتبسّم عبد الملك وقال : أوكل هذا بلغ بك ؟ فقال : والله ما عرفت هذه البليّة قبل وقتي هذا .
فوجّه عبد الملك إلى آل الزبير يخطب رملة على خالد ، فذكروا ذلك ، فقالت : لا والله أو يطلّق نساءه . فطلّق امرأتين كانتا عنده وتزوّجها وظعن بها إلى الشام.
وفيها يقول:
أليس يزيد الشوق في كل ليلة * وفي كل يوم من حبيبتنا قربا
خليليّ ما من ساعة تذكرانها * من الدهر إلا فرجت عني الكربا
أحبّ بني العوّام طرّا لحبّها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى * لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

ومما وجد بخطّ الإمام العلّامة القاضي بدر الدين بن شهبة رحمه الله تتمة هذه الحكاية . فلما وقف عبد الملك على الأبيات نظم بيتا ودسّه ليكيد به خالدا ، لأنه كان يروم الخلافة كأبيه يزيد وجدّه معاوية ، فقال عبد الملك : يا خالد ، أأنت القائل:
فإن تسلمي أسلم وإن تتنصّري * تحطّ رجال بين أعينهم صلبا ؟
فقال خالد : لعن الله قائل هذا البيت ، ولم يعلم خالد قائله . فخجل عبد الملك ولام نفسه.
كنت يوما أطوف وقد عراني حال أعرفه ، فخرجت عن البلاط من أجل الناس ، وطفت على الرمل فحضرتني أبيات فأنشدتها أسمع نفسي بها ومن يليني لو كان هناك أحد وأنا أقول وأبكي:
ليت شعري هل دروا * أيّ قلب ملكوا ؟
وفؤادي لو درى * أيّ شعب سلكوا
أتراهم سلموا * أم تراهم هلكوا ؟
حار أرباب الهوى * في الهوى وارتبكوا
فلم أشعر إلا وضربة بين كتفيّ من كفّ ألين من الخزّ ، فرددت وجهي فرأيت جارية من بنات الروم لم أر أحسن وجها ، ولا أعذب منطقا ، ولا أرقّ حاشية ، ولا ألطف معنى ،

ولا أظرف محاورة منها . قد فاقت النساء ظرفا ، وأدبا ، وجمالا ، ومعرفة . فقالت : يا سيدي ، كيف قلت ؟ فقلت:
ليت شعري هل دروا * أيّ قلب ملكوا ؟
فقالت : عجبا منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا ؟ أليس كل مملوك معروف ؟
وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة ؟ وتمني الشعور يؤذن بعدم المعرفة ، والطريق لسان صدق ، فكيف يتجوّز مثلك ؟ قل : فما ذا قلت بعده ؟ قلت:
وفؤادي لو درى * أيّ شعب سلكوا
فقالت : الشعب الذي بين الشغاف والفؤاد ، وهو المانع له من المعرفة به ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إلى معرفته ؟ والطريق لسان صدق ، فكيف يتجوّز مثلك يا سيدي ؟ قل : فما ذا قلت بعده ؟
قلت:
أتراهم سلموا * أم تراهم هلكوا ؟
فقالت : أما هم فسلموا ، ولكن عنك ينبغي أن تسأل نفسك ، هل هلكت أم سلمت ؟
يا سيدي قل : فما ذا فعلت بعده ؟ قلت:
حار أرباب الهوى * في الهوى وارتبكوا
فصاحت وقالت : يا عجبا كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها ؟
والهوى شأنه التعميم يخدّر الحواس ، ويذهب بالعقول ، ويدهش الخواطر ، ويذهب بصاحبه في الذاهبين ، فأين الحيرة هنا ؟ ومن هنا باق فيحار ؟
والطريق لسان صدق ، والتجوّز على مثلك لا يليق . قلت : يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ قالت : قرة العين ، قلت لها : لي . ومن شعري فيها ما قلته:
ما رحلوا يوم بانوا البزل العيسا * إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
من كل فاتكة الألحاظ مالكة * تخالها فوق عرش الدّرّ بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى * شمسا على فلك في حجر إدريسا
تحيي إذا قتلت باللحظ منطقها * كأنها عندما تحيي بها عيسا
توارتها لوح ساقيها سنى وأنا * أتلو وأدرسها كأنني موسى
أسقفّة من بنات الروم راهبة * ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية ما لها أنس قد اتخذت * في بيت ناموسها للذكر ناووسا
قد أعجزت كل علّام بملّتنا * وداوديا وحبرا ثم قسيسا
إن أومأت تطلب الإنجيل تحسبها * أقسّة أو بطاريقا شماميسا

ناديت إذ رحلت للبين ناقتها * يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا
عيّيت أجياد صبري يوم بينهم * على الطريق كراديسا كراديسا
سألت إذ بلغت نفسي تراقيها * ذاك الجمال وذاك اللطف تنفيسا
فأسلمت ووقانا الله شرّتها * وزحزح الملك المنصور إبليسا

وكان لنا أهل تقرّ العين بها ففرّق الدهر بيني وبينها ، فتذكرتها ومنزلها بالحلة من بغداد فقلت:
خليليّ عوجا بالكثيب وعرّجا * على لعلع واطلب مياه يلملم
فإن بها من قد علمت ومن لهم * صيامي وحجّي واعتماري وموسمي
فلا أنس يوما بالمحصّب من منى * وبالمنحر الأعلى أمورا وزمزم
محصّبهم قلبي لرمي جمارهم * ومنحرهم نفسي ومشربهم دمي
فيا حادي الأجمال إن جئت حاجرا * فقف بالمطايا ساعة ثم سلّم
وناد القباب الحمر من جانب الحمى * تحيّة مشتاق إليكم متيّم
فإن سلموا فأعد السلام مع الصبا * وإن سكتوا فارحل بها وتقدّم
إلى نهر عيسى حيث حلّت ركابهم * وحيث الخيام البيض من جانب الفم
وناد بوعد والرباب وزينب * وهند وسلمى ثم لبنى وزمزم
وسلهنّ هل بالحلة الغادة التي * تريك سنا البيضاء عند التبسّم
ولنا من باب النسب ، والإشارة للمقام الأعلى ، والمنظر الأجلى
سلامي عن سلمى ومن حلّ بالحمى * وحق لمثلي رقة أن يسلما
وما ذا عليها لو تردّ تحية * علينا ولكن لا احتكام إلى الدما
سروا وظلام الليل أرخى سدوله * فقلت لها صبّا غريبا متيّما
أحاطت به الأشواق سورا وأرشدت * له راشفات النبل أيّان يمّما
فأبدت ثناياها وأومض بارق * فلم أدر من شق الحنادس منهما
وقالت : أما يكفيه أني بقلبه * يشاهدني سرا وجهرا أما أما ؟

خبر الحية الطائفة بالبيت

روينا من حديث أبي الوليد ، عن جده ، عن سعيد بن سالم ، عن سالم ، عن عثمان بن ساج ، عن بشر بن تميم ، عن أبي الطفيل قال : كانت امرأة من الجن في الجاهلية

تسكن ذا طوى ، وكان لها ابن ولم يكن ولد غيره ، وكانت تحبه حبا شديدا ، وكان شريفا في قومه ، فتزوج وأتى زوجته ، فلما كان يوم سابعه قال لأمه : يا أمّه ، إني أحب أن أطوف بالكعبة سبعا نهارا ، قالت له أمه : أي بنيّ ، إني أخاف عليك سفهاء قريش ، فقال : أرجو السلامة ، فأذنت له ، فولى في صورة جان ، فلما أدبر جعلت تعوّذه وتقول:

أعيذه بالكعبة المستورة * ودعوات ابن أبي محذورة

وما تلى محمد من سورة * إني إلى حياته فقيرة

وإنني بعيشه مسرورة فمضى الجان نحو الطواف فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم أقبل منقلبا حتى إذا كان ببعض دور بني سهم عرض له شاب من بني سهم أحمر أكشف أزرق أحول أعسر فقتله فثارت بمكة غبرة حتى لم تبصر لها الجبال . قال أبو الطفيل: وبلغنا أنه إنما تثور تلك الغبرة عند موت عظيم من الجن ، قال : فأصبح من بني سهم على فرشهم موتى كثير من قبل الجن ، فكان فيهم سبعون شيخا أصلع سوى الشباب ، قال: فنهضت بنو سهم وخلفاؤها ومواليها وعبيدها ، فركبوا الجبال والشعاب بالثنية ، فما تركوا حية ، ولا عقربا ، ولا خنفساء ، ولا شيئا من الهوام يدب على وجه الأرض إلا قتلوه ، فأقاموا بذلك ثلاثا ، فسمعوا في الليلة الثالثة على أبي قبيس هاتفا يهتف بصوت له جهوري يسمع بين الجبلين : يا معشر قريش ، الله الله ، فإن لكم أحلاما وعقولا ، اعذرونا اعذرونا من بني سهم ، فقد قتلوا منّا أضعاف ما قتلنا منهم ، ادخلوا بيننا وبينهم بصلح نعطيهم ويعطونا العهد والميثاق أن لا يعود بعضنا لبعض بسوء أبدا ، ففعلت ذلك قريش واستوثقوا لبعضهم من بعض ، فسمّيت بنو سهم العياطلة قتلة الجن.

ما جاء من الحكم في مثل هذه الواقعة

حدثنا الضرير إبراهيم بن سليمان الصوفي الخابوري من دير الرمان بحلب قال:

كنت بذي نصر ، فخرج رجل يحتطب لعياله ، ففقد أياما حتى حزن عليه أهله ، فدخل عليهم بعد ذلك ضعيفا ، متغير اللون ، كاسف البال ، أثر الرعب والجزع عليه ظاهر ، قال:

فسألناه عن شأنه ، قال : بينا أنا أحتطب إذ عرضت لي حية فقتلتها ، فغشي عليّ ، وغبت عن نفسي ، فما أفقت إلا وأنا بأرض لا أعرفها ، بين قوم لا أعرفهم ، فأخذني جماعة منهم فجاءوا بي إلى شيخ فيهم كبير هو زعيمهم ، فمثلوني بين يديه ، فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا:

هذا قتل ابن عمنا ، وأشاروا إليّ ، فقد لنا منه ، فقال الشيخ : ما تقول ؟ فقلت : لا أعرف ما

يقولون ، إنما أنا رجل كنت أحتطب فعرضت لي حية فقتلتها ، فقالوا : ذلك ابن عمنا ، فقال ذلك الزعيم : امسكوه عندكم واستوصوا به خيرا حتى أرى في أمركم وأمره ، فأخذوني إليهم ، وجاءوا بأطعمة لا أعرف منها سوى اللبن ، فكنت أشربه لا أعدل إلى غيره مدة هذه الأيام التي غبت فيها عنكم ، فبينا أنا على ذلك إذ جاءوني فأخذوني وحضروا بي عند ذلك الشيخ ، فذكروا مثل مقالتهم الأولى من الدعوى ، فسألني الشيخ ، فذكرت له الأمر على ما جرى ، فقال الشيخ للقوم : ما لكم عليه حق ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من تصوّر في غير صورته فقتل ، فلا عقل فيه ولا قود » ، وصاحبكم تصوّر في صورة حية . فخلّوا سبيلي ، فقلت : يا شيخ ، وهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، كنت في وفد جن نصيبين حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما عاش لليوم من ذلك اليوم غيري ، فهؤلاء الجن قومنا ، يتحاكمون إلينا في أمورهم ، فأحكم بينهم . ثم قال لهم : ردّوه إلى حيث أخذتموه ، فما شعرت إلا وأنا في موضعي ، فأخذت عدّتي وجئت . فهذا ما كان من خبري في غيبتي.

خبر حية أخرى طائفة بالبيت

روينا من حديث أبي الوليد ، عن جده ، عن داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج ، عن عبد الله بن عبيد ، عن عمير ، عن طلق بن حبيب قال : كنا جلوسا مع عبد الله بن عمرو بن العاص في الحجر إذ قلص الظل ، وقامت المجالس ، إذا بأيّم طالع من هذا الباب ، يعني باب بني شيبة ، فأشرفت له عيون الناس ، فطاف بالبيت سبعا ، وصلى ركعتين وراء المقام ، فقمنا إليه ، فقلنا له : ألا أيها المعتمر ، قد قضى الله نسكك ، وإن بأرضنا عبيدا وسفهاء وإنّا نخشى عليك منهم ، فكوّم برأسه كومة بطحاء ، فوضع ذنبه عليها ، فسما في السماء حتى مثل علينا فما نراه . قال أبو محمد الخزاعي : الأيّم الحية الذكر.
وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ كانوا أهل نصيبين ، وكانوا سبعة : حسا ، ومسا ، وشاصرا ، وناصرا ، وابنا الأرب ، وأبنين ، والأخصم . هذا من حديث محمد بن إسحاق.
وأما حديث إسحاق بن عبد الله ، عن أبي جعفر ، فذكر منهم الأذريان والأحقب.

خبر الحيّة الشهيدة العابدة

روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن سليمان بن أحمد ، ثنا مطّلب بن شعيب ، عن عبد الله بن صالح ، عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون ، عن معاذ بن عبد الله بن معمر ، قال : كنت جالسا عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فجاء رجل فقال : يا أمير

المؤمنين ، بينا أنا بفلاة كذا وكذا ، إذا إعصاران قد أقبلت إحداهما من مكان والأخرى من مكان آخر ، فالتقتا واعتركتا ثم افترقتا ، وإحداهما أقل منها حين جاءت ، فذهبت حتى جئت معتركيهما ، فإذا من الحيات شيء ما رأيت مثله قطّ غيره ، فإذا ريح مسك من بعضها ، فجعلت أقلب الحيات أنظر من أيّها هذه الرائحة ، فإذا ذلك من حية صفراء دقيقة . قال أبو محمد بن حيان في حديثه : تتثنى ببطن أبيض ينفح منها ريح المسك . فقلت لأصحابي : امضوا فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير أمر هذه الحية . قال : فلما لبثت أن ماتت ، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها . وفي حديث ابن معمر : في عمامتي . قال ابن حيان : ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها ، وأدركت أصحابي في المتعشى . قال : فو الله إنّا لقعود إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب ، فقالت واحدة منهن : أيكم دفن عمرا ؟ قلنا : ومن عمرو ؟ قالت : أيكم دفن الحية ؟
قال : قلت : أنا . فقالت : أما والله لقد دفنت صوّاما قوّاما يأمر بما أنزل الله عز وجل ، ولقد آمن بنبيكم صلى الله عليه وسلم ، وسمع صفته في السماء قبل أن يبعث بأربعمائة سنة.
وفي حديث ابن معمر بعد أن ذكر دفنها : فبينا أنا أمشي إذ ناداني مناد ولا أراه ، فقال : يا عبد الله ، ما هذا الذي صنعت ؟ فأخبرته بالذي رأيت ، فقال : إنك قد هديت ، هذان حيّان من الجن : بني شيبان وبني أقبش ، التقوا فكان من القتلى ما رأيت ، فاستشهد الذي أخذته ، فكان من الذين استمعوا الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي حديث ابن حيان ، قال الرجل : فلما قضينا حجّنا مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ، فأنبأته بأمر الحية ، فقال : صدقت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
»لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة. «

إني رأيت أحد عشر كوكبا

وهي : حرنان ، والطارق ، والدّيّال ، والكتفان ويقال : ذو الكتفين ، ووناب ، وعمودان ، والفلق ، والصروح ، والضياء ، والنور ، وقابس ، والمضبح ، وذو الفرع ، يعني بالضياء ، والنور ، والشمس ، والقمر.

مفارقة حبيب

روينا من حديث أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن محمد بن سلام قال : احتضر سيبويه النحوي ، فوضع رأسه في حجر أخيه ، فقطرت قطرة من دموع أخيه على خده ، فأفاق من غشيته فقال:

أخيّين كنا فرّق الدهر بيننا * إلى أمد الأقصى ومن يأمن الدهرا
خبر شق وسطيح مع ملك اليمن
قال ابن إسحاق : كان ربيعة بن نصر ملك اليمن فرأى رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجّما إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبروني بها وبتعبيرها ، قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال له رجل : إن أردت علم ذلك فابعث إلى شق وسطيح ، فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسان ، فقال له الملك : إني رأيت رؤيا فأخبرني بها وبتأويلها ، قال : افعل ، رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة . فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئا ، فما عندك من تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرّتين من حنش ، لتزلن أرضكم الحبش ، فلتملكنّ ما بين أبين وجرش . فقال الملك : يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين ، قال : أفيدوم ذلك في ملكهم أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين تمضين من السنين ، ثم يقتلون ، ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من قتلهم ؟
قال : يليه أرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبيّ زكي يأتيه الوحي من قبل العلي . قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون . قال : أحق ما تخبرني ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق والفلق إذا اتّسق ، إن ما أنبأتك به لحق.
ثم قدم عليه بعد ذلك شق بن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسز بن عبقر بن أنمار بن نزار ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟
قال شق : نعم ، رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت كل ذات نسمة . قال الملك ما أخطأت يا شق شيئا ، يريد المعنى ، فما عندك في تأويلها ؟ قال شق : أحلف ما الحرتين من إنسان لينزلنّ أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكنّ ما بين أبين إلى نجران . فقال الملك : إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟

أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا ، بل بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن العظيم الشأن ؟ قال : غلام ليس بدنيّ ولا مدن ، أراد مدني بوزن مفعل فحذف الياء للسجع ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن . قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟
قال : بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم تجزى فيه الولات ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات . قال : أحق ما تقول ؟ قال : أي ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، أن ما أنبأتك لحقّ ما فيه أمض.
فوقع في نفس الملك ما قالا ، فجهّز بيته وأهله إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاذ ، فأسكنهم الحيرة ، وإليهم ينتمي النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر ، هذا الملك صاحب الرؤيا.

رؤيا الموبذان وارتجاج الإيوان وما قال في ذلك سطيح والكهّان
روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن عبد الله بن محمد بن جعفر ، عن عبد الرحمن بن الحسن ، عن علي بن حرب ، عن أبي أيوب يعلى بن عمران البجلي ، عن مخزوم بن هانئ المخزومي ، عن أبيه ، وأتت له خمسون ومائة سنة ، قال : لما كان ليلة ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربعة عشر شرافة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوى ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها.
فلما أصبح كسرى أفزعه ما رأى ، فتصبّر عليه تشجّعا ، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ومرازبته ، فلبس تاجه ، وقعد على سريره ، وأرسل إلى الموبذان ، فقال : يا موبذان ، إنه سقط من إيواني أربعة عشر شرافة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام . فقال : وأنا أيها الملك قد رأيت إبلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى عبرت دجلة ، وانتشرت في بلاد فارس .
قال : فما ترى في ذلك يا موبذان ؟ قال : وكان رأسهم في العلم ، فقال : حدث يكون من قبل العرب .
فكتب حينئذ كسرى:
من كسرى ملك الملوك إلى النعمان أحمد بن المنذر ، ابعث إليّ رجلا من العرب يخبرني بما أسأله عنه . فبعث إليه عبد المسيح بن حيان بن نفيلة ، فقال : يا عبد المسيح ، هل عندك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : يسألني الملك ، فإن كان عندي منه علم

أعلمته أو لا أعلمته بمن علمه عنده . فأخبره به الملك ، فقال : علمه عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح . قال : فاذهب إليه واسأله ، وأخبرني بما يخبرك به . فخرج عبد المسيح حتى قدم على سطيح وهو مشرف على الموت ، فسلّم عليه وحيّاه بتحية الملك ، فلم يجبه سطيح ، فأقبل يقول:

أصمّ أم يسمع غطريف اليمن * أم فارق أزليم به شاو العنن
يا فاصل الخطّة أعيت من ومن * وكاشف الكربة في الوجه الغضن
أتاك شيخ الحي من آل سنن * وأمه من آل ذئب بن حجن
تحمله وجناء تهوي من وجن * حتى أتى غار الجآجي والفطن
أصكّ مهما الناب صرار الأذن

فرفع سطيح رأسه إليه ، فقال : عبد المسيح يهوي إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك ساسان لاتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان : رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلاد فارس . يا عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغارت بحيرة ساوة ، وخرج صاحب الهراوة ، وفاض وادي سماوة ، فليس الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت ، ثم مات.

فقام عبد المسيح وهو يقول:

شمّر فإنك ماضي الهمّ شمير * لا يفزعنك تشديد وتعزير
فربما ربما أضحوا بمنزلة * يهاب صولهم الأسد المهاصير
منهم أخو الصرح بهرام وإخوته * والهرمزان وسابور وشابور
والناس أولاد علّات فمن علموا * أن قد أقلّ فمهجور ومحقور
وهم بنو آدم لما رأوا نسبا * فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشرّ مجموعان في قرن * فالخير متّبع والشرّ محذور

قال : فرجع عبد المسيح إلى كسرى ، فأخبره ، فقال : إلى أن يملك منّا أربعة عشر تكون أمور وأمور . قال : فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون بعد أولاد علاتهم ، الأولاد لأب واحد ، وأمهم شتى . أشد هصور ، وهصير ، وهصار : وهو الذي يكسر أزلام القوم أزليما ، أي ولّوا سراعا . وشاو : أسبق . والعنن : مصدر عنّ يعنّ عنّا ، أي اعترض ، ويكون أزلم مقصورا من إزلام ، والجآجئ : جمع جؤجؤ ، وهو صدر الطير والسفينة . والموبذان : قاضي المجوس ، ويجمع موابذة . والشرفة : جمعها شرف ،

والشرفة في غير هذا الموضع خيار المال . ورجست السماء وارتجست : إذا رعدت وتمخّضت.
خبر ظريف في الحنين إلى الوطن
قال ابن الرومي في ذلك:
وحبّب أوطان الرجال إليهم * مأرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا الأوطان ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
روينا من حديث أبي الوليد ، عن محمد بن أبي عمر ، عن القاضي محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومي ، عن القاضي الأوقص محمد بن عبد الرحمن بن هشام ، قال : خرجت غازيا في خلافة ابن مروان ، فقفلنا من بلاد الروم ، فأصابنا مطر ، فآوينا إلى قصر فاستكنّا به من المطر ، فلما أمسينا خرجت جارية مولدة من القصر ، فتذكرت مكة وبكت عليها ، وأنشأت تقول:
من كان ذا شجن بالشام يحسبه * فإن في غيره أمسى إلى الشجن
فإن ذا القصر حقا ما به وطن * لكن بمكة أمسى الأهل والوطن
من ذا يسائل عنّا أين منزلنا * فالأقحوانة منّا منزل قمن
إذ يلبث العيش صفوا ما يكدّره * طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن
قال : فلما أصبحنا لقيت صاحب القصر فقلت له : رأيت جارية مولّدة خرجت من قصرك ، فسمعتها تنشد كذا وكذا ، فقال : هذه جارية مولدة مكيّة اشتريتها ، وخرجت بها إلى الشام ، فو الله ما ترى عيشنا ولا ما نحن فيه شيئا ، فقلت : أتبيعها ؟ فقال : إذا فارقت روحي.
قولها : فالأقحوانة منّا منزل قمن : الأقحوانة منزل عند الليط بمكة ، كان مجلسا يجلس فيه من يخرج من مكة ، يتحدثون فيه بالعشيّ ، ويلبسون الثياب المحمّرة والمورّدة والمطيّبة ، فكان مجلسهم من حسن ثيابهم يقال له الأقحوانة.
وقالت بعض بنات الأعراب : روتني صاحبة القصر الذي على شاطئ دجلة قبالة سامرّاء يقال له عاشق ومعشوق ، وكان قد عشقها بعض الخلفاء فتزوّجها ، ونقلها من البادية ، فتغيّر عليها الحال . وكانت تحنّ إلى ما نشأت عليه ، فبنى لها هذا القصر ، وأمر بالإبل والغنم أن تحلب بكرة وعشية على باب قصرها في البرية ، فأنست بعض أنس ، فدخل عليها الخليفة يوما وهي تبكي وتقول:

وما ذنب أعرابية قذفت بها * صروف النوى من حيث لم تك ظنّت
تمنّت أحاليب الرعاة وخيمة * بنجد فلم يقضى لها ما تمنّت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبه * وبرد حصاه آخر الليل حنّت
لها أنّة عند العشاء وأنّة * سحيرا ولولا أنّتاها لحنّت
فذكر أنه قال لها : الحقي بأهلك بكل ما معك ، فسرّت ولحقت بأهلها.
ولنا فيما يتعلق بعفو الله ومنّته:
الله يعلم أني لست أذكره * إلا وجدت له نارا على كبدي
لأنني بلسان الذنب أذكره * وهو العليم بما أضمرت في خلدي
لكنني بجميل العفو أعرفه * وبالتجاوز والإحسان والرفد
وهل تقاوم عفو الله معصية * هيهات هيهات لا تعدل عن الرشد
الله أكرم أن تنساك منّته * ومن يجود إذا الرحمن لم يجد
فحسّن الظنّ بالرحمن وارض به * ربّا فليس وجود الفرد كالأحد
ومن حديث مكة بعد خزاعة وولاية قصيّ بن كلاب البيت الحران وما ذكر من ذلك
ما روينا من حديث أبي الوليد ، عن جدّه ، عن سعيد بن سالم ، عن عثمان بن ساج ، عن ابن جريج ، وعن ابن إسحاق يزيد أحدهما على صاحبه ، قال : أقامت خزاعة على ما كانت عليه من ولاية البيت والحكم بمكة ثلاثمائة سنة ، وكان بعض التبابعة قد سار إليه وأراد هدمه وتخريبه ، فقامت دونه خزاعة ، فقاتلت عليه أشد القتال حتى رجع ، ثم آخر كذلك.
وأما تبّع الثالث الذي نحر له وكساه ، وجعل له غلقا ، وأقام عنده أياما ينحر عنده كل يوم مائة بدنة ، ولا يرزأ هو ولا أحد من أهل عسكره منها شيئا ، يردها الناس بالفجاج والشعاب ، فيأخذون منها حاجتهم ، ثم يقطع الطير عليها ، فتأكل ثم تنتابها السباع إذا أمست ، ولا يرد عليها إنسان ، ولا طائر ، ولا سبع . ثم رجع إلى اليمن إنما كان في عهد قريش ، قال : فلبثت خزاعة على ما هي عليه ، وقريش إذ ذاك في بني كنانة متفرقة ، وقد قدم في بعض الزمان حاج قضاعة ، فيهم ربيعة بن حزام بن ضبة بن عبد كبير بن عذرة بن سعد بن زيد ، وقد هلك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب ، وترك زهرة وقصيّا ابني كلاب مع أمهما فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سبل ، وسعد بن سبل الذي يقول فيه الشاعر ، وكان أشجع أهل زمانه:

لا أرى في الناس شخصا واحدا * فاعلموا ذاك كسعد بن سبل
فارس أضبط فيه عسرة * وإذا ما عاين القرن نزل
فارس يستدرج الخيل كما * يدرج الحرّ القطاميّ الحجل
قال : وزهرة أكبر من قصي سنا ، فتزوج ربيعة بن حزام أمهما ، وزهرة رجل بالغ ، وقصي فطيم ، أو في سن الفطيم ، فاحتملها ربيعة إلى بلادها من أرض عذرة من أشراف الشام ، فاحتملت معها قصيا لصغره ، وتخلف زهرة في قومه ، فولدت فاطمة بنت عمرو بن سعد لربيعة رزاح بن ربيعة ، فكان أخا قصي بن كلاب لأمه ولربيعة بن حزام من امرأة أخرى ثلاثة نفر : حنّ ، ومحمودة ، وجلهمة ، بنو ربيعة.
فبينا قصي بن كلاب في أرض قضاعة لا تنتمي إلى آل ربيعة بن حزام إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء ، وقصي قد بلغ ، فقال له القضاعي : ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منّا ؟ فرجع قصي إلى أمه وقد وجد مما قال له القضاعي ، فسألها عما قال له ، فقالت:
أنت والله يا بنيّ خير منه وأكرم ، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وقومك عند البيت الحرام وما حوله . فأجمع قصي الخروج إلى قومه واللحاق بهم ، وكره الغربة في أرض قضاعة ، فقالت له أمه : يا بني ، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاجّ العرب ، فإني أخشى عليك ، فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام ، وخرج في حاج قضاعة حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وكان قصي رجلا جليدا حازما بارعا ، فخطب إلى حليل بن حبشية بن سلوك الخزاعي ابنته حني ، فعرف حليل النسب ، ورغب في الرجل ، فزوّجه ، وحليل يومئذ يلي الكعبة ، وأمر مكة ، فأقام قصي معه حتى ولدت حني لقصي عبد الدار وهو أكبر ولده ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد بن قصي ، وكان حليل يفتح البيت ، فإذا اعتل أعطى ابنته حني المفتاح ، ففتحت ، فإذا اعتلت أعطت المفتاح لزوجها قصيا ، أو بعض ولدها فيفتحه ، وكان قصي يعمل في حيازته إليه ، وقطع ذكر خزاعة عنه ، فلما حضرت حليل الوفاة نظر إلى قصي ، وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته ، فرأى أن يجعلها في ولد ابنته ، فدعا قصيا ، فجعل له ولاية البيت ، وأسلم إليه المفتاح ، وكاد يكون عند حني.
فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه هنالك ، وأخذوا المفتاح من حني ، فمشى قصي إلى رجال من قومه من قريش وبني كنانة ، ودعاهم إلى أن يقوموا معه في ذلك ، وأن ينصروه ويعضدوه ، فأجابوا إلى نصره . وأرسل قصي إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة ، وهو

في بلاد قومه من قضاعة ، يدعوه إلى نصره ، ويعلمه ما حال بينه وبين ولاية البيت ، ويسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه . فقام رزاح في قومه فأجابوه إلى ذلك ، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه ، حنّ ومحمود وجلهمة بنو ربيعة بن حزام فيمن تبعهم من قضاعة في حاج العرب ، مجمعين لنصر قصي والقيام معه.
فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج ، فوقفوا بعرفة بجمع ، ونزلوا منى ، وقصي مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم بمن معه من قضاعة ، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل ، وعظموا عليهم القتال في الحرم ، وحذروهم الظلم والبغي في الحرم ومكة ، وذكروهم ما كانت عليه جرهم ، وما صارت إليه حين ألحدوا فيه بالظلم ، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك ، فاقتتلوا بمغضى المأزمين من منى.
قال : فسمي ذلك المكان المفجر ، لما فجر فيه ، وسفك فيه الدماء من الدم ، وانهتك من حرمته ، فاقتتلوا حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعا ، وفشت فيهم الحروب والجراحات ، وحاج العرب جميعا ينظرون إلى قتالهم من مصر واليمن . ثم تداعوا إلى الصلح ، ودخلت قبائل العرب بينهم ، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما اختلفوا فيه . قال : فحكّموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، وكان رجلا شريفا ، فقال : موعدكم فناء الكعبة غدا ، فاجتمع إليه الناس ، وعدّوا القتلى ، فكانت في خزاعة أكثر منها في قريش وقضاعة وكنانة ، وليس كل بني كنانة قاتل مع قصي خزاعة ، إنما كانت مع قريش من بني كنانة غلمان يسيرة ، فاعتزلت عنها بكر بن عبد مناف قاطبة.
فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة قام يعمر بن عوف فقال : ألا إني قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدميّ هاتين ، فلا تباعة لأحد على أحد في دم ، وإني قد حكمت لقصيّ بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل ، وأن نخلّي بينه وبين ذلك ، وأن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة . قال : فسمّي يعمر من ذلك اليوم الشداخ.
فسلمت بذلك خزاعة لقصي ، وأعظموا سفك الدماء في الحرم ، وافترق الناس ، وولّي قصي بن كلاب حجابة البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعزّ بهم ، وتملّك على قومه فملّكوه ، وخزاعة مقيمة بمكة على رباعهم ، لم يتحركوا من مساكنهم ، ولم يخرجوا منها ، ولم يزالوا على ذلك حتى الآن.
فحاز قصي شرف مكة ، وبنى دار الندوة ، وفيها كانت قريش تقضي أمورها ، ولم

يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وخلفاؤهم . وكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكا ، فأطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة.

فلما جمع قصي قريشا بمكة سمّي مجمعا ، ومن أجل تجمّع قريش إلى قصي سمّيت قريش قريشا.

وقال قصي يتشكر لأخيه رزاح بن ربيعة:

أنا ابن العاصمين بني لؤيّ * بمكة مولدي وبها ربيت
لي البطحاء قد علمت معدّ * ومروتها رضيت بها رضيت
وفيها كانت الآباء قبلي * فما شويت أخيّ وما شويت
فلست لغالب إن لم تؤثّل * بها أولاد قيدر والنبيت
رزاح ناصري وبه أسامي * فلست أخاف ضيما ما حييت

فقال رزاح في إجابته أخاه قصيّا:

فلما أتى من قصي رسول * فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نعود الجياد * ونطرح عنّا الملول الثقيلا
نسير بها الليل حتى الصباح * ونكمي النهار لئلا يزولا
فهنّ سراع كورد القطا * يجئن بنا من قصي رسولا
جمعنا من السرّ من أشمدين * ومن كل حيّ جمعنا قبيلا
فيا لك حلبة ما ليلة * نزيد على الألف سيبا رسيلا
فلما مررنا على عسكر * وأسهلنا من مستناخ سبيلا
وجاوزن بالركن من ورّقان * وجاوزن بالعرج حيا حلولا
مررن على الحلى ما ذقنه * وعالجن من مرّ ليلا طويلا
فدنا من العود أفلاءها * إرادة أن تسترقن الصهيلا
فلما انتضينا إلى مكة * أنخنا الرحال قبيلا قبيلا
نعاورهم ثم حدّ السيوف * وفي كل حوب خلسن العقولا
نخبّرهم بصلاب السنو * ن خبر القويّ العزيز الذليلا
قتلنا خزاعة في دارها * وبكرا قتلنا فجيلا وجيلا
نفيناهم من بلاد المليك * كما لا يحلّون أرضا وسهولا
فأصبح سبيهم في الحديد * ومن كل حيّ شفينا الغليلا

وقال ثعلبة بن عبد الله بن دينار بن الحارث بن سعد بن هذيم القضاعي في ذلك ، من أمر قصي حين دعاهم فأجابوه:
جلبنا الخيل مضمرة تعالى * من الأعراف أعراف الجناب
إلى غوري تهامة فالتقينا * من الفيفاء في قاع بباب
فأما صفوة الحسنى فخلّوا * منازلهم محادرة الضراب
وقام بنو عليّ إذ رأونا * إلى الأسياف كالإبل الظراب
وقال حذافة بن غانم الجمجمي يمدح قريشا وبني قصي:
أبوهم قصيّ كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر
هم نزلوها والمياه قليلة * وليس بها إلا كهول بني عمرو
هم ملئوا البطحاء مجدا وسؤددا * وهم طردوا عنها عراة بني بكر
وهم حفروها والمياه قليلة * ولم تستق إلا بنكد من الحفر
حليل الذي عادى كنانة كلها * وأربط بيت الله بالعسر واليسر
أحارث أمّا أهلكن فلا تزل * لهم شاكرا حتى توسّد في القبر

قال : ولما استقر رزاح بن ربيعة في بلاده بعد انصرافه من قصي ، وقع بين رزاح بن ربيعة وبين فهر بن زيد وحونكة بن أسلم ، وهم بطنان من قضاعة ، شيء فأخافهم ، حتى لحقوا باليمن ، وخلّوا عن بلاد قضاعة ، وهم اليوم باليمن . قال قصي بن كلاب ، وقد كره ما فعل رزاح بهم ، شعرا:
ألا من مبلغ عني رزاحا * فإني قد لحيتك في اثنتين
لحيتك في بني فهر بن زيد * كما فرّقت بينهم وبيني
وحوتكة بن أسلم أنّ قوما * عنوهم بالمساءة قد عنوني

اعتراف عارف في أشرف المواقف
حدثنا عبد الرحمن بن علي ، نبّأ أبو بكر الصوفي ، أنا أبو سعيد الخير ، انا ابن باكويه ، نبأ محمد بن هارون ، نبأ ابن مسروق ، نبأ محمد بن الحسين ، عن وداع بن مرجا ، عن صالح المري ، قال : وقف مطرف وبكر بن عبد الله بعرفة ، فقال مطرف : اللهم لا تردهم اليوم من أجلي . وقال بكر : ما أشرفه من موقف ، وأرضاه لأهله ، لولا أني فيهم.
ورفع الفضيل رأسه إلى السماء ، وقد قبض على لحيته وهو يبكي بكاء الثكلى ويقول:
وا سوأتاه منك وإن عفوت.

وممن مات حياء من الله تعالى

ما روينا من حديث ابن باكويه ، قال : سمعت علي بن هزارمرد يقول : سمعت ابن محبوب تلميذ أبي الأبّان يقول : سمعت أبا الأبّان يقول : ما رأيت خائفا إلا رجلا واحدا ، كنت بالموقف فرأيت شابا مطرقا منذ وقف الناس إلى أن سقط القرص ، فقلت : يا هذا ، ابسط يديك للدعاء فقال لي : ثمّ وحشة ؟ فقلت له : فهذا يوم العفو من الذنوب ، قال:
فبسط يده ، ففي بسطه يديه وقع ميّتا.

ومن باب المجاهدة

ما رويناه من حديث المالكي ، عن الرياشيّ قال : رأيت أحمد بن المعدل في الموقف ، في يوم شديد الحرّ ، وقد ضحى للشمس فقلت : يا أبا الفضل ، لو أخذت بالتوسعة ، فأنشد يقول:
ضحيت له كي أستظلّ بظلّه * إذا الظل أمسى في القيامة قالصا
فوا أسفا إن كان سعيك باطلا * ويا حسرتا إن كان حظك ناقصا

ومن باب من دعا ربه في حياة قلبه

ما رويناه من حديث ابن باكويه ، عن أحمد بن عطاء ، عن الحسن بن أحمد ، قال:
قال المأمون : قال إبراهيم بن أدهم : قال لي أبو عباد الرملي : حضرت عرفات ، فوقفت أدعو فإذا أنا بفتى قد أقبل فقال : أقوام يصلون إلى هذا الموضع يكون فيهم من الفضل ما يسألون الله عز وجل الحوائج ، إلا جعلوا حوائجهم في حياة قلوبهم ؟ ثم قال لي : أنت أبو عباد الذي تركت الشهوات منذ ثلاثين سنة ، فعند تركك أفدت فائدة ، فبكيت وقلت : ما أرى ، فقال : هيهات أبى الله أن يجعل ذخائره لمن الدنيا والآخرة في قلبه.
أنشدنا علي بن عمرو الكاتب بقرطبة قال : أنشدني أبو القاسم بن بشكوال المحدّث لأبي وهب عبد الرحمن بن الفاضل ، وقبره بقرطبة مثل قبر معروف ببغداد ، في إجابة الدعاء عنده:
برئت من المنازل والقباب * فلم يعسر على أحد حجابي
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي * سماء الله أو قطع السحاب
فأنت إذا أردت دخلت بيتي * عليّ مسلّما من غير باب

لأني لم أجد مصراع باب * يكون من السماء إلى التراب
ولا انشق الثرى عن عود نحت * أؤمل أن أشد به ثيابي
ولا خفت الإباق على عبيدي * ولا خفت الرهاص على دوابي
ولا حاسبت يوما قهرمانا * فأخشى أن أغلّب في الحساب
ففي ذا راحة وبلاغ عيش * فدأب الدهر ذا أبدا ودأبي
حدثنا عبد الرحمن بن علي ، نبأ أبو غالب محمد بن الحسين الماوردي ، أنا أبو علي ، نبأ عبد الله بن محمد ، نبأ أبو إسحاق الهجمي ، نبأ محمد بن زكريا الغلابي ، نبأ إبراهيم بن عمر قال : خرج أبو نواس في أيام العشر يريد شراء أضحية ، فلما صار في المربد إذا هو بأعرابي قد أدخل شاة له يقدمها كبش فاره ، فقال : لأجرّبنّ هذا الأعرابي ، فأنظر ما عنده ، فإنه أظنه عاقلا ،
فقال أبو نواس:
أيا صاحب الشاة الذي قد يسوقها * بكم ذاكم الكبش الذي قد تقدّما
فقال الأعرابي:
أبيعكه إن كنت ممن تريده * ولم تك مزّاحا بعشرين درهما
فقال أبو نواس:
أجدت رعاك الله ردّ جوابنا * فأحسن إلينا إن أردت التكرّما
فقال الأعرابي:
أحطّ من العشرين خمسا فإنني * أراك ظريفا فاقتضيه مسلّما
قال : فدفع إليه خمسة عشر درهما ، وأخذ كبشا يساوي ثلاثين درهما.
حدثنا محمد بن محمد بن محمد ، نبأ أبو القاسم الحريري ، أنا أبو بكر محمد بن علي المقري ، انا ابن دوست العلّاف ، نبأ صفوان ، عن عبد الله بن صفوان القرشي ، عن أبي الحسن الأزدي ، قال : وجدت على قبر بشاطئ الفرات مكتوبا:
يا عجبا للأرض ما تشبع * وكل حيّ فوقها يهجع
ابتلعت عادا فأفنتهم * وبعد عاد هلكت تبّع
وقوم نوح أدخلت بطنها * فظهرها من جمعهم بلقع
يا أيها الراجي لما قد مضى * هل لك فيما قد مضى مطمع
وحدثنا يوسف بن مالك ، نبأ ابن جهور ، نبأ أبو القاسم الحريري ، عن محمد بن علي بن دوست ، عن ابن صفوان ، عن محمد بن الحسين ، عن أبي عمر العمري ، عن

عبد الله بن صدقة بن مرداس البكري ، عن أبيه قال : نظرت إلى ثلاث قبور على شرف من الأرض ، فإذا على أحدهم مكتوب بنقش عجيب الصنع:
وكيف يلذ العيش من هو عالم * بأن إله العرش لا بدّ سائله
فيأخذ منه ظلمة لعباده * ويجزيه بالخير الذي هو فاعله
وعلى الثاني مكتوب:
وكيف يلذّ العيش من كان موقنا * بأن المنايا بغتة ستؤاجله
فتسلبه ملكا عظيما ونخوة * وتسلبه البيت الذي هو آهله
وعلى الثالث مكتوب:
وكيف يلذ العيش من كان صائرا * إلى حدث تبلى الشباب مناهله
ويذهب رسم الوجه من بعد صونه * ويبلى سريعا جسمه ومفاصله

خبر النجباء

كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر نجيبا زادت هذه الأمة في النجباء على سائر الأمم بخمسة نجباء ، فإنه لكل نبي سبعة نجباء إلا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فإنه كان له اثنا عشر نجيبا ، وهم:
علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وأبو بكر الصدّيق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وجعفر بن أبي طالب ، ومصعب بن عمير ، وبلال ، وعمّار بن ياسر ، والمقداد ، وعثمان بن مظعون ، وشك سفيان بن عيينة في عبد الله بن مسعود.
روينا أسماءهم من حديث الدينوري عن محمد بن عيسى المدائني عن سفيان بن عيينة ، عن كثير ، عن إسماعيل ، عن أبي إدريس ، عن المسيّب ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.
وروينا عدتهم بهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما نقباء هذه الأمة

فروينا من حديث ابن مرو ، عن محمد بن عيسى ، عن سفيان بن عيينة ، عن معمر ، قال : النقباء كلهم من الأنصار ، والحواريون كلهم من قريش . فأما النقباء:
فسعد بن خيثمة من بني عمر ، وابن عوف ، وسعد بن الربيع من بني النجار ،

وسعد بن عبادة من بني عبد الأشهل ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، والبرّاء بن معرور ، ورافع بن مالك الزرقي ، وعبد الله بن عمرو بن حزام ، وهو أبو جابر ، وعبادة بن الصامت من بني سلمة ، والمنذر بن عمرو من بني ساعدة . وقد ذكرنا عدد الحواريين في أول الكتاب ، وكذلك ذكرنا النقباء والنجباء.

ومن باب من جوزي هنا بخير عمله

ما روينا من حديث المالكي ، عن جعفر بن محمد ، وأفادنا علّان منعما ، حدثنا يزيد بن الحكيم عن الحكم بن أبّان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتى سائل امرأة وفي فمها لقمة ، فلفظتها فناولتها السائل ، فلم تلبث أن رزقت غلاما ، فلما ترعرع جاء ذئب فاحتمله ، فخرجت تعدو في أثر الذئب وهي تقول : ابني ابني ، فأمر الله ملكا أن الحق الذئب وخذ الصبي من فيه ، وقل لأمه : إن الله يقرئك السلام ، وقل : هذه لقمة بلقمة. «

ومن باب المواعظ على مجالس الذكر والصبر على الحق

ما روينا من حديث أبي الدنيا ، عن محمد بن الحسين ، عن أبي يعقوب الضرير ، قال : حدثني عمار بن الراهب ، قال : رأيت سكينة الطفاوية في منامي فقلت : مرحبا يا مسكينة ، فقالت : هيهات يا عمار هيهات ، ذهبت المسكنة ، وجاء الغنى الأكبر ، قلت:
هيه ، قالت : ما تسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها تظلّ فيها حيث تشاء ، قال : قلت : وبم ذلك ؟ قالت : بمجالس الذكر والصبر على الحق . قال عمار : وكانت تحضر معنا مجلس عيسى بن زاذان بالأيلة تنحدر من البصرة حتى تأتيه قاصدة . قال عمار : قلت : يا مسكينة ، فما فعل عيسى بن زاذان ؟ قال : فضحكت وقالت : قد كسي حلّة البهاء ، وطافت عليه بأباريق حوله الخدام ، ثم حلي . وقيل : يا قارئ ارقأ ، فلعمري لقد براك الصيام . انتهى.

ذكر إسلام الجارود وما جرى له من ذكر قس في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم

روينا من حديث السلّمي وهو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى ، قال : نبأ أبو العباس الوليد بن سعيد بن حاتم بن عيسى الفسطاطي بمكة ، قال : انا محمد بن عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ، انا أبي عيسى بن محمد بن سعد القرشي ، عن علي بن سليمان بن علي ، عن علي بن عبد الله بن العباس ، عن عبد الله بن العباس ،

قال : قدم الجارود بن عبد الله وكان سيدا في قومه ، مطاعا عظيما في عشيرته ، مطاع الأمر ، رفيع القدر ، ظاهر الأدب ، بارع الفضل ، شامخ الحسب ، بديع الجمال ، كثير الخطر ، حسن الفعال ، ذا مال ومنعة ، في وفد عبد القيس من ذوي الأخطار والأقدار والفضل والإحسان والفصاحة والبرهان ، وكل رجل منهم كالنخلة السّحوق ، على ناقة كالفحل العتيق ، وقد جنبوا الجياد ، وأعدّوا للجلاد ، جادّين في سيرهم ، حازمين في أمرهم ، يسيرون ذميلا ، ويقطعون ميلا فميلا ، حتى أناخوا عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل الجارود على قومه ، والمشيخة من بني عمه ، فقال : يا قوم ، هذا محمد الأغر الأعز ، سيد العرب ، وخير سلالة عبد المطلب ، فإذا دخلتم عليه ، ووقفتم بين يديه ، فأحسنوا إليه السلام ، وأقلّوا عنده الكلام . فقالوا : أيها الملك الهمام ، والأسد الضرغام ، لن نتكلم إذا حضرت ، ولن نجاوز إذا أمرت ، فقل ما شئت فإنّا سامعون ، واعمل ما شئت فإنّا تابعون ، وأمر بما تراه فإنا طائعون.

فنهض الجارود في كل كميّ صنديد ، قد دوّموا العمائم ، وتردّوا بالصمائم ، يجرّون أسيافهم ، ويسحبون أذيالهم ، يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون مناقب الأخيار ، لا يتكلمون طويلا ، ولا يسكتون عيّا ، إن أمرهم ائتمروا ، وإن زجرهم ازدجروا ، كأنهم أسد غيل ، يقدمها ذو لبوة مهول ، حتى مثلوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما دخل القوم المسجد ، وأبصرهم أهل المشهد ، لفّ الجارود أمام النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسر لثامه ، وحسن سلامه ، ثم أنشأ يقول:

يا نبيّ الهدى أتتك رجال * قطعت فدفدا وآلا فآلا
وطوت نحوك الضحاضح طرّا * لا تخال الكلال فيك كلالا
كل دهماء يقصر الطرف عنها * أرفلتها قلاصنا إرفالا
وطوتها الحيا تجمّح فيها * بكماة كأنجم تتلألأ
تبتغي دفع يوم بؤس عبوس * أوجل القلب ذكره ثم هالا

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع منه فرح فرحا شديدا ، وقرّبه وأدناه ، ورفع مجلسه وحيّاه ، وأكرمه وحباه ، وقال : « يا جارود ، لقد تأخر بك وبقومك الموعد ، وطال بكم الأمد » . قال : والله يا رسول الله لقد أخطأ من أخطأك قصده ، وعدم رشده ، وتلك أيم الله أكبر خيبة ، وأعظم جوبة ، والرائد لا يكذب أهله ، ولا يغش نفسه ، لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذي بعثك بالحق نبيا ، واختارك للمؤمنين وليّا ، لقد وجدت وصفك في الإنجيل ، ولقد بشّر بك ابن البتول ، وطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك وأرسلك ،

ولا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مدّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله.
قال : فآمن الجارود ، وأمن من قومه كل سيد ، وسرّ بهم النبي صلى الله عليه وسلم سرورا ، وابتهج حبورا ، وقال : « يا جارود ، هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ » ، قال : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين قومي كنت أقفو أثره ، وأطلب خبره ، كان قسا سبطا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحا إذا خطب ، ذا شيبة حسنة ، عمره سبعمائة سنة ، يتقفر القفار ، ولا تكنّه دار ، ولا يقرّه قرار ، يتحسى في تقفره بيض النعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ، ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يقرّ من الوجدانية ، مقرا لله بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، وأعبد من تعبّد في الحقب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العالم بشرق وغرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كأني أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب الذي هو له ، ليبلغن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله.
وأنشأ يقول:
هاج بالقلب من هواده ادكار * وليال خلالهنّ نهار
ونجوم يحثها قمر اللي * ل وشمس في كل يوم تدار
ضوأها يطمس العيون وإرعا * د شديد في الخافقين مطار
وغلام وأشمط ورضيع * كلهم في التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخي * ر وأخرى خلت فهنّ قفار
وكثير مما يقصّر عنه * حوشة الناظر الذي لا يحار
والذي قد ذكرت دل على الل * ه نفوس لها هدى واعتبار
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام مونق ، ما أظن أني أحفظه ، فهل فيكم من يحفظ لنا منه شيئا يا معاشر المهاجرين والأنصار ؟ » ، فوثب أبو بكر رضي الله عنه قائما وقال : يا رسول الله ، إني أحفظه وكنت حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ حين خطب فأطنب ، ورغّب ورهّب ، وحذّر وأنذر ، وقال في خطبته : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم شيئا فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء

وأمهات ، وأحياء وأموات ، جمع وأشتات ، وآيات بعد آيات . إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات أفجاج ، وبحار ذات أمواج.
ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ أقسم قس قسما ، حقا لا حانثا فيه ولا آثما ، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبيا قد حان حينه ، وأظلكم أوانه ، وأدرككم إبانه ، فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه.
ثم قال : تبا لأرباب الغفلة ، والأمم الخالية ، والقرون الماضية.
يا معشر إياد ، أين الآباء والأجداد ؟ وأين المريض والعواد ؟ وأين الفراعنة الشداد ؟
أين من بنى وشيّد وزخرف ونجّد ؟ أين المال والولد ؟ أين من بغى وطغى وجمع فأوعى ؟
وقال : أنا ربكم الأعلى . ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله ، ومزّقهم بطوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خالية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا ، بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود.
ثم أنشأ يقول:
في الذاهبين الأولي * ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ * ولا من الباقين عابر
أيقنت إني لا محا * لة حيث صار القوم صائر
قال : ثم جلس ، وقام رجل من الأنصار بعده كأنه قطعة جبل ذو هامة عظيمة ، وقامة جسيمة ، قد دوّم عمامته وأرخى ذؤابته ، منيف أنوف أشدق ، أجش الصوت ، فقال : يا سيد المرسلين وصفوة رب العالمين ، لقد رأيت من قس عجيبا ، وشهدت منه أمرا غريبا.
فقال : « ما الذي رأيته وحفظته عنه ؟ » ، فقال : خرجت في الجاهلية أطلب بعيرا إليّ شرد مني ، أقفو أثره ، وأطلب خبره في تنائف حفاف ذات دعادع وزعازع ، ليس لها للركب مقيل ، ولا لغير الجن عليها سبيل ، وإذا أنا بموئل مهول في طود عظيم ، ليس فيه إلا البوم ، وأدركني الليل فولجته مذعورا ، لا آمن فيه حتفي ، ولا أركن إلى غير سيفي ، فبتّ بليل طويل كأنه بليل موصول ، أرقب الكواكب ، وأرمق الغيهب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول:
يا أيها الراقد في الليل الأجم * قد بعث الله نبيا في الحرم

من هاشم أهل الوفاء والكرم * يجلو دجنّات الليالي والبهم
قال : فأدرت طرفي فما رأيت له شخصا ، ولا سمعت له فحصا ، فأنشأت أقول:
يا أيها الهاتف في داجي الظلم * أهلا وسهلا بك من طيف ألم
بيّن هداك الله في اللحن الكلم * ما ذا الذي تدعو إليه يغتنم
قال : فإذا أنا بنحنحة ، وقائل يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحبور ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطرف الأحور ، صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله ، فذاك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض ، أهل المدر والوبر ، ثم أنشأ يقول:
الحمد لله الذي * لم يخلق الخلق عبث
لم يجعلنا سدى * من بعد عيسى واكترث
أرسل فينا أحمدا * خير نبي قد بعث
صلى عليه الله ما * حجّ له ركب وحث
قال : فذهلت عن البعير ، واكتنفني السرور ، ولاح لي الصباح ، واتسع الأوضاح ، فتركت الغور وأخذت الجبل ، فإذا أنا بالفنيق يشقشق النوق ، فملكت خطامه ، وعلوت سنامه ، فمرح طاعة ، وهزهزته ساعة ، حتى إذا لعب ، وذل منه ما صعب ، وحميت الوسادة ، وبردت المزادة ، فإذا الزاد قد هش له الفؤاد ، وبركته فبرك في روضة خضراء نضراء عطراء ، ذات حوادر ، وقربان وعبقران ، وعبيتران ، وحلي ، وأقاحي جثجاث نوار ، وشقائق وبهار ، كأنما قد بات الجو بها مطيرا ، وباكرها المزن بكورا ، فخلالها شجر ، وقرارها نهر ، فجعل يرتع أبّا ، وأصيد ضبّا ، حتى إذا أكلت وأكل ، ونهلت ونهل ، وعللت وعل ، حللت عقاله ، وعلوت حلاله ، وأوسعت مجاله ، فاغتنم الحملة ، ومرّ كالنبلة ، يسبق الريح ، ويقطع عرض الفيح ، حتى أشرف بي على واد ، وشجر عاد مورقة ومونقة ، قد تهدل أغصانها كأنما يريدها حب الفلفل ، فدنوت فإذا أنا بقسّ بن ساعدة في ظل شجرة ، في يده قضيب من أراك ينكث به الأرض ، وهو يترنم ويقول:
يا ناعي الموت والملحود في جدث * عليهم من بقايا برّهم خرق
دعم فإنّ لهم يوما يصاح بهم * فهم إذا نبّهوا من نومهم حرق
حتى يعودوا لحال غير حالهم * خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها المنهج الخلق
قال : فدنوت منه وسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، وإذا بعين حزارة في أرض

خوّارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين يلوذان به ، ويتمسحان بأثوابه ، وإذا أحدهم يسبق صاحبه إلى الماء فتبعه الآخر ، وطلب الماء ، فضربه بالقضيب الذي بيده وقال : ارجع ثكلتك أمك حتى يشرب الذي ورد قبلك ، فرجع ، ثم ورد بعده فقلت له : ما هذان القبران ؟
فقال : هذان قبرا أخوين لي ، كانا يعبدان الله معي في هذا المكان ، لا يشركان بالله شيئا ، فأدركهما الموت ، فقبرتهما ، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما . ثم نظر إليهما فتغرغرت عيناه بالدموع ، فانكبّ عليهما وجعل يقول:
خليليّ هيّا طالما قد رقدتما * أجدّكما لا تقضيان كراكما
ألم تريا أني بسمعان مفرد * وما لي فيه من خليل سواكما
مقيم على قبريكما لست بارحا * طوال الليالي أو يجيب صداكما
أأبكيكما طول الحياة وما الذي * يردّ على ذي عولة إن بكاكما
كأنكما والموت أقرب غائب * بروحي في قبريكما قد أتاكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية * لجدت بنفسي أن تكون فداكما
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله قسّا ، إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده. «
وأنشدوا في الموت:
ذهب الأحبة بعد طول تودّد * ونأى المزار فأسلموك وأقلعوا
خذلوك أفقر ما تكون بغرة * لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة * عنك الأحبّة أعرضوا وتصدعوا
وأنشدوا:
يا أيها الواقف بالقبور * بين أناس غيب حضور
قد سكنوا في خرب معمور * بين الثرى وجندل الصخور

لا تك عن خطبك في غرور

وأنشدوا:
صرت بعد النعيم في * منزل البعد والقلا
وجفاني أحبّتي * حين غيّبت في الثرى
أخلق الموت جدّتي * ومحا حسني البلا
ومن ذلك:
سلب الموت بهجتي وشبابي * وجفاني في غربتي أحبابي
بعد ملك وظل عيش عجيب * صرت رهنا لجندل وتراب

حدثنا محمد بن محمد بن محمد ، ثنا الحريري ، ثنا أبو بكر الخياط ، ثنا ابن دوست ، ثنا ابن صفوان ، ثنا أبو بكر القرشي ، عن أبي جعفر القرشي قال : خرج رجل إلى مقابر البصرة ، فرأى قبرا قد نقش عليه شعر:
يا غافل القلب عن ذكر المنيّات * عما قليل ستثوى بين أموات
فاذكر محلك من قبل الحلول به * وتب إلى الله عن لهو ولذّات
إن الحمام له وقت إلى أجل * فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئنّ إلى الدنيا وزينتها * قد حان للموت يا ذا اللبّ أن يأتي

حدثنا أبو الحسن علي بن سعيد بن عبد الله اللخمي القرباني ، حدثني أبو الطاهر بن محمد بن أحمد ، ثنا أبو نصر بن علي ، حدثني ابن النحاس ، عن ابن وسيم ، عن إبراهيم بن عرفة ، عن العباس بن محمد ، عن عثمان بن عمر ، عن شعبة ، عن ابن جبير ، عن ابن عباس ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار إلّا الجنة أو النار. «

أخبرنا عبد الرحمن بن علي كتابة ، نبأ إبراهيم بن دينار ، انا إسماعيل بن محمد ، عن عبد العزيز بن أحمد ، ثنا ابن حبان ، نبأ أبو سعيد الثقفي ، عن ذي النون المصري ، قال:
كنت في الطواف إذ طلع نور لحق بعنان السماء ، فتعجبت وأتممت طوافي ، ووقفت أتفكّر في ذلك النور ، فسمعت صوتا حزينا ، فنظرت فإذا أنا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:
أنت تدري يا حبيبي * يا حبيبي أنت تدري
ونحول الجسم والدمع * يبوحان بسرّي
يا حبيبي قد كتمت الحب * حتى ضاق صدري

قال ذو النون : فشجاني ما سمعت ، ثم انتحبت وبكت وقالت : يا إلهي وسيدي ومولاي ، بحبك لي إلا ما غفرت لي . قال : فتعاظمني ذلك ، فقلت : يا جارية ، أما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي ؟ فقالت : إليك عني يا ذا النون ، أما علمت أن لله عز وجل قوما يحبهم ويحبونه ؟ أما سمعت الله يقول : فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له . فقلت : من أين علمت أني ذو النون ؟

فقالت : يا بطّال ، جالت القلوب في ميدان الأسرار ، فعرفتك بمعرفة الجبّار . ثم قالت لي:
انظر إلى من خلفك ، فأدرت وجهي ، فلا أدري السماء اقتلعتها أم الأرض ابتلعتها.
روينا من حديث ابن باكويه ، عن عبد العزيز بن الفضل ، عن عبد الجبار بن عبد الصمد ، عن الحسين بن أحمد بن هارون ، عن محمد بن عبد الله ، عن أبي شعيب قال:
سألت إبراهيم بن أدهم الصحبة إلى مكة فقال لي : على شريطة على أن لا ينظر إلا لله وبالله ، فشرطت له ذلك على نفسي . فخرجت معه ، فبينا نحن في الطواف إذا بغلام قد افتتن الناس بحسنه وجماله ، وجعل إبراهيم يديم النظر إليه ، فلما طال ذلك قلت : يا أبا إسحاق ، أليس شرطت على أن لا ننظر إلا لله وبالله ؟
قال : بلى ، قلت : فإني أراك تديم النظر إلى هذا الغلام ، فقال : هذا ابني وولدي ، وهؤلاء غلماني وخدمي الذين معه ، ولكن انطلق وسلّم عليه مني ، وعانقه عني ، فمضيت إليه وسلّمت عليه ، فجاء إلى والده فسلّم عليه ، ثم صرفه مع الخدم ، وقال : ارجع وانظر أيش يراد بك ؟
وأنشأ يقول:
هجرت الخلق طرّا في رضاكا * وأيتمت البنين لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحب إربا * لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

حدثنا يونس ، عن أبي منصور ، عن أبي الحسين بن يوسف قال : قال لنا أبو الحسن بن صخر : تعلق رجل بالستر وقال:
ستور بيتك ذيل الأمن منك وقد * علّقتها مستجيرا أيها الباري
وما أظنك لما أن عممت بها * خوفا من النار تدنيني من النار
وها أنا جار بيت أنت قلت لنا * حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

وأنشدنا سليمان بن خليل بمكة لأبي الفرج بن علي بن محمد بن الجوزي الإمام العالم:
تملكوا واحتكموا * وصار قلبي لهم
تصرّفوا في ملكهم * فلا يقال ظلموا
إن وصلوا محبّهم * أو قطعوا فهم هم
صبرا لما شاءوا وإن * ساء الذي قد حكموا
قد أودعوا سرّ فؤادي * حبّهم واستكتموا
يا أرض سبع خبّري * وحدّثيني عنهم
يا ليت شعري إذ غدوا * أأنجدوا أم اتهموا
تبكيهم أرض منى * وتشتكيهم زمزم

ما ضرّهم حين سروا * لو وقفوا وسلّموا
يشوقني واديهم * وضالهم والسلم
وأنشدنا أيضا في هذا الباب:
يا صاحبي إن كنت لي أو معي * فعد إلى أرض الحمى ترتع
وسل عن الوادي وأربابه * وانشد فؤادي في ربى المجمع
حيّ كثيب الرمل رمل الحمى * وقف وسلّم لي على لعلع
واسمع حديثا قد روته الصّبا * سنده عن بانة الأجرع
وابك بما في العين من فضلة * ونب فدتك النفس عن مدمعي
وانزل على الشيح بواديهم * واشمم نبات البلد البلقع
عند منى كنت وكان النوى * فصمّ إلا عنهم مسمعي
لهفي على طيب ليال خلت * عودي تعودي مدنفا قد نعي
إذا تذكرت زمانا مضى * فويح أجفاني من أدمعي

وأنشدنا لأبي القاسم المطرزي:
صحا كل عذريّ الغرام عن الهوى * وأنت على حكم الصبابة نازل
نزلنا على التوديع من دارة الحمى * فضنت علينا بالسلام المنازل
وقال المبرّد : أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسرّ ، ما بلغني عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه:
ولا تفش سرك إلا إليك * فإن لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

ولبعضهم في هذا الباب من قصيدة:
فلا تود عن الدهر سرّك أحمقا * فإنك إن أودعته منه أحمق
وحسبك في سر الأحاديث واعظا * من القول ما قال الأديب الموفق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السرّ أضيق
روينا من حديث الهاشمي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
»ألا إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، والآخرة قد تحمّلت مقبلة ، ألا وإنكم لفي يوم عمل ليس فيه حساب ، ويوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض ، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب ، وإن للدنيا أبناء ، وللآخرة أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا . إن شرّ ما أتخوف عليكم اتّباع الهوى ، وطول

الأمل ، فاتّباع الهوى يصرف بقلوبكم عن الحق ، وطول الأمل يصرف همتكم إلى الدنيا ، وما بعدهما لأحد من دنيا ولا آخرة. «

ومن حديث أنس بن مالك قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من بيت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات ، فإذا وجد الإنسان قد نفد أجله ألقى عليه غمرات الموت ، فغشيته كرباته ، وغمرته غمراته ، فمن أهل بيته الناشرة شعرها ، والضاربة وجهها ، والباكية بشجوها ، والصارخة بويلها ، فيقول ملك الموت عليه السلام : ويلكم ممن الفزع ؟ وفيم الجزع ؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقا ولا قرّبت له أجلا ، ولا أتيته حتى أمرت ، ولا قبضت روحه حتى استأمرت ، وإن لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحدا. «

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فوالذي نفس محمد بيده ، لو يرون مكانه ، ويسمعون كلامه ، لذهلوا عن ميّتهم ، ولبكوا على أنفسهم ، حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش وهو ينادي : يا أهلي ويا ولدي ، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال من حلّه ومن غير حلّه ، ثم خلّفته لغيري ، فالمهنّاة له ، والتبعة عليّ ، فاحذروا مثل ما حل بي. «
ومن باب الكرم الإلهي ما روي عن موسى عليه السلام

حدثنا محمد بن قاسم ، نبأ عمر بن عبد المجيد قال : بلغنا أن موسى عليه السلام سجد في بعض تقرّبه وقال : يا رب ، فقال له ربه سبحانه وتعالى : لبيك يا موسى ، فلما سمع موسى عليه السلام تلبية الحق له ، سجد ثانية وقال في سجوده : سبحانك سبحانك أنت أنت ، ومن عبدك حتى تجيبه بالتلبية ؟ فقال له ربه سبحانه وتعالى : يا موسى ، إني آليت على نفسي أن لا يدعوني عبدي بالربوبية إلا أجبته بالتلبية ، فقال موسى : يا رب ، هذا جعلته للطائعين من عبادك دون المذنبين ؟ فقال له سبحانه : يا موسى ، إذا أجبت المحسن لأجل إحسانه ولم أجب المسئ لأجل عصيانه ، فمنعته من فضلي ونعمتي ، فأين عطفي وكرمي ؟

ومن جيد الشعر في الجود والشجاعة
ومن عجب أنّ السيوف لديكم * تحيض دماء والسيوف ذكور

وأعجب من ذا أنها في أكفّكم * تأجّج نارا والأكفّ بحور
حدّث أبو ذرّ وأحمد بن يحيى ، والسياق لأبي ذرّ ، أن ابن يحيى النديم قال : دعاني أمير المؤمنين المتوكل على الله ذات يوم وهو في بعض راحاته ، فقال : يا ابن يحيى ، أنشدني قول عمارة في أهل بغداد ،

فأنشدته:
من يشتري مني ملوك محرّم * أبع حسنا وابني هشام بدرهم
وأعطي رجالا بعد ذاك زيادة * وأمنح دينارا بغير تندّم
فإن طلبوا مني الزيادة زدتهم * أبا دلف والمستطيل بن أكثم
فقال المتوكل : ويلي على ابن النوال على عقبيه يهجو شقيق دولة ولد العباس.

ثم قال لي : يا ابن يحيى ، هل عندك من المديح في أبي دلف القاسم بن عيسى شيء ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قول الأعرابي الذي يقول فيه:
أبا دلف إن السماحة لم تزل * مغلّلة تشكو إلى الله غلها
فبشّرها ربي بميلاد قاسم * فأرسل جبريلا إليها فحلّها

ومن هذا الباب قول القائل:
حرّ إذا جئته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها * إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

وقال الآخر:
فتى عاهد الرحمن في بذل ماله * فلست تراه الدهر إلا على العهد
فتى قصرت آماله عن فعاله * وليس على الحر الكريم سوى الجهد
هذا المديح أقرب للديانة من الكرم ، فإن عطاؤه إنما هو من أجل الوفاء بعده من الله حتى لا يكون من الذين ينقضون عهد الله ، والكريم سجيته الكرم ، فلا يحتاج إلى القسم عليه إلا لعلّة لنفسه ، فما وفّى هذا الشاعر مدح هذا في الكرم ما تصوّر له في خاطره ، فهذا اللفظ دون ما في القصد.

وقال الآخر في هذا الباب:
أرى نفسي تتوق إلى أمور * يقصّر دون مبلغهنّ مالي
فنفسي لا تطاوعني لبخل * ومالي لا يبلّغي فعالي

وقال آخر:
إذا ما أتاه السائلون توقّدت * عليه مصابيح الطلاقة والبشر

له في ذرى المعروف نعمى كأنها * مواقع ماء المزن في البلد القفر
ينظر إلى البيت الأول قول زهير:
تراه إذا ما جئته متهللا * كمثل الذي يعطي الذي أنت سائله
فإن مدحه بالفرح بما يعطي نقص به إذا جاء مطلقا ، فلو قيّده من أجل ما يجد ما يعطي لكان أشعر.

ومن جيّد الشعر ما قال القائل:
لئن ساءني أن نلتني بمساءة * لقد سرّني أني خطرت ببالك
لأن الأول قد أقرّ بأنه إساءة ثم اعتذر.
ومن حسن الشعر ما قال الآخر في باب الشكوى:
فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت * أشكو من الطول ما أشكو من القصر

وأحسن منه ما قلنا:
شغلي بها وصلت الليل أو هجرت * فما أبالي أطال الليل أو قصرا
فإن الأول شغله بطول الليل وقصره من أجلها ، فهو فاقد لها في زمن الاشتغال بغيرها ، والثاني شغله بها ومن سواها تبغ.

وأحسن منه ما قلنا:
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيمتي في المحشر
فإن الأول جعله مطلوبا قد نهب حقها ولا تخاصم ، والثاني جعل الحق له ، وجعل المحبوب المطلوب ، فالخصومة لازمة.

حدثني عبد الله بن رحلون الساري قال:
علّم بعض الشعراء من أصحابنا زرزورا الكلام حتى نطق لسانه ، فعلّمه الدعاء لخليفة الوقت ، وسورا من القرآن . ومن جملة ما علّمه بيتان في الفصد ، وأحضر بين يدي الزرزور هيئة الفصد وحركاته ، حتى ارتسمت في خياله ، فصار الزرزور إذا رأى تلك الحالة أنشد البيتين ، ثم أعلم حاجب الإمام بذلك ، ودفع إليه الزرزور . فلما علم الحاجب أن أمير المؤمنين يفتصد استأذن في إدخال الزرزور عليه ، فأذن له ، فأحضر الزرزور في قفصه ، قال : النصر والتمكين لأمير المؤمنين . فلما جاء الفاصد ، ورأى الآلات قد حضرت ، وأخرج أمير المؤمنين يده للحجّام ، وأخذ المبضع ، وهمّ أن يفصده ، نطق الزرزور فقال:

أيها الفاصد رفقا * بأمير المؤمنين
إنما تفصد عرقا * فيه محيا العالمين
فأعجب الخليفة به ، وأمر لصاحبه بألفي دينار ، وقال : لو زاد زدناه.
وحكي أن ابن اللبانة كان وزيرا للمعتمد بن عبّاد ملك الأندلس ، فلما قبض على المعتمد وتفرّق شمله ، مرّ ابن اللبانة على بعض أولاده بدكان صائغ وهو ينفخ في الفحم ، فبكى وتذكّر ما كان فيه من الملك والنعمة ، فقبّل يديه ،
وأنشده لنفسه:
صرفت في آلة الصيّاغ أنملة * لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى * هول رأيتك فيه تنفخ الفحما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها * فتستقلّ الثريّا أن تكون فما
وددت إذ نظرت عيني إليك به * لو أن عينيّ تشكو بعد ذلك عما
ما حطّك الدهر لما حطّ من شرف * ولا تحيف من أخلاقك الكرما
لح في العلا كوكبا إن لم تلح قمرا * وقم بها ربوة إن لم تقم علما
واصبر فربّما أحمدت عاقبة * من يلوم الصبر يحمد غبّ ما لزما
والله لو أنصفتك الشمس لانكسفت * ولو وفي لك دمع العين لانسجما

فعمل في قلبه كلامه ، وثار بقلعة مراكش ، وأقام بها إلى أن قتل.
وذكر الفتح بن خاقان أن الراضي ولد المعتمد بن عبّاد سلطان الأندلس كان معتكفا على درس العلوم والاشتغال بها ، فأراد منه أبوه المعتمد على الله محمد بن عبّاد أن يقدّمه على جيش لمحاربة بادس بن حبوس بغرناطة ، فتمارض الراضي على أبيه ، وامتنع لشغفه بالعلم ، فخرج المعتمد بنفسه لمحاربته ، وتخلّف ابنه الراضي ، فاتفق أن هزمه العدو فعاد إلى إشبيلية ، وهجر ابنه الراضي ، فكتب إليه ابنه الراضي يقول:
لا يكثرنك خطب الحادث الجاري * فما عليك بذاك الخطب من عار
ما ذا على ضيغم أمضى عزيمته * إن خانه حدّ أنياب وأظفار
عليك للناس أن تبقى لهم سندا * وما عليك لهم إسعاد أقدار
لو يعلم الناس حقا أن تدوم لهم * لم يتحفوك بشيء غير أعمار

فأجابه أبوه المعتمد على الله يهزأ به:
الملك في طيّ الدفاتر * فيجلّ عن قود العساكر
طف بالسرير مسلّما * وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعا * رف تهزم الحبر المقامر

وأطعن بأطراف اليرا * ع نصرت في ثغر المحابر
واضرب بسكين الدوا * ة مكان ماضي الحدّ باتر
أو لست أسطاليس إذ * ذكر الفلاسفة الأكابر
وكذاك إن ذكر الخلي * ل فأنت نحويّ وشاعر
وأبو حنيفة ساقط * في الرأي حين تكون حاضر
من هرمس من سيبوي * ه من ابن فورك إذ تناظر
هذي المكارم قد حوي * ت فكن لمن جاراك شاكر
واقعد فإنك عاصم * كأس وقل هل من مفاخر
لحجبت وجه رضاي عن * ك وكنت قد تلقاه سافر
أو لست تذكر وقت ور * قة حين قلبك ثم طائر
لا يستقرّ مكانه * وأبوه كالضرغام هادر
هلّا اقتديت بفعله * وأطعته إذ ذاك آمر
قد كان أبصر بالعوا * قب والموارد والمصادر

فأجابه ابنه الراضي رحمهما الله:
مولاي قد أصبحت كافر * بجميع ما تحوي الدفاتر
وفللت سكّين الدوا * ة وظللت للأقلام كاسر
وعلمت أن الملك وال * علياء في ضرب العساكر
لا ضرب أقوال بأق * وال ضعيفات مكاسر
قد كنت أحسب من سفا * ه أنّها أصل المفاخر
وإذا بها فرع لها * والجهل للإنسان غادر
وهجرت من سمّيتهم * وجحدت أنهم أكابر
إن كان في فضل فمن * ك فهل لذاك النور ساتر
أو كان في نقص فمنّ * ي غير أن الفضل غامر
ضحك الموالي بالعبي * د إذا تواصل غير صائر
لا تنس يا مولاي قو * لة ضارع الأقوال فاجر
ضبط الجزيرة عندما * نزلت بعفوتها العساكر
أيام ظلت بها فري * دا ليس غير الله ناصر
إذ كان يغشى ناظري * لمع الأسنة والبواتر
ويصمّ آذاني بها * قرع الحجارة بالحوافر

وهي الحضيض سهولة * لكن ثبتّ بها مخاطر
هب زلتي لنبوّتي * واغفر فإن الله غافر
فلم يزده ذلك إلا تماديا في هجرانه ، فكتب إليه أيضا:
مولاي أشكو إليك داء * أصبح قلبي به جريحا
سخطك قد زادني سقاما * فابعث لي الرضى مسيحا
قال : فرضي عنه وأدناه.
حدثنا يونس بن محمد بن طاهر ، أنبأ الحسن بن علي الجوهري ، عن أبي عمر بن حبويه ، عن أبي الحسن بن معروف ، عن الحسين بن الفهم ، عن محمد بن سعد ، عن عبد الله بن نمير ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : مرض أبو بكر رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه وقال : انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت في الإمارة ، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي ، فنظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه ، وإذا ناضح كان يسقي بستانا له ، فبعثنا بهما إلى عمر . قالت : فأخبرني رسولي أن عمر بكى وقال : رحمة الله على أبي بكر ، لقد أتعب من بعده تعبا شديدا.

وقال عبد الله بن عباس : سمعت أبا بكر الصدّيق يقول هذين البيتين:
إذا أردت شريف الناس كلّهم * فانظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس سيرته * وذاك يصلح للدنيا وللدين

وروينا عن السري السقطي أنه قال : كنت يوما بجامع المدينة ، فوقف عليّ شابّ ذو حشم وخول ، فسمعني أقول : عجبا لضعيف يعصي قويّا ، فنظرت إلى لونه قد تغيّر وانصرف ، ثم جاءني من الغد فسلّم عليّ وقال : سمعتك بالأمس تقول : عجبا لضعيف يعصي قويّا ، فما معناه ؟
قلت : فما أقوى من الله ولا أضعف من العبد وهو يعصيه ، فنهض فخرج ، ثم عاد من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد فقال : يا سيدي ، كيف الطريق إلى الله ؟
فقلت : إن أردت العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل ، وإن أردت الله فاترك كلّما سواه ، وليس إلا المساجد ، والخراب ، والمقابر .
فقام وهو يقول : والله لا سلكت إلا أصعب الطرق . ثم ولّى خارجا ، فلما كان بعد أيام أقبل إليّ جماعة كثيرة من الغلمان فقالوا : ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب ؟
قلت : لا أعرفه ، إلا أن رجلا جاءني من صفته كذا وكذا ، فجرى لي معه كذا وكذا ، ولا أعلم حاله .
فقالوا : نقسم عليك بالله متى عرفت حاله فعرّفنا ، ودلوني على منزله ، فبقيت سنة لا أعرف له خبرا ، فبينا أنا ذات ليلة بعد العشاء في بيتي إذا بطارق يطرق الباب ، فأذنت له في الدخول ، فإذا بالفتى عليه قطعة من كساء ،

وأخرى على عاتقه ، ومعه زنبيل فيه نوى ، فقبّل بين عيني وقال : يا سري ، أعتقك الله من النار كما أعتقتني من رق الدنيا . فأومأت إلى صاحبي أن امض إلى أهله فأخبرهم ، فمضى فإذا زوجته جاءت ومعها ولده وغلمانه ، فدخلت فألقت ولده في حجره وعليه حلي وحلل ، وقالت له : يا سيدي ، أرملتني وأنت حي ، وأيتمت ولدك وأنت حي . فنظر إليّ وقال : يا سيدتي ، ما هذا وفاء ، ثم نزع ما على الصبي وقال : ضعي هذا في الأكباد الجياع ، والأجساد العارية ، فانتزعت ولدها منه ، فقال : ضيّعتم عليّ ليلتي ، بيني وبينكم الله . ثم خرج ، فضجّت الدار بالبكاء ، فقالوا : إن عدت تسمع له خبرا فأعلمنا . فلما كان بعد أيام إذا بعجوز قد جاءت فقالت : يا سري ، معي بالشوتيزية غلام يسألك الحضور ، فمضيت فإذا هو مطروح في ثوبه ، تحت رأسه لبنة ، فسلّمت عليه ، ففتح عينيه وقال : يا سري ، ترى تغفر تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم . فقال : يغفر لمثلي ؟ قلت : نعم ، قال : أنا غريق ،
قلت:
هو منجّي الغرقى ، قال : عليّ مظالم ، قلت : إن الله يعوّض المظلومين . فقال : يا سري ، معي دراهم من لقط النوى ، فإذا أنا متّ فاشتر لي ما أحتاج إليه وكفنّي ، ولا تعلم أهلي لئلا يغيّروا كفني بحرام . قال السري : فجلست عنه ، ففتح عينيه وقال : لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ ثم مات . فأخذت الدراهم ، واشتريت ما يحتاج إليه ، وإذا الناس يهرعون ، فقلت : ما الخبر ؟ فقيل : مات وليّ من أولياء الله تعالى ، ونريد أن نصلي عليه ، فصلّينا عليه ودفنّاه . فلما كان بعد مدة بعث أهله إليّ يستعلمون خبره ، فأخبرتهم بموته .
فأقبلت امرأته باكية ، وسألتني أن أريها قبره ، فقلت : أخاف أن تغيّروا كفنه ، فقالت : لا والله ، فأريتها القبر ، فبكت وأمرت بإحضار شاهدين ، فأحضرتهما ، وأعتقت جواريها ، ووقفت عقارها ، وتصدّقت بمالها ، ولزمت قبره حتى ماتت.
دخل على شيخنا الأديب ابن سعد بمسجده بإشبيلية فتى وسيم الوجه به لثغ يردّ السين ثاء ، وكان اسمه عيسى ، فقال له الأستاذ : ما اسمك يا بنيّ ؟
فقال : عيثا ، فقال الشيخ:
وأغيد كالقضيب معطفه * يحكي لنا في الكلام تخنيثا
سألته والسؤال يخجله * ما اسمك يا بدر قال لي عيثا

ودخل شاب آخر به لثغ يردّ الراء غينا على الأديب الملقب بالأبيض ، فجرى بين الصبي وبين الأبيض حديث إلى أن قال له : ما غذاؤك ؟ فقال الصبي : القاند والسكغ ، فطرب الأبيض وقال في الحين:
وألثغ ما مثله ألثغ * كأنه من فضة مفرغ

قلت له مولاي ما تغتذي * فقال لي القاند والسكغ
اجتمع جماعة من أصحابنا من قرطبة بقرطبة ، منهم أبو الحسن بن خروف الأديب ، وعمر الجزّار وغيرهم ، فرأوا حلقة فيها صبي وسيم لوجه سندي ، يلعب للناس ، وينطوي حتى يجعل رأسه بين رجليه ، والناس يتعجبون من لطفه ومحاسنه ، فقال واحد منهم:
ومنوّع الحركات يختلس النهى * لبس المحاسن عند خلع لباسه
وقال الآخر:
متأوّدا كالغصن فوق كتيبة * متلاعبا كالظبي عند كناسه
وقال الآخر:
ويضمّ للقدمين منه برأسه * كالسيف ضمّ ذبابه لرساسه

تاريخ فتح عمورية
فتحها المعتصم في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وكان المعتصم شجاعا مقداما ، وكان يقال له المثمن ، فإنه كان له إلى الثمانية أحد عشر وجها:
الأول : أنه ثامن ولد العباس.
الثاني : أنه ثامن خلفاء بني العباس.
الثالث : أنه ولّي سنة ثمانية عشرة ومائتين.
الرابع والخامس : أنه كانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر.
السادس : أنه توفي وله ثمان وأربعون سنة.
السابع : أنه ولد ثامن شهر من السنة وهو شعبان.
الثامن : أنه خلّف ثمانية ذكور.
التاسع : أنه خلّف ثمان بنات.
العاشر : أنه غزا ثمان غزوات.
الحادي عشر : أنه خلّف ثمانمائة ألف دينار ، ومثلهما دراهم ، فيكون له على هذا اثنا عشر وجها إلى الثمانية.
فأما سبب فتحه لعمورية فهو ما ذكره أهل التواريخ أن رجلا وقف على المعتصم

فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة ، قد لطمها علج في وجهها . فنادت : وا معتصماه ، فقال العلج : وما يقدر عليه المعتصم ؟
يجيء على أبلق ينصرك ؟ وزاد في ضربها . فقال المعتصم : وفي أية جهة عمورية ؟
فقال له الرجل ، وأشار إلى جهتها : هكذا ، فردّ المعتصم وجهه إليها وقال : لبّيك أيتها الجارية ، لبيك هذا المعتصم بالله أجابك . ثم تجهّز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق.

وفي هذه التلبية يقول له في قصيدته حبيب مفرد:
لبّيت صوتا رطيبا قد هرقت له * كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
فلما حصرها وطال مقامه عليها ، جمع المنجّمين فقالوا له : إنّا نرى أنك ما تفتحها إلا في زمان نضج العنب والتين ، فبعد عليه ذلك ، واغتمّ لذلك .
فخرج ليلة مع بعض حشمه متحشما في العسكر يسمع ما يقول الناس ، فمرّ بخيمة حدّاد يضرب نعال الخيل وبين يديه غلامه أقرع قبيح الصورة ، وهو يضرب على السندان ويقول : في رأس المعتصم ، فقال له معلمه : اتركنا من هذا ، ما لك والمعتصم ؟
فقال : ما عنده تدبير ، له كذا وكذا يوم على هذه المدينة مع قوّته ولا يفتحها ، لو أعطاني الأمر ما بات غدا إلا فيها.

فتعجب المعتصم مما سمع ، وترك بعض رجاله موكلا به ، وانصرف إلى خبائه . فلما أصبح جاءوه به فقال : ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك ؟
فقال الرجل : الذي بلغك حق ، ولّني ما وراء خبائك ، وقد فتح الله فيها ، فقال : قد ولّيتك ، وخلع عليه ، وقدّمه على الحرب ، فجمع الرماة ، واختار منهم أهل الإصابة ، وجاء إلى بدن من أبدان الصور ، وفي البدن من أوله إلى آخره خط أسود ، عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر ، فحمى السهام بالنار ، فقال للرماة:
من أخطأ منكم ذلك الخط الأسود ضربت عنقه ، وإذا بذلك الخط خشب ساج ، فعند ما حصلت فيه السهام المحمية قام النار فيه واحترق ، فنزل البدن كما هو ، وتحمى الرجال ، ودخل البلد بالسيف ، وذلك قبل الزمان الذي ذكره المنجّمون.

وفي ذلك يقول حبيب في قصيدته:
السيف أصدق أنباء من الكتب * في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهنّ جلاء الشكّ والريب
والعلم في شهب الأرواح لامعة * بين الخميسين لا في السبعة الشهب
وخوّفوا الناس من دهياء داهية * إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
تخرّصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع إذا عدّت ولا عزب
ثم مشى في القصيدة إلى ذكر يعرض بتاريخ المنجمين في التين والعنب ، فقال:

تسعون ألفا كآساد الشّرى نضجت * جلودهم قبل نضج التين والعنب
ولم تفتح من الوقت الذي أثبت فذكر ذلك في قصيدته ، وذكر منعتها وقوّتها فقال:
من عهد إسكندر أو قبل ذاك فقد * شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بكر فما انتزعتها كفّ حادثة * ولا ترقّت إليها همّة النوّاب
فلما دخلها ومعه الرجل الذي بلّغه حديث الجارية قال له : سر بي إلى الموضع الذي رأيتها فيه ، فسار به ، وأخرجها من موضعها ، وقال لها : يا جارية هل أجابك المعتصم ؟
وملّكها العلج الذي لطمها ، والسيد الذي كان يملكها ، وجميع ماله.
ومن سير عمر بن الخطاب رضي الله عنه
ما حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن عبد الرحمن بن علي ، عن محمد بن أبي طاهر ، عن الحسن بن علي الجوهري ، عن أبي عمر بن حمويه ، عن أحمد بن معروف ، عن الحسين بن الفهم ، عن محمد بن سعد ، عن يزيد بن هارون ، عن يحيى بن المتوكل ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قدمت رفقة من التجار في أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبد الرحمن : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرّاق ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فوجه نحوه وقال لأمه : اتق الله وأحسني إلى صبيّك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إليها بمثل تلك المقالة ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه ، فعاد إليها فعاتبها في لبنها ، ثم سألها عن شأن بكائه ، فقاله له : يا هذا الرجل ، إني أريد أن أفطمه وهو يبكي على الثدي ، فقال لها : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهرا ، فقال لها : فما حملك على تعجيل فطامه ؟ قالت : إن عمر أمر أن لا يفرض لصبي إلا بعد الفطام ، وأنا محتاجة ، فأحبّ أن أفطمه حتى يفرض له ، فقال لها : ويحك ، أرضعيه ولا تعجليه بالفطام . ثم صلى الفجر بالناس وما يستبين للناس قراءته من غلبة البكاء عليه . فلما سلّم قال : يا بؤسا لعمركم قتل من أولاد المسلمين ، ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وبالإسناد إلى محمد بن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : كان عمر يديم الصوم ، وكان زمان الرمادة ، فإذا أمسى أتى بالخبز قد ثرد الزيت ، إلى أن نحر يوما من الأيام جزورا ، فأطعمها الناس ، وغرفوا له طيبها ، فأتى به فإذا قدر قطعة من سنام ومن كبد ، فقال : أنّى هذا ؟ قالوا : يا أمير

المؤمنين من الجزور الذي نحرنا اليوم ، فقال : بخ بخ ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراويشها ، ارفع هذه الجفنة وهيّئ لنا غير هذا الطعام ، فأتى بخبز وزيت ، فجعل يكسره بيده ويثرد ذلك الخبز ، ثم قال : ويحك يا برقيّ ، ارفع هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت ربيع ، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام ، وأحسبهم مقفرين ، وضعها بين أيديهم.
وروينا من حديث أنس بن مالك قال : بينما عمر يعسّ المدينة إذ رأى بيتا من شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعدا ، فدنا منه فقال : من الرجل ؟
قال : رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله . قال : فما هذا الأنين ؟
قال : امرأة تمخض ، قال : هل عندها أحد ؟ قال : لا ، فانطلق إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تمخض ليس عندها أحد ، قالت : إن شئت ، قال : خذي ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن ، وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب ، فجاءت به ، فحمل البرمة ، ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، فقال : ادخلي إلى المرأة ، وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له:
أوقد لي نارا ، ففعل وأوقد تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فقالت له امرأته : يا أمير المؤمنين ، بشّر صاحبك بغلام . فلما سمع الرجل يا أمير المؤمنين كأنه هابه ، فجعل يتنحّى عنه ، فقال له : مكانك كما كنت . فحمل عمر البرمة حتى وضعها على الباب ، ثم قال : أشبعيها ، ففعلت ، ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب ، فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرجل ، فقال : كل ، ويحك فإنك قد سهرت من الليل ، ففعل ، ثم قال لامرأته : أخرجي ، وقال للرجل : إذا كان غدا فائتنا نأمر لك بما يصلح ، فأتاه ، فأجازه وأعطاه.

ومن مواعظ علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ما رويناه من حديث أبي بكر بن أبي الدنيا قال : حدثنا علي بن الحسن بن أبي مريم ، عن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي ، عن معاد الهراء قال : سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلا يسبّ الدنيا ، فقال علي رضي الله عنه : إنها لدار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوّد منها ، مسجد أحبّاء الله عز وجل ، ومهبط وحيه ، ومصلّى ملائكته ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيه الرحمة ، وربحوا فيها الجنة . فمن ذا يذمّ الدنيا ؟ وقد أذنت بفراقها ، ونادت بعيبها ، ونعت نفسها وأهلها ، فمثلت ببلائها البلاء ، وشوّقت بسرورها إلى السرور ، فذمّها قوم عند الندامة ، وحمدها آخرون ، ذكّرتهم فذكروا:

يا أيها المغرور بغرورها ، متى غرّتك مضاجع آبائك في الثرى ؟ أم مضاجع أمهاتك في البلا ؟ كم قلّبت بكفيك ، ومرضت بيديك تطلب له الشفاء وتسأل له الأطباء ؟ لم تظفر بحاجتك ، ولم تسعف بطلبتك ، قد مثلت لك الدنيا مصرعك غدا ، ولا يغني عنك بكاؤك ، ولا ينفعك أحبّاؤك.

ومن مواعظ سعيد بن عامر بن حديم لعمر

ما روينا من حديث ابن أبي الدنيا قال : حدثني يعقوب بن عبيد ، ثنا أبو مسهر ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : قال سعيد بن عامر بن حديم لعمر رضي الله عنه : إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه ، قال : أجل ، فإن الله قد جعل عندك أدبا قال : اخش الله في الناس ، ولا تخش الناس في الله ، ولا يخالف قولك فعلك ، فإن خير القول ما صدقه الفعل ، ولا تقض في أمر واحد بقضاءين فيختلف عليك أمرك ، واحبب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ، ولا تخف في الله لومة لائم . قال عمر : ومن يستطيع ذلك يا سعيد ؟ قال : من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

موعظة

روينا من حديث المالكي قال : حدثنا علي بن الحسن الربعي قال : حدثني محمد بن عبد الرحمن القرشي ، عن أبيه قال : كتب بعض الحكماء إلى ملك من ملوكهم : إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقلاها من بسط له فيها ، وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه من القواعد فتهدمه ، أو تدبّ إلى جسمه فتسقمه ، وتفجعه بمن هو ضنين به من أحبابه وأهل مودّته ، فالدنيا أحقّ بالذمّ ، هي الآخذة ما تعطي ، الراجعة فيما تهب ، بينما تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيرة ، وبينما هي تبكي له إذ أبكت عليه ، وبينما هي تبسط كفيه بالإعطاء إذ بسطتها بالمسألة ، تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتعفره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب من ذهب ، وبقاء من بقي ، تجد في الباقي من الذهب خلفا ، وترضى من كل بدلا.

روي عن المزني قال : دخلت على الشافعي رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملي ملاقيا ، وبكأس المنية شاربا ، وعلى الله واردا ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة

فأهنّئها ، أم إلى النار فأعزّيها ؟ ثم أنشأ يقول:
ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي * جعلت رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته * بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منّة وتكرّما

حكاية عن ملك زهد في الدنيا
روينا من حديث أحمد بن محمد بن حنبل ، عن يزيد بن هارون ، ثنا المسعودي ، عن سماك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابن مسعود قال : بينا رجل ممن كان قبلكم في مملكته ، فتفكّر ، فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه ، فانساب ذات ليلة من قصره ، فأصبح في مملكة غيره ، فأتى ساحل البحر ، فكان يضرب اللبن بالأجرة ، فيأكل ويتصدّق بالفضل ، فلم يزل كذلك حتى وصل أمره إلى ملكهم ، فأرسل ملكهم إليه أن يأتيه ، فأبى ، فأعاد إليه الرسول ، فأبى وقال : ما لك وما لي ؟ فركب الملك إليه ، فلما رآه الرجل ولّى هاربا ، فلما رأى ذلك الملك ركض في أثره فلم يدركه ، فناداه : يا عبد الله ، إنه ليس عليك مني بأس ، فأقام حتى أدركه ، فقال : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا فلان ابن فلان صاحب ملك كذا وكذا ، تفكّرت في أمري ، فعلمت أن ما أنا فيه منقطع عني ، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي ، فتركته وجئت هاهنا أعبد ربي عز وجل.
فقال : ما أنت بأحوج مما سمعت مني ؟ قال : ثم نزل عن دابته فسيّبها ، ثم تبعه ، فكانت جميعا يعبدان الله عز وجل ، فدعوا الله عز وجل أن يميتهما جميعا ، فماتا.
قال عبد الله : فلو كنت برميلة مصر لأريتكم قبريهما بالنعت الذي نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قصة يحيى بن توغان ملك تلمسان وهو من خئولتنا
حدثني أخوالي ووالدي رحمهم الله ، قالوا : كان بتلمسان الملك يحيى ، فنزل يوما في موكبه من مدينة أقادر ، يريد المدينة الوسطى ، وبينهما بقيع فيه قبور ، فبينا هو يسير وإذا برجل متعبّد يمشي لحاجته ، فمسك عنانه وسلّم عليه ، فردّ الرجل العابد السلام ، وكلّمه بأشياء ، فكان من بعض ما كلّمه به الملك أن قال له : أيها العابد ، ما تقول في الصلاة في هذه الثياب التي عليّ ؟ فاستغرق العابد ضحكا ، فقال له : ممّ تضحك ؟ قال : من سخف

عقلك ، وما رأيت لك أيها الملك في هذا المسألة شبيها إلا الكلب . قال : وكيف ؟ قال : الكلب يتمعّك في الجيفة ، ويتلطخ بدمها ، فإذا أراد أن يبوّل رفع رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت حرام كلك وتسأل عن ثيابك . فاستعبر الملك باكيا ، وزل من حينه عن دابته وتجرّد من ثيابه ، فرمى عليه بعض العامة من أهل الدين ثوبا ، وقال لأهل دولته : انظروا لأنفسكم فلست لكم بصاحب .

واقتفى أثر العابد ، فصعد معه إلى العبادة بموضع عال بقبلة تلمسان ، وأقام معه ثلاثة أيام . ثم أمره العابد بالاحتطاب ، فجعل الملك يحتطب ويبيع بسوق تلمسان ، ويأكل ويتصدّق بالفضل ، وكان الناس إذا أتوا إلى العابد يسألونه الدعاء فيقول : سلوا يحيى في الدعاء ، فإنه خرج عن قدرة .

ويقال : إن ذلك العابد كان أبا عبد الله التنوسي . وقفت أنا على قبريهما وقبر الشيخ أبي مدين بالعباد بظاهر تلمسان .

روينا من حديث أحمد بن حنبل ، عن أسباط بن محمد ، ثنا هشام بن سعد ، عن عبد الله بن عباس قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة ، وكان إذ ذاك خليفة ، وكان ذبح للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صبّ ماء بدم الفرخين فأصاب عمر فأمر بقلعه ، ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثيابا غير ثيابه ، ثم جاء فصلّى بالناس ، فأتاه العباس فقال : والله إنه للموضع الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل ذلك العباس .

وروينا من مواعظ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه ذكّر الناس يوما في خلافته فقال : إنك مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتسارا ، ومضمّنون أجداثا ، وكائنون رفاتا ، ومبعوثون أفرادا ، ومدينون حسابا . فرحم الله عبدا اقترف فاعترف ، ووجل فعمل ، وحاذر فبادر ، وعمر فاعتبر ، وحذر فازدجر ، وراجع فتاب ، واقتدى فاحتذى ، فتأهّب للمعاد ، واستظهر بالزاد ليوم رحيله ، ووجه سبيله ، وحال حاجته ، وموطن فاقته ، فقدم أمامه لدار مقامه . فمهّدوا لأنفسكم في سلامة الأبدان ، فهل ينتظر أهل غضارة الشباب إلا خوّافي الهرم ؟ وأهل بضاضة الصحة إلا نوازل السقم ؟ وأهل مدة البقاء إلا مفاجآت الفجا ، واقتراب الفوت ، ونزول الموت ، وخفر الأنين ، ورشح الجبين ، وامتداد العرنين ، وألم المضض ، وغصص الحرض ؟ فاتقوا الله تقية من شمر تجريدا ، وجدّ تشميرا ، وانكمش في مهل ، وأشفق في وجل ، ونظر في كره الموئل ، وعاقبة المصير ، ومغبة المرجع ، فكفى بالله

منتقما ونصيرا ، وكفى بالجنة ثوابا ونوالا ، وكفى بالنار عقابا ونكالا ، وكفى بكتاب الله جحيما وخصيما.

ومما وعظ به كعب الأحبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ما رويناه من حديث أحمد بن حنبل ، ثنا بهر بن أسد ، ثنا جعفر بن سليمان ، ثنا علي بن زيد ، عن مطرف ، عن كعب ، قال : قال عمر بن الخطاب وأنا عنده : يا كعب خوّفنا ، قلت : يا أمير المؤمنين أليس فيكم كتاب الله وحكمة رسول الله ؟ قال : بلى ، ولكن خوّفنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، اعمل عمل وجل ، لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملك مما ترى .
فأطرق عمر مليا ، ثم أفاق فقال : زدنا يا كعب ، قلت : يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب ، لغلى دماغه حتى يسيل من حرّها . فأطرق عمر مليا ، ثم أفاق فقال : زدنا يا كعب ، قلت : إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرّب ، ولا نبي مصطفى إلا خرّ جاثيا على ركبتيه ، ويقول : رب نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي .
فأطرق عمر مليا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أو ليس تجدون هذا في كتاب الله عز وجل ؟ قال : كيف ؟ قلت : يقول الله تعالى : يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها.

وروينا من حديث ابن أبي الدنيا ، حدثني القاسم بن هاشم ، قال : نبأ أبو اليمان قال:
نبأ صفوان بن عمرو ، عن أبي اليمان ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب:
ما تخاف علينا يا أبا إسحاق ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن في السماء ديّانا ، وإن في الأرض ديّانا ، فويل لديّان الأرض من ديّان السماء إلا من دان نفسه لله عز وجل ، إنك تأمر ولا تؤمر ، وإنك بين الناس وبين ربك ، وليس بينك وبين الله أحد . فقال له عمر : أنشدك بالله كيف تجدني ، أخليفة أم ملكا ؟
قال : بل خليفة ، قال : فاستحلفه عمر ، فحلف له كعب ، وقال : خليفة والله من خير الخلفاء ، وزمانك خير زمان.

موعظة أعرابي للرشيد بمكة

ذكر أبو الفرج في كتاب « مثير الغرام الساكن » له ، أن الرشيد حجّ في بعض السنين ، فبينما هو يطوف بالبيت عرض له أعرابي فأنشده:
عش ما بدا لك كم تراك تعيش * أتظنّ سهم الحادثات يطيش
عش كيف شئت لتأتيك وقفة * يوما وليس على جناحك ريش

قال : فوقف الرشيد فاستعاده الشعر ، ثم بكى حتى بلّ وجهه ، وأمر له بخمسين ألف درهم.
روينا من حديث الهاشميّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكون أمتي في الدنيا على ثلاثة أطباق:
أما الطبق الأول : فلا يرغبون في جمع المال وادّخاره ، ولا يسعون في اقتنائه واحتكاره ، إنما رضاهم من الدنيا ما سدّ جوعة وستر عورة ، وغناهم فيها ما بلّغ الآخرة ، فأولئك الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. *

وأما الطبق الثاني : يحبّون جمع المال من أطيب سبيله وصرفه في أحسن وجوهه ، يصلون به أرحامهم ، ويبرّون به إخوانهم ، ويواسون به فقراءهم ، ولعضّ أحدهم على الرصف أسهل عليه من أن يكسب درهما من غير حله ، وأن يضعه في غير وجهه ، وأن يمنعه من حقه ، وأن يكون له خازنا إلى حين موته ، فأولئك الذين إن نوقشوا عذّبوا ، وإن عفي عنهم سلموا.
وأما الطبق الثالث : فيحبون جمع المال مما حل وحرم ، ومنعه مما افترض أو وجب ، إن أنفقوه أنفقوه إسرافا وبدارا ، وإن أمسكوه أمسكوه بخلا واحتكارا ، أولئك الذين ملكت الدنيا أزمّة قلوبهم حتى أوردتهم النار بذنوبهم.

كان عليّ بن عبد الله بن العباس عند عبد الملك بن مروان ، فأخذ عبد الملك يذكر أيام بني أمية ، فبينما هو كذلك إذ نادى المنادي بالأذان ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.
فقال علي رضي الله عنه:
هذي المكارم لا قعبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
فقال عبد الملك بن مروان : الحق في هذا بيّن من أن يكابر.

ومن هذا الباب
ما ذكره علي بن محمد النديم قال : دخلت على المتوكل وعنده الرضا ، فقال : يا علي ، من أشعر الناس في زماننا ؟ قلت : البحتري ، قال : وبعده ؟ قلت : مروان بن أبي حفصة عبدك ، والتفت إليّ الرضا فقال : يا ابن عمّ ، من أشعر الناس ؟ قال : علي بن محمد العلوي ، قال : وما تحفظ من شعره ؟ قال : قوله:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة * بمطّ خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا * عليهم بما تهوى نداء الصوامع

قال المتوكل : ما معنى نداء الصوامع ؟ قال : الشهادة . قال : وأبيك إنه أشعر الناس.
ومن قوله:
بلغنا السماء بأنسابنا * ولولا السماء لحزنا السماء
وحسبك من سؤدد أننا * بحسن البلاء كشفنا البلاء
يطيب الثناء لآبائنا * وذكر عليّ يطيب الثناء
إذا ذكر الناس كنا ملوكا * وكانوا عبيدا وكانوا إماء
هجاني رجال ولم أهجهم * أبي الله لي أن أقول الهجاء

ومن باب قوله تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ما رويناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ربه تعالى ، قال : « يقول الله جلّ ذكره يوم القيامة : اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟. «
روينا من حديث ابن عباس قال : الناس يتفاضلون في الدنيا في الشرف ، والبيوت ، والأمارات ، والغنى ، والجمال ، والهيبة ، والنطق . ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى ، واليقين ، وأتقاهم أحسنهم يقينا ، وأزكاهم عملا ، وأرفعهم درجة.

لبعضهم شعر:
يزين الفتى في الناس صحة عقله * وإن كان محظورا عليه مكاسبه
وشين الفتى في الناس قلّة عقله * وإن كرمت آباؤه ومناسبه

قيل لعامر بن قيس : ما تقول في الإنسان ؟ قال : وما أقول فيمن إن جاع صغى ، وإن شبع طغى ؟ قال الحكيم : أخوان من أب واحد وأم واحدة ، الواحد عاقل فساد بين الناس بعقله فكان له الشرف والسؤدد ، والآخر لا عقل له فلم يرفع نسبه به رأسا له ، فيقول له أخوه:
أبوك أبي والجدّ لا شكّ واحد * ولكننا عودان آس وخروع

وأحسن ما قيل مما يليق بهذا الباب:
إن الفتى من يقول ها أنا ذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

وقول الآخر:
وما ينفع الأصل من هاشم * إذا كانت النفس من باهله

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أتاه أعرابي فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، من أكرم الناس حسبا ؟ قال : « أحسنهم خلقا وأفضلهم تقوى » . فانصرف الأعرابي فقال : « ردّوه » ، فقال : « يا أعرابي ، لعل أردت أكرم الناس نسبا ؟ » ، قال : نعم يا رسول الله ، قال : « يوسف صديق الله ابن يعقوب ، إسرائيل الله ابن إسحاق ، ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، فأين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا ؟ ما كان مثلهم ولا يكون. «

وفي ذلك يقول الشاعر:

ولم أر كالأسباط أبناء واحد * ولا كأبيهم والدا حين ينسب

فمن الشرف والسؤدد الحلم ، وبه ساد الأحنف بن قيس.

ومنها الوفاء ، وبه ساد السموأل.

ومنها الرأي ، وبه ساد الحصين بن المنذر.

ومنها التحبّب إلى الناس عامة وخاصة ، وبه ساد مالك بن مسمع.

ومنها الجود والكرم ، وبه ساد حاتم ومعن بن زائدة.

ومنها حب المساكين ، وبه ساد جعفر بن أبي طالب.

ومنها العطف على الأرامل ، وبه ساد سويد بن متحوف.

ومن مكارم الأخلاق

ما حدثه الفتح بن خاقان ، عن المتوكل قال : خرج المتوكل إلى دمشق وأنا عديله ، فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجار ، فانتهى ذلك إليه ، فوجّه قائدا من وجوه قوّاده إليهم ، فحاصرهم ، فلما قربنا من القوم إذا نحن بجارية ذات جمال وهيبة وهي تقول:

أمير المؤمنين سما إلينا * سموّ الليث مال به الغريف

فإن نسلم فعفو الله نرجو * وإن نقتل فقاتلنا شريف

فقال لها المتوكل : أحسنت ، ما جزاؤها يا فتح ؟ قلت : العفو والصلة يا أمير المؤمنين ، فأمر لها بعشرة آلاف درهم.

وقال لها : مرّي إلى قومك وقولي لهم : لا تردّوا المال على التجار ، فإني أعوّضهم.

حكمة بالغة
قال عبد الملك بن مروان لسالم بن يزيد الفهمي : أي الزمان أدركت أفضل ؟ وأي ملوكه أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا ذامّا وحامدا ، وأما الزمان فرفع أقوام ووضع آخرين ، وكلهم يذم زمانه ، لأنه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم ، وكل ما فيه منقطع إلا الأمل ، قال : فأخبرني عن فهم ، قال : هم كما قال الشاعر:
درج الليل والنهار على فه * م بن عمر فأصبحوا كالرميم
وخلت دارهم فأضحت نعاما * بعد عزّ وثروة ونعيم
وكذاك الزمان يذهب بالنا * س وتبقى ديارهم كالرّسوم

قال : فمن يقول منكم:
رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا * يحبون الغنيّ من الرجال
وإن كان الغني أقل خيرا * بخيلا بالقليل من النوال
فلم أدر علام وفيم هذا * وما ذا يرتجون من المحال
أللدنيا فليس هناك دنيا * ولا يرجى لحادثة الليالي
قال : أنا وقد كتمتها.

وروينا من حديث ابن ودعان ، عن أبي سعيد الآملي ، عن السيرافي ، عن أبي سعيد ، عن هبة الله بن عاصم ، عن محمد بن عبيد الله الخزاعي ، عن حماد بن سلمة ، عن أبي هارون ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل يعظه : « ارغب فيما عند الله يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . الزاهد في الدنيا يربح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة ، وإن الراغب يتعب قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة . ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم حسنات كأمثال الجبال ، فيؤمر بهم إلى النار » ، فقيل : يا رسول الله ، أو يصلّون كانوا ؟ قال : « كانوا يصلّون ويصومون ويأخذون وهنا من الليل ، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه. «

وروينا من حديثه أيضا ، عن محمد بن علي ، عن إبراهيم بن محمد ، عن عبيد الله بن جرير ، عن معاذ بن أسد ، عن ابن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، عن يحيى الطويل ، عن نافع بن عمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس ، إن هذه الدار دار التواء لا دار استواء ، ومنزلة ترح لا منزلة فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا

لثواب الآخرة سببا ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي ، وإنها لسريعة الذهاب ، وشبكة الانقلاب . فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها ، واهجروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها ، ولا تسعوا في غمرات دار قد قضى الله خرابها ، ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها ، فتكونوا لسخطه متعرضين ، ولعقوبته مستحقين. «
ولما أتى علي رضي الله عنه العراق دخل المدائن ، فنظر إلى إيوان كسرى معتبرا ، فجعل يبكي ، فقام إليه بعض الحاضرين فقال : يا أمير المؤمنين ، أتحب أن أسمعك قول الأسود بن يعفر ؟ فقال : إن شئت ، وعليّ يتلو قوله تعالى : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، قال : وأي آية ؟ ما أعظمها ، ثم قال : يا هذا ، ما قال الأسود ؟
فقال:
ما ذا يؤمل بعد آل محرّق * تركوا منازلهم وبعد إياد
أرض الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذو الشرفات من سنداد
نزلوا بأنفرة تسيل عليهم * ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيّرها لطيب نسيمها * كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم * فكأنما كانوا على ميعاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصير إلى بلى ونفاد

فقال علي رضي الله عنه : يا هذا ، أبلغ من ذلك قول الله تعالى : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ.
سمعت محمد بن أبي محمد الكتاني ينشد يوما أبياتا فأثّر بي سماعها ، وهي:
لو جرى دمعك يا هذا دما * ما تقدمت إلينا قدما
إنما يصفو هوانا لامرئ * حفظ العهد وراعى الذمما
كيف يخفى لك أمر بعد ما * نشر العذر عليه علما
عندنا منك أمور كلها * حيرة فيما لدينا وعما
وأرى داءك داء معضلا * أبدا تزداد فيه سقما
كم حميناك فلم تبق لنا * وتعدّيت ووافيت الحمى
نح علينا أسفا أو لا تنح * واقرع السنّ علينا ندما
لو أردناك لنا ما فتنا * أو وصلنا حبلنا ما انصرما
ما رأينا منصفا عامله * منصف في صفقة فاختصما
أنت لو سالمتنا نلت المنى * قلّ من سالم إلا سلما
كان ثوبة صاحب ليلى الأخيلية قد قال:

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت * عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أوزقي * إليها صدى من جانب القبر صائح
ولو أن ليلى في السماء لأصعدت * بطرفي إلى ليلى العيون اللوامح

فيقال : إنه لما مات ثوبة مرّ زوج ليلى بليلى على قبره ، فقال لها : سلّمي على ثوبة ، فإنه زعم في شعره أنه يسلّم عليك تسليم البشاشة ، فقالت : ما تريد إلى من بليت عظامه ؟
قال : والله لتفعلي ، فقالت وهي على البعير : سلام عليك يا ثوبة فتى الفتيان . وكان قطاة مستظلة في نقب القبر ، فلما سمعت الصوت طارت فصاحت ، فنفر البعير ورمى بليلى ، فماتت ودفنت بجنب قبره.

ويحكى أن ليلى الأخيلية دخلت على الحجاج فأنشدته قولها فيه:
إذا نزل الحجّاج أرضا سقيمة * تتبّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام إذا هزّ القناة ثناها
أحجّاج لا تعطي العصاة مناهم * ولا الله لا يعطي العصاة مناها
فوصلها الحجاج بألف دينار ، وسألها الحجاج : هل كان بينك وبين ثوبة ريبة قطّ ؟
قالت : لا والذي أسأله صلاحك ، إلا أنه قال مرة لي قولا ، ظننت أنه خنع لبعض شيء ، فقلت له

شعرا:
وذي حاجة قلنا له لا تبح بها * فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه * وأنت لأخرى فارغ وحليل
قالت : فما كلّمني بعد ذلك بشيء حتى فرّق بيني وبينه الموت . قال الحجاج : فما كان من بعد ذلك ؟ قالت : لم يلبث أن قال لصاحب له : إذا أتيت الحاضر من بني عباد فقل بأعلى صوتك:
عفا الله عنها هل أبيتنّ ليلة * من الدهر لا يسري إلينا خيالها

فلما سمعت الصوت خرجت فقالت:
وعنه عفا ربّي فأصلح حاله * يعزّ علينا حالة لا ينالها

ومن الكلام الأشد في وصف الأسد
ما حدثناه بعض الأدباء قال : دخل أبو زبيد الطائي على عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته ، وكان نصرانيا ، فقال له : بلغني أنك تجيد وصف الأسد ، فقال له : لقد رأيت

منه منظرا ، وشهدت منه مخبرا ، لا يزال ذكره يتجدد على قلبي . قال : هات ما مرّ على رأسك منه ، فقال : خرجت يا أمير المؤمنين في صبية من أفناء قبائل العرب ذوي شارة حسنة ترتمي بنا المهاري بأكسائها القيروانية ، ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عناق الخيل ، نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام ، فاخروط بنا المسير في جمارة القيظ ، حتى إذا عصبت الأفواه ، وذبلت الشفاه ، وسالت المياه ، وأذكت الجو المعر ، وذاب الصخر الجندب ، وضاف العصفور الضبّ في وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب ، غوروا بنا في وضوح هذا الوادي ، وإذا واد كثير الدّغل ، دائم الغلل ، شجراؤه معثة ، وأطياره مرنّة .
فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات متهدلات ، فاصبنا من فضلات المزاود ، وأتبعناها بالماء البارد ، فإنا لنصف حرّ يومنا ، ومماطلته ومطاولته ، إذ صرّ أقصى الخيل أذنيه ، وفحص الأرض بيديه ، ثم ما لبث أن جال فحمحم ، وبال فهمهم ، ثم فعل الذي يليه واحد فواحد ، فتضعضعت الخيل ، وتكعكعت الإبل ، وتقهقرت البغال ، فمن نافر بشكاله ، وناهض بعقاله ، فعلمنا أن قد أتينا ، وأنه السبع لا شك ، ففزع كل امرئ إليه بسيفه ، واستلّ من جربانه ، ثم وقفنا له زردقا ، فأقبل يتطلع في مشيته كأنه مجنون ، أو في هجار ، لصدره مخيط ، ولبلاعيمه غطيط ، ولطرفه وميض ، ولأرساغه نقيض ، كأنما يخبط هشيما ، أو يطأ صريما ، وإذا هامة كالمجنّ ، وخدّ كالمسنّ ، وعينان شجراوان كأنهما تقدّان ، وقصرة ربلة ، ولهزمة رهلة ، وكيد مغتبط ، وزور مفرط ، وساعد مجدول ، وعضد مفتول ، وكفّ شبيه المراثن إلى مخالب كالمحاجن.

ثم ضرب بذنبه الأرض فأرهج ، وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول ، مصقولة غير مغلولة ، وفم أشدق كالغار الأخرق ، ثم تمطى فأسرع بيديه ، وحفز وركيه برجليه ، حتى صار ظله مثليه . ثم أقعا فاقشعر ، ثم مثّل فاكفهرّ ، ثم تجهّم فازبأرّ .
فلا والذي بيته في السماء ما اتّقيناه بأول من أخ لنا من بني فزارة ، كان ضخم الجزارة ، فوهصه ، ثم أقعصه ، فقضقض متنه ، وبقر بطنه ، فجعل يألغ في دمه ، فدمرت أصحابي ، فبعد رأي ما استقدموا ، فكرّ مقشعرا لزئيرة كان بها سهما حوليا ، فاختلج من دوني رجلا ذا حوابا ، فنفضه نفضة ، فتزايلت أوصاله ، وانقطعت أوداجه ، ثم نهض فقرقر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ، ثم لحظ فو الله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه من عن شماله ويمينه ، فأرعشت الأيدي ، واصطكت الأرجل ، وأطت الأضلاع ، وارتجت الأسماع ، وجمحت العيون ، وانخزلت المتون ، ولحقت البطون بالظهور ، وساءت الظنون ،
وأنشأ يقول:
عبوس شموس مصلخدّ خنابس * جريء على الأرواح للقرن قاهر
منيع ويحمي كل واد يرومه * شديد أصول الماضغين مكابر

برايته شتن وعيناه في الدجى * لجمر الغضى في وجهه الشر ظاهر
يدل بأنياب حداد كأنها * إذا قلص الأشداق عنها خناجر
فقال له عثمان رضي الله عنه : اكفف لا أم لك ، فلقد أرعبت قلوب المسلمين ، ولقد وصفته حتى كأنني أنظر إليه يريد يواثبني.

مثل سائر

هو أجبن من هجرس ، وهو القرد ، وذلك أنه لا ينام الليل إلا وفي يده حجر مخافة أن يأكله الذئب.
قال قتيبة بن مسلم : لا تطلبوا الحوائج من كذوب ، فإنه يقرّبها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة ، ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكله ، فإنه يقدّم حاجته قبلها ، ويجعل حاجتك وقاية لها ، ولا إلى أحمق فإنه يريد نفعك فيضرّك.
قال بعضهم : لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة بذلك ، فكيف وفيه المأثم والعار ؟

مكتوب في الحكمة

عند التراخي عن شكر المنعم يحلّ عظيم النقم.
وقيل لذي الرمة : لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك ؟ قال : لأنه وطّأ مضجعي ، وأكرم مجلسي ، وأحسن صلتي ، فحق لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري.
وروينا من حديث عائشة أم المؤمنين قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول : « يا عائشة ، ما فعل نبيّك ؟ » ،
فأنشده:
نجزيك أو نثني عليك وإن من * أثنى عليك لما فعلت كمن جزا

فيقول صلى الله عليه وسلم : " صدق القائل يا عائشة ، إن الله إذا أجرى على يد رجل خيرا فلم يشكر فليس لله بشاكر ".
قال الهيثم بن حسن بن عمارة : كان سراقة البارقي من أظرف الناس ، وكان من أهل الكوفة ، فأسره رجل من أصحاب المختار ، وكان يومي إلى أنه نبيّ ، وعرف ذلك منه ، فأتى بسراقة إليه ، فقال له المختار : أسرك هذا ؟ فقال سراقة : كذب والله ، ما أسرني إلا رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق ، فقال المختار : أما إن الرجل قد عاين الملك ، خلّوا سبيله . فلما أفلت أنشأ يقول:

ألا بلّغ أبا إسحاق أني * رأيت البلق دهما مضمنات
أري عينيّ ما لم توريّاه * كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا * عليّ قتالكم حتى الممات
قيل : وما عبّر عن شيء فهو أفضل منه . انتهى.

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم وما كان منه في ذلك
روينا من حديث الحافظ أبي نعيم ، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن أبو عمر ، نبأ الحسن بن الجهم ، نبأ الحسين بن الفرج ، نبأ محمد بن عمر الواقدي ، حدثني مالك بن أبي الرجال ، عن عمر بن عبد الله ، عن محمد بن كعب القرظيّ ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحيّة الكلبيّ إلى قيصر ، وكتب إليه معه ، فلقيه دحية بحمص ، وقيصر ماش من قسطنطينية ، فلما لقيه قال له من قومه كلب : إذا لقيته فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك حتى يأذن لك . قال دحية : لا أفعل هذا أبدا ، ولا أسجد لغير الله . قال : فإذا لا يأخذ كتابك ، ولا يردّ جوابك . قال : وإن لم يأخذ . قال رجل من القوم : أدلك على أمر يأخذ فيه كتابك ، ولا يكلفك السجود فيه . قال دحية : وما هو ؟ قال له : على كل عقبة منبر يجلس عليه ، فضع صحيفتك وجاه المنبر ، فإنه لا أحد يحرّكها حتى يأخذها هو ، ثم يدعو صاحبها . قال : أما هذا فسأفعله ، فعمد إلى منبر من تلك المنابر التي يستريح عليها ، فألقى الصحيفة ، وجاه المنبر ، ثم تنحّى فجلس قريبا ، فجاء قيصر فجلس على المنبر ، ثم نظر إلى الصحيفة ، فدعا بها ، فإذا عنوانها : كتاب عربي . فدعا الترجمان الذي يقرأ بالعربية ، فإذا فيه : « من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم » . فغضب أخ لقيصر يسمى نياق ، فضرب الترجمان في صدره ضربة شديدة أجلسته على استه ، ثم نزعها منه ، فقال : ما شأنك اختلست الصحيفة ؟ قال : تنظر في كتاب رجل بدا فيه بنفسه قبلك ؟ قال قيصر لنياق:
إنك والله ما علمت أنك أحمق صغير ، أو مجنون كبير ، أتريد أن تخرق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه ؟ فلعمري إن كان رسول الله كما يقول ، فنفسه أحق أن يبدأ بها مني ، وإن كان سمّاني صاحب الروم لقد صدق ، وما أنا إلا صاحبهم ، وما أملكهم ، ولكن الله سخّرهم لي ، ولو شاء لسلّطهم عليّ كما سلّط فارس على كسرى فقتلوه.
ثم فتح الصحيفة فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم ، سلام على من اتّبع الهدى . أما بعد : « يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعض أربابا من دون

الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » في آيات من كتاب الله تعالى يدعوه إلى الله ، ويزهّده في ملكه ، ويرغّبه فيما رغّبه الله عنه من دار الآخرة ، ويحذّره بطش الله وبأسه.
فقرأ قيصر الكتاب فقال : يا معشر الروم ، إني لأظنّ أن هذا الذي بشّر به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولو أعلم أنه هو لمشيت إليه حتى أخدمه بنفسي لا يسقط وضوءه إلا على يديّ . قالوا : ما كان الله ليجعل ذلك في العرب الأميين ، ويدعنا ونحن أهل الكتاب.

قال : فاصل الهدى بيني وبينكم عندي الإنجيل ، ندعوا به فنفتحه ، فإن كان هو اتّبعناه ، وإلا أعدنا عليه خواتيمه كما كانت ، إنما هي خواتم مكان خواتم.
قال : وعلى الإنجيل يومئذ اثنا عشر خاتما من ذهب ، ختم عليه هرقل ، فكان كل ملك يليه بعده ظاهر عليه بخاتم آخر ، حتى ألفي ملك قيصر وعليه اثنا عشر خاتم بخبر أولهم آخرهم : أنه لا يحلّ لهم أن يفتحوا الإنجيل في دينهم ، وأنه يوم يفتح يغيّر دينهم ، ويهلك ملكهم ، فدعا بالإنجيل ، ففضّ عنه أحد عشر خاتما حتى إذا بقي عليه خاتم واحد قامت الشمامسة والأساقفة والبطارقة ، فشقوا ثيابهم ، وصكّوا وجوههم ، ونتفوا رؤوسهم.

قال : ما لكم ؟ قالوا : اليوم يملك ملك أبيك ، ويتغير دين قومك . قال : فاصل الهدى ، قالوا : لا تعجل حتى نسأل عن هذا ، ونكاتبه ، وتنظر في أمره ، فإنك قادر إن شاء الله تعالى على أن تفضّ هذا الخاتم فتنظر فيه ما تريد ، وإنك لا تقدر إن انفتق عليك ما تكره أن تردّه بعد فتقه .
قال : فمن نسأل عنه ؟ قالوا : نسأل قوما كثيرا بالشام . فأرسل يبتغي قوما يسألهم ، قال : فجمع له أبو سفيان بن حرب وأصحابه ، فجاء قوم كلهم لله ولرسوله عليه السلام عدو ، فقال : أخبرني يا أبا سفيان ، من هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلم يأل أن يصغّر أمره ما استطاع ، قال : أيها الملك ، لا يكبر عليك شأنه ، إنّا لنقول هو ساحر ، ونقول هو شاعر ، ونقول هو كاهن.
قال قيصر : كذلك والذي نفسي بيده كان يقال للأنبياء قبله ، أخبرني موضعه فيكم.

قال : أوسطنا سطة ، قال : كذلك يبعث الله كل نبي من أوسط قومه ، قال : أخبرني عن أصحابه ، قال : غلماننا وأحداثنا سنا والسفهاء ، أما رؤساؤنا فلم يتبعه منهم أحد .
قال: أولئك والله أتباع الرسل منذ قط ، أما الملأ والرؤوس فتأخذهم الحمية ، قال : فأخبرني عن أصحابه هل يفارقونه بعد ما يدخلون في دينه سخطة له ؟
قال : ما يفارقه منهم أحد ، قال: فلا يزال داخل منكم في دينه ؟ قال : نعم ، قال : ما تزيدونني عليه إلا بصيرة ، والذي نفس بيده ليوشكن أن يغلب على ما تحت قدمي.
يا معشر الروم ، هل إلى أن نجيب هذا الرجل إلى ما دعانا إليه ؟ ونسأله الشام أن لا

توطأ علينا أبدا ، فإنه لم يكتب قطّ نبي من الأنبياء إلى ملك من الملوك يدعوه إلى الله تعالى فيجيبه إلى ما دعاه ، ثم يسأله غيرها فيسأله إلا أعطاه مسألته ما كانت ، فأطيعوني . فلنجبه إلى ما دعانا إليه ، ونسأله الشام أن لا توطأ . قالوا : لا نطاوعك في هذا أبدا ، أتكتب إليه تسأله في ملكك الذي تحت رجليك ، وهو هنالك لا يملك من ذلك شيئا ، فمن أضعف منك ؟ قال أبو سفيان : والله ما يمنعني من أن أقول قولا أسقط من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ فلا يصدّقني في شيء ، قال : حتى ذكرت قوله ليلة أسري به ، قال : قلت : أيها الملك ، ألا أخبرك عنه خبرا تعلم أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال : يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة ، فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح.
قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة.
قال : فنظر قيصر إليه وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة أبدا حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني ، فاستعنت عليه عمّالي ومن حضرني كلهم ، فعالجته فلم نستطع أن نحرّكه كأنما نزوّل به جبلا ، فدعوت النجاجرة ، فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النجاف والبنيان والأسطوانة ، ولا نستطيع أن نحرّكه حتى نصبح فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين ، فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي من زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة.
قال : فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلّى الليلة في مسجدنا.
فقال قيصر لقومه : يا معشر الروم ، أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيا بشّركم به عيسى كنتم ترجون أن يجعله الله منكم ؟ قالوا : نعم . قال : فإن الله قد جعله في غيركم في أقلّ منكم عددا ، وأضيق منكم بابا ، وهي رحمة الله يضعها حيث يشاء ، فإما أن تطيعوني فيما آمركم به ، وإلا رأيتم الخيل دوابين ، نواصيها بين أظهركم ، فيقتل الرجال ، ويستباح المال ، وتسبى العيال.
قالوا : نصبر له عشر سنين ؟ قال : نعم وعشرين سنة . قالوا : نصبر عشرين سنة ؟
قال : نعم وثلاثين . قالوا : نصبر ثلاثين ؟ قال : نعم وأربعين . قالوا : نصبر أربعين ؟ قال: نعم وخمسين ، حتى بلغ رأس المائة يزيد عشرا عشرا ، فلما بلغ رأس المائة قالوا : ألك علم بهم ؟ كيف هم بعد المائة ؟ قال : هم بعد المائة كالدينار المضروب ثلثه هبرزي خالص ، وثلثه مغشوش ، وثلث لا خير فيه . قال : ثم قال قيصر : ارجعوا عني هذا اليوم

حتى أفكّر في أمري وأدبّره ، ثم اغدوا عليّ بالغداة أجمعكم . قال : فغدوا عليه حين أصبح وأشرف لهم على بيت مرتفع ، فقال : يا معشر الروم ، إن هذا النبي الذي بشّر به عيسى ابن مريم ، فأجيبوه إلى ما دعا إليه . فلما رأى إلغاطهم وإباءهم صمت عنهم حتى سكن عنه الصوت ، ثم قال : يا معشر الروم ، دعاكم ملككم ينظر كيف صلابتكم في دينكم ، فشتمتموه وسببتموه وهو بين أظهركم . قال : فخرّوا له سجّدا.

غريب دعاه حبيب فأجابه

حدثنا محمد بن إسماعيل ، نبأ عبد الرحمن بن علي ، نبأ محمد بن أبي منصور ، نبأ أبو عبد الله الحميدي ، انا الأردستاني ، نبأ أبو عبد الرحمن السلمي ، سمعت أبا الحسن بن عبد الله الطوسي ، سمعت علّوس الدينوري يقول : سمعت المزني يقول : كنت مجاورا بمكة ، فخطر لي خاطر في الخروج إلى المدينة ، فخرجت ، فبينا أنا بين المسجدين أمشي فإذا أنا بشابّ مطروح إلى جانب جبل عليه خرقتان وهو ينزع ، فقعدت عند رأسه فقلت : يا سيدي ، قل لا إله إلا الله ، ففتح عينيه ونظر إليّ ،
وأنشد:
أنا إن متّ فالهوى حشو قلبي * وبداء الهوى يموت الكرام
وشهق شهقة كانت فيها نفسه ، فكفّنته في أطماره ورجعت.

أنشدني أبو علي الغالي في الوطن:
أقول لصاحبي والعيس تحدي * بنا بين المنيعة والضمار
زوّد من شميم عرار نجد * فما بعد العشيّة من عرار
ألا يا حبّذا أرواح نجد * وريّا روضه غبّ القطار
وعيشك إذ يحلّ القوم نجدا * وأنت على زمانك غير زار
شهور تنقضين وما علمنا * إنصاف لهنّ ولا سرار

وأنشد أبو بكر الأنباري في ذلك:
واستشرف الأعلام حتى يدلني * على طيبها مرّ الرياح النواسم
وما أنسم الأرواح إلا لأنها * تمرّ على تلك الربى والمعالم

وأنشد الشريف الرضيّ رحمه الله تعالى:
أقول وقد حلّت بذي الأثل ناقتي * قرى لا ينل منك الحنين المرجّع
تحنّين إلا أن بي لا بك الهوى * ولي لا لك اليوم الخليط المودّع
وباتت تشكي تحت رحلي ضمانة * كلانا إذا يا ناق نضو مفجع

أحسّت بنار في ضلوعي فأصبحت * يحثّ بها نار الغرام ويوضع

ومن وقائع بعض الفقراء
ما حدثنا به عبد الله ابن الأستاذ المروزي رحمه الله قال : رأى بعض الفقراء ببجاية في الواقعة أبا حامد وجماعة من الصوفية يقولون للشيخ أبي مدين : أخبرنا عن شيء مما خصك به الحق من العلم ، فقال لهم : بالعلم الباقي أضاء سري ، وحسنت أخلاقي ، فعلم الله صفة ذاته ، فكل ما عرف منه سبحانه معروف ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فما ثبت في الوجود منه فبإمداده ، وما فهموا عنه فبإرشاده ، فكل علم سواه بالإضافة إليه مذموم ، وإنما يشرف العلم بشرف المعلوم ، فانظر ما علمك وما ذا ؟ فمن هناك تجازى وتنادى ، فخير العلم ما وصلك إلى المعلوم ، وعند مشاهدة الحق تضمحل الرسوم ، ويتجلى إذ ذاك الحي القيوم ، فمن رقى عن المحسوسات نال الغيوب ، ومن قهقر عندها فهو محجوب ، فالعارف أبدا يرقى ، ودقائق الإشارات واللطائف يتلقّى ، ليس له التفات إلى ذيت وذيت ، ولا يقنع من البيت إلا برب البيت ، فهو أبدا في التنزيه والمشاهدة ، يرفع عن الأغيار والمكايدة ، ملاحظ ذلك الجمال الأبدي ، متلذذ بمشاهدة الملك العليّ.

ثم قال الشيخ : مقامي مقام العبودية ، وعلومي العلوم الإلهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، بها عمر فكري ، وهي غذاء لسرّي وجهري ، فعلمي بالله متصل ، وعن كل من سواه منفصل ، اتصاله بحضرة قدسه ، ومسرحه في رياض أنسه ، فبالعلم بالله وذاته وصفاته نلت الجاه ، ومعلومي هو الله ، عظمته ملأت حقيقتي وسرّي ، ونوره أضاء به برّي وبحري ، فمن أحياه فهو الحيّ ، ومن أماته عنه في ظلمة الغيّ إذ المقرب به عظيم ، ولا يسمو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب السليم هو الذي سلم مما سواه ، ولا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شكّ ولا ارتياب ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ، فالجبال بقدرته سيّرها ، وبصنعه الجميل أتقنها ، فكلامه العزيز لصدور أوليائه شفا ، وهو سبحانه لشدة ظهوره خفا.

ومن محاسن المخاطبة
ما قال عمارة بن حمزة لأبي العباس وقد أمر له بجوهر نفيس : وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرّك ، فو الله لو أردنا شكرك على أنعامك ليقصرنّ شكرنا على نعمتك ، كما قصر الله بنا عن منزلتك.

ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الرشيد فقال : ما لك ؟ فقال:
سوامي سوام المكثرين تجمّلا * ومالي كما قد تعلمين قليل
وآمرة بالبخل قلت لها اقصري * فذلك شيء ما إليه سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى * ورأي أمير المؤمنين جميل
أرى الناس خلّان الجواد ولا أرى * بخيلا له في العالمين خليل

فقال الرشيد : والله هذا الشعر الذي صحت معانيه ، وقويت أركانه ومبانيه ، ولذّ على أفواه القائلين ، وأسماع السامعين . يا غلام ، احمل إليه خمسين ألف درهم . قال إسحاق:
يا أمير المؤمنين ، كيف أقبل صلتك وقد مدحت شعري بأكثر مما مدحتك به ؟ قال الأصمعي :
فعلمت أنه أصيد للدراهم مني.

ودخل المأمون ذات يوم الديوان ، فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم فقال : من أنت ؟ قال : أنا الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمّل لخدمتك ، الحسن بن رجاء . فقال المأمون :
بالإحسان في البديهة تتفاضل العقول ، يرفع عن مرتبة الديوان إلى مرتبة الخاصة ، ويعطى مائة ألف درهم تقوية له.

ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على المجوسية للرشيد ، وذكر أدبه وحسن معرفته ، فعمل على ضمّه إلى المأمون ، فقال ليحيى يوما : أدخل يوما عليّ هذا الغلام حتى أنظر إليه فأوصله ، فلما مثل بين يديه ووقف تحيّر ، وأراد الكلام فارتج عليه ، فأدركته كبوة ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكرة ، لما كان تقدم به في حقه ، فانبعث الفضل بن سهل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من أبين الدلالة على فراهة المملوك شدّة إفراط هيبته لسيده ، فقال له الرشيد : أحسنت والله ، لئن كان سكوتك لتقول هذه إنه لحسن ، وإن كان شيئا أدركك عند انقطاعك لأحسن وأحسن .
ثم جعل لا يسأله عن شيء إلا رآه فيه مقدما ، فضمّه إلى المأمون.

المزاح
روينا من حديث الدينوري ، عن محمد بن المغيرة المازني ، عن خالد بن عمرو ، عن الربيع بن صبح ، عن الحسن قال : المزاح يذهب بالمروءة.
وأنشد محمد بن المغيرة:
أخوك الذي إن سؤته قال إنني * أسأت وإن عاتبته لان جانبه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه * مفارق ذنب مرّة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه

بالعدل يكثر الخراج وينمو المال
روينا من حديث المالكي ، عن إبراهيم الحرّاني ، عن سليمان بن أبي شيخ ، عن صالح بن سليمان قال : قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم ، وما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة ، لقد ولّي العراق وهي أوفر ما تكون من العمارة ، فأخسّ بها حتى صيّر خراجها أربعين ألف ألف ، وقد أدى إليّ عاملي هذا منها ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدي إليّ ما أدّوا إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف.

وصية بمكارم الأخلاق ممن بلغت نفسه التراق
روينا من حديث الدينوري ، عن أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن زكريا بن يحيى ، نبأ عمر بن حصين ، عن جدّه حميد بن منهب ، عن جرثم قال : لما حضر أبي أوس بن حارثة الوفاة جمعنا فقال : يا بني ، إني قلت أبياتا فاحفظوها عني:

لنا خير أخلاق ونحن أعزّة * نعفّ ونأبى أن نذمّ وننصبا
نجاور أكفانا وننزل بالرّبى * ولأنك عن خير المشاهد غيّبا
ونجتنب الآفات والإثم كله * ونحمي حمانا رهبة أن نؤنبا
بذلك أوصانا أبينا وجدّنا * وتحرمنا أحسابنا أن نتوّبا
فنحن مناجيب لأكرم منجب * وجدّ أبينا كان من قبل منجبا
وما يبتغي فينا المجاور خيفة * وكلّا ومن زار الصفا والمحصّبا
ومن حديثه أيضا عن أحمد بن محمد ، أنشدني إسماعيل بن زيد:
أحبّ الفتى ينفي الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطا يده * ولا ضائقا خيرا ولا قائلا هجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلّة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سدّ فاقة * فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

ومما لا بدّ منه ما قال النابغة:
حسب الخليلين أن الأرض بينهما * هذا عليها وهذا تحتها بالي

ومن باب من طرد فلزم حتى قبل
أخبرني شيخ بالتنعيم ونحن محرمين نلبّي فقال : جاور هنا شيخ سبعين سنة ما منها حجة يحججها أو عمرة يعتمرها إلا يقال له عندما يقول لبّيك :لا لبيك ، ولا سعديك ، فأحرم معه يوما شاب ، فقال الشيخ : لبيك اللهمّ لبيك ، فسمع الشاب قائلا يقول له : لا لبيك ، فقال له : يا عم ، قد قيل لك لا لبيك ، فبكى الشيخ ، فقال له : يا ولدي أسمعته ؟ قال الشاب : نعم ، فقال له الشيخ : إن لي أسمعه سبعين سنة ، قال له الشاب : ففيم تتعب ؟
قال : يا بني ، فإلى باب من ألزم ؟ وإلى من أرجع ؟ إنما لي اللزوم والجهد ، وله سبحانه القبول إن شاء ، أو الردّ . يا بني ، لا ينبغي أن يطرده هذا عن باب مولاه ، ولا يحول بينه وبين خدمته .

وبكى الشيخ حتى جرت دموعه على صدره ، ثم رفع صوته بالتلبية ، فسمع الشاب ذلك القائل يقول له : قد قبلنا إجابتك ، وهكذا فعلنا بكل من حسّن الظن بنا ، مع الاجتهاد في خدمتنا ، ولزوم طاعتنا ، وإيثار ذكرنا على ذكر غيرنا ، لا من يتبع هواه ، ويتمنى علينا الأماني . فقال الشاب : أما سمعت ما ردّ عليك ؟ قال : سمعت ، وعلا نحيبه ، واشتدّ بكاؤه .

أخبرني عبد الرحمن ، عن عبد الله بن حبيب ، عن عبد الغفار بن محمد ، عن ابن أبي الصادق ، عن ابن باكويه ، عن الحسن بن أحمد ، عن محمد بن داود ، عن أبي عبد الله الجلّاء قال : كنت بذي الحليفة وشابّ يريد أن يحرم ، فكان يقول : يا رب ، أريد أن أقول لبّيك اللهم لبّيك ، فأخشى أن تجيبني بلا لبّيك ولا سعديك ، يردّد ذلك مرارا .
ثم قال : لبيك اللهم ، مدّ بها صوته ، وخرجت روحه .في شرف التواضع والعلم ميزان الخشية
حدثنا أبو محمد بن عبد الله ، نبأ علي بن الحسن ، نبأ عبد الله بن محمد بن أحمد ، نبأ جدّي أحمد بن الحسين ، أنا أبو بكر بن الحسن القاضي ، أنا أبو جعفر أحمد بن علي بن رحيم ، نبأ محمد بن الحسين بن أبي الحسن ، نبأ سعيد بن منصور ، نبأ الحارث بن عبيد الله الإيادي ، عن أبي عمر بن الجوبي ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا جالس إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفيّ فقمت " ، يعني إلى شجرة " فيها مثل وكري طائر ، فقعد جبريل عليه السلام في أحدهما ، وقعدت في الآخر ، فسمت وارتقت حتى سدّت الخافقين ، وأنا أقلب طرفي ، فلو شئت أن أمسّ السماء مسست. "

وفي حديث ابن عطارد : « فلو بسطت يديّ إلى السماء لنلتها . ففتح باب من أبواب السماء ، فرأيت النور الأعظم. «
قال ابن عطارد : « فدلّى بسبب ، وهبط النور ، فوقع جبريل مغشيّا عليه كأنه خلس ، فعرفت فضل خشيته على خشيتي. «
وقال أنس : « فضل علمه بالله عليّ ، وإذا دوني حجاب ، رفرف الدرّ والياقوت. «
قال ابن عطارد : « فأوحى إليّ نبيّا ملكا ، أو نبيّا عبدا ، فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع أن تواضع ، قلت : لا بل نبيّا عبدا. «
وقال ابن عباس في حديثه : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقي ربه.
وخالفهما في المتن بل لم يذكر من الحديث إلا قصة التخيير ، فلعله هذا الحديث أو غيره.
في قوله تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
حدثنا أبو بكر السجستاني ، نبأ علي بن إبراهيم ، نبأ سعد الخير ، عن محمد بن محمد المطرّزي ، نبأ أحمد بن عبد الله ، نبأ إبراهيم بن عبد الله بن إسحاق ، نبأ محمد بن إسحاق الثقفي ، انا قتيبة بن سعيد ، نبأ رشيد بن سعد ، عن سعيد بن عبد الرحمن المغافري ، عن أبيه ، أن كعب الأحبار رأى حبر اليهود يبكي فقال : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت بعض الأمر ، فقال له كعب : أنشدك بالله لئن أخبرتك ما أبكاك لتصدقني ؟ قال : نعم ، قال : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ؟ فقال : يا رب ، إني أجد أمة في التوراة « خير أمة أخرجت للناس يأمر من بالمعروف وينهون عن المنكر » ويؤمنون بالكتاب الأول ، والكتاب الآخر ، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الأعور الدجّال . قال : فقال موسى : رب اجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم.
قال كعب : فأنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد أمة هم الحمّادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرا ؟ قالوا:
نفعله إن شاء الله فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم.
قال كعب : أنشدك بالله هل في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال:
رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله ، وإذا هبط واديا حمد الله ، الصعيد لهم طهور ، والأرض لهم مسجد ، حيثما كانوا يطهّرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد

كطهورهم بالماء ، حيث لا يجدون الماء ، غرّ محجّلون من أثر الوضوء ، فاجعلهم أمتي.
قال : هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم.
قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء ، يرثون الكتاب ، فاصطفيتهم ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، فلا أجد واحدا منهم إلا مرحوما ، فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم.

قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى عليه السلام نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد في التوراة أمة ، مصاحفهم في صدورهم ، يلبسون ثياب أهل الجنة ، يصطفون في صلاتهم كصفوف الملائكة ، أصواتهم في صلاتهم كدويّ النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلا من برئ من الحسنات مثل ما برئ الحجر من ورق الشجر ، قال موسى : فاجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم.

قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى عليه السلام لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم السابقون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .
قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم المسبّحون المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر فيقتلون قرون الضلالة المسيح الدجّال فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : قال الحبر : فلما عجب موسى عليه السلام من الخير الذي أعطاه الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، قال : يا ليتني من أصحاب محمد.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا رب ، اجعلني من أمة محمد » . قال الحبر : نعم ، فأوحى الله تعالى إليه ثلاث آيات يرضيه بهن : يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلى قوله : دارَ الْفاسِقِينَ . وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

لم يذكر أبو هريرة في حديثه سوى الخصلتين : الرسالة والكلام . وذكره معاوية والسياق من مصاحفهم في صدورهم ، في هذا الحديث إليّ من أصحاب محمد لأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكرناه من رواية محمد بن الحسن ، عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن جبارة بن المفلس ، عن الربيع بن النعمان ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بلاغة واعتراف

روينا من حديث أحمد بن داود ، عن المازني ، عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي : ما أحسن الثناء عليك ؟ فقال : بلاء الله عندي أحسن من وصف المادحين وإن أحسنوا ، وذنوبي إلى الله أكثر من عيب الذامين وإن كثروا ، فيا أسفي على ما فرطت في جنب الله ، ويا سوأتاه مما قدمت.

حكمة

قال ابن داود : قال محمد بن سلام : قال قرشي لحكيم من العرب : علّمني الحلم ، فقال له : إن الحلم هو الذلّ ، فاصبر عليه.

موعظة

روينا عن أحمد بن عبّاد قال : أنشدني الرياشي:

لا يبعد الله إخوانا لنا بعدوا * أفناهم حدثان الدهر والأبد
يمدّهم كل يوم من بقيّتنا * ولا يردّ إلينا منهم أحد

وروينا من حديث أحمد بن الحسين الأنماطي قال : أنشدنا سعيد الحرميّ ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بما قال:

أما القبور فإنهنّ أوانس * بجوار قبرك والديار قبور
عمّت مصيبته فعمّ هلاكه * فالناس فيهم كلهم مأجور
ردّت صنائعه إليه حياته * فكأنه من نشرها منشور

حدثنا أبو بكر السجستاني ، نبأ هبة الله بن علي ، نبأ ابن البركات السعيدي ، نبأ محمد بن سلامة ، نبأ أحمد بن محمد بن الحاج ، انا عبد الله الفضل بن عبيد الهاشمي ،

حدثنا أبو محمد بكر بن سهل الدمياطي إملاء ، نبأ محمد بن أبي السريّ ، نبأ عبد العزيز بن عبد الصمد ، نبأ أبان بن أبي عياش ، عن أنس بن مالك قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال في خطبته : « أيها الناس ، كان الحق فيها على غيرنا وجب ، وكان الموت فيها على غيرنا كتب ، وكان الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون ، نبوّئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنّا مخلدون بعدهم ، قد نسينا كل واعظة ، وأمنّا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، وجانب أهل الذل والمعصية ، طوبى لمن ذلّ في نفسه ، وحسنت خليقته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السّنّة ولم يعدها إلى بدعة. «

خبر وحي عيسى عليه السلام

حدثنا عربشاه بن محمد بن أبي المعالي العلوي التنوخي والخبوشاني كتابة ، ثنا محمد بن الحسن بن سهل العباسي الطوسي ، أنبأنا خالي أبو المحاسن علي بن أبي الفضل الغارمدي ، أنبأنا أحمد بن الحسين بن علي قال : حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عمر عثمان بن أحمد السماك ببغداد إملاء ، ثنا يحيى بن أبي طالب ، ثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي ، ثنا مالك بن أنس ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال:

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص وهو بالقادسية أن وجّه نضلة بن معاوية الأنصاري إلى حلوان العراق ، فليغر على ضواحيها ، قال : فوجّه سعد نضلة في ثلاثمائة فارس ، فخرجوا حتى أتوا حلوان العراق وأغاروا على ضواحيها ، فأصابوا غنيمة وسبيا ، فأقبلوا يسوقون الغنيمة والسبي حتى رهقت بهم العصر ، وكادت الشمس أن تغرب ، فألجأ نضلة الغنيمة والسبي إلى سفح الجبل ، ثم قام فأذّن فقال : الله أكبر الله أكبر ، قال : ومجيب من الجبل يجيبه ، كبّرت كبيرا يا نضلة ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : كلمة الإخلاص يا نضلة ، ثم قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال : هو الدين ، وهو الذي بشّرنا به عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعلى رأس أمته تقوم الساعة ، ثم قال : حيّ على الصلاة ، قال : طوبى لمن مشى إليها وواظب عليها ، ثم قال : حيّ على الفلاح ، قال : أفلح من أجاب محمدا صلى الله عليه وسلم وهو البقاء لأمته ، ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، قال : كبّرت كبيرا ، ثم قال : لا إله إلا الله ، قال : أخلصت الإخلاص يا نضلة فحرّم الله جسدك على النار.

قال : فلما فرغ من أذانه قمنا فقلنا : من أنت يرحمك الله ؟ أملك أنت ؟ أم ساكن من

الجن ؟ أم من عباد الله ؟ أسمعتنا صوتك ، فأرنا شخصك ، فإنّا وفد الله ، ووفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : فانفلق الجبل عن هامة كالرّحاء ، أبيض الرأس واللحية ، عليه طمران من صوف ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقلنا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا رزيب بن برتملة وصي العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام ، أسكنني هذا الجبل ، ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويتبرّأ مما نحلته النصارى.

ثم قال : ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : قبض ، فبكى بكاء كثيرا طويلا حتى خضب لحيته بالدموع ، ثم قال : من قام فيكم بعده ؟ قلنا : أبو بكر ، قال : ما فعل ؟ قلنا : قبض ، قال: فمن قام بعده ؟ قلنا : عمر ، قال : إذا فاتني لقاء محمد صلى الله عليه وسلم فاقرءوا عمر مني السلام ، وقولوا له : يا عمر سدّد وقراب ، فقد دنا الأمر وأخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها . يا عمر إذا ظهرت هذه الخصال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالهرب الهرب إذا استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وانتسبوا في غير مناسبهم ، وانتموا إلى غير مواليهم ، ولم يرحم كبيرهم صغيرهم ، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم ، وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به ، وترك النهي عن المنكر فلم ينته عنه ، وتعلّم عالمهم العلم ليجلب به الدنانير والدراهم ، وكان المطر قيظا ، والولد غيظا ، وطوّلوا المنابر ، وفضّضوا المصاحف ، وزخرفوا المساجد ، وأظهروا الرشا ، وشيّدوا البناء ، واتّبعوا الهوى ، وباعوا الدين بالدنيا ، واستخفّ بالدماء ، وتقطّعت الأرحام ، وبيع الحكم ، وأكل الربا ، وصار التسلّط فخرا ، والقتل عزّا ، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه ، وركبت النساء السروج.

قال : ثم غاب عنّا ، فكتب بذلك نضلة إلى سعد ، فكتب سعد إلى عمر ، فكتب عمر إلى سعد : ائت أنت ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزل هذا الجبل ، فإذا ألقيته فأقرئه مني السلام ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن بعض أوصياء عيسى ابن مريم نزل بذلك الجبل بناحية العراق » ، فنزل سعد في أربعة آلاف من المهاجرين حتى نزلوا الجبل أربعين يوما ، ينادي بالأذان في كل صلاة ، لم يتابع الراسبي على قوله ، عن مالك بن أنس ، والمعروف في هذا الحديث مالك بن الأزهر ، عن نافع ، وابن الأزهر مجهول .
قال الحكم : لم يسمع بذكره في غير هذا الحديث ، والسؤال عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر هو من حديث ابن لهيعة ، عن ابن الأزهر . وقوله : في زخرفة المساجد وتفضيض المصاحف ليس على طريق الذم ، وإنما هو دلالة على قيام الساعة وفساد الزمان ، كدلالة نزول عيسى وخروج المهدي وطلوع الشمس.

وصية نبوية
حدثنا محمد بن قاسم ، نبأ هبة الله بن مسعود ، نبأ محمد بن بركات ، نبأ محمد بن سلامة بن جعفر ، نبأ هبة الله بن إبراهيم الخولاني ، نبأ علي بن الحسين بن بندار ، نبأ إسماعيل بن أحمد بن أبي حازم ، نبأ أبي ، نبأ عمرو بن هاشم ، أخبرني سليمان بن أبي كريمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ، أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا ، واعمل بفرائض الله تكن عابدا ، وارض بقسم الله تكن زاهدا. «

همة شريفة
روينا من حديث جعفر بن محمد ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبي إسحاق ، قال:
كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى بعض عمّاله ممن عزّاه بموت سهيل بن عبد العزيز بن مروان:
وحسبي حياة الله من كل ميت * وحسبي بقاء الله من كل هالك

تنبيه وتعليم من عالم شفيق
روينا من حديث أبي قلابة ، عن مسلم بن إبراهيم قال : عزّى صالح المري بعض إخوانه فقال له : إن لم تكن مصيبتك أحدثت في نفسك موعظة فمصيبتك بنفسك أعظم.

وفي هذا المعنى لبعض الشعراء:
إن لم يكن ما به أصيب جليلا * فذهاب العزاء فيه أجلّ

تذكرة عاقل وتنبيه غافل
روينا من حديث ابن أبي الدنيا ، عن عبد الله بن محمد قال : قرأت على ركن دار مشيّد:
لو كنت تعقل يا مغرور مارقات * دموع عينيك من خوف ومن حذر
ما بال قوم سهام الموت تخطفهم * يفاخرون برفع الطين والمدر
وأما أنا فمررت بجبّانة فرأيت على قبر مكتوبا:
يا أيها الناس كان لي أمل * قصّر بي عن بلوغه الأجل

فليتقّ الله ربه رجل * أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث تروا * كلّ إلى مثله سينتقل

ومن حسن العهد ومكارم الأخلاق

ما روينا من حديث إبراهيم الحربي ، عن عثمان بن محمد الأنماطي ، عن عمرو بن أبي قيس ، قال : خرج عبد الله بن جعفر إلى حيطان المدينة ، فبينما هو يسير إذ نظر إلى أسود على بعض الحيطان وهو يأكل ، وكلب رابض بين يديه ، فكلما أخذ لقمة رمى للكلب مثلها ، فلم يزل كذلك حتى فرغ من أكله وعبد الله بن جعفر واقف على دابّته ينظر إليه ، فلما فرغ دنا منه فقال له : يا غلام لمن أنت ؟ فقال : لورثة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فقال : لقد رأيت منك عجبا . قال : وما الذي رأيت من العجب يا مولاي ؟ قال : رأيتك تأكل ، وكلما تأكل لقمة رميت للكلب مثلها . فقال له : يا مولاي ، هو رفيقي منذ سنين ، ولا بدّ أن أجعله كأسوتي في الطعام . فقال له : فدون هذا يكفيه . فقال له : يا مولاي ، إني لأستحي من الله عز وجل أن آكل وعين تنظر إليّ.

ثم مضى عنه حتى أتى ورثة عثمان بن عفان ، فنزل عندهم ، فقال : جئت في حاجة.

فقالوا له : وما حاجتك ؟ فقال : تبيعوني الحائط الفلاني ، فقالوا : قد وهبناك إياه . فقال: لست آخذه إلا بثمن ، فباعوه . فقال لهم : وتبيعوني الغلام الأسود ؟ فقالوا له : إن الأسود ربّيناه وهو كأحدنا . فلم يزل بهم حتى باعوه ، فانصرف عنهم . فلما أصبح غدا على الغلام وهو في الحائط ، فخرج إليه فقال : أما شعرت أني قد اشتريتك واشتريت الحائط من مواليك ؟ فقال له : بارك الله لك فيما اشتريت ، ولقد غمّني مفارقتي لمواليّ ، إنهم ربّوني.

فقال له : فأنت حرّ والحائط لك . فقال : إن كنت صادقا يا مولاي فأشهد أني قد أوقفته على ورثة عثمان بن عفان . قال : فتعجّب عبد الله بن جعفر منه ، وقال : ما رأيت كاليوم . فقال له : بارك الله فيك ، ودعا له ومضى . انتهى.

ومن باب فضل مواساة أهل البيت وإيثارهم بالنفقة على الحج إلى البيت

ما حدثناه يونس بن يحيى ، عن محمد بن ناصر ، عن الحسن بن أحمد ، عن أبي الحسن علي بن أحمد الهذلي ، حدثني أبو الحسين بن شمعون أن عبد الله بن المبارك قال : كان بعض المتقدمين قد حبّب إليه الحج ، قال : فحدّثت أنه ورد الحاج في بعض السنين إلى بغداد ، فعزمت على الخروج معهم إلى الحج ، فأخذت في كمي خمسمائة

دينار ، وخرجت إلى السوق أشتري آلة الحج ، فبينا أنا في بعض الطريق عارضتني امرأة فقلت : يرحمك الله ، إني امرأة شريفة ولي بنات عراة ، واليوم الرابع ما أكلنا شيئا . قال: فوقع كلامها في قلبي ، فطرحت الخمسمائة دينار في طرف إزارها ، وقلت : عودي إلى بيتك فاستعيني بهذه الدنانير على وقتك . فحمدت الله وانصرفت ، ونزع الله عز وجل حلاوة الخروج في تلك السنة ، فخرج الناس وحجّوا وعادوا ، فقلت : اخرج للقاء الأصدقاء والسلام عليهم ، فخرجت ، فجعلت كلما لقيت صديق سلّمت عليه وقلت له : قبل الله حجّك وشكر سعيك . يقول لي : وأنت قبل الله حجّك . فطال عليّ ذلك ، فلما كان الليل نمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يقول لي : « لا تعجب من تهنئة الناس لك بالحج ، أغثت ملهوفا ، وأغنيت ضعيفا ، فسألت الله تعالى فخلق في صورتك ملكا فهو يحجّ عنك في كل عام ، فإن شئت تحجّ إن شئت لا تحجّ. »

ولمهيار الديلمي في النسيب:
وبجرعاء الحمى عني فعج * بالحمى واقرأ على قلبي السلاما
وترحّل فتحدّث عجبا * أن قلبا سار عن جسم أقاما
قل لجيران الفضا آه على * طيب عيش بالفضا لو كان داما
حمّلوا ريح الصبا نشركم * قبل أن تحمل شيحا وثماما
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى * إن أذنتم لجفوني أن تناما
من حجّ من خلفاء بني العباس
حجّ أبو جعفر المنصور بالناس في سنة 140 ، ثم في سنة 144 ، ثم في سنة 147 ، ثم في سنة 152 ، ثم في سنة 158 ، وتوفي قبل التروية بيومين.
وحجّ المهدي بالناس في خلافته سنة 160.
وحجّ الرشيد في خلافته سنة 170 ، ثم في سنة 173 ، ثم في سنة 174.

روينا من حديث ابن ودعان ، عن محمد بن علي بن سليمان ، عن عثمان الدقّاق ، عن إسماعيل بن إسحاق ، عن سليمان بن حرب ، عن حمّاد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فكان مما ضبطت منها : « أيها الناس ، إن أفضل الناس من تواضع عن رفعه ، وزهد عن غنيه ، وأنصف عن قود ، وحلم عن قدرة . وإن أفضل الناس عبدا أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحب فيها العفاف ، وتزوّد للرحيل ، وتأهب للمسير . ألا وإن أعقل الناس عبد

عرف ربه فأطاعه ، وعرف عدوّه فعصاه ، وعرف دار إقامته فأصلحها ، وعرف سرعة رحيله فتزوّد لها . ألا وإن خير الزاد ما صحبه التقوى ، وخير العمل ما تقدمته النية ، وأعلى الناس منزلة أخوفهم منه. «

ومن وقائع بعض الفقراء إلى الله تعالى
ما حدثنا عبد الله ابن الأستاذ المروزي قال : قال لي بعض أصحاب أبي مدين:
رأيت في الواقعة الشيخ أبا مدين ، وهو في قبة من نور ، وقد أحدق المريدون بتلك القبة ، وهم لا يرونه ، فخاطبهم من باطن القبة فقال لهم : من عنده من يراني به فليراني ، فقال له بعض الحاضرين : إني أراك ، فقال : بم رأيتني ؟ فقال له : أمدّ نورك نوري فرأيتك . فقال عند ذلك الشيخ : لا يرى صديقا إلا صديق ، ولا نبيّا إلا نبي ، ولا رسولا إلا رسول ، ولا ملكا إلا ملك .
فالمحسوسات لا معنى لها من نفسها ، إذ هي المستمدة من غيرها ، والوقوف مع الأجسام قصور وعيّ ، ولا يرى من ليس كمثله شيء ، فالمحسوسات إنما تواجه من له مكان وجهه ، والله سبحانه وتعالى عزّ أن يرى بهذه الصفة ، فنحن في هذه الدار الفانية ، كمثل قواديس السانية ، وأصل الرؤية قوة الإيمان ، وبقدر ما يصحب كل أحد منه يكون العيان ، إذ الحق سبحانه لا يحويه حجاب تعالى عن ذلك ربّ الأرباب ، والحجب صفة البشر ، وبقوة أسرار القلوب وضعفها يكون النظر ، ففي بدائع صنع الله ما يعجز الأوهام عن وصفه ، وتكلّ الأفكار عن الإحاطة بكنه علمه.
فالأرضون وما منها ظلمات ، وإنما أضاءت بنور السماوات ، فما من أرض إلا ولها سماء تحييها بما تنزل عليها من الماء.

ومن سماعنا على قول الرضي بالقلب:
ترى النازلين بأرض العرا * ق قد علموا أن وجدي كذا
دنا طربا والهوى نازح * فيا بعد ذاك ويا قرب ذا

وسماعنا على قول الأشجع بالسرّ:
ألا ليت حيّا بالعراق عهدتهم * ذوي غبطة في عيشهم وأمان
يرون دموعي حين يشتمل الدجى * عليّ وما ألقى من الحدثان
أمن بئر ميمون تحنّ صبابة * إلى أهل بغداد وتلك أماني
بعدت وبيت الله عمّن تحبّه * هواك عراقيّ وأنت يماني
إذا ذكرت بغداد لي فكأنما * تحرّك في صدري شياه سنان

ومن سماعنا على قول موسى بن عبد الملك بالنفس والروح ، لما حجّ ووصل إلى الثعلبية اشتدّ شوقه فقال:
لما وردت الثعلبية * عند مجتمع الرفاق
وشممت من برد الحجا * ونسيم أنفاس العراق
أيقنت لي ولمن هوي * ت بجمع شمل واتفاق
ما بيننا إلا تصرّ * م هذه السبع البواقي
حتى يطول حديثنا * بصنوف ما كنا نلاقي
وسماعنا على قول جرير في التوديع بالنفس لا غير:
أتبعتهم مقلة إنسانها غرق * هل ما ترى تارك للعين إنسانا
يا حبّذا جبل الريّان من جبل * وحبّذا ساكن الريّان من كانا
وحبّذا نفحات من ثمانية * تأتيك من قبل الريّان أحيانا
هل يرجعنّ وليس الدهر مرتجعا * عيش لنا طال ما احلولى وما لأنا

ورأينا في تراجم الكتب المتقدمة أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام:
يا ابن عمران ، حبّبني إلى عبادي ، قال : يا ربّ ، كيف أصل إلى ذلك ؟
فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، ذكّرهم إحساني إليهم ، وعظيم تفضّلي عليهم ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل .
يشهد لصحّة هذا الخبر إخبار الله تعالى لنا في القرآن:
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . جاء التفسير بآلاء الله ونعمه ، فكنّى عنها بالزمان الذي أوجدها فيه . المعنى.
روينا من حديث ابن ماجة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لموسى:
اشكرني حقّ الشكر . قال : ومن يقدر على ذلك ؟
قال : يا موسى ، إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني. «
حدثنا محمد بن قاسم من حديث السبع لما ذكر النور الأبهى ، حيث كان الروح القدس الأسنى ، بالمعراج المحمدي الأعلى ، على الرفرف الأنزه الأزهى ، أن عنده بين يديه أو خلفه لا أدري أيّ ذلك .
قال : صوّر على صور ابن آدم ، فإذا فعل العبد هنا قبيحا تغيّر وجه تلك الصورة الشبيهة به هناك ، فيرسل الله سترا بينها وبين تلك الصور ، وإذا فعل العبد هنا حسنة أحسن وجه تلك الصورة الشبيهة به هناك ، فيرفع الله الستر بينها وبين سائر الصور ، فتنظر تلك الصور إلى ما أعطيت الصورة من الحسن . قال : وعيادة تلك الصور هناك.

سبحان من أظهر الجميل ، وستر القبيح . وأنشدنا:
جعلت توسّلي دمعي وذلّي * ومثلي من توسّل بالدموع
وبالحزن الشديد ووضع خدّي * على أرض التنصّل والخضوع
عسى المولى يجود بكشف ضرّي * ويقضي بالإنابة والرجوع
قال ابن عطاء : إذا تنفّس العبد افتقارا وذلا ، هتك بذلك النّفس كل حجاب حال بين سرّه وبين مشاهدة ربه . يؤيد هذا القول في باب المعرفة : من عرف نفسه عرف ربّه.
قال القائل:
لبست ثوب الرّجا والناس قد رقدوا * وقمت أشكو إلى مولاي كما أجد
وقلت يا أملي في كلّ نائبة * ومن عليه لكشف الضّرّ أعتمد
أشكو إليك ذنوبا أنت تعلمها * ما لي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذّلّ صاغرة * إليك يا خير من مدّت إليه يد
فلا تردّنها يا ربّ خائبة * فبحر جودك يروي كلّ من يرد
وقال الآخر:
إليك قصدي بفقري لا إلى أحد * فخذ بفضلك من بحر الهوى بيدي
وانظر إليّ فكم أوليتني حسنا * ما مرّ يوما على بالي ولا خلدي
يا من أجاب دعائي بعد معصيتي * ومن عليه وإن أخطأت معتمدي
حكى لنا بعض شيوخنا أن الحسن بن هانئ الشهير بالمعاصي رآه بعض أصحابه في النوم ، وهو على حالة حسنة ، فقال له ، وقد أنكر في نفسه ما رآه من حسن حاله ، مع ما يعرفه من خبث سيرته : ما فعل الله بك يا أبا نواس ؟ قال : غفر لي ، وصيّر حالي إلى ما ترى . قلت : فهل تعرف لذلك سببا سوى جوده سبحانه ؟ فقال : يا أخي ، من جود الله وعظيم منّته أن وقفني قبل أن يقبضني إلى أبيات عملتها في حالتي بقلب منكسر ، وحسن ظن بمن لجأت إليه في وقت ضرورتي ، فقبل ذلك مني ، وغفر لي . قال : فقلت : أنشدني إياها . قال لي : تراها في تحت وسادتي . فاستيقظت ، وجئت البيت ، واستأذنت ، فرفعت الوسادة التي كانت تحت رأسه ، فإذا بالرقعة تلوح ، فتناولتها ، فإذا فيها:
يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن * فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا * فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا * وجميل ظني ثم إني مسلم

غضب السلطان على جماعة من العلماء خرجوا عليه ووقعوا فيه ، فلما ظفر بهم أمر بقتلهم ، فبلغ الخبر شيخنا أبا مدين رحمه الله ، وكان مرعي الجانب عند السلطان والخاصة والعامة ، فأخذ عصاه وخرج ، فلما جاء دار السلطان أبصر القوم على تلك الحالة فبكى ، وأخبر السلطان بمكانه فتلقاه ، وقال : ما جاء بالشيخ في هذا الوقت ؟ فقال : الشفاعة في هؤلاء . فقال السلطان : أو ما تعرف يا شيخ إساءتهم ؟ فقال : يا أبا علي ، وهل على المحسنين من سبيل ؟ وهل الشفاعة إلا في أهل الكبائر من المسيئين ؟ فاستعبر السلطان وعفا عن الجميع ، وانصرف.
قرأنا في الخبر الأول أن الخليل عليه السلام اتفق له قضيتان متعارضتان : أدب في الواحدة وشكر في الأخرى ، فإن الله تعالى هو متولي أدب عباده الصالحين . أما التي شكر عليها فمن هذا الباب ، وذلك أنه عليه السلام نزل به رجل من عبدة الأوثان ، فأضافه الخليل وأكرمه ، فضجت الملائكة في السماوات ، وقالوا : ربنا خليلك يضيف عدوّك ،
فقال لهم:
جلّت قدرتي يا ملائكتي ، أنا أعلم بخليلي منكم . ثم أمر جبريل عليه السلام فنزل ، وعرض عليه قول الملائكة . فبكى إبراهيم عليه السلام وقال له : يا جبريل ، قل لمولاي منك تعلّمت الكرم ، يشير إلى حكاية الأدب التي أسوقها بعد هذه إن شاء الله تعالى ، رأيتك تحسن إلى من أساء فتعلّمت منك.
وأما حكاية الأدب ، فنزل له عليه السلام رجل من عبدة الأوثان ، فاستضافه ، فقال له إبراهيم : لا أضيفك حتى تسلم ، فأبى عليه وانصرف ، فأمر الله جبريل أن ينزل على إبراهيم عليهما السلام ، فقال له : يا إبراهيم ، يقول لك ربك : استضافك عبدي فشرطت عليه أن يترك دينه من أجل لقمة يأكلها عندك ، وأنا أرزقه منذ ثمانين سنة على شركه ، فلما أبى تركته . قال : فبكى إبراهيم ، ثم قام يقفو أثر الوثني إلى أن لحق به ، فعرض عليه الرجوع ، فأبى عليه أو يخبره بسبب ذلك ، فقال له إبراهيم عليه السلام : إن الله عاتبني فيك ، وقال لي ذيت وذيت ، فبكى الوثني وقال : يا إبراهيم ، أسلمت لرب العالمين . فأسلم الوثني هذا نتيجة الكرم.
وأنشد بعضهم:
أطعمتني بالجود حين بدأتني * أفلا أؤمّل نعمة الإتمام
حاشى الكريم إذا تفضّل منعما * مما يشين محاسن الإنعام
وفي معنى هذين البيتين ما سمعت شيخنا ابن الشحنة بإشبيلية وهو يقول لرجل ، وما رأيت رجلا قط أحسن شيبة ولا وجها منه ، ودموعه قد أخضلت لحيته : يا أخي ، حاشا

الكريم أن يمنّ عليّ بالإسلام ابتداء قبل أن أسأله ، ثم ينزعه مني بعد سؤالي ، هذا نقيض الكرم . وعلا بكاؤه ، وعظم انتحابه ، فبكينا لبكائه رضي الله عنه . وهو من أجلّ من لقيت في طريق الله.

ومن حميد الخصال

ما اشترط عبد الملك بن مروان على الشعبي ، لما دخل عليه قال : يا شعبي ، جنّبني خصالا أربعا ، وما شئت فافعل . قال : يا أمير المؤمنين وما هي ؟ قال : الواحدة : لا تطريني في وجهي ، ولا أجربن عليك كذبة ، ولا تغتابن عندي أحدا ولا تفشين لي سرا . فقل ما شئت يا شعبي ، فقال الشعبي : ائذن لي يا أمير المؤمنين في الانصراف . فقال : انصرف ، فانصرف وما تكلّم.
ولبعضهم في الكتمان:
النجم أقرب من سري إذا اشتملت * منّي على السرّ أضلاعي وأحشائي
ولنا في مصراع من قصيدة:
(فالسرّ ميت بقلب الحرّ مدفون)
أخذته من قول القائل : قلوب الأحرار قبور الأسرار.
وقال الآخر:
ونفسك فاحفظها ولا تفش للعدى * من السرّ ما يطوي عليه ضميرها
فما يحفظ المكتوم من سرّ أهله * إذا عقد الأسرار شاع كبيرها
من القوم إلا ذو عفاف بعينه * على ذاك منه صدق نفس وخيرها
يقال لكاتم سرّه : من كتمانه أحد فضيلتين : الظفر بحاجته ، والسلامة من شرّه.

موطن شكر

قال في الحكمة : ينبغي لذي اللبّ أن يصون شكره عمن لا يستحقه ، ويستر ماء وجهه بالقناعة ، وهو الرضى بالموجود في الوقت ، وعدم التجاوز عنه إلى ما يذهب بماء الوجه ، فمن أراد أن تعظم منزلته فليكفّ مسألته ، ومن أحبّ الزيادة من النّعم فليشكر.
قال الله تعالى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ.
يحكى عن بعض الأعراب أنه رؤي وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : أحمدك

سبحانك ولا أشكرك . فعاتبه بعض الطائفين في ذلك ، فقال : إنه أعطاني الفقر ، فإن شكرته عليه أخاف من زيادة فقري ، فإن وعده حق ، ثم انصرف . فلما جاءت السنة الثانية رؤي حسن الهيئة ، وهو يحسن الثناء والشكر على الله ، فقيل له : فأين هذا من ذاك ؟ فقال:
إنه سبحانه أنعم عليّ بالخير بالشاء والإبل ، فأشكر للزيادة فإن وعده حق.
قال بعضهم : من أحبّ بقاء عزّه فليسقط دالته ومكره.

محل صنائع المعروف
في الحكمة الأولى : المعروف إلى الكرام يعقب خيرا ، وإلى اللئام يعقب شرا.
ومثل ذلك : المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا ، ويشرب منه الأفاعي فيعقب سمّا.
حكاية : ذكر أن جماعة من الأعراب أثاروا ضبعا ، فدخلت خباء شيخ ، فقصدوها ، فخرج إليهم فقال : ما بغيتكم ؟ قالوا : جارك ، قال : أما إذ قد سميتموه جاري فإن هذا السيف دونه . فتركوه . وكانت الضبع هزيلا فأحضر لها من لقامه ، وجعل يسقيها حتى عاشت ، فنام الشيخ فوثبت عليه فقتلته .
فقال شاعرهم في ذلك:
ومن يصنع المعروف مع غير أهله * يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر
أقام لها لما أناخت ببابه * لتسمن ألبان اللقاح الدرائر
فأسمنها حق إذا ما تمكنت * فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من * يعود بإحسان إلى غير شاكر
يا أخي ، أما لك فيما ترى معتبر ؟ الله يرسل نعمته على عبديه فالكريم منهما يطيعه بها ، واللئيم منهما يستعين على معصيته بها.
يقول سفيان : وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.
يحكى عن بعض الأعراب أنه أخذ جرو ذئب عندما ولد قبل أن يعرف أمه ، فاحتمل إلى خبائه وقرب له شاة ، فجعل يمتص من لبنها حتى كبر وسمن ، ثم شدّ على الشاة فقتلها . فقال الأعرابي في ذلك:
غذّتك شويهتي ونشأت عندي * فما أدراك أن أباك ذيب
فجعت نسيبتي وصغار قوم * بشاتهم وأنت لهم ربيب
إذا كان الطباع طباع سوء * فما يجدي التحفظ والأديب

ومن باب الأخلاق ومكارمها
في الحكمة : عليك بالصدق ، فما السيف القاطع في كفّ الشجاع بأعزّ من الصدق.
والصدق عزّ وإن كان فيه ما تكره ، والكذب ذلّ وإن كان فيه ما تحبّ . ومن عرف بالكذب اتّهم في الصدق.
ولبعضهم:
لا يكذب المرء إلا من مهانته * أو عادة السوء أو من قلة الأدب
مذكور في كتاب لهندي : ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور رئاسة ، ولا لملول وفاء ، ولا لبخيل صديق.
يقول بعضهم : الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل ، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور.

من عفا عن قدرة
يحكى عن أمير المؤمنين هارون الرشيد ، أمر يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيد فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء ، فقال للموكل به : عرّض له بأن يكلّمني ويسألني إطلاقه ، فقال له الموكل ذلك ، فقال : قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي ، فالأمر قريب ، والموعد الصراط ، والحاكم الله . فخرّ الرشيد مغشيا عليه ، ثم أفاق وأمر بإطلاقه.

حكاية
ظفر المأمون برجل كان يطلبه ، فلما دخل عليه قال : يا عدوّ الله ، أنت الذي تفسد في الأرض بغير الحق ؟ يا غلام ، خذه إليك فاسقه كأس المنية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، دعني أنشدك أبياتا ، فقال : هات ، فأنشده:
زعموا بأن الصقر صادف مرة * عصفور برّ ساقه المقدور
فتكلم العصفور تحت جناحه * والصقر منقضّ عليه يطير
ما كنت خاميرا لمثلك لقمة * ولئن شويت فإنني لحقير
فتهاون الصقر المدلّ بصيده * كرما وأفلت ذلك العصفور

فقال له المأمون : أحسنت ، ما جرى ذلك على لسانك إلا لبقية بقيت من عمرك.
فأطلقه ، وخلع عليه ، ووصله.
حكاية مضحكة
ذكر أن معلّما كان يعلّم الصبيان ، وكان اسمه أبو عاصم ، فبينا هو ذات يوم قاعد وبين يديه ثلاثة من صبيان العرب صغار يعلّمهم ، إذ به ضرط ، فقال أحدهم:
وضرطة جاءت على غفلة * من مفلق الشيخ أبي عاصم
فقال الآخر:
فأيقظت ما كان نائم * وأقعدت ما كان من قائم
فقال الثالث:
وانهدّت الأرض وأجبالها * والتزم المظلوم بالظالم
حكاية في معناها
حكي عن بعضهم أن واليا أتى برجل جنى جناية فأمر بضربه ، فلما مدّ قال : بحق رأس أمك إلا عفوت عني ، فقال : أوجعه ، قال : بحق خدّيها ونحرها ، قال : اضرب ، قال : بحق ثديها ، قال : اضرب ، قال : بحق سرّتها ، قال : ويلكم دعوه لا ينحدر قليلا.
وأتى محتسب كان عندنا بفاس بشاعر جنى جناية ، فأمر بضربه ، فسأله العفو حتى أغضبه ، فصاح على الضرّاب ، شدّ عليه ، ففي صيحته تلك ضرط المحتسب ضرطات.
فقال الشاعر في ذلك ، والسياط تأخذه:
اسمعوني واعجبوا * ضرط المحتسب
ضرطة صافية * طار منها العتب
سهلت حلق سلى * وعرت وادي سب
سبعة في نسق * ب ب ب بو ب ب ب
كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس وما كان منه في ذلك
روينا من حديث أحمد بن عبد الله قال : ثنا إبراهيم بن إسماعيل ، عن صالح بن كيسان قال : قال ابن شهاب ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس أخبره أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة ، وأمر أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فرفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه كسرى خرّقه . قال ابن شهاب: فحسبت أن المسيّب قال : فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزّقوا كل ممزّق.
قال محمد بن إسحاق : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس بن عديّ بن سعيد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس ، وكتب معه:
»بسم الله الرحمن الرحيم:
من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتّبع الهدى ، وآمن بالله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ ، فأسلم تسلم ، فإن أبت فإن إثم المجوس عليك. «
فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شققه ، وقال : يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي .
قال محمد بن إسحاق : فبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم مزّق ملكه » ، حين بلغه شقّ كتابه.
ثم كتب كسرى إلى باذان وهو على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز من عندك رجلين جلدين ، فليأتياني به . فبعث باذان قهرمانه وهو أنوبوبة ، وكان كاتبا حاسبا بكتاب ملك فارس ، وبعث معه برجل من الفرس يقال له خر خرشونة ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لأنوبوبة : ويلك ، انظره ما الرجل ، وكلّمه وائتني بخبره . فخرجا حتى قدما الطائف ، فسألاهم عنه ، فقالوا : هو بالمدينة ، فاستبشروا بهما وفرحوا . فقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد نصب له ملك الملوك . كفيتم الرجل.
فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّمه أنوبوبة وقال : إن شاه شاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتي بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك بكتاب يمنعك منه ويكفّ به عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما وقال : « ويلكما ، من أمر كما بهذا ؟ » ، قالا : أمرنا بهذا ربنا ، يعنيان كسرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي » . ثم قال لهما : « ارجعا حتى تأتياني غدا. «

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر أن الله عز وجل سلّط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله في شهر كذا وكذا ، في ليلة كذا وكذا ، لعدة ما مضى من الليل ، سلّط عليه ابنه شيرويه ، فقتله.
فقالا : هل تدري ما تقول فنكتب بهذا عنك ، ونخبر الملك ؟ قال : « نعم ، أخبراه ذلك عني ،
وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهي إلى منتهى الخفّ والحافر.
وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملّكتك على قومك » . ثم أعطى خرخرشونة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى هذا الرجل نبيّا كما يقول .
ولننظرنّ ما قال ، فلئن كان ما قد قال حقا ما فيه كلام إنه لنبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا . فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : أما بعد ، قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجهيزهم ونعوتهم.
فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كتب إليك كسرى فلا تهجه حتى يأتيك أمري . فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول.
فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن . فكانت حمير تقول لخرخرشونة:
ذو المعجزة ، للمنطقة التي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمنطقة بلسان حمير المعجزة ، فبنوه اليوم باليمن ، ينسبون إليها خرخرشونة ذو المعجزة . وقد قال أنوبوبة لباذان : ما كلّمت رجلا قطّ أهيب عندي منه . فقال له باذان : - هل معه شرط ؟ قال : لا.

أنس بعرفان وخلوة برحمان

حدثنا محمد بن إسماعيل ، نبأ علي بن النفيس ، نبأ عبد الرحمن بن علي بن محمد ، أنا أبو بكر الصوفي ، أنا أبو سعيد الحيري ، أنا أبو بكر ، انا ابن باكويه الشيرازي ، نبأ عبد الواحد بن بكر الورثاني ، أنا أبو بكر أحمد بن محمد المارستاني ، عن محمد بن عيسى القرشي ، حدثني أبو الأشهب السائح : رأيت بين الثعلبية والخزيمية غلاما قائما يصلّي عند بعض الأسيال ، قد انقطع عن الناس ، فانتظرته حتى قطع صلاته ، ثم قلت له : ما معك مؤنس ؟
قال : بلى . قلت : وأين هو ؟ قال : أمامي ، ومعي ، وخلفي ، وعن شمالي ، وعن يميني ، وفوقي . فعلمت أن عنده معرفة ، فقلت له : أما معك زاد ؟ قال : بلى . قلت : وأين هو ؟
قال : الإخلاص لله عز وجل ، والتوحيد له ، والإقرار بنبيّه صلى الله عليه وسلم ، وإيمان صادق ، وتوكّل واثق . قلت : هل لك في مرافقتي ؟ قال : الرفيق شغل عن الله عز وجل ، ولا أحبّ أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين . قلت : أما تستوحش في هذه البريّة وحدك ؟ قال:

الأنس بالله قطع عني كل وحشة ، حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ، ولا استوحشت منها.
قلت : فمن أين تأكل ؟ قال : الذي غذّاني في ظلم الأرحام صغيرا تكفّل بي كبيرا . فقلت:
في أيّ وقت تجيئك الأسباب ؟ فقال : لي حدّ معلوم ، ووقت مفهوم ، إذا احتجت إلى الطعام
أصبته في أي موضع كنت ، وقد علّمني ما يصلحني ، وهو غير غافل عني . قلت:
لك حاجة ؟ قال : نعم . قلت : وما هي ؟ قال : إن رأيتني فلا تكلّمني ، ولا تعلم أحدا أنك
تعرفني . قلت : لك ذلك ، فهل حاجة أخرى ؟ قال : نعم . قلت : وما هي ؟ قال : إن استطعت أن
لا تنساني في دعائك وعند الشدائد إذا نزلت بك فافعل . قلت : كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت
أفضل مني خوفا وتوكّلا ؟ قال : لا تقل هذا ، إنك قد صليت لله قبلي ، وصمت قبلي ، ولك حق
الإسلام ، ومعرفة الإيمان . قلت : فإن لي أيضا حاجة . قال : وما هي ؟ قلت : ادع الله لي .
قال : حجب الله طرفك عن كل معصية ، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه ، حتى لا يكون لك همّ إلا
هو . قلت : يا حبيبي ، متى ألقاك وأين أطلبك ؟ قال : أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقاء فيها ،
وأما الآخرة فإنها مجمع المتّقين ، فإياك أن تخالف الله فيما أمرك وندبك إليه . وإن كنت تبتغي
لقائي فاطلبني مع الناظرين إلى الله تعالى في زمرتهم . قلت : وكيف علمت ؟ قال : بغضّ طرفي
له عن كل محرّم ، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم . وقد سألته أن يجعل حبي النظر إليه . ثم صاح
وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري.

تذكرة بلسان حال

روينا من حديث المالكي ، عن محمد بن غالب ، عن محمد بن إبراهيم ، عن إسماعيل بن عبد
الكريم ، عن عقيل بن معقل ، عن وهب بن منبّه قال : ما من شعرة تبيضّ إلا تقول للسوداء : يا
أختاه ، قد أتاك الموت فاستعدّي.
حدثنا محمد بن أحمد الهروي ، عن عبد الرحمن بن أبي الفضل ، عن محمد بن أحمد الماهباني ،
سمعت محمد بن القاسم الصقار ، سمعت حمزة بن عبد العزيز ، سمعت أبا بكر الأبهري ،
سمعت يوسف بن الحسين ، سمعت ذا النون المصري يقول : الحسود لا يسود.
إيقاع وحسن استماع
حدثنا محمد بن أحمد ، ثنا الثقفي ، حدثنا أبو عبد الرحمن السلمي ، حدثنا أحمد بن سعيد ، ثنا
محمد بن سعيد المروزي ، ثنا العباس الترفقي ، نبأ عبد الله بن عمرو

الورّاق ، نبأ الحسين بن علي بن منصور ، نبأ أبو غياث البصري ، عن إبراهيم بن محمد الشافعي أن سعيد بن المسيب مرّ في بعض أزقّة مكة فسمع الأخضر الجدي يتغنى في دار العاص بن وائل ويقول:
تضوّع مسكا بطن نعمان إن مشت * به زينب في نسوة عطرات
فلما رأت ركب النميري أعرضت * وهنّ من أن يلقينه حذرات
قال : فضرب برجله الأرض زمانا وقال : هذا مما يلذّ سماعه ، وكانوا يرون أن الشعر لسعيد.
وللشريف الرضيّ

أنشدني ابن فرقد:
ألا هل إلى ظلّ الأثيل تخلص * وهل لثنيّات الغوير طلوع
وهل لليالينا الطوال تصرّ * وهل لليالينا القصار رجوع

وأنشد له أيضا في ذلك:
أقول لركب رائحين لعلكم * تحلّون من بعد العقيق اليمانيا
خذوا نظري مني ولاقوا به الحمى * ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا
ومرّوا على أبيات حيّ برامة * وقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
عدمت دوائي بالعراق فربما * وجدتم بنجد لي طبيبا مداويا
وقولوا لجيران على الخيف من منى * تراكم من استبدلتم بجواريا
ومن ورد الماء الذي كنت واردا * به ورعى العشب الذي كنت راعيا
فوا حزنا كم لي على الخيف شهقة * تذوب عليها قطعة من فؤاديا
ترحلت عنكم إلى أمامي نظرة * وعشر وعشر بعدكم من ورائيا

ومن نظمه أيضا في ذلك:
من معيد لي أي * أمي بجزع السمرات
ولياليناا بجمع * ومنى والجمرات
يا وقوفا ما وقف * نا في طلال السلمات
نتشاكى ما عنانا * بكلام العبرات
آه من جيد إلى الد * ار طويل اللفتات
وغرام غير ماض * بلقاء غير آت

فسقى بطن منى * والخيف صوب الغاديات
غرست عندي غرس الش * وق مرور الحسنات
أين راق لغرامي * وطبيب لشكاتي

دعاء مجاب لبعض نساء الأعراب
روينا من حديث ابن مروان ، عن إسماعيل بن يونس ، عن الرياشي ، عن الأصمعي قال : سمعت أعرابية بعرفات وهي تقول : اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائيا فقرّبه ، وإن كان قريبا فيسّره.

حفظ اللسان دليل على عقل الإنسان
رأيت اللسان على أهله * إذا ساسه الجهل ليثا مغيرا
وقال بعض الأعراب لآخر يعظه : إياك أن تضرب لسانك عنقك . وقال أكثم بن صيفيّ : معقل الرجل بين فكيه ، يعني لسانه . والفكان : اللحيان.
وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه كثيرا ما ينشد:
اخزن لسانك لا تقول فتبتلى * إن البلاء موكل بالمنطق

وقال المؤمّل:
شفّ المؤمّل يوم الحيرة النظر * ليت المؤمّل لم يخلق له بصر
فعمي في مجلسه ذلك.
ومن باب العناية الإلهية
ما حدثنا به عبد الرحمن بن علي ومحمد بن محمد . فأما محمد بن محمد فقال:
كتب إلينا ، وأما عبد الرحمن فقال : قرأت على أبي القاسم الحريري ، عن أبي طالب العشاري ، عن مبادر بن عبد الله الصوفي قال : سمعت أبا الأزهر عبد الواحد بن محمد الفارسي قال : لقيت إبراهيم الحتلي بمكة بعد رجوعه إلى وطنه وتزويجه ابنة عمه ، وكان قد قطع البادية حافيا ، فحدثني أنه لما رجع إلى بلده وتزوج ، شغف بابنة عمه شغفا شديدا حتى ما كان يفارقها لحظة . فتفكرت ليلة في كثرة ميلي إليها ، فقلت : ما يحسن بي أن أرد القيامة وفي قلبي هذه ، فتطهرت ، وصليت ركعتين ، وقلت : سيدي ردّ قلبي إلى ما هو

أولى . فلما كان من الغد أخذتها الحمى ، وتوفيت في اليوم الثالث . فنويت الخروج حافيا من وقتي إلى مكة ، فقلت : هكذا يحمي الله أولياءه ويختار لهم ويرعاهم.
ومن باب حثّ النفس على المحامد
ما حدثنا به محمد بن الفضل ، عن أبي منصور القزّاز ، عن أبي بكر الخطيب ، عن أبي سعيد الصيرفي ، عن أبي عبد الله الأصفهاني ، عن أبي بكر القرشي ، عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا ، فبلغ منه الجهد ،
فأنشد:
قدمي اعتورا رمل الكثيب * وأطرقا الآجن من ماء القليب
ربّ يوم رحتما فيه على * زهرة الدنيا وفي واد خصيب
وسماع حسن من حسن * صحب المزهر كالظبي الربيب
فاحسبا ذاك بهذا واصبرا * وخذا من كل فنّ بنصيب
إنما أمشي لأني مذنب * فلعل الله يغفر عن ذنوبي

ومن هذا الباب في حنين الإبل وسيرها:
يا لزماني على الحمى عجبا * وأي زمان مضى وأي حمى
حلفت بالراقصات مجتهدا * عناقا خفوضا وأظهرا سنما
تحسب أشخاصها إذا اختلطت * بالأكم الوقص في الدجا أكما
تحمل شقا إذا هم ذكروا * ذخيرة الأجر غالطوا السّاما
غدوا نزاعا من عامهم وتقى * أيام جمع والأشهر الحرما
حتى أناخوا بذي الستور ملبّ * ين بأرض كادت تكون سما

ومن هذا الباب:
أحاديها لو أمكنت من زمامها * أريد وراء والهوى من أمامها
فما الحزن إلا بين حلمي وخوفها * وبين زفيري خائفا وبغامها
يعزّ علينا يومها تحت كورها * بما فات من أيامها في مشامها
وإن تعلف الرّطب الخليط ببابل * مكان أراك حاجر وبشامها
فليت بلاد أسرها في قصورها * فذاك بيوت خيرها في خيامها

ومن هذا الباب:
ردّوا لها أمّامها بالغميم * إن كان من بعد شقاء نعيم
ولا تدلّوها فقد آمّها * أدلة الشوق وهادي الشميم

ومن هذا الباب:
أمن خفوق البرق ترزمينا * حتى فما اتبعك الحنينا
سري يمانا وسراك شامة * فضلت ما أن تتلقّنينا
نعم تشاقين ونشتاق له * ونعلن الوجد وتكتمينا
فأين منك اليوم أو منّا الهوى * وأين نجد والمغورونا

ومنه أيضا:
أين تريد يا مثير الظعن * أوطن بنا برامة بوطن
حبسا ولو زادك من مضضه * بين الفرار خائفا والوسن
لعلها أن تشتفي نائحة * بالعبرات أعين من أعين
كم كبد كريمة في برّة * خزمتها ومهجة في رسن
يا قاتل الله العذيب موقفا * على ثبوت قدمي أزلني
يا زمتي بالخيف بل يا جيرتي * فيه وأين جيرتي وزمتي
ليت الذي كان فطار شعبا * به الفراق بيننا لم يكن

خبر لخنبعة مع ذي نواس

ولي حمير باليمن بعد هلاك عمرو بن أسعد تبّع لخنبعة ذي شناتر ، فقتل خيارهم ، وعبث ببنين أهل مملكته ، وكان يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشرفة له قد صنعها لذلك.

فإذا فرغ من فسقه بالغلام يطلع من مشرفته تلك إلى حرسه ، وقد أخذ سواكا فجعله في فيه يعلمهم أنه قد فرغ منه ، حتى بعث إلى ذي نواس وهو زرعة بن أسعد تبّع الذي كسا الكعبة ، وكان وسيما ذا هيبة ، وعقل من أجمل الناس.

فلما أتاه رسول ذي شناتر عرف زرعة ما يريد به ، فأخذ سكينا لطيفا فخبأه بين قدمه ونعله ، ثم أتاه.

فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ، ثم جزّ رأسه ، فوضعه في الكوّة التي كان يشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ، ثم خرج على الناس ، فقالوا له : ذو نواس أرطب أم يباس ؟ فقال : سل تحماس ، استرطبان ذو نواس ، استرطبن لأباس.

فنظروا إلى الكوة فإذا رأس خنبعة مقطوع ، فخرجوا في أثر ذي نواس ، أرطب ، أدركوه ، وقالوا له : ما ينبغي أن يملكنا غيرك ، إذ أرحتنا من هذا الخبيث . فملّكوه ،

واجتمعت عليه حمير ، وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير ، ويسمى يوسف . وعاش في الملك زمانا.
الشناتر : الأصابع بلغة حمير . وتحماس : الرأس بلغتهم . واسترطبان : معنى استرطب . والكلام حميريّ يفهم بالفرض والقرينة ، لأنه يخالف ألف كلام العرب.

قال محمد بن سنان الخفاجي:
ودع النسيم يعيد من أخباره * فله حواش للحديث رفاق
ما ثمّ من علق العذيب بغائب * إلا وقد شهدت به الآماق

وقال:
ومهوّن للوجد يحسب أنّه * يودي العذيب مدامع وخدود
سل بانة الوادي فليس يفوتها * خبر يطول به الجوى ويزيد
وأنشد معي ضوء الصباح وقل له * كم تستطيل بك الليالي السود
وإذا هبطت الواديين وفيهما * دمن حبس على البكا وعهود
فأخدع فؤادي في الخليط لعله * يهفو على آثارهم ويعود
أصبابة بالجزع بعد سويقه * شغل لعمرك يا أميم جديد
وقال عبد الرحمن بن علي حدثنا كتابة:
في شغل عن الرقاد شاغل * من هاجه البرق بسفح عاجل
يا صاحبي هذي رياح ربعهم * قد أخبرت شمائل الشمائل
نسيمهم سحيريّ الريح ما * تشبهه روائح الأصائل
ما للصّبا مولعة بذي الصبا * أو صبا فوق الغرام القاتل
ما للهوى لعذري في ديارنا * أين العذيب من قصور بابل
لا تطلبوا ثأرا لبنايا قومنا * دماؤنا في أذرع الرواحل
لله درّ العيش في ظلالهم * ولي وكم آثار في المفاصل
واطربا إذا رأيت أرضهم * هذا وفيها رميت مقاتلي
باطرة الشيخ سقيت أدمعا * ولا ابتليت بالهوى تماثلي
ميلك عن زهو وميلي عن أسى * ما طرب المخمور مثل الثاكل

وقال مهيار الديلمي:
أهفو لعلويّ الرياح إذا جرت * وأظنّ رامة كل دار أقفرت
ويشوقني روض الحمى متقضبا * يصف الترائب والبروق إذا سرت

يا دين قلبي من ليالي حاجر * مكرت به يوما عليه وأبكرت
رسالة إلى أبي بكر الصدّيق واتّباع عمر بن الخطاب لها
إلى علي بن أبي طالب مع أبي عبيدة بن الجراح وجواب علي عن ذلك ومبايعته لأبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

عن أبي حيّان علي بن محمد التوحيدي البغدادي قال : سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي العامري في دار أبي حبشان في شارع المازبان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرف ، وكان أبو حامد والله معنّا ، مغتا ، مخلطا ، مزيلا ، غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له في جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس.

فجرى حديث السقيفة ، وشأن الخلافة ، فركب كل منّا متنا ، وقال قولا ، وعرّض بشيء ، ونزع إلى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ؟
فقالت الجماعة التي بين يديه : لا والله . قال : هي من بنات الحقاق ، ومخبآت الصناديق في الخزائن ، ومذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبي أبي محمد في وزارته . وكتبها عني في خلوة ، وقال : لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ، ولا أبين . وإنها لتدل على حلم ، وفصاحة ، وفقاهة ، ودهاء ، ودين ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له أبو بكر العباداني: أيها القاضي ، لو أتممت المنّة بروايتها سمعناها ، ونحن أوعى لها عنك من المهلبي ، وأوجب ذماما عليك ، فاندفع فقال:

حدثنا الخزاعي بمكة قال : حدثنا ابن أبي ميسرة ، حدثنا محمد بن فليح ، نبأ عيسى بن دأب ، نبأ صالح بن كيسان ويزيد بن رومان ، وكان معلم عبد الملك بن مروان ، قالا : حدثنا هشام بن عروة ، نبأ أبو النفاح مولى أبي عبيدة بن الجراح . وروى هذا الحديث وكان له عليه جرأة ظاهرة ، وكان من محفوظاته القديمة . فلما كان بعد ذلك بدهر ذاكرنا بأحرف من هذه الرسالة ابن مروان ، وكان نسيج وحده حفظا وبيانا واتّباعا . فعرفناه أن الحديث عندنا من جهة أبي حامد . فزعم أن أستاذه ابن شجرة أحمد بن كامل القاضي سرده ، ولم يكن فيه صالح بن كيسان . وذكر مولى أبي عبيدة أبا النفاح بالنون والفاء ، وخالف في أحرف ، وأنا أكرر على الرسالة والحديث بعد ذكرهما ، وأسمّي حرفا حرفا مما وقع فيه الخلاف على جهة التصحيف ، أو على جهة التحريف ، على أنني ما سمعت بحديث في طوله وغرابته بأحسن سلامة منه . وإنما ذلك لأنه صار إلينا من رواية هذين

الشيخين العلاّمتين . وكان سماعنا من أبي حامد سنة ستين ، ومن أبي منصور سنة خمس وسبعين.
قال أبو حامد : قال أبو النفاح : سمعت أبا عبيدة بن الجراح يقول : لما استقامت الخلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الهيبة والوقار . وإن كان لم يزل كذلك بعد هنة كاده الشيطان بها ، فدفع الله عز وجل شرّها ، ورحض عرّها ، ويسّر خيرها ، وأزاح ضيرها ، وردّ كيدها ، وفصم ظهر النفاق والفسوق من أهلها.

بلغ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، تلكؤ وشماس ، وتهمهم ونفاس ، وكره أن يتمادى الحال ، وتبدو العداوة ، وتنفرج ذات البين ، ويصير ذلك دربة لجهل مغرور ، أو عاقل ذي دهاء ، أو صاحب سلامة ، ضعيف القلب ، خوار العنان.
دعاني فحضرته وعنده عمر بن الخطاب وحده ، وكان يرمل أرضه بالسرجين ، وكان عمر قبسا له ، ظهيرا معه ، يستضيء برأيه ، ويستملي على لسانه .

فقال لي : يا أبا عبيدة ، ما أيمن ناصيتك وأبين الخير بين عينيك وعارضتيك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحل المغبوط . ولقد قال فيك في يوم مشهود : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، وطال ما أعز الله بك الإسلام ، وأصلح فساده على يديك . ولم تزل للدين ملجأ ، وللمؤمنين دوحا ، ولأهلك ركنا ، ولإخوانك رداء . قد أردتك لأمر له ما بعده ، خطره مخوف ، وصلاحه معروف . وإن لم يندمل جرحه بمسبرك ، ولم تستجب حيته لرقيتك ، فقد وقع اليأس ، وأعضل البأس ، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمرّ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يديك . فتأت له يا أبا عبيدة وتلطف فيه ، وأنصح الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العصابة ، غير آل جهدا ، ولا قال جدا . والله كالئك وناصرك وهاديك ومبصرك ، وبه الحول والتوفيق.

امض إلى عليّ واخفض جناحك له ، واغضض من صوتك عنده . واعلم أنه سلالة أبي طالب ، ومكانه ممن قد فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه ، وقل له : البحر مغرقه ، والبرّ مفرقه ، والجو أكلف ، والليل أغلف ، والسماء جلوا ، والأرض صلعا ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق رؤوف عطوف ، والباطل شنوف عنوف ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحبّل بيمينه ، نافخ حضنيه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدبّ بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عنادا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه ، ناكبا يوسوس بالفجور ، ويدلّي بالغرور ، ويمنّي أهل

الشرور ، ويوحي إلى أوليائه بالباطل ، دأبا له مذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادة منه منذ أهانه الله عز وجل في سالف الدهر ، لا ينجى منه إلا بعض الناجذين على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدو الله ، وعدو الدين ، بالأشد فالأشد ، والأجدّ بالأجدّ ، وإسلام النفس لله عز وجل فيما رضاه ، وجنب سخطه.
ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوت ، وخيف غبّه . ولقد أرشدك من أفاد ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته لك بعتابك ، وأراد الخير بك من آثر البقاء معك . ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ، ويدوي به قلبك ، ويلتوي به عليك رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويسري فيه ظعنك ، ويترادّ معه نفسك ، وتكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض له لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ؟ أتلبيس بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله عز وجهه ؟
أخلق غير خلق الله ؟ أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أمثلي يمشي له الضرّاء ويدبّ إليه الحمراء ؟ أم مثلك ينقبض عليه الفضاء ؟ أو يكسف في عينه القمر ؟ ما هذه القعقعة بالشنان ؟ وما هذه الوعوعة باللسان ؟
إنك جدّ عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ، وخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا هجرة إلى الله تعالى عز ذكره ولنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم في زمان أنت فيه في كنّ الصبي ، وخدر الغرارة ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تعي ما يراد ويشاد ، ولا تحصّل ما يساق ويقاد ، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها بعدي بك ، وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ، ولا مجحود الفضل.

ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالا تزيل الرواسي ، ونقاسي أهوالا تشيّب النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابها ، ونشرح عيابها ، ونتبلّغ عبابها ، ونحكم أساسها ، ونهزم أمراسها ، والعيون تحدّج بالجسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والصدور تستعر بالغيظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والشفار تشحذ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ، ولا ننتظر عند السماء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع في نحر أمر لنا إلا بعد أن نحسوا الموت دونه ، ولا نتبلغ إلى شيء إلا بعد جرع الغصص معه ، ولا نقود بناد إلا بعد اليأس من الحياة عنده ، فأدين في كل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالأب ، والأم ، والخال ، والعم ، والنشب ، والسيد ، واللبد ، والهلة ، والبلة ، بطيب نفس ، وقرور عين ، ورحب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة ألسن ، هذا إلى خفيات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنك لم تكن عنها ناكلا ، كيف وفؤادك مشهوم ، وعودك معجوم ، وغيبك مخبور ، والقول فيك كثير ؟
والآن قد بلّغ الله بك ، وأرض الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك . وعن علم أقول

ما تسمع : فارتقب زمانك ، وقلّص إليه أردانك ، ودع التجسس والتعسس لمن لا يطلع إليك إذا أخطى ، ولا يتزحزح عنك إذا أعطى ، فالأمر غضّ والنفوس فيها مضّ ، وإنك أديم هذه الأمة ، فلا تحكم لجاجا ، وسيفها الغضب فلا تنبو اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحيل أجاجا ، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لي : « يا أبا بكر ، هو لمن يرغب عنه لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه ، ولمن يتضاءل له لا لمن تنفخ إليه ، ولمن يقال : هو لك لا لمن يقول : هو لي » . والله لقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر ، فذكر فتيانا من قريش ، فقلت : أين أنت من علي ؟ فقال : « إني لا أكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه. « فقلت له : متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما البركة وسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خطبت به عنك ورغّبته فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجا ولا لوجا .
فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك وأجد رائحة سواك .
وكنت لك إذ ذاك خيرا منك الآن لي . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كنّى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن يختلج في نفسك شيء فهلمّ فالحكم مرضي والصواب مسموع والحق مطاع.
ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله عز وجل وهو عن هذه العصابة راض ، وعليها حدب ، يسرّه ما يسرّها ، ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويسخطه ما أسخطها .
ألم تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه وخلطائه وأقاربه وشجرائه إلا أبانه بفضيلة ، وخصّه بمكرمة ، وأفرده بجلاله ؟ لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده إيالتها وكفالتها وكرافتها وغزارتها.
أتظنّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة نشرا سدى ، بردا عدى ، مباهل طلاحي ، مفتونة بالباطل ، مغبونة عن الحق ، لا زائد ، ولا حائط ، ولا ساقي ، ولا راقي ، ولا هادي ، ولا حادي . كلا والله ما اشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه ، حتى ضرب الصّوى ، وأوضح الهدى ، وأمّن المهالك والمطارح ، وسهّل المبارك والمهايع ، إلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله عز وجل ، وشرم وجه النفاق لوجه الله تعالى جدّه ، وجدع أنف الفتنة في ذات الله تبارك اسمه ، وتفل في وجه الشيطان بعون الله جلّ ذكره ، وصدع بملء فيه ، وبده أمر الله عز وجل.
وبعد ، فهؤلاء المهاجرين والأنصار عندك ومعك في دار واحدة ، وبقعة جامعة ، إن استقلوني لك وأشاروا عندي بك ، فأنا واضع يدي في يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشد لضالّهم ، والرادع لغاويهم . فقد أمر الله عز وجل بالتعاون على البر ،

وأهاب إلى التناصر على الحق ، ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ، ونلقى الله عز وجل بقلوب سليمة من الضغن.
وبعد ، فالناس ثمامة ، فارفق بهم ، واحن عليهم ، ولن لهم ، ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم ، واترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة غلقا . فلا قال ولا قيل ، ولا لوم ولا تبيع ، والله عز وجل على ما نقول وكيل ، وما نحن عليه يصير.
قال أبو عبيدة : فلما تهيأت للنهوض ، قال لي عمر : كن لدا الباب هنية ، فلي معك درّ من القول ، فوقفت ولا أدري ما كان بعدي إلا أنه لحقني ووجهه يندي تهللا وقال : قل لعليّ : الرقاد محلمة ، واللجاج ملحمة ، والهوى مفحمة . وما منا أحد إلا وله مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم . وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا ، وقارب البعيد تلطفا ، ووزن كل امرئ بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره . ولا خير في معرفة مشوبة بنكرة ، ولا في علم معتل في جهل ، ولسنا كجلدة رقع البعير بين العجان وبين الذنب . وكل صال فبناره ، وكل سيل فإلى قراره ، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعيّ وشي ، وكلامها اليوم لفتق أو رتق . قد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم آنف كل ذي كبر ، وقصف ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كذوب . فما ذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ما هذه الخنزوانة التي في فراش رأسك ؟ وما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك ؟ وما هذه الوحرة التي أكلت شرا سيفك ؟ والقذاة التي أغشت ناظرك ؟
وما هذا الدخس والداس اللذان يدلّان على ضيق الباع وخور الطباع ؟ وما هذا الذي ليست بسببه جلدة النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر ؟ لشدّ ما استسعيت إليها . وسريت سرى ابن انقد إليها . إن العوان لا تعلم الخمرة ، وإن الحصان لا تكلم خبره ، وما أحوج الفرعاء إلى قال ، وما أفقر الصلعاء إلى حال.
لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمر محبّس ليس لأحد فيه ملمس ، ولا مأيس ، ولم يسيّر فيك قولا ، ولم يستنزل فيك قرانا ، ولم يحزم في شأنك حكما ، ولسنا في كسروية كسرى ، ولا في قيصرية قيصر تانك ، لا أخدان فارس ، وأبناء الأصفر ، قوما جعلهم الله جرزا لسيوفنا ، وحرزا لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن في نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وإثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الفتق والرتق . لها من الله عز وجل قلب أبيّ ، وساعد قوي ، ويد ناصرة ، وعين باصرة . أتظن أن أبا بكر الصديق وثب على هذا الأمر مفتاتا على هذه الأمة ، خادعا لها ، متسلّطا عليها ؟ أتراه امتلخ أحلامها ، وزاغ أبصارها ، وحلّ عقدها ،

وأحال عقولها ، واستلّ من صدورها حميتها ، وانتزع من أكبادها عصبيتها ، وانتكث رشاها ، وانتضب ماءها ، وأضلها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادا ، وصلاحها فسادا ، إن كان هكذا إن سحره لمبين ، وإن كيده لمتين . كلا والله بأي خيل ورجل ، وبأي سنان ونصل ، وبأي قوة ومنة ، وبأي ذخر وعدة ، وبأي أيد وشدة ، وبأي عشيرة وأسرة ، وبأي تدرّع وبسطة ، لقد أصبح عندك بما وسمته منيع العقبة ، رفيع العتبة . لا والله ولكن سلا عنها فولهت إليه وتطامن لها فلصقت به ، ومال عنها فمالت إليه ، واشتمل دونها فاشتملت عليه . حبوة حباه الله بها ، وعاقبة بلّغه الله إياها ، ونعمة سربله الله جمالها ، ويد أوجب عليه شكرها ، وأمة نظر الله به لها . ولطالما حلقت فوقه في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لفتها ، ولا يرتصد وقتها . والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة ، وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم من منكبك ، وقرب أمسّ من قربك ، وسنّ أعلى من سنك ، وشيبة أروع من شيبتك ، وسادة لها عرف من الجاهلية ، وفرع من الإسلام والشريعة ، ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة ، ولا تذكر منها في مقدمة ولا ساقة ، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع ، ولا خرج منها ببازل ولا هبع . فإن عذرت نفسك فيما تهدر به شقشقتك من صاغيتك ، فاعذرنا فيما تسمع منا في لين وسكون ، مما لا تبعده منه ولا تناضله عليه . ولئن خزيت بهذا نفسك ، لينتخشنّ عليك ما ينسيك الأولى ، ويلهيك عن الأخرى . ولو علم من ضنا به بما في أنفسنا له وعليه ، لما سكن ، ولا اتخذت أنت وليجة إلى بعض الأرب.

فأما أبو بكر الصدّيق فلم يزل حبه سويداء قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلاقة همه ، وعيبة سرّه ، ومثوى حربه ، ومفزع رأيه ومشورته ، وراحة كفه ، ومرمق طرفه ، وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنية عن الدلالة عليه.

ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، لكنه أقرب قربة ، والقرابة لحم ودم ، والقربة روح ونفس . وهذا فرق قد عرّفه المؤمنون ، وكذلك صاروا أجمعين.

أجمعين هاهنا ليست التي يراد بها التوكيد ، إنما هي المستعملة في قول العرب : جاء القوم بأجمعهم . وكان الأصمعي يقول : إنما هو بأجمعهم بضم الميم لأن المفتوحة الميم لا تضاف ولا تكون إلا مؤكّدة . وخالفه ابن الأعرابي في ذلك وأجاز فتح الميم وقال:

ليست هذه تلك ، كما أن كلا ، المستعملة في قولنا : كل القوم ذاهب ، ليست المستعملة في قولنا : مررت بالقوم كلهم.

ومهما شككت فيه فلا تشك ، إن يد الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخل فيما هو خير لك اليوم ، وأنفع لك غدا ، وألفظ من فيك ما تعلّق بلهاتك ، وانفث سخيمة صدرك عن ثقاتك . فإن لم يكن في الأمد طول ، وفي الأجل فسحة ، فستأكله مريا أو غير مريء ، وستشربه هنيا أو غير هنيء ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعا فيك ، يمض أهابك ، ويفري قادمتك ، ويزري على هديك ، هناك تقرع السن من ندم ، وتجرع الماء ممزوجا بدم . وحينئذ تأسّ على ما مض من عمرك ، ودارج قومك ، فتودّ أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها ، ورددت للحال التي استبريتها ، ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لضرّائها وسرّائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود.
قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فمشيت مزملا أتوجّأ كأنما أخطو على أمّ رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشفقا على الأمة ، حتى وصلت إلى عليّ في خلاء فأبثثته بثي كله ، وبرئت إليه منه . ورفقت له . فلما سمعها ووعاها وسرعت في أوصاله حمّياها ، قال : حلت مغلوطه ، وولت مخروطه ، حل لا حليت النفس ، أدنى لها من قول أما:
إحدى لياليك فهيسي هيسي * لا تنعمي الليلة بالتعريس
نعم يا أبا عبيدة ، أكل هذا في أنفس القوم يحثون عليه ويطبّعون به ؟
قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاض حق الدين ، وراتق فتق الإسلام للمسلمين . وساد ثلمة الأمة ، يعلم الله ذلك من خلجان قلبي ، وقرارة نفسي.

قال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصدا للخلافة ، ولا إنكارا للمعروف ، ولا رزاية على مسلم ، بل لما وقدني به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه ، وأودعني من الحزن بفقده ، وذلك أني لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد لي حزنا ، وذكرني شجوا ، وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره ، فقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّج منه ، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئة ربه ، على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إليّ دافع ، وإذا قد أفعم الوادي بي ، وحشد النادي من أجلي ، فلا مرحبا بما ساء أحدا من المسلمين . وفي النفس كلام : لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظي بخنصري وبنصري ، وخضت لجّته بأخمصي ومفرقي ، لكني ملجم إلى أن ألقى ربي عز وجل ، وعنده أحتسب ما نزل بي ، وأنا عادل إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ، وصابر على ما ساءني وسرّكم ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، وكان الله على كل شيء شهيدا.

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فنصصت القول على غرّه ، ولم أختزل شيئا من حلوه ومرّه ، وذكرت غدوه إلى المسجد.
فلما كان صباح يومئذ وافى عليّ فخرق إلى أبي بكر فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زمينا ، واستأذن للقيام ونهض ، فشيّعه عمر تكرمة له ، واستئثارا لما عنده.
فقال له عليّ : ما قعدت عن صاحبكم كارها له ، ولا أتيته فرقا منه ، وما أقول ما أقول تعلّة ، وإني لأعرف مسمى طرفي ، ومخطى قدمي ، ومنزع قوسي ، وموقع سهمي ، ولكني قد أزمت على فأسي ثقة بالله في الإبالة في الدنيا والآخرة.
فقال له عمر : كفكف عزبك ، واستوقف سربك ، ودع العصا بلحائها ، والدّلا برشائها ، فإنّا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن منحنا أروينا ، وإن جرحنا أدمينا ، وإن نصحنا أربينا ، ولقد سمعت أماثيلك التي لغوت بها عن صدر آكل بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقالتك ما إذا سمعته ندمت على ما قلته ، زعمت أنك قعدت في كسر بيتك لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه.
أفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدك وحدك ، ولم يقد سواك ؟ بل مصابه أعظم وأعز من ذلك ، فإن من حق مصابه أن لا يصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها ، ولا يزرى على أخيارها بما لا يؤمن كيد الشيطان في عقباها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعت علينا في مصبح يوم لم نلتق في ممسى.
وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره ، فمن الشوق إليه نصرة دينه ، ومؤازرة أولياء الله تعالى جده ، ومعاونتهم فيه.
وزعمت أنك عكفت على عهد الله عز وجل تجمع ما تبدّد منه ، فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده ، والرقّة على خلقه ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون إليه.
وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر عليك واقع ، ولك عن الحق الذي سبق إليك دافع.
فأي تظاهر وقع عليك ؟ وأي حق لك ليط دونك ؟ قد علمت ما قالت الأنصار لك بالأمس سرّا وجهرا ، وما تقلبت عليه بطنا وظهرا . فهل ذكرتك أو أشارت بك أو وجدنا رضاها عندك ؟ هؤلاء المهاجرون من الذي قال بلسانه تصلح لهذا الأمر ، أو أومأ بعينه ، أو همهم في نفسه ؟ أتظن أن الناس قد ضلوا من أجلك وعادوا كفارا زهدا فيك ؟ وباعوا الله عز وجل ورسول الله صلى الله عليه وسلم تحاملا عليك ؟ لا والله ولكنك اعتزلت تنتظر الوحي ، وتتوكف مناجاة الملك لك . ذلك أمر طواه الله عز وجل بعد محمد صلى الله عليه وسلم . أكان الأمر معقودا بأنشوطة أو

مشدودا بأطراف ليطة ؟ كلا والله ، إن الغيابة لملحقة ، وإن الشجرة لمورقة ، ولا عجماء بعد حمد الله إلا وقد فصحت ، ولا عجفاء إلا وقد سمنت ، ولا بلهاء إلا وقد فطنت ، ولا شوكاء إلا وقد نفحت.

ومن أعجب شأنك قولك : لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظي . وهل ترك الدين لأحد من أهله أن يشفي غيظه بيده ولسانه ؟ تلك جاهلية قد استأصل الله شافتها ، ودفع عن الناس آفتها ، وأقلع جرثومتها ، وهوّر ليلها ، وغوّر سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان.

وزعمت أنك ملجم . فلعمري إن من اتقى الله عز وجل وآثر رضاه وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه وجعل سعيه لما واراه.

قال عليّ رضي الله عنه : والله ما بذلت وأنا أريد فلتة ، ولا أقررت بما أقررت وأنا أريد حولا منه ، وإن أحسر الناس صفقة عند الله عز وجل من آثر النفاق ، واحتضن الشقاق.

وبالله سلوة من كل كارث ، وعليه التوكل في كل الحوادث.

ارجع يا أبا حفص ناقع القلب ، فسيح البال ، مبرود الغليل ، فصيح اللسان ، فليس وراء ما سمعته وقلته إلا ما يشدّ الأزر ، ويحط الوزر ، ويضع الإصر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، ويوقع الزلفة بمعونة الله عز وجل وحسن توفيقه.

قال أبو عبيدة : وانصرف عمر ، وهذا أصعب ما مرّ بناصيتي بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو حيّان : وروى لنا هذا كله أبو حامد ، ثم أخرج لنا أصله ، فقابلنا به ، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له.

فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب ، فإنه خالف في أحرف في حواشي الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفي غرائبها أنقد.

وإنما قدمت رواية أبي حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل فيها أفقه . وكان إسناد الحديث من جهته.

وقال لنا أبو منصور الكاتب في حديثه : ولما حضر علي أبا بكر رضي الله عنهما ، فقال له أبو بكر : إن عصابة أنت فيها لمعصومة ، وإن أمة أنت فيها لمرحومة . ولقد أصبحت عزيزا علينا ، كريما لدينا ، نخاف الله إذا سخطت ، ونرجوه إذا رضيت . ولولا أني شدهت لما أجبت إليه . ولقد حط الله عن ظهرك ما أثقل به كاهلي ، وما أسعد من نظر الله

إليه بالكفاية . وإنّا إليك محتاجون وبفضلك عالمون ، وإلى الله عز وجل في جميع الأمور راغبون.
شرح ما وقع في هذه الرسالة من فنّ الغريب
المغن : الذي يتصرّف في كل فنّ . والمخلط : الذي يخلط بعض الأمور ببعض.
والمزيل : الذي يفصل بعضها عن بعض . والمعن : الذي يتصرّف في المعاني . والجوى: الهوى . والجواء : الناحية من الأرض . والمنتفس : الاستراحة والاتساع.
والسقيفة التي ذكرها هي سقيفة بني ساعدة التي اجتمع فيها المهاجرون والأنصار عند موت رسول الله صلى الله عليه وسلم.
والفن : النوع ويجمع على فنون.
والمتن : في الحديث نصه على وجهه ، وهو من كل شيء ظهره.
والحقاق : جمع حقة وهي وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر.
والأعلاق والغوص : الدخول في الشيء الغامض.
قوله : نسيج وحده : أي فريد ما له نظير ، وأصله في الثوب الرفيع الذي لا مثال له ، يصنع له منسج وحده لا ينسج عليه غيره . واستعير ذلك للرجل الذي لا نظير له في فنه.
سرد الحديث : تتابع ألفاظه وكلماته كما هي ، لا يقدم المتأخر ولا يؤخر المتقدم.
ويقال : سرد الحديث ، نصّه ووصل إسناده.
والهنة : اللطيف من كل شيء.
قوله : ورحض عرها : أزال مكروهها ، وأصله من العر ، وهو داء يأخذ الإبل.
قال الشاعر:
كذا العرّ يكوي غيره وهو راتع
والتلكؤ : التأخر . وأزاح ضوأها : أذهب ضررها . والشماس : النفار . والتهمهم والهمهمة : كلام لا يصرّح به . والنفاس : المنافسة والجدل . يرمل : يصلح . والسرجين والسرقين : لغتان للزبل . تنفرج : تفترق.
وذات البين : الحال المتصلة به ، من قوله تعالى : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ . والظهير: المعيّن الذي يشد به ظهره.

مثاءة والثأي : الإفساد ، وأصله في الخرز وهو أن يثقب الخرزة فتصير الاثنان واحدة.
يقال : أثأت الخرز فهو مثأى.
والمغبوط : الذي يتنافس فيه.
والقبس : عود في طرفه النار ، فضرب مثلا لمن يستعان برأيه.
وقوله : خوار العنان : يقال : فرس خوار العنان إذا كان صاحبه يصرفه كيف ما أراد ، فضرب مثلا.
الدوح : الشجر العظيم . والردء : العون . وقوله : يندمل يقول : يعبق.
والمسبار : فتيل يدخل في الجرح . يقال : سبرت الجرح إذا اختبرته بالمسبار ، وهو المرود الذي يدخل في الجرح ليرى كم عمقه.
وقوله : غير آل : أي مقصر.
والجهد : بضم الجيم ، الطاقة ، وبفتح الجيم : الغاية ، وقد سوّي بينهما.
والقالي : المبغض المكاره . والجد : التشمير والاجتهاد . وقوله مغرقة : يغرق فيه.
وقوله مفرقة : يفرق من الفزع ، يقول : يفزع من السير فيه.
والجو : الهواء . وأكلف : أغبر . وأغلف : شديد الظلمة . وجلوا : ظاهرة النجوم.
وصلعاء : لا نبات فيها.
والصعود : المرتفع ، وبضم الصاد : المصدر ، وكذلك الهبوط بالفتح : المكان المنحدر ، وبالضم : المصدر.
والثقوب : الناقة الغزيرة اللبن ، قال : والصواب ثقوب العداوة ، والثقوب : الحطب وما يهيج به النار.
والقعة : التأخر والقعود عن الأمر ، وهو مأخوذ من قولهم : وقع الرجل وهو وقع الرجل إذا اشتكى لحم قدمه ولم يقدر على المشي.
وقوله شجار الفتنة : الشجار خشب الهودج ، ضربه مثلا.
وقوله يدلى بالغرور : الإدلاء : الإدخال في الأمر ، وأصله إدخال الدلو في البئر.
والشنوف : المبغض . والعنوف : الشديد . والثالب : الطاعن . والضغن : العداوة . وقوله رائد البوار : قائد الهلاك . وقوله يوحي : يشير . والناجد : آخر الأضراس . وقوله من أفاد ضالتك : أي ردّها.

والحوص : بالحاء غير المعجمة ضيق في العين ، وبالخاء المعجمة : غور فيها.
والطعن : النهوض . وقوله : ما يغيض : أي ما يبين ولا يفهم.
والصعداء : النّفس العالي في الغضب والهمّ.
والحمر : ما التف من الشجر ، وكذلك الضراء . يقال : يمشي فلان لفلان الضراء إذا كان يخفي له العداوة حتى يجد فرصة.
قال الشاعر:
يمشي الضراء وينفي : وأصله أن يستتر الصياد عن الصيد حتى يرميه.
الهدى : الطريق المستقيم . ينقض : يضيق وينغلق . والفضاء : المتسع من الأرض.
والشنان : جمع شن وهي القربة اليابسة . والقعقعة : صوتها إذا حرّكت ، فإذا حرّكت للبعير الشارد سكن ، فضرب مثلا بمن يهدّد بما لا حقيقة له . والوعوعة : صوت الذئب.
والشنان : العداوة.
وقوله يري : أي يوقد النار . والتشبب نحو منه ، وأصله من شبب النار إذا أوقدها.
وقوله ونحن في أثناء ذلك : الأثناء الاعطاف والجوب ، واحدها ثنى . والرواسي:
الجبال الناتئة . والنواصي : الذوائب . والغمار : الماء الكثير ، وهو جمع غمرة يغمر من يدخل فيه . الأمراس : الحبال التي يستقي بها الماء.
الصاب : الصبر . وقوله نشحذ : نسنّ . والعباب : الموج . والياب : جمع عيبة.
وقوله تحدج : أي تنظر . وقوله تميد : أي تحيد . والنشب : الضياع . والسبد:
الشعر . والوبر : يعني الإبل . واللبد : الصوف ، يعني الغنم بقوله : ما له لا سبد ولا لبد.
والهلة : الفرح وما يستر به الرجل . والبلة : أصله الرطوبة والبلل ، ثم يستعمل بمعنى الضلة .
والرحب : السعة . والذلاقة : الفصاحة . والمكنونات : المستترات . والأعطان:
مبارك الإبل عند الماء . والمخبور : المجرّب . وأرهص : معناه قدم واصل.
وقوله قلص : يقول شمر . والأردان : الأكمام . وقوله يضلع : يعرج.
وقوله أعطى هنا : تناول . والمضّ والمضض والمضاضة : الحرقة . واللجاج في الأمر : التلوّن . والأجاج : ضد العذب.
وقوله ولا يحلم ، يقال : حلم الأديم إذا وقع فيه السوس . والعضب : القاطع ، ويقال : نبأ السيف ينبو إذا ضرب به فلم يقطع.

وقوله يجاحش : يدافع . يتضاءل : يتصاغر.
وقوله يتنفج : أي يتفرشخ . والجوجاء : الحاجة . واللوجاء : اتّباع وتداخل في الأمر .
والتعريض : ضد التصريح ، والكناية كذلك.
وقوله يختلج : أي يضطرب . والعصابة : الجماعة.
وقوله حدب : مشفق . والشجراء : جمع شجير وهو الصديق.
وقوله أصفقت : اجتمعت . والإبالة : السياسة . والكفالة : التكفل بالأمور.
وقوله نشرا : النشر أن تنشر الغنم في المرعى فتعدو عليها الذئاب . والسدى : الشيء المهمل المتفرّق . والعدا : الأعداء . والعدى : الغرباء . والعباهل من الإبل : التي لا حافظ لها .
والطلاحي : التي تكلّ فلا تقدر على النهوض . والمباهل : الإبل التي لا تمنع أخلافها فيحلبها كل من أراد.
وقوله بملء فيه : يعني بكلامه ودفاعه . صدع : أظهر . الذائد : الدافع . والحائط: الذي يحوط أي يحفظ وكذلك الواقي . والهادي : الذي يمشي الأمر الأسدّ . والحادي: الذي يمشي وراء الإبل.
اليافوخ : أصل الدماغ . الصّوى : علامة تجعل في الطريق يهتدى بها . أوضح : بيّن.
شدخ : كسر . شرم : شق أنفه . الرادع : القامع . الغاوي : الضالّ والمفسد . والضغن: العداوة . والغلّ : البغض.
النمامة : شجر ضعيف . هنيئة : أي ساعة . والرقاد محلمة : أي ظرف المحلمة يحلم فيه أشياء لا حقيقة لها . والملحمة : موضع القتال . والمفحمة : دخول الإنسان فيما لا ينبغي . والتآلف : التعطف والتسكين . والفتر : ما بين السبّابة والإبهام.
وقوله مشوبة : أي ممزوجة . وقوله معتمل : أي منطبع . والرفع : أصل الفخذ.
والصّالي : المتسخن بالنار . والقرار : المكان الذي يستقر به الماء.
وقوله العيّ وشيّ : الشئ اتّباع لعي ، كقولهم : حسن بسن ، وشيطان ليطان ، وجائع نائع . يقال : عيّ شيّ وشويّ.
الرتق : ضد الفتق . الفرق : الفزع . الرهق : فساد الشيء.
وقوله قصف : أي قصم . الخنزوانة : التكبّر . الفراش : عظام الخيل.
الشجي : ما يغصّ به من عود وعظم ونحوه . والوجرة : الحقد.

الشراسف : أطراف الضلوع . والدخس : ورم يصيب الدابة في حافرها شبيه الانتفاخ من العصب . والداس : البحث عن الأخبار بالتجسس . والخور : الضعف.
وقوله : لبست بسببه جلدة النمر ، يقال : لبس فلان لفلان جلد النمر إذا تنكر له وتهيأ لجرحه.
الشحناء : العداوة . والسّرى : سير الليل . اتقد بالدال غير المعجمة : وهو القنقد.
الخمرة : شدّ الخمار على الرأس . والحصان : المرأة العفيفة.
والخبرة : الاختبار . والعون : التي كان لها زوج . والفرعاء : الكثيرة الشعر.
والحالي : العنق المزيّن بالحلي . محبس : مقيد . معبد : مذلل.
وقوله ملمس : أي ما يلمس . وقوله : مأيس : أي تأثير . والمزع : القطع . والأثرة: ما يؤثر به الرجل دون غيره أي يخصّ.
وقوله : مأمنة على الرتق والفتق ، المعنى الإصلاح والإفساد.
وقوله : مفتاتا ، يعني بغير اختيارهم . والحمية : الأنفة.
وقوله : انتكث رشاها ، يقول : نقض حبلها.
وقوله : انتضب ماءها ، يقال : نضب الماء إذا جفّ وأنضبته أنا وانتضبته.
المتين : القوي . الأيد : القوة . والأسرة : الطبقة.
وقوله : بأي تدرّع من الدّرع . وقوله ولهت : حنّت . وتطامن : انخفض . والحبوة: العطية . وقوله : سربله ، أي ألبسه سربالها.
وقوله : لا يلتفت لفتها ، أي جهتها . والكهف : الجبل.
وقوله : وقربي أمسّ ، أي ألصق . والعرق : الأصل . والبازل : الجمل المسنّ.
والهبع : الصغير من أولاد الإبل وهو الذي يولد في آخر زمن النتاج ، فإن ولد في أوله فهو ربع.
وقوله : تهدر به شقشقتك ، يقال : هدر البعير إذا صاح ، والشقشقة : ما يخرج من حلقه عند هديره . والصاغية : القرابة . المناضلة : المراماة بالسهام.
وقوله : خزيت ، أي خضعت . وقال بعضهم : وخزيت هنا لا معنى له ، والصواب أنفت . لينتحشنّ : ليقومنّ ويتحركنّ.

وقوله والفظ : أي اطرح . وقوله وانفث : المعنى ابعد . والسخيمة : العداوة .
والنفاث : ما ينفث به . وقوله : مريئا : أي طيبا .
وقوله يمضّ أهابك : أي يشق جلدك . ويفري قادمتك : أي يقطع ، والقادمة : ريش مقدّم الجناح تجمع على قوادم .
وقوله استبرأتها : أي تحلّيت منها . التزمّل : الالتفاف .
وقوله أتوجّى : أتعارج . وقوله حلّت مغلوّطة : أي نزلت ، والمغلوّطة : الناقة توسم في عنقها بالنار ، واسم تلك السمة الغلاطة .
وقوله مخروّطة : أي رقيقة المؤخر ، وهو مكروه في الإبل . ويقال للناقة إذا زجرت : حل حل ، يقال : حلحلت بالإبل إذا قلت لها حل حل ، فإذا لم تزدجر قلت لها لا حليت أي لا ظفرت بما أردت .
ومثله قوله : فهيسي هيسي ، فإنه يضرب مثلا لمن وقع في داهية وأمر عظيم يحتاج فيه إلى الانزعاج وترك الإخلاد إلى الراحة . والهيس : السير الشديد . وأصل هذا المثل أن طمسا وقعت بجديس وأبادتها ، من قصة طويلة جرت بينهما ، فقال في ذلك بعض الرجال : ما ذكره في الرسالة .
وقوله لعا : كلمة تقال للعاثر إذا عثر ، ومعناه : انتعش وقم .
وقوله على غرة : أي على طبعه الأول ، ويضرب مثلا للأمر الذي لا يغيّر عما كان عليه .
والزميت : الساكن .
وقوله مخطى قدمي : أي حيث يخطو قدمي . ومنزع قوسي : أي حيث أرمي .
وقوله : أزمت على فاسي ، فاس اللجام : ما يدخل منه في فم الفرس ، يقال : أزم الفرس على فارس اللجام إذا عضّ عليه .
الإبالة : الحالة وانقلاب الأمور وهي الإدالة . والغرب : الحد هنا . واللحا : القشر . والرشا : الحبل . أورى الزند : إذا ظهر منه النار . والماتح : الذي يخرج الماء من البئر .
وقوله إن نصحنا : أصله من نصح إذا خاط . وأربينا : أصلحنا .
أكل مقصور : أي مقروح . والجوى : داء يعترض في الجوف . العصام : حبل القربة فضربه مثلا . المؤازرة : المعاونة.

وقوله تداعت : أي دعا بعضها بعضا . العهد هنا : القرآن . وقوله ليط : أي ستر.
الإيماء : الإشارة . الهمهمة : كلام لا يصرّح به . الأنشوطة : العقدة التي يجذب بطرفها فتنحلّ .
واللّيط : قشر القصب . الغيابة : ما أظلّ الإنسان فوق رأسه كالسحابة أو الغبرة.
وقوله محلقة : أي مستديرة . وقوله استأصل : أي انتزعها من أصلها . والشافة:
قرحة تخرج في القدم فتكوى ، فضرب مثلا.
جرثومة : كل شيء أصله ، والجرثومة ما يجتمع في أصل الشجرة.
وقوله وهور ليلها : أصله من هور الرجل البنيان إذا هدمه فيريد أذهب ليلها . والنكث:
النقض . وقوله خولا : أي تخوّلا.
وقوله احتضن : أي تأبّط ، والحضن : الإبط . والشقاق : الخلاف . وهو نافع القلب:
أي يرتوي.
وقوله مبرود الغليل : الغليل : حرقة العطش . الفسيح : الواسع . واللبان : الصدر.
والأزر : القوة . والوزر : الثقل ، وأراد به هنا الإثم . والاصر : الثقل . وقوله شدهت : أي
تحيرت . والكاهل : أعلى الكتفين.
أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه
قاتل أهل الردة حتى رجعوا إلى الإسلام ، وقتل مسيلمة الكذاب والأسود بن كعب العبسي ، وأسر
طليحة الكذاب ، وفتح اليمامة.
وأما عمر بن الخطاب رضوان الله عليه
فهو الذي فتح الفتوح ، ودوّن الدواوين ، وأقطع الأجناد ، ورتب الناس في العطاء على منازلهم ،
وقرّبهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع الناس لصلاة التراويح في شهر رمضان ،
وتلاوة القرآن في جميع المساجد . وجعل الخلافة من بعده في ستة:
عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، على أن
يختاروا من الستة.
وأوصى عبد الرحمن بن عوف أن يعطي لمن بقي من أهل بدر لكل رجل منهم مائة دينار . وأخذ
عثمان بن عفان معهم ، وهو خليفة ، مائة دينار.

وأما عثمان بن عفان رضوان الله عليه
فكان ممن أنفق ماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي مصالح المؤمنين ، وفي جيش العسرة ، وبئر رومة ، وفي أيامه حيي الخراج ، وكان يفرّقه على الصحابة حتى استغنى الناس . وجمع القرآن في المصحف ، وكان متفرقا ، وأعانه على ذلك من حضر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت في أيامه فتوحات كثيرة.

وأما علي بن أبي طالب رضوان الله عليه
فكانت في أيامه حروب كثيرة ، منها يوم الجمل ، وسار إلى قتال أهل البصرة وهو يوم الجمل في ثلاثين ألفا ، وسار إلى صفّين في خمسة وعشرين ألفا ، وسار إلى النهروان في أربعة عشر ألفا . خرج عليه بعد صفّين عبد الله بن عمرو اليشكري في أهل حروراء.

وأما الحسن بن علي رضوان الله عليه
فلما سار إلى معاوية ، والتقيا بأرض الأنبار ، نظر إلى العسكرين وأفكر فيما يكون بينهما من القتل ، أحبّ السلامة ، وطلب العافية ، وصلاح الأمة ، وحقن دماء المسلمين.
صالح معاوية ، وسلّم الأمر إليه ، وبايعه ، ودخلا جميعا الكوفة مع عسكريهما . ودفع معاوية إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما جميع ما أراد من المال وغيره ، وردّه إلى المدينة ، وولي على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي ، ورجع معاوية إلى الشام بالعسكرين ، وفعل الله هذا الصلح تصديقا لقوله صلى الله عليه وسلم ، وقد نظر إلى الحسن رضي الله عنه : « ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. »
ذكر ما روي عن العشرة الذين هم أكابر الصحابة رضي الله عنهم من الحديث ما رويناه من

حديث تقي بن مخلد
أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : روي عنه مائة حديث واثنان وثلاثون حديثا.
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : روي عنه خمسمائة حديث واثنان وثلاثون حديثا.
عثمان بن عفان رضي الله عنه : مائة حديث ، وستة وأربعون حديثا.
علي بن أبي طالب رضي الله عنه : خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثا.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : مائتا حديث وأحد وسبعون حديثا.
الزبير بن العوّام رضي الله عنه : ثمانية وثلاثون حديثا.
طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : ثمانية وثلاثون حديثا.
أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه : أربعة عشر حديثا.
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : خمسة وستون حديثا.
سعيد بن زيد بن عمرو بن نوفل رضي الله عنه : ثمانية وأربعون حديثا.

ما روى أهل البيت ونساؤه وخدمه ومواليه رضي الله عنهم

والسياق ليس على الترتيب ، وإنما هو على حسب ما وقع به الذكر في الوقت.
خديجة أم المؤمنين : حديث واحد.
بنت حمزة بن عبد المطلب : حديث واحد.
عقيل بن أبي طالب : ستة أحاديث.
أنس بن مالك : ألفا حديث ، ومائتا حديث ، وستة وثمانون حديثا.
عائشة أم المؤمنين : ألفا حديث ، ومائتا حديث ، وعشرة أحاديث.
عبد الله بن عباس : ألفا حديث ، وستمائة حديث ، وستون حديثا.
أم سلمة أم المؤمنين : ثلاثمائة حديث ، وثمانية وسبعون حديثا.
أسامة بن زيد مولى رسول لله صلى الله عليه وسلم : مائة حديث ، وثمانية وعشرون حديثا.
ميمونة أم المؤمنين : ستة وسبعون حديثا.
ثوبان مولاه صلى الله عليه وسلم : مائة حديث ، وثمانية وعشرون حديثا.
أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثمانية وستون حديثا.
سلمان الفارسي : ستون حديثا.
حفصة أم المؤمنين : ستون حديثا.
أم هانئ بنت أبي طالب : ستة وأربعون حديثا.
العباس بن عبد المطلب : خمسة وثلاثون حديثا.

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : خمسة وعشرون حديثا.
الفضل بن العباس : أربعة وعشرون حديثا.
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثمانية عشر حديثا.
شعبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة عشر حديثا.
الحسن بن علي : ثلاثة عشر حديثا.
زينب بنت جحش أم المؤمنين : عشرة أحاديث.
ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب : أحد عشر حديثا.
صفية أم المؤمنين : عشرة أحاديث.
الحسين بن علي : ثمانية أحاديث.
جويرية أم المؤمنين : سبعة أحاديث.
سلمى مولاه عليه السلام : سبعة أحاديث.
سودة أم المؤمنين : خمسة أحاديث.
زيد بن حارثة مولاه عليه السلام : أربعة أحاديث.
عبيد مولاه صلى الله عليه وسلم : ثلاثة أحاديث.
أحمد مولاه صلى الله عليه وسلم : ثلاثة أحاديث.
ميمونة بنت أبي لهب : حديثان.
أبو سلمى راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم : حديثان.
مهران ، وكيسا ، وأبو أثيلة ، مواليه عليه السلام : حديث واحد.
روينا من حديث ابن إسحاق بن بشر القرشي ، عن مقاتل بن سليمان ، عن الضحّاك بن مزاحم ، عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يخلق الخلق ولا خلق ، خلق نورا ، وخلق من ذلك النور ظلمة ، وخلق من تلك الظلمة نورا ، وخلق من ذلك النور ياقوتة خضراء غلظها غلظ السبع سماوات والسبع الأرضين وما بينهن ، ثم دعا تلك الياقوتة ، فلما سمعت كلام الله عز وجل ذابت الياقوتة فرقا حتى صارت ماء ، فارتقى الماء من دهش تلك المهابة والخوف . ثم خلق الريح ، ثم وضع الماء على متن الريح.

ثم خلق العرش ، فوضع العرش على الماء ، وخلق للعرش ألف لسان ، لكل لسان ألف لون من التسبيح والتحميد.
وكتب في قباله إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، ومحمد عبدي ورسولي ، فمن آمن برسلي وصدق بوعدي أدخلته جنتي.
ثم خلق الكرسي بعد عرشه بألفي عام من غير الجوهر الذي خلق منه العرش ، والكرسي في جوف العرش كحلقة في وسط فلاة ، والسماوات والأرض في جوف الكرسي كحلقة ملقاة في وسط فلاة.
ثم خلق القلم من نور ، وجعل طوله من السماء إلى الأرض ، فخرّ لله ساجدا.
ثم خلق اللوح المحفوظ ، فخرّ أيضا ساجدا.
ثم قال لهما : ارفعا رءوسكما ، وخلق ثلاثمائة وستين سنا للقلم يستمد كل سن من ثلاثمائة وستين بحرا من العلوم.
واللوح من زمرّدة خضراء له دفّتان من ياقوتة فقال للقلم : اكتب ، فقال : ما ذا أكتب يا ربي ؟ قال : اكتب في اللوح ، فالقلم يكتب والحق يملي ما هو كائن إلى يوم القيامة.
وفي حديث مجاهد ، عن ابن عباس : أن اللوح من درّة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، حافتاه الدرّ والياقوت ، ودفّتاه ياقوتة حمراء . واللوح في حجر ملك اسمه ماطريون . ولله في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة.
ومن حديث إسحاق أيضا ، عن أبي بكر الهذلي ، عن الحسن : ليس شيء عند ربكم من الخلق أقرب إليه من إسرافيل ، وبينه وبين ربه سبعة حجب:
حجاب العزّة ، ثم حجاب الجبروت ، ثم حجاب من نار ، ثم حجاب من غمام ، ثم حجاب من ياقوت ، ثم حجاب من ماء ، ثم حجاب من دخان.
غلظ كل حجاب خمسمائة عام . وإسرافيل دونها يراه بين منكبيه كذا كذا سنة ، ورأسه من تحت العرش ، ورجلاه في تخوم الثرى ، له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وجناح من تحته وجناح من فوقه ، قد غشى رأسه وغطى وجهه ، وليس شيء أقرب إلى الله عز وجل بعد إسرافيل من ثلاثة:
الرحمة ، وأم الكتاب ، والحكمة.
فالرحمة عن يمينه ، وأم الكتاب عن اليمين الأخرى.

فإن كلتي يدي الله يمين مباركة طيبة والحكمة فيما بين ذلك ، فإذا أراد الله أن يقضي قضاء قضاه بعلمه ، ولا يشهده من خلقه أحد حين يحكمه.
خبر قصيّ لما أسنّ وما صنع مع أولاده
روينا من حديث أبي الوليد ، عن جدّه ، عن سعيد ، عن عثمان بن جريج ، وعن ابن إسحاق ، وكل يزيد على صاحبه في حديثه : فلما كبر قصيّ بن كلاب وكان أول ولده عبد الدار ، وكان ولده عبد مناف قد شرف في زمن أبيه ، ذهب شرفه كل مذهب . وعبد الدار وعبد العزّى وبنو قصيّ بها ، لم يبلغوا ولا أحد من فوقهم من قريش ما بلغ عبد مناف من الذكر والشرف والعز ، وكان قصيّ وحنيّ بنت حليل يحبان عبد الدار ، ويرقان عليه ، لما يريان من شرف عبد مناف عليه وهو أصغر منه . فقالت له حنيّ : لا والله لا أرضى حتى تخصّ عبد الدار بشيء يلحقه بأخيه . فقال قصيّ : لا والله لا لحقته به ، ولأحبونه بذروة الشرف حتى لا يدخل أحد من قريش وغيرها الكعبة إلا بإذنه ، ولا يقضون أمرا ولا يعقدون لواء إلا عنده .
وكان ينظر في العواقب . فأجمع قصيّ على أن يقسم أمور مكة الستة التي فيها الذكر والشرف والعزّ بين ابنيه ، فأعطى عبد الدار السدانة ، وهي الحجابة ، ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة ، وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصيّ بن كلاب ، فيصنع به طعاما للحجّاج فيأكله من لم تكن له سعة ولا زاد ، وكان قصي هو الذي فرضه على قريش .
قال لهم : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحجّاج ضيف الله ، وزوّار بيته ، وهم أحق ضيف الله بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام خرجا ، فيدفعون إليه ، فيصنعه طعاما أيام منى ، فاستمر ذلك إلى اليوم.

فلما هلك قصي أقيم أمره في قومه بعد وفاته ، على ما كان عليه في أيام حياته . وولّي عبد الدار ، فلم يزل على أثر أبيه حتى هلك . وجعل عبد الدار الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبد الدار ، وجعل دار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار . فلم يزل بنو عبد مناف بن عبد الدار يلون الندوة دون ولد عبد الدار . فكانت قريش إذا أرادت أن تشاور في أمر فتحها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، أو بعض ولده ، أو ولد أخيه.

وكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ، ثم يشق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها ، ثم درّعها إياه ، وانقلب بها أهلها فحجبوها . فكان عامر بن هاشم بن عبد

مناف بن عبد الدار يسمى محيضا . ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار . ثم وليها عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار . ثم وليها ولده أبو طلحة عبد الله بن عبد العزّى بن عبد الدار . ثم وليها ولده من بعده حتى كان فتح مكة ، فقبضها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أيديهم ، وفتح الكعبة ، ودخلها . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة مشتملا على المفتاح ، فقال له العباس بن عبد المطلب : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أعطنا الحجابة مع السقاية ، فأزل الله تعالى على نبيّه : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَاناتِ إِلى أَهْلِها . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فما سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل تلك الساعة . فتلاها ثم دعا عثمان بن طلحة ، فدفع إليه المفتاح ، وقال : « غيّبوه » . ثم قال:
»خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله ، فاعملوا فيها بالمعروف خالدة وتالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم » . فخرج عثمان بن طلحة إلى هجرته مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقام ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، فلم يزل يحجب هو وولد أخيه وهب بن عثمان حتى قدم ولد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وولده شافع بن طلحة بن أبي طلحة في المدينة ، وكانوا بها دهرا طولا . فلما قدموا حجبوا مع بني عمهم ، فولد أبي طلحة يحجبون جميعا.
وأما اللواء فكان في أيدي عبد الدار كلهم ، يليه منهم ذو السن والشرف في الجاهلية حتى كان يوم أحد ، فقتل عليه من قتل منهم.
وأما السقاية والرفادة والقيادة فلم تزل لعبد مناف بن قصي يقوم بها حتى توفي.
فولى بعده هاشم بن عبد مناف بن قصي السقاية والرفادة ، وولى عبد شمس بن عبد مناف القيادة ، فكان هاشم بن عبد مناف يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش كان يشتري بما يجتمع عنده رقيقا ، ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة ، ثم يجمع ذلك كله فيحرر به الدقيق ، ثم يطعمه الحاج . فلم يزل ذلك من أمره حتى أصاب الناس سنة وجدب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده ومن ماله دقيقا وكعكا ، فقدم به مكة في الموسم ، فهشم ذلك الكعك ، ونحر الجزر وطبخه ، وجعله ثريدا ، وأطعم الناس ، وكانوا في مجاعة شديدة ، حتى أشبعهم . فسمّي بذلك هاشم ، وكان اسمه عمرو.
وفي ذلك يقول ابن الزبعرى السهمي:
كانت قريش بيضة فتفلّقت * فالمخّ خالصها لعبد مناف
الرائشين وليس يوجد رائش * والقائلين هلمّ للأضياف
والخالطين غنيّهم بفقيرهم * حتى يعود فقيرهم كالكاف

والضاربين الكبش بيرق بيضة * والمانعين البيض بالأسياف
عمرو العلا هشم الثريد لمعشر * كانوا بمكة مسنتين عجاف
يعني بعمرو العلا هاشما ، فلم يزل هاشم على ذلك حتى توفي . وكان عبد المطلب يفعل ذلك ، فلما توفي عبد المطلب قام بذلك أبو طالب . وكان عبد المطلب في السقاية يسقي لبن النوق بالعسل في حوض من أدم ، ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم . وقام بأمر السقاية بعده العباس.

ومما نظم في معنى قول عمر بن أبي ربيعة:
لبثوا ثلاث منى بمنزل قلعة * فهم على غرض لعمرك ما هم
متجاورين بغير دار إقامة * لو قد أجدر حبلهم لم يندموا
ولهن بالبيت العتيق لبانة * والبيت يعرفهنّ لو يتكلم
لو كان حيا قبلهن ظعائنا * حيّا الحطيم وجوههن وزمزم

ولنا في هذا المعنى:
يا خليليّ ألمّا بالحمى * واطلبا نجدا وذاك العلما
وردا ماء بخيمات اللّوا * واستظلا ظلّها والسّلما
وإذا ما جئتما وادي منى * فالذي قلبي به قد جئتما
أبلغ عني تحيات الهوى * كل من حل به أو أسلما
واسمعا ما ذا يجيئون به * وأخبرا عن دنف القلب بما
يشتكيه من صبابات الهوى * معلنا مستخبرا مستفهما

ومن قول العرجيّ في منى:
الشهر تمّ الحول يتبعه * ما الدّهر إلا الحول والشهر
حدثنا يونس بن يحيى ، نبأ أبو بكر بن أبي منصور ، نبأ أحمد بن محمد البخاري ، أنبأ أبو محمد الجوهري ، نبأ أبو حبويه ، نبأ محمد بن خلف ، قال : قال أبو عمر الشيباني:
لما ظهر بقيس من الجنون ما ظهر ورأى قومه ما ابتلى به ، اجتمعوا إلى أبيه وقالوا به : لو خرجت به إلى مكة فطاف ببيت الله عز وجل وزار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجونا أن يرجع عليه عقله . فخرج به أبوه حتى أتى مكة ، فجعل أبوه يطوف به ، ويدعو الله له بالعافية ، وقيس يقول:
دعا المحرمون الله يستغفرونه * بمكة وهنا أن تمحّى ذنوبها
وناديت أي يا رب أوّل سؤلتي * لنفسي ليلى ثم أنت حسيبها

فإن أعط ليلى في حياتي لم يتب * إلى الله خلق توبة لا أتوبها
حتى إذا كان بمنى نادى مناد من بعض تلك الخيام : يا ليلى ، فخرّ قيس مغشيا عليه ، واجتمع الناس حوله ، ونضحوا على وجهه الماء ، وأبوه يبكي عند رأسه . ثم أفاق وهو يقول:
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى * فهيّج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما * أطار بليلى طائرا كان في صدري
أخبرني بعض الأدباء في تلطف محبته ورقّة معناها ، أنه قرب يوما من حيّ ليلى في واد كثير الثلج في زمن البرد ، وهو يأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده ، فتذيبه حرارة الفؤاد.
فرآه نسوة من الحي ، فجاء بعض فتيات الحي إلى ليلى فأخبرنها بما رأين من أمر قيس ، فخرجت مسرعة معهن حتى أشرفت عليه وهو على تلك الحالة ، وهو ينادي : ليلى ليلى ، فرمت بنفسها وعانقته وضمّته ، وقالت : أنا بغيتك ، أنا مطلوبك ، أنا قرّة عينك . فنظر إليها وتأوّه ، فكادت الزفرة تحرقها ، وقال لها : إليك عني ، فإن حبك شغلني عنك . وأخذ في ولهه ينادي : ليلى ليلى.
ولنا في هذا المعنى:
شغل المحبّ عن الحبيب بحبّه * هذا يعلّ وذاك ليس يعلّل
لولا الخيال له وبرد وصاله * أضحى بنيران الهوى يتحلل
ولبعض الناس في ذلك:
إذا وجدت أوار الحبّ في كبدي * أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هذا يبرّد برد الماء ظاهره * فمن لحرّ على الأحشاء يتّقد
ثم ولّت في أترابها تطلب الحي خوفا من أهلها ، وهي تقول:
تنفّست الغداة وقد تولّت * وعيسهم معارضة الطريق
فنادوا بالحريق ففاض دمعي * فعادوا بالحريق وبالغريق
ومن باب كتمان الهوى قوله:
باح مجنون عامر بهواه * وكتمت الهوى فمتّ بوجدي
فإذا كان في القيامة نودي * من قتل الهوى تقدمت وحدي
ومن باب النّفر من منى:
غدا النفر فانظر ما يكون من النفر * غدا فرقة الأحباب هل لي من صبر

غدا يرحل الظبي الغرير بمهجتي * وتبقى قلوب العاشقين على الجمر
فقوم إلى بغداد شدّوا رحيلهم * وقوم إلى الشام وقوم إلى مصر
فإن طلبوا بغداد كنت زميلهم * وإن طلبوا مصرا فيا حبّذا مصر
وإن طلبوا شاما تعللت بالبكا * لعلّهم في الحبّ أن يقبلوا عذري
ومن باب النسيب ، وله وجه في الاعتبار لطيف قوله:
يا ذا الذي حجّ في عهد الصبا فمضى * عنا هلالا ووافى نحونا قمرا
صف المناسك لي كيف انتقلت بها * فلم أقلّب لبدر بعدك البصرا
أمّا الجمار فمن قلبي رميت بها * كما بآخر عمري كنت معتمرا
عن بئر زمزم خبّرني على ظمأ * وإن في فيك منه الريّ والخصرا
وشفع الحجة الأولى بثانية * لكي أقبّل ثغرا قبّل الحجرا

ومن قول ابن المعتزّ:
لله در منى وما جمعت * وبكا الأحبّة ليلة النّفر
ثم اغتدوا فرقا هنا وهنا * يتلاحظون بأعين الذكر
ما للمضاجع لا تلائمني * وكأن قلبي ليس في صدري

ومن باب النسيب في الطائفات:
قلت لها في الطواف معترضا * لا تستحلّي بالله سفك دمي
فكان من قولها وقد جعلت * تستر ذاك الشقيق بالعتم
نحن ظباء ولا يحلّ لكم * في الدين صيد الظباء في الحرم
حدثنا موسى بن محمد قال : حجّ رجل أعجمي فيه خير وديانة . فبينما هو في الطواف عن الركن اليماني ، وصوت خلخال من قدم بعض الحسان الطائفات قد وقع في أذنه ، فأثر في قلبه ، فالتفت إلى الشخص ، فخرجت يد من ركن البيت فضربته على عينه التي التفت بها ، فألقتها على خده ،

وسمع عند الضربة صوتا من جدار البيت قائلا يقول:
تطوف إلى بيتنا وتنظر إلى غيرنا ، هذه نظرة بلطمة أفقدناك فيها عينك ، وإن زدت زدنا.
قال : وكانت له امرأة يحبها فتوفيت . قال موسى : ربما لو اعتنى بتاريخ موتها لوجد في تلك الساعة التي نظر فيها ، فعوقب ضعفين : فقد عينه وأهله . قلت لموسى بن محمد:
رأيت أنت الرجل ؟ فأظنه قال : نعم رأيته.
وقال الشريف الرضيّ:
أعاد لي عيد الصفا * جيراننا على منى

كم كبد معقورة * للعاقرين البدنا
تخفي تباريح الجوى * وقد عنانا ما عنا
وبارق أشيمه * كالطّرف أغنى ورنا
ذكرني الأحباب والذ * كرى تهيج الحزنا
من بطن مرّ والسوى * نور عسفان بنا
وبالعراق وطوى * يا بعد ما لاح لنا

وأنشد ابن هلال:
إلى كم تعدني ليلة بعد ليلة * بخيف منى إذ نام أهل المنازل
قتيل بأرض الشام من غير علّة * تواطت على خديه أيدي الرواحل
يقولون من هذا القتيل الذي نرى * وينظر شذرا من حلال المحامل
ولو عاينوا ما حل في مضمر الحشا * رأوا شخصا مقتولا يلوذ بقاتل

وقال مهيار الديلمي:
وما بنا إلا هوى * حيّ على خيف منى
يا حسن ذاك موقفا * إن كان شيئا حسنا
منى لعيني أن ترى * تلك الثلاث من منى

ومن ريحانة العاشق:
خرس اللسان ولا دموع تنطق * إن الهوى بحشاشتي متعلق
لما رأيت أحبّتي يوم النوى * شط الرحيل بينهم فتفرّقوا
سلطت طوفان الدموع عليهم * وبعثت أنفاسي لكي لا يغرقوا
فتأوّه الحادي وقال لهم قفوا * فبأثركم لا شك من يتعشق
فأجبتهم من تحت صوت باهتا * قامت قيامة عبدكم فترفقوا
ردّوا الصباح لناظري فما أرى * إلا سيوف الموت حولي تبرق

ومن بستان الوامق:
يا قلب من مواطن * لم يرض منها وطنا
ويوم سلع لم يكن * يومي بسلع هيّنا
وقفت أستسقي الظما * فيه وأستشفي الضّنا
وفضحت سرّ الهوى * عيني فصار علنا
ويوم ذي ألبان تبا * يعنا فحزت الغبنا

كان الغرام المشتري * وكان قلبي الثمنا
وقال جميل بن معمر العدوي:
الحبّ أول ما يكون الحاجة * تأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا اقتحم الفتى لجج الهوى * جاءت أمور لا تطاق كبار
وقال الآخر:
الحبّ أوله حلو وأوسطه * مرّ وآخره التوديع والأجل
ومن باب نوح الحمام:
حمام الأراك ألا خبّرينا * بمن تهتفين ومن تندبينا
لقد شقت ويحك منّا قلوبا * وأذرفت ويحك منا عيونا
تعالي نقم مأتما للفراق * ونندب أحبابنا الظاعنينا
وأسعدك النوح كي تسعدينا * كذاك الحزين يوالي الحزينا
وروينا من حديث ابن باكويه ، عن أبي زرعة الطبري ، عن أبي زرعة الدمشقي ، قال:
خرج علي بن الفتح الحلبي يوما فرأى الناس يتقرّبون إلى الله تعالى ، فقال : يا رب ، أرى الناس يتقرّبون إليك بألوان الذبائح وإني تقرّبت إليك بحزني ، ثم غشي عليه ، فأفاق ثم قال : إلهي إلى متى تردّدي في دار الدنيا محزونا ؟ فاقبضني إليك . فوقع من ساعته ميتا.

ولبعضهم في هذا المعنى:
للناس حجّ ولي حج إلى سكني * تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي

ولنا فيه ، غير أني زدت فيه معنى عرفانيا:
وأهدي عن الغربان نفسا معيبة * وهل ريء خلق بالعيوب تقرّبا
وروينا من حديث أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي ، عن أبي سعيد الماليني ، عن أبي بكر محمد بن محمد بن يعقوب ، عن محمد بن يوسف قال : سمعت أبا ثابت الخطاب يقول : سمعت إبراهيم بن موسى يقول : رأيت فتى صلى يوم عيد الأضحى وقد شمّ روائح اللحوم ، فدخل إلى زقاق ، فسمعته يقول : تقرّب المتقرّبون إليك بقربانهم ، وأنا أتقرّب إليك بطول حزني . يا محبوبي ، كم تتركني في أزقة الدنيا محزونا ؟ ثم غشي عليه ، وحمل إلى منزله ، فدفنّاه بعد ثلاث . هذا هو فتح بن شرف الموصلي من سادات القوم .
شعر:
ضحّى الحبيب بقلبي يوم عيدهم * والناس ضحّوا بمثل الشاء والغنم
إن الحبيب الذي يرضيه سفك دمي * دمي حلال له في الحلّ والحرم

للناس حجّ ولي حجّ إلى سكني * تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي
يطوف بالبيت قوم لا بجارحة * بالحب طافوا فأغناهم عن الحرم
يا لائمي لا تلمني في هواه فلو * عاينت منه الذي عاينت لم تلم

ذكر ما رثى به عمات النبي صلى الله عليه وسلم أباهن عبد المطلب
روينا من حديث محمد بن إسحاق قال : حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله ، أن عبد المطلب توفي ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين . قال ابن إسحاق ، عن محمد بن سعيد بن المسيب : إن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعلم أنه يموت جمع بناته ، وكنّ ستّ نسوة : صفية ، وبرّة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى . فقال لهن : أبكين عليّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت . قال ابن هشام : ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيّب كتبناه.

فقالت صفية ابنته تبكيه:
أرقت لصوت نائحة بليل * على رجل بقارعة الصّعيد
ففاضت عند ذلكم دموعي * على خدي كمنحدر الغريد
على رجل كريم غير وغل * له الفضل المبين على العبيد
على الفياض شيبة ذي المعالي * أبيك الخير وارث كل جود
صدوق في المواطن غير نكس * ولا شحب المقام ولا سنيد
طويل الباع أروع سبطميّ * مطاع في عشيرته حميد
رفيع البيت أبلج ذي فضول * وغيث الناس في الزمن الجرود
كريم الجد ليس بذي وصوم * يروق على المسوّد والمسود
عظيم الحلم من نفر كرام * خضارمة ملاوثة أسود
فلو خلد امرؤ لقديم مجد * ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكان مخلدا أخرى الليالي * لفضل المجد والحسب التليد

وقالت ابنته برّة تبكيه:
أعينيّ جودا بدمع درر * على طيّب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد وارى الزناد * جميل المحيّا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات * وذي المجد والعزّ والمفتخر

وذي الحلم والفضل في النائبات * كثير المكارم جمّ الفخر
له فضل مجد على قومه * منير يلوح كضوء القمر
أتته المنايا فلم تسوه * بصرف الليالي وريب القدر

وقالت ابنته عاتكة تبكيه:
أعينيّ جودا ولا تبخلا * بدمعكما بعد نوم النيام
أعينيّ واستعبرا واسكبا * وشوبا بكاءكما بالسّدام
أعينيّ واستخرطا واسجما * على رجل غير نكس كهام
على الجحفل الغمر في النائبات * كديم المساعي وفيّ الذمام
على شيبة الحمد وارى الزناد * وذي مصدق بعد ثبت المقام
وسيف لدى الحرب صمصامة * ومردى المخاصم عند الخصام
وسهل الخليقة طلق اليدين * وف عدملي صمصم لهام
تنبّك في باذخ بيته * رفيع الذؤابة صعب المرام

وقالت أم حكيم البيضاء ابنته تبكيه:
ألا يا عين جودي واستهلّي * وأبكي ذا الندى والمكرمات
ألا يا عين ويحك اسعديني * بدمع من دموع هاطلات
وأبكي خير من ركب المطايا * أباك الخير تيّار الفرات
طويل الباع شيبة ذا المعالي * كريم الخيم محمود الحبات
وصولا للقرابة هبزريا * وغيثا في السنين الممحلات
وليثا حين تشتجر العوالي * تروق له عيون الناظرات
عقيل بني كنانة والمرجى * إذا ما الدهر أقبل بالهنات
ومفزعها إذا ما هاج هيج * بداهية خصيم المعضلات
فابكيه ولا تسمي لحزن * وأبكي ما بقيت الباكيات

وقالت أميمة ابنته تبكيه:
ألا هلك الداعي العشيرة ذو العقد * وساقي الحجيج والمحامي عند المجد
ومن يألف الضيف الغريب بيوته * إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد
أبو الحارث الفياض خلّى مكانه * فلا تبعدنّ فكل حيّ إلى بعد
فأنّى لباك ما بقيت وموجع * وكان له أهلا لما كان من وجد
سقاك وليّ الناس في القبر ممطرا * وسوف أبكيه وإن كنت في اللحد

وقد كان زينا للعشيرة كلها * وكان حميدا حيث ما كان من حمد
وقالت ابنته أروى تبكيه:
بكت عينيّ وحقّ لها البكاء * على سمح سجيّته الحياء
على سهل الخليقة أبطحيّ * كريم الخيم نيته العلاء
على الفيّاض شيبة ذي المعالي * أبيك الخير ليس له كفاء
طويل الباع أملس شيظميّ * أغرّ كأن غرّته ضياء
أقبّ الكشح أروع ذي فضول * له المجد المقدّم والثناء
أبيّ الضيم أبلج هبرزيّ * قديم المجد ليس له خفاء
ومعقل مالك وربيع فهر * وفاصلها إذا التمس القضاء
وكان هو الفتى كرما وجودا * وبأسا حين تنسكب الدماء
إذا هاب الكماة الموت حتى * كأن قلوب أكثرهم هواء
مضى قدما بذي رأي حسيب * عليه حين تبصره البهاء

قال : فزعم لي محمد بن سعيد بن المسيّب أنه أشار برأسه وقد أصمت هكذا فأبكيتني.
وقال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب بن لؤي : يبكي عبد المطلب بن هاشم ، ويذكر فضله وفضل قصيّ على قريش وفضل ولده من بعده عليهم . وذلك أنه أخذ يغرم أربعة آلاف درهم بمكة فوثق بها ، فمرّ به أبو لهب عبد العزّى بن عبد المطلب فافتكّه:
أعينيّ جودا بالدموع على الصدر * ولا تسأما أسقيتما وابل القطر
وجودا بدمع واسفحا كل شارق * بكاء امرئ لم يسوه نائب الدهر
وسحّا وجمّا واسجما ما بقيتما * على ذي حياء من قريش وذي ستر
على رجل جلد القوي ذي حفيظة * جميل المحيّا غير نكس ولا هدر
على الماجد البهلول ذي الباع واللها * ربيع لؤي في القحوط وفي العسر
على خير حاف من معدّ وناعل * كريم المساعي طيّب الخير والنحر
وخيرهم أصلا وفرعا ومعدنا * وأحظاهم بالمكرمات وبالذكر
وأولاهم بالمجد والحلم والنهى * وبالفضل عند المجحفات من العبر
على شيبة الحمد الذي كان وجهه * يضيء سواد الليل كالقمر البدر
وساقي الحجيج ثمّ للخبز هاشم * وعبد مناف ذلك السيّد الفهر
طوى زمزما عند المقام فأصبحت * سقايته فخرا على كل ذي فخر

لبيك عليه كل غاد بكربة * وآل قصيّ من مقلّ وذي وفر
بنوه سراة كلهم وشبابهم * تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
قصيّ الذي عادى كنانة كلها * ورابط بيت الله في العسر واليسر
فإن تك غالته المنايا وصرفها * فقد عاش ميمون النقيبة والأمر
وأبقى رجالا سادة غير عزّل * مصاليت أمثال الرّدينية السمر
أبو عتبة الملقى إليّ حباؤه * أعزّ هجان اللون من فقر غرّ
وحمزة مثل البدر يهتزّ للندى * نقيّ الثياب والذّمام من القذر
وعبد مناف ماجد ذو حفيظة * وصول لذي القربى رحيم بذي الصهر
كهولهم خير الكهول ونسلهم * كنسل ملوك لا تبور ولا تجري
متى ما تلاقى منهم الدهر ناشئا * تجده بأجريا أوائله تجري
هم ملئوا البطحاء فخرا وعزة * إذا استبق الخيرات في سالف العصر
وفيهم ثبات للعلى وعمارة * وعبد مناف جدّهم جابر الكسر
بإنكاح عوف بنته فكّ أسرنا * من أعدائنا إذ أسلمتنا بنو فهر
فسرنا بها غور البلاد ونجدها * بأمنة حتى خاضت العير في البحر
وهم حضروا والناس باد فريقهم * وليس بها إلا شيوخ بني عمرو
بنوا هاديات جمة وطووا بها * بيارا لسحّ الماء من تبحّ بحر
لكي يشرب الحجاج منها وغيرهم * إذا ابتدروها صبح تابعة النحر
ثلاثة أيام تظلّ ركابهم * مخيّسة بين الأخاشب والحجر
وقدما غنينا قبل ذلك حقبة * ولا يستقي إلا بجمّ أو الحفر
هم يغفرون الذنب ينقم دونه * ويعفون عن قول السفاهة والهجر
فخارج إما أهلكنّ فلا تزل * لهم شاكرا حتى تغيب في القبر
ولا تنس ما أسدى ابن لبنى فإنه * قد أسدى يدا محقوقة منك بالشكر
فأنت ابن لبنى من قصيّ إذا انتموا * بحيث انتهى قصد الفؤاد من الصدر
فأنت تناولت العلى فجمعتها * إلى محتد للمجد ذي نتح حبر
سقيت وفقت القوم بذلا ونائلا * وسدت وليدا كل ذي سؤدد غمر
وأمك سر من خزاعة جوهر * إذا حصل الإحسان يوما ذوو الخبر
إلى سائر الأبطال تنمي وتنتمي * وأكرم بها منسوبة في ذرى الدهر
أبو سمر منهم وعمرو بن مالك * وذو جدن من قومها وأبو الجبر
وأسعد فاز الناس عشرين حجة * يؤيد في تلك المواطن بالنصر

وقال مطرود بن كعب الخزاعي يبكيه:
يا أيها الرجل المحول رحله * هلّا سألت عن آل عبد مناف
هبلتك أمك لو حللت بدارهم * ضمنوك من جرم ومن إقراف
المنعمين إذا النجوم تغيّرت * والظاعنين لرحلة الإيلاف
والمطعمين إذا الرياح تناوحت * حتى تغيب الشمس في الرجاف
أما هلكت أبا الفعال فما جرى * من فوق مثلك عقد ذات نطاف
إلا أبيك أخي المكارم وحده * والفيض مطلبه أبي الأضياف

ومما سمع من بكاء الجن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن سليمان بن أحمد ، عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، نبأ عمي أبو بكر ، نبأ عبد الله بن إدريس ، عن ليث ، عن معروف بن أبي معروف

قال : لما أصيب عمر رضي الله عنه سمعت صوتا يقول:
ليبك على الإسلام من كان باكيا * فقد أوشكوا هلكي وما قدم العهد
وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها * وقد ملّها من كان يؤمن بالوعد
قال أحمد بن عبد الله : وحدثنا أيضا أبو حامد بن جبلة ، نبأ محمد بن إسحاق ، نبأ الجوهري حاتم بن الليث ، حدثني سلمة بن حفص السعدي ، نبأ أبو عامر الأسدي ، عن المطلب بن زياد بسنده
قال : رثت الجن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين مات
وكان فيما قالوا:
ستبكيك نساء الحي * تبكين الشجيات
وتخمس وجوها كالد * نانير النقيات
ويلبس ثياب السو * د بعد القصبيات

وقال الجن تبكيه:
أبعد قتيل بالمدينة أصبحت * له الأرض تهتز العصاة بأسوق
جزى الله خيرا من أمير وباركت * يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناح نعامة * ليدرك ما سريت بالأمس يستبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها * بوائق في أكمامها لم تفتق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته * بكفي سبتني أزرق العين مطرق
فلقاك ربي في الجنان تحية * ومن كسوة الفردوس لا تتمزّق

حدثنا بهذه الأبيات ، عن أبي نعيم ، عن الحسن بن علي الوراق ، عن عبد الله بن محمد البغوي ، عن شجاع ، عن مخلد ، عن محمد بن بشر ، عن مسعر ، عن عبد الملك بن عمير ، عن الصقر بن عبد الله ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : بكت الجن على عمر بعد ثلاث ، وذكرت الأبيات ما عدا البيت الأخير فإنه من حديث أنس بن مالك ، وقال الإهاب بدل الأديم.
ومن حديث ابن أبي مليكة (عليك سلام من أمير باركت) بدل (جزى الله خيرا من أمير وباركت).

ومما بكت الجن به عثمان بن عفان رضي الله عنه
وروينا أيضا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن أبي أحمد بن محمد بن أحمد ، عن محمد بن إبراهيم الغازي ، نبأ عبد الرحمن بن عمر بن سنة ، نبأ أبو عاصم ، نبأ عثمان بن مرّة ، عن أمه قالت : سمعت الجن تنوح على عثمان فوق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال.
قال : فكانت تنشد لنا بعض ما قالوا:
ليلة الحصبة إذ ير * مون بالصخر الصلاب
ثم جاءوا بكرة ين * عون صقرا كالشهاب
زينهم في الحي والمج * لس فكاك الرقاب

قال أحمد بن عبد الله : وحدثني إبراهيم بن عبد الله وابن جبلة قالا : نبأ محمد بن إسحاق ، عن قتيبة بن سعد ، عن الليث بن سعد ، عن الزهري أن رجلا رأى في زمان عثمان كأن آت أتاه في منامه ، فقال له : ع عني ما أقول لك:
لعمر أبيك وآبائه * لقد ذهب الخير إلا قليلا
لقد سفه الناس في دينهم * وخلى ابن عفان شرا طويلا

قال : فأتاه مخليا به ، فقال : والله ما أنا بشاعر ولا راوية للشعر ، وقد أتيت الليلة فألقي عليّ هذان البيتان.
فقال له عثمان : اسكت عن هذا . فلما كان العام المقبل أتاه ذلك الرجل أيضا فقال:
والله ما أنا بشاعر ولا أروي الشعر ، وقد ألقي عليّ بيتان:
لعمري لقد نغصتمونا معيشة * تقرّ بها عين التقيّ المهاجر
فيا ليت هذا اشترى العين قبله * وليت فلانا غيّبته المقابر

فقال له عثمان : اسكت من ذكرها . فلم يلبث إلا قليلا حتى قتل عثمان رضي الله عنه.
وقال جدّي عديّ بن حاتم ، وكان يقال له مقبل الظعن لطوله : سمعت صوتا يوم قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو:
ألا أبشر يا ابن عفان ، بروح وريحان ، ورب غير غضبان.
ألا أبشر يا ابن عفان ، برضوان وغفران.

روينا من حديث أبي نعيم ، عن محمد بن أحمد بن الحسن ، عن الحسن بن علي بن الوليد ، عن أحمد بن عمران الأخنسي ، عن خالد بن عيسى ، عن الأعمش ، عن خيثمة ، عن عدي بن حاتم ، مما ناحت به الجن على الحسين بن علي رضي الله عنهما:
مسح النبيّ جبينه * فله بريق في الخدود
أبواه في عليا قريش * وجدّه خير الجدود

روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن أبي حامد بن جبلة ، عن محمد بن الحسين ، عن أبي بكر بن خلف ، عن محمد بن الحجاج عن معروف بن واصل ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : سمعت الجن تنوح على الحسين رضي الله عنه ، وذكر البيتين.
ومن حديثه أيضا ، عن سليمان بن أحمد ، عن القاسم بن عبّاد ، عن سويد بن سعيد ، عن عمرو بن ثابت ، عن حبيب ، عن أبي ثابت ، قال : قالت أم سلمة رضي الله عنهما : ما سمعت نوح الجن مذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ليلة ، وما أرى الحسين إلا قتل ، فأخرجت جاريتها تسأل ، فأخبرت بقتل الحسين ، فإذا جنيّة تنوح:
ألا يا عين فاحتفلي بجهد * ومن يبكي على الشهداء بعدي
على رهط تقودهم المنايا * إلى متجبّر في ملك عبد

ومن حديثه ، عن سليمان بن أحمد ، عن زكريا بن يحيى الساجيّ ، عن محمد بن يحيى بن صالح الأزديّ ، عن السريّ بن منصور بن عبّاد ، عن أبيه ، عن أبي لهيعة ، عن أبي قبيل قال : لما قتل الحسين رضي الله عنه اجتزّوا رأسه ، وقعدوا في أول مرحلة يشربون النبيذ ، ويتحيّون بالرأس . فخرج عليهم قلم من حديد من حائط فكتب سطرا بدم شعر:
أترجو أمة قتلت حسينا * شفاعة جدّه يوم الحساب ؟
قال : فهربوا وتركوا الرأس ثم رجعوا.
وقال جابر الحضرميّ ، عن أمه ، قال : سمعت الجن تنوح على الحسين وهي تقول:

أنعي حسينا هبلا * كان حسين رجلا
لسان كريم
روينا من حديث المالكي ، عن عبد الله بن عمرو الوراق ، نبأ أبي ، عن يحيى بن خليفة المجاشعيّ ، نبأ إدريس ، عن مروان بن أبي حفصة يعني عن أبيه ، قال : أنشدت معن بن زائدة أربعة أبيات فأعطاني أربعة آلاف دينار ، فبلّغت أبا جعفر فقال : ويلي على الأعرابي الجلف . فاعتذر إليه وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على جودك ، فسوّغه إياها .

فلما مات معن بن زائدة رثاه مروان فقال:
ألمّا على معن وقولا لغيره * سقيت الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة * من الأرض خطت للمكارم مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البحر والبرّ ممرعا
ولكن ضممت الجود والجود ميت * ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
ولما مضى معن مضى الجود والندى * وأصبح عرنين المكارم أجدعا
وما كان إلا الجود صورة خلقه * فعاش زمانا ثم مات وودّعا
فتى عيش من معروفه قبل موته * كما كان قبل السيل مجراه مرتعا
تعزّ أبا العباس عنه ولا تكن * ثوابك من معن بأن يتضعضعا
تمنّى رجال شأوه من ضلالهم * فأضحوا على الأذقان صرعى وطلعا

وحدثني المهدي عبد الكريم بن يوسف بالموصل ، عن الحسن بن عمار قال : قدم علينا نور الهدى الواعظ الإسكندراني الموصلي ، وكان بينه وبين أخي صحبة جميلة ، وكان أخي قد توفي فسألني أن أزور معه قبره ، فزرنا قبره ، وترحّمنا عليه ساعة ، وذكر ما كان بينهما من جميل العشرة ، وخلوص الولاء ، وإيثار الصحبة . ثم عدنا إلى المنزل فقال:
فرأيت أخي في النوم ، فذكرت له ما كان من نور الهدى ومني في زيارة قبره ، من ذكر ليال سلفت بينهما في الله ولله . فقال الميت : رأيته عندما زارني ، وأنست بجميل طلعته ، وتذكار عهده ، وسررت بترحّمه ودعائه ، واستقللت زمان وقوفه ، فما اشتفيت من سماع لفظه الشهي ، وبديع منطقه البهي.
وقد قلت في ذلك شعرا . قال ابن عمار : فأنشدني:
أهلا بزائرنا الذي * أهدى تحيته إلينا
فشفت أوام الاشتياق * وجدّدت روحا علينا

لما التقت أرواحنا * عجل الفراق وما اشتفينا
قال : فاستيقظت وقد حفظتها من قبله فذكرتها لنور الهدى ، فأوردها على المنبر في مجلسه . فلم أر أحسن من مجلس ذلك اليوم ، ولا أكثر باكيا منه.

وقال مهيار الديلمي في الاشتياق:
ألا فتى يسأل قلبي ما له * ينزو إذا برق الحمى بدا له
فهبّ يرجو خبرا من الغضا * يسنده عنه فما روى له
أراد نجدا معه ببابل * إرادة هاجت له بلباله
وابتسم الريح الصبا ومن له * بنفحة من الصبا طوبى له
ويوم ذي البان وما أشار من * ذي البان إلا أن أقول ما له

المعرفة أشرف من صفة
قال أبو عبد الله البراثي : بالمعرفة هانت على العالمين العبادة ، والرضى عن الله عز وجل في تدبيره . زهدوا في الدنيا ، ورضوا منها لأنفسهم بتقديره.
رويناه من حديث ابن مروان ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن حكيم بن جعفر ، عن البراثي . ومن حديثه أيضا ، عن محمد بن عيسى البغدادي قال : ما لك من عمرك إلا ما أطعت الله عز وجل فيه ، فأما ما عصيت الله فيه فلا تعدّه عمرا.
ومن الشعر الذي هو برسول الله صلى الله عليه وسلم أولى إذ ذاك النعت له حقيقة ، قول أبي نواس:
أوجده الله فما مثله * لطالب ذاك ولا ناشد
وما على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

ومن باب مطارحة العشاق:
دعوني ونعمان الأراك أروده * يجاوب صوتي طيره المتناوحا
عسى سارح من دار ميّة آمن * يقيّض لي عن شائم طار بارحا

ومن باب حنين الإبل وسيرها:
يقودها الحادي إلى مراده * وهمها أحرى إليها لم تقد
وإنما يتمّها بحاجر * أيامها بحاجر لم تسترد
لو كان لي على الزمان إمرة * مطاعة قلت أعدها لي أعد
فكم على وادي الغضا من كبد * يحكم فيها بسوي العدل والكبد

ومنه:
متى رفعت لها بالغور نار * وقرّ بذي الأراك لها قرار
فكل دم أراق العين منها * بحكم الشوق مطلول جبار
ومنه:
أثرها على حبّ الوفاء وحسنه * تصعّب في أسطانها وتلين
جوافل من طرد الرماح قريبة * عليها فجاج الأرض وهي شطون
لها وهي خرسى تحت عفر رحالها * تشكّ إذا شدّ الثرى وأنين
حدثنا يونس بن يحيى بن منصور ، انا هبة الله بن أحمد الموصلي ، انا عبد الملك بن أحمد بن بشران ، نبأ أبو سهل أحمد بن محمد القطّان ، انا محمد بن يونس الشامي ، انا محمد بن عبيد الله العتبي قال : حدثني أبي ، عن المسيب بن شريك ، عن عبد الوهاب بن عبيد الله بن أبي بكرة قال : وقف أعرابي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال:
يا عمر الخير جزيت الجنة * اكس بنيّاتي وأمّهنّه
أقسم بالله لتفعلنه
قال عمر رضي الله عنه : فإن لم أفعل يكون ما ذا ؟ قال:
تكون عن حالي لتسألنه * يوم تكون الأعطيات ثمّه
والوقف المسؤول بينهنه * إما إلى نار وإما جنّه
فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته ، وقال لغلامه : يا غلام ، أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره . قال : أما والله لا أملك غيره . فكان عمر يدني يده من النار ، ثم يقول : يا ابن الخطاب ، هل لك على هذا صبر ؟ وبكى حتى كان بوجهه خطان أسودان من البكاء . وكان يقول : ألا من يأخذها بما فيها ، يعني الخلافة ، ليتني لم أخلق ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني لم أكن شيئا ، ليتني كنت نسيا منسيا.
وروينا من حديث ابن أبي الوليد ، عن أبي الحسن ، عن ابن جعدويه ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، عن سعيد بن المسيب قال : حج عمر رضي الله عنه ، فلما كان بصحبات قال : لا إله إلا الله العظيم المعطي ما شاء لمن يشاء . كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظا يتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصّرت ، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد . ثم تمثل:
لا شيء فيما ترى تبقى بشاشته * يبقى الإله ويودي المال والولد

لم تغن عن هرم يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له * والأنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت نوافلها * من كل أوب إليها راكب يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب * لا بد من ورده يوما كما وردوا
هذا كان لباسه وهو يرعى الغنم . وخطب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثني عشرة رقعة رضي الله عنه.

خطبة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين

روينا من حديث ابن أبي الدنيا قال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن جابر بن عوف قال : أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك أن قال ، يعني في خلافته : الحمد لله الذي ما شاء صنع ، وما شاء رفع ، وما شاء وضع ، وما شاء أعطى ، وما شاء منع . إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل وزينة ، تضحك باكيا ، وتبكي ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا وتفقر مثريها ، وتثري فقيرها ، ميّالة لاعبة بأهلها.
يا عباد الله ، اتخذوا كتاب الله إماما ، وارضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائدا . فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولا ينسخه كتاب بعده . فاعلموا عباد الله أن القرآن يجلو كيد الشيطان كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس وإدبار الليل إذا عسعس.

خبر خولة بنت حكيم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روينا عن قتادة قال : خرج عمر بن الخطاب من المسجد والجارود العبدي معه ، فبينما هما خارجان إذا بامرأة على ظهر الطريق ، فسلّم عليها عمر فردّت عليه السلام ، ثم قالت : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة ، قال لها : قولي ، قالت : يا عمر ، عهدي بك وأنت تسمّى عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سمّيت عمر ، ثم لا تذهب الأيام حتى سمّيت أمير المؤمنين . فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت.
فبكى عمر رضي الله عنه . فقال الجارود : هيه ، قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيتيه . فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه يا جارود ؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها . أراد بذلك قوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ.

ومن خطب الحجاج
ما روينا من حديث ابن أبي الدنيا قال : حدثني محمد بن الحسين قال : حدثنا خلف بن تميم ، نبأ أبو رجاء الهروي ، عن أبي بكر الهذلي قال : رأيت الحجاج يخطب على المنبر ، فسمعته يقول:
أيها الناس ، إنكم غدا موقوفون بين يدي الله عز وجل ، ومسؤولون . فليتقّ الله امرؤ ، ولينظر ما يعدّ لذلك الموقف ، فإنه موقف يخسر فيه المبطلون ، وتذهل فيه العقول ، ويرجع الأمر فيه إلى الله لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ. *
بادروا آجالكم بأعمالكم قبل أن تخترموا دون آمالكم . قال : ثم بكى وانتحب وهو على المنبر ، فرأيت دموعه تنحدر على لحيته.

حديث أبي ذرّ مع عبد الله بن عامر
حدثنا محمد بن محمد ، نبأ أبو القاسم الحريري ، أنا أبو طالب العشاري ، أنا أبو بكر البرقاني ، نبأ إبراهيم بن محمد المزكي ، انا محمد بن محمد بن إسحاق الثقفي ، نبأ هارون بن عبد الله ، نبأ سيار ، نبأ جعفر ، نبأ أبو عمران الجوني ، عن نافع الطاحي قال:
مررت بأبي ذرّ فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من أهل العراق . قال : أتعرف عبد الله بن عامر ؟ قلت : نعم . قال : فإنه كان يتقرأ معي ويلزمني ، ثم طلب الإمارة ، فإذا قدمت البصرة فتراءى له ، فإنه سيقول لك حاجة فقل : اخلني . فقل له : أنا رسول أبي ذرّ إليك ، وهو يقرئك السلام . فلما قلتها خشع لها قلبه . ويقول لك : إنّا نأكل من التمر ، ونروى من الماء ، ونعيش كما تعيش .
قال : فحلّ إزاره ، ثم أدخل رأسه في جيبه ، ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء.
روينا من حديث أحمد بن حنبل قال : حدثنا عبد الله ، نبأ سعيد بن أبي أيوب عبد الله بن الوليد قال : سمعت عبد الرحمن بن حجيرة يحدّث عن أبيه ، عن ابن مسعود أنه كان يقول:
أما بعد ، إنكم في ممرّ الليل والنهار في آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة ، والموت يأتي بغتة.
فمن زرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا يوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع ما زرع ، لا يسبق بطيء بحظه ، ولا يدرك حريص ما لا يقدر له.

حديث ملك متقدم

حدثنا يونس ، عن محمد بن ناصر ، انا محفوظ بن أحمد ، انا محمد بن الحسين ، نبأ المعافى ، انا عبد الله بن محمد بن جعفر ، نبأ أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن القاسم ، عن هاشم ، نبأ الحكيم بن هاشم ، عن صفوان بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله الخزاعي ، أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس في أيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعاهدوا تلك القبور ، فكنسوها ، وصلوا عندها ، ورعوا البقل كما ترعى البهائم.

وقد قيّض الله لهم من ذلك معاشا من نبات الأرض . فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال الرسول : أجب الملك ذا القرنين ، فقال : ما لي إليه حاجة ، فأقبل إليه ذو القرنين فقال : إني أرسلت إليك لتأتيني فأبيت ، فها أنا ذا قد أتيتك . فقال : لو كانت لي إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين : ما لي أراكم على الحالة التي رأيت لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قالوا : وما ذاك ؟ قال : ليس لكم دنيا ولا شيء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها ؟ قالوا : إنما كرهناها ، لأن أحدا لم يعط منها شيئا إلا تاقت نفسه إلى أفضل منه.

فقال : ما بالكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعهّدتموها وكنستموها وصليتم عندها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل . قال : وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وذبحتموها واستمتعتم بها ؟ فقالوا : إنّا رأينا أن في نبات الأرض بلاغا.

ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال : يا ذا القرنين ، أتدري من هذا ؟ قال : لا ، من هو ؟ قال : هذا ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فغشم وظلم وعتا . فلما رأى ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى ، قد أحصى الله عمله عليه ، حتى يجزيه في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين ، أتدري من هذا ؟

قال : ومن هذا ؟ قال : ملك ملّكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الظلم والتجبّر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وعمل بالعدل في مملكته ، فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه في آخرته .

ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال:

وهذه الجمجمة كان قد كانت كهاتين ، فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع . فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتي فأتخذك وزيرا وشريكا فيما أتاني من هذا المال ؟ فقال : ما

أصلح أنا وأنت في مكان ، قال : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق ، قال : ولم ذلك ؟ قال : يعادونك لما في يديك من المال والملك ، ولا أجد أحدا يعاديني لرفضي في ذلك . فانصرف عنه ذو القرنين . هو ذو القرنين الأكبر ، وقيل : هو المذكور في القرآن.
قال بعض المؤرخين : هو أول القياصرة ، وهو ابن سام بن نوح . يقال : إنه لقي إبراهيم عليه السلام ، فطاف البلاد ، وسدّ على يأجوج ومأجوج . واختلف في تسميته ذو القرنين ، لأنه لقب له ، واسمه عبد الله بن الضحاك ، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال بعضهم : كان بعد نمرود بن كنعان ، وهو الذي بنى الإسكندرية . وقد ذكرنا في هذا الكتاب من أخباره بعض ما وصل إلينا . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا بعثه الله في قومه ، فضربوه على قرنه فقتلوه ، ثم بعثه الله أخرى فضربوه على قرنه فقتلوه ، ثم بعثه الله أخرى فضربوه على قرنه فمات.
قال غيره : كان له شبه القرنين نابتين في رأسه ، وقيل : لبلوغه قطري الأرض ، ومات بأرض بابل.

وأما ذو القرنين الأصغر فهو الإسكندر ابن فيلسوف اليونانيّ ، قتل دارا ، وسلبه ملكه ، وتزوج ابنته ، وكانت من أجمل الناس . فلما اجتمع له ملك الروم وملك فارس سمّي ذو القرنين لهما . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه أخذ بقرني الشمس ، فسمّي بذلك . ثم رجع إلى العراق بعد طلبه عين الخلد ، ومات بشهرزور ، وقيل : بميافارقين . وحمل إلى أمه في تابوت من ذهب إلى الإسكندرية ، وكان عمره ستة وثلاثين سنة ، ومدة ملكه أربع عشرة سنة . وكان قبل المسيح بثلاثمائة وثلاث سنين ، وقيل : تسع عشرة سنة . وقد روي أنه هو الذي سدّ على يأجوج ومأجوج.

روي من حديث أسلم أنه قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلا ، حتى إذا كنا بموضع إذا نار ، فقال : يا أسلم ، إني لأرى هنا ركبا قصّر بهم الليل والبرد ، فانطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان صغار ، وإذا بقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاعفون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار ، فقالت : وعليكم السلام ، فقال : أدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو دع ، قال : فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصّر بنا الليل والبرد ، قال : وما بال هذه الصبية يتضاعفون ؟ قالت : من الجوع ، قال : فأي شيء في هذا القدر ؟ قالت : ماء ، أسكتهم حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . قال : أي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ قلت : يتولى أمرنا

ثم يتغافل عنّا . قال : فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا ، فخرجنا حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرجنا عدلا من دقيق وكبة من شحم ، فقال : احمله عليّ ، فقلت : أنا أحمله عنك ، فقال : أنت تحمل وزري ؟ لا أمّ لك ، فحمّلته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها أهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول لها : درّي عليّ وأنا أحرّك لك . وجعل ينفخ تحت القدر ، ثم أفرغها في صفحة ، وقال : أطعميه للصبية ، ولم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك.
فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول:
قولي خيرا ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك . ثم تنحّى ناحية وربض كالأسد.
فقلت : لك شأن غير هذا ؟ فلم يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرخون ، ثم ناموا وهدوا.
فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

سؤال معاوية لضرار أن يصف عليّا رضي الله عنهم

روينا من حديث ابن باكويه قال : نبأ عبد الله بن فهد بن إبراهيم الساجي قال : نبأ محمد بن زكريا بن دينار ، نبأ العباس بن بكار ، نبأ عبد الواحد بن أبي عمرو الأسدي ، عن الكلبي ، عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة:
صف لي عليّا ، قال : أو تعفيني ؟ قال : لا أعفيك . قال : أما إذ لا بد ، إنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته . كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما خشب.
كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ويتجنى . والله مع تقريبه لنا ، وقربه هنا ، لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لعظمته عندنا . إن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف في عدله . فأشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين .
فكأني أسمعه يقول:
يا دنيا يا دنيا ، إليّ تعرّضت ، أم إليّ تشوفت ؟ هيهات هيهات ، غرّي غيري ، قد

أبنتك ثلاثا ، لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كثير . آه من قلّة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق.
قال : فذرفت دموع معاوية ، فما ملكها وهو ينشّفها بكمّه . وقد اختنق القوم بالبكاء.
ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا يسكن حزنها.

روي أن عليّا رضي الله عنه رأى رجلا من قريش يمشي ويخطر بيده تكبّرا ، فقال:
يا مؤثر الدنيا على دينه * والتائه الحيران في قصده
أصبحت ترجو الخلد فيها وقد * أبرز ناب الموت عن حدّه
هيهات إن الموت ذو أسهم * من يرمه يوما بها يرده
لا يشرح الواعظ صدر امرئ * لم يعزم الله على رشده

وروينا من حديث ابن حنبل قال : نبأ وهب بن إسماعيل قال : نبأ محمد بن قيس ، عن علي بن أبي ربيعة ، عن علي بن أبي طالب ، قال : جاءه ابن التياح فقال : يا أمير المؤمنين ، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء ، قال : الله أكبر ، فقام متوكئا على ابن التياح حتى قام على بيت المال فقال:
هذا جناء وخياره فيه * وكل جان يده إلى فيه
قال : ثم نادى في الناس فأعطى جميع ما في بيت المال للمسلمين وهو يقول : يا صفراء ، يا بيضاء ، غرّي غيري . ها وها ، حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم . ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين.
حدثنا يونس بن يحيى بمكة ، عن محمد بن ناصر ، عن جعفر بن أحمد ، عن أبي علي التميمي ، عن أبي بكر بن جعفر ، عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه أحمد بن حنبل ، بالإسناد.

ومن كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
ما حدثنا يوسف بن علي ، ويونس بن يحيى ، قال يونس : انا عبد الوهاب ، انا عبد الله بن أحمد السكري ، قال : انا أحمد بن محمد بن الصلت ، قال : حدثنا حمزة بن قاسم الهاشمي قال : نبأ حنبل بن إسحاق قال : نبأ داود بن سبيب ، نبأ حمّاد بن سلمة ، عن عمرو ، أن عمر بن عبد العزيز قال لعنبسة بن سعيد : يا عنبسة ، أكثر ذكر الموت ، فإنك لا تكون في ضيق من أمر معيشتك فتذكر الموت إلا وسّع ذلك عليك.

كلام أبي بكرة لمعاوية رضي الله عنه

حدثنا يونس ، انا عبد الوهاب ، انا المبارك بن عبد الجبار ، انا أحمد بن علي الثوري ، انا عمر بن ثابت ، انا علي بن قيس ، أنا أبو بكر القرشي ، انا العباس بن هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن شيخ من الأزد ، أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال : اتق الله يا معاوية ، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك ، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ، ومن الآخرة إلا قربا ، وإن على أثرك طالبا لا تفوته ، وقد نصب لك علما لا تجوزه ، فما أسرع ما تبلغ ، وما أوشك أن يلحقك الطالب . وإنّا وما نحن فيه وأنت زائل ، والذي نحن إليه صائرون باق ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

ما كلّم به أبو مسلم الخولاني معاوية

وبالإسناد إلى أبي بكر القرشي قال : نبّأ شجاع بن الأشرس ، عن إسماعيل بن عيّاش ، عن أبي بكر بن عبد الله ، عن عطية بن قيس ، أن أبا مسلم أتى معاوية ، فقام بين السّماطين ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقال من عنده : السلام عليك أيها الأمير ، فقال أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير ، فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يريد . فقال : اعلم أنه ليس من أحد استرعى رعية إلا ربّ الرعية سائله عنها ، فإن كان داوى مرضاها ، وجبر كسراها ، وهنا جرباها ، وردّ أولاها على أخراها ، ووضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء ، وفاه أجره . وإن كان لم يداو مرضاها ، ولم يهن جرباها ، ولم يجبر كسراها ، ولم يردّ أولاها على أخراها ، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء ، لم يؤته أجرها . فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك . فقال معاوية:

يرحمك الله يا أبا مسلم.

ودخل عليه مرة فقال له : ما اسمك ؟ قال : اسمي معاوية . قال : لا بل أحدوثة ، فإن جئت بشيء فلك شيء ، وإن لم تأت بشيء فلا شيء لك . يا معاوية ، إنك لو عدلت بين جميع قبائل العرب ، ثم ملت إلى أقلّها قبيلة ، مال جورك بعد ذلك . يا معاوية ، إنّا لا نبالي بكدر الأنهار إذا صفي لنا رأس العين.

حدثنا بهذا محمد بن إسماعيل ، عن عبد الرحمن بن علي ، عن إسماعيل بن أحمد ، عن عمر بن عبد الله ، عن أبي الحسين بن بشران ، عن عثمان بن أحمد ، عن جنبل ، عن جعفر بن ميمون ، عن أبيه ، عن عبد الله بن يوسف ، عن خالد بن يزيد ، عن أبي عيلة ، أن أبا مسلم الخولاني دخل على معاوية فذكره.

آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
روينا من حديث ابن قتيبة قال : ثنا إسحاق بن إبراهيم بن حبيب قال : نبأ قريش بن أنس ، عن كليب بن وائل ، أن رجلا من الصالحين قال : بلاد الهند شجر له ورد أحمر فيه بياض مكتوب : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأنشدني عبد الله بن مسلم بن قتيبة لبعض الشعراء في النبي صلى الله عليه وسلم:
لو لم تكن فيه آيات مبيّنة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

بلاغة أبانت عن حقيقة
روينا من حديث محمد بن يونس قال : حدثنا الأصمعي قال : مررت بأعرابية وبين يديها شاب في السياق.
ثم رجعت وبين يديها قدح من سويق تشربه ، فقلت لها : ما فعل الشاب ؟ قالت:
واريناه ، قلت : ما هذا ؟ فقالت:
على كل حال يأكل القوم زادهم * على البؤس والنعمى وفي الحدثان
ومن روايتنا : قال محمد بن عبد الرحمن الحنفي : أنشدنا أبي لغيره:
اصبر لكل مصيبة وتجلّد * واعلم بأن المرء غير مخلّد
وإذا ذكرت مصيبة تشجى بها * فاذكر مصابك بالنبي محمد
من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه
روينا من حديث يعقوب بن يوسف المطوعي ، نبأ أبو الربيع الزهراني ، عن محمد ، عن حمّاد بن زيد قال : قيل للأحنف بن قيس : بم سدت قومك ؟ وأراد عيبه ، فقال الأحنف : بتركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

تأديب حكيم وتعليم عاقل عليم
وروينا منه بحديث محمد بن يونس ، انا الأصمعي ، عن أبي عمرو بن العلاء وعن أبيه قالا : قال الأحنف بن قيس : ما دخلت بين اثنين قط حتى يكونا هما يدخلاني في أمرهما ، ولا أقمت من مجلس قط ، ولا حجبت عن باب قط ، ولا رددت عن حاجة قط.
قيل له : ولم ؟ قال : لأني لا أطلب المحال.

استمالة حكيم عفو سلطان حليم
وروينا من حديث عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال : حدثنا الرياشي قال : أخذ بعض الأمراء رجلا فقال له : إن عاقبت جازيت ، وإن عفوت أحسنت ، والعفو أقرب.
وصية محكمة وموعظة منظمة
وروينا من حديث إبراهيم الشيعي قال:

وأنشدني الرياشي لأبي العتاهية:
ألا إن خير الدهر خيرا تنيله * وشرّ كلام القائلين فضوله
ألم تر أن المرء في دار بلغة * إلى غيرها والموت فيها سبيله
وأي بلاغ يكتفي بكثيره * إذا كان لا يكفيك منه قليله
مضاجع سكان القبور مضاجع * يفارق فيهنّ الخليل خليله
تزوّد من الدنيا بزاد من التّقى * فكلّ بها ضيف وشيك رحيله
وخذ للمنايا لا أبا لك عدّة * فإن المنايا من أتت لا تقيله
وما حادثات الدهر إلا لعزّة * تبثّ قواها أو لملك تزيله

ومن ذلك بالإسناد لأبي العتاهية:
عيب ابن آدم ما علمت كثير * ومجيئه وذهابه تغرير
غرّتك نفسك للحياة محبّة * والموت حقّ والبقاء يسير
لا تغبط الدنيا فإن جميع ما * فيها يسير لو علمت حقير
يا ساكن الدنيا ألم تر زهرة * الدنيا على الأيام كيف تصير ؟
بل ما بدا لك أن تنال من الغنى * إن أنت لم تقنع فأنت فقير
يا جامع المال الكثير لغيره * إن الصغير من الذنوب كبير
هل في يديك من الحوادث قوة * أم هل عليك من المنون خفير
ما ذا تقول إذا رحلت إلى البلا * وإذا خلا بك منكر ونكير

خلق كريم مع ذي ذمة ذميم
روينا من حديث أبي حصين ، قال : نزل يهودي بأعرابي فمات عنده ، فقام الأعرابي فصلى عليه ، وقال : اللهم ضيف ، وقد علمت حق الضيف ، فأمهلنا إلى أن يقضي زمامه ، ثم شأنك به.

نفس أبيّة وهمة عليّة

روينا من حديث إسماعيل بن يونس ، قال : أنشدنا الرياشي للخليل بن أحمد الفراهيدي:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة * ولي غنى غير أني لست ذا مال
أسخو بنفسي لأني لا أرى أحدا * يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف يمنعه * ولا يزيدك فيه حول محتال

ومن ذلك وصية سنية

روينا من حديث محمد بن موسى القطان عن المازني لأعرابي:

أيها الرائب الحريص المعنّى * لك رزق فسوف تستوفيه
قبّح الله نائلا ترتجيه * من يدي من يريد أن يقتضيه
إنما الجود والسماح لمن يع * طيك عفوا وماء وجهك فيه
لا ينال الحريص شيئا فيكفي * ه وإن كان فوق ما يكفيه
فاسأل الله وحده ودع النا * س واسخطهم بما يرضيه

حكمة

قال : أنشدنا محمد بن صالح الأنماطي لبعضهم:

يخيب الفتى من حيث يزرق غيره * ويعطى الفتى من حيث يحرم صاحبه

ولبعضهم:

لا تضرعنّ لمخلوق على طمع * فإن ذاك مضرّ منك بالدين
واسترزق الله رزقا من خزائنه * فإنما هي بين الكاف والنون

صفة حميدة وحالة سعيدة

روينا من حديث عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، قال : حدثنا محمد بن عبيد ، قال : نبأ ابن عيينة ، قال بعض الخلفاء لأبي حازم ، يعني الأعرج : ما مالك ؟ فقال : الرضى عن الله ، والغنى عن الناس.

ثم أنشد ابن قتيبة في معناها لبعضهم:

للناس مال ولي مالان ما لهما * إذا تحارس أهل المال حراس
مالي الرضى بالذي أصبحت أملكه * ومالي البأس فيما يملك الناس

وهذا أبو حازم هو الذي قال له هشام لما ولّي البحرين واجتمع به : ما طعامك ؟ قال:
الخبز والزيت . فقال له : أفلا تسأمها ؟ قال أبو حازم : إذا سئمتهما تركتهما حتى اشتهيتهما.
قوله تعالى : وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
روينا من حديث محمد بن سلام أبياتا لأعرابي وهي:
وما هذه الأيام إلا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزوّد
فإنك لا تدري بأية بلدة * تموت ولا ما يحدث الله في غد
يقولون لا تبعد ومن يك بعده * ذراعين من قرب الأحبّة يبعد

عبرة بنفوذ قضاء على يد كاره له

روينا من حديث ابن أبي الدنيا ، عن أبي زيد ، قال : حدثنا الأصمعي ، قال : أتى يزيد بن مسلم رجل برقعة وسأله أن يرفعها إلى الحجاج ، فنظر فيها يزيد فقال : ليس هذه من الحوائج التي ترفع للأمير . فقال له الرجل : فإني أسألك أن ترفعها فلعلها أن توافق قدرا فيقضيها وهو كاره . فأدخلها ، وأخبره بمقالة الرجل . فنظر الحجاج في الرقعة فقال ليزيد:
قل للرجل إنها قد وافقت قدرا ، وقد قضيناها ونحن كارهون.

حكمة من امرأة

روينا من حديث أحمد بن مروان قال : أنشدنا الحسين بن علي لامرأة من ولد حسان بن ثابت شعر:
سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل * فتى ذاق طعم العيش منذ قريب

خبر الخضر في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن قال : ثنا المبارك بن علي بن الحسين ، ثنا

عبيد الله بن محمد ، ثنا أحمد بن الحسين ، ثنا أبو سعيد الماليني ، ثنا أبو أحمد بن عديّ الحافظ ، ثنا محمد بن يوسف بن عاصم ، ثنا أحمد بن إسماعيل القرشي ، ثنا عبد الله بن نافع ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المسجد ، فسمع كلاما من زاوية ، فإذا هو قائل : اللهم أعنّي على ما ينجيني مما خوّفتني.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع ذلك : « ألا تضم إليها أختها ؟ » ، فقال الرجل: اللهم ارزقني شوق الصادقين إلى ما شوّقتهم إليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك وكان معه : « اذهب يا أنس إليه فقل له : يقول لك رسول الله : استغفر لي » . فجاءه أنس فبلّغه.
فقال الرجل : يا أنس ، أنت رسول رسول الله إليّ ؟ فقال : كما أنت ، فرجع واستثبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل له نعم. «
فقال له : اذهب فقل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلك على الأنبياء بمثل ما فضل به رمضان على الشهور ، وفضل أمّتك على الأمم بمثل ما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام . فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر عليه السلام.

موعظة منظومة
روينا من حديث أحمد بن محرز الهروي قال : وجد على ميل في طريق مكة مكتوب:
ألا يا طالب الدنيا * دع الدنيا لشانيكا
إلى كم تطلب الدنيا * وظلّ الميل يكفيكا
هذه الأبيات لبهلول المجنون ، وعظ بها أمير المؤمنين هارون الرشيد في طريق مكة ، لما حجّ راجلا من أجل يمينه ، فقعد يستريح في ظل الميل ، فرآه بهلول ، فأنشده الأبيات . وفيها من

الزيادة في غير هذه الرواية:
هب الدنيا تؤاتيكا * أليس الموت يأتيكا

ما ينبغي أن يكون عليه الخليل
روينا من حديث إبراهيم الحربي قال : نبّأ أبو نصر ، عن الأصمعي قال : قيل لخالد بن صفوان : أيّ الإخوان أحب إليك ؟ قال : الذي يغفر زللي ، ويسدّ خللي ، ويقبل عللي.

مكاتبة استلطاف

روينا من حديث ابن قتيبة قال : كتب رجل إلى صديق له : وجدت المودّة منقطعة ، ما كانت الحشمة منبسطة . وليس يزيل سلطان الحشمة إلا المؤانسة ، ولا تقع المؤانسة إلا بالبرّ والملاطفة.

إيقاظ وعبر واتّعاظ

روينا من حديث الحسن بن علي قال : أنشدنا محمد بن سلام لبعضهم:

نعي نفسي إلى مرّ الليالي * تصرّفهنّ حالا بعد حال
فما لي لست مشغولا بنفسي * وما لي لا أبالي الموت ما لي
لقد أيقنت أني غير باق * ولكني أراني ما أبالي
أما لي عبرة في ذكر قومي * تفانوا ربما خطروا ببالي
كأن ممرّضي قد قام يسعى * بنعشي بين أربعة عجال
ولو أني قنعت لكنت حرا * ولم أطلب مكاثرة بمالي
هب الدنيا تساق إليك عفوا * أليس مصير ذاك إلى زوال ؟
فما ترجو بشيء ليس يبقى * وشيكا ما تغيّره الليالي

ومن هذا الباب ما رويناه من حديث أحمد بن عباد قال : أنشدنا الرياشي:

حصنت بيتك جاهدا * ولعلّ غيرك صاحب البيت

وروينا من حديث محمد بن يونس ، عن الأصمعي قال : قيل للأحنف : إنك تطيل الصيام ، قال : إني أعدّه لسفر طويل.

تحريض على الدعاء وتحضيض

ومن روايتنا ما أنشده ابن قتيبة لبعضهم:

وإني لأدعو الله والأمر ضيّق * عليّ فما ينفكّ أن يتفرّجا
وربّ فتى سدّت عليه وجوهه * أصاب له في دعوة الله مخرجا

شروط الإيمان أخلاق حسان

حدثنا محمد بن قاسم ، نبأ هبة الله بن علي ، نبأ محمد بن بركات ، نبأ محمد بن

سلامة ، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر الصفار قال : انا أحمد بن إبراهيم بن جامع بن علي بن عبد العزيز ، نبأ الحجاج ، نبأ حمّاد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي بهدلة ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
»من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. «

إفساح لسان الزمان بما هو عليه الإنسان

وروينا من حديث ابن مروان أحمد المالكي ، قال : أنشدنا أبو صالح الهمداني لبعض الشعراء:
خذ من الدهر ما كفا * ومن العيش ما صفا
لا تلحّن بالبكا * ء على منزل عفا
خلّ عنك العتاب إن * خان ذو الودّ أو هفا
عين من لا يحبّ وص * لك تبدي لك الجفا

تصاريف الزمان وتقلّب الحدثان

روينا من حديث الحارث الرياشي ، عن الأصمعي قال : قال خال الفرزدق:
إذا ما الدّهر ذلّ على أناس * حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

إيمان وحسن عشرة إخوان

روينا من حديث عبيد بن مرداس ، نبأ سليمان بن حرب ، نبأ حمّاد بن زيد قال:
دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم فقال له : أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك ، فإن قضيتها حمدنا الله وشكرناك ، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك . قال : فأمر له بحاجته.

استعطاف كريم واستمالة لئيم

روينا من حديث إبراهيم الحربي قال : حدثني أبو نصر ، عن الأصمعي ، عن أبي

الأشهب قال : لزم بعض الحكماء باب كسرى في حاجة له دهرا ، فلم يصل إليه ، فتلطف بالحاجب في إيصال رقعة له ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر:
السطر الأول : الضرورة والأمل أقدماني عليك.
والثاني : العدم لا يكون معه صبر على المطالبة.
والثالث : الانصراف بلا فائدة شماتة الأعداء.
والرابع : فإما نعم مثمرة ، وإما لا مريحة.
فلما قرأه وقع في كل سطر بأربعة آلاف ، فأعطى ستة عشر ألفا من المثاقيل.

إفصاح بغالب الأحوال ممن يعد من الأبدال

روينا من حديث إبراهيم بن أبي أليسع الشيعي ، عن أحمد بن الحارث الخرّاز ، عن المدائني قال : قال الحسن ، يعني البصري : ما أعطى رجل شيئا من الدنيا إلا قيل خذه ، ومثله من الحرص.
ومن ذلك ما رويناه من حديث أحمد بن علي المقري قال : نبأ الأصمعي قال : العيال أرصنة المال.
وبالإسناد الأول وهو من باب التذكير ، قال الحسن : أشد الناس صراخا يوم القيامة رجل سنّ ضلالا فاتّبع عليه ، ورجل سيّئ الملكة ، ورجل فادع استعان بنعم الله على معاصيه.

حكمة بالغة

روينا من حديث إبراهيم بن حبيب ، حدثنا نعيم بن حماد ، نبأ ابن المبارك ، نبأ حبيب بن حجر قال : كان يقال : ما أحسن الإيمان بزينة العلم ، وأحسن العلم بزينة العمل ، وأحسن العمل بزينة الرفق ، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم.

تذكرة حكيم

روينا من حديث يوسف بن عبد الله ، عن سهل بن محمد ، عن الأصمعي ، عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن بكر المزني قال : جاء رجل فشتم الأحنف بن قيس ،

فسكت عنه ، فأعاد عليه وألحّ ، والأحنف ساكت . فقال : وا لهفاه ، ما يمنعه عن جوابي إلا هواني عليه ؟

ملاطفة وحلم

روينا من حديث محمد بن يونس ، نبأ الأصمعي قال : أسمع رجل الشعبي كلاما ، فقال له الشعبي : إن كنت صادقا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك.
ثم أنشأ يقول:
هنيئا مريئا غير داء مخامر * لعزّة من أعراضنا ما استحلت

نفس أبيّة

روينا من حديث أحمد بن موسى البصري ، عن أبي زيد ، عن الأصمعي ، عن أبي سفيان بن العلاء قال : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أوزن من حلمي ، وإذا قال : هذا خلق حقير ، فعفو الله أسمح وحلمه أرجح.
ومن هذا الباب ما رويناه من حديث محمد بن عبد العزيز ، عن ابن عائشة قال : ذكر أعرابي رجلا ، فقال : كان أحلم من فرخ طائر .
شعر:
إني لأعرض عن أشياء أسمعها * حتى يظن رجال أن بي حمقا
أخشى جواب سفيه لا حياء له * فسل يظنّ أناس أنه صدقا

ومن هذا الباب ما رويناه من حديث ابن مروان قال : نبأ أحمد بن داود ، عن الرياشي ، عن الأصمعي قال : بلغني أن رجلا قال لآخر : والله إن قلت لي واحدة لتسمعن عشرا . قال : لكنك لو قلت عشرا لم تسمع واحدة.

وأنشدني لبعض الشعراء أبو بكر بن خلف:
إذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من إجابته السكوت
سكتّ عن السفيه فظنّ أني * عييت عن الجواب وما عييت
ولكني اكتسيت بثوب حلم * وجنّبت السفاهة ما بقيت
ومن هذا الباب ما رويناه من حديث أحمد بن داود قال : نبّأ الرياشي قال : أنبأ الأصمعي قال : كان الأحنف بن قيس يقول : من لم يصبر على كلمة سمع كلمات ، وربّ غيظ قد تجرّعته مخافة ما هو أشدّ منه.

وأنشد لبعض الشعراء:
وإن الله ذو حلم ولكن * بقدر الحلم ينتقم الحليم
لقد ولّت بدولتك الليالي * وأنت ملعن فيها ذميم
وزالت لم يعش فيها كريم * ولا استغنى بثروتها عديم
فبعدا لا انقضاء له وسحقا * فغير حسابك الجدث العظيم

روينا من حديث جعفر بن شاكر ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبي إسحاق الأوزاعي ، أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه ، كراهة أن يعجل في أول غضبه . أرى ذلك ، والله أعلم في إقامة الحدود التي ليس له أن يعفو عنها ، والتعزيز الذي فيه المصلحة للناس . وأما فيما كان يرجع إليه ، فالعفو كان شيمته.
وأسمعه رجلا كلاما فقال : أردت أن يستفزني الشيطان فأتاك منك بما تناله أنت مني في يوم القيامة . انصرف عني عافاك الله.

خبر الشجرة التي سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإتيانها إليه
روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، عن سليمان بن أحمد ، نبأ محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، نبأ عبادة بن زياد الأسدي قال : حدثنا حبّان بن علي ، عن صالح بن حبان ، عن ابن يزيد ، عن أبيه قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أسلمت فأرني شيئا أزدد به يقينا . فقال : « ما الذي تريد ؟ » ، فقال : ادع تلك الشجرة فلتأتك . قال : « اذهب فادعها. «
فأتاها الأعرابي قال : فأجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فمالت على جانب من جوانبها قطعت عروقها ، ثم مالت على الجانب الآخر قطعت عروقها ، حتى أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : السلام عليك يا رسول الله.
فقال الأعرابي : حسبي حسبي . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجعي » ، فرجعت ، فجلست على عروقها وفروجها.
فقال الأعرابي : ائذن لي يا رسول الله أن أقبّل رأسك ورجليك ، ففعل . ثم قال : ائذن لي أن أسجد لك.
فقال : « لا يسجد أحد لأحد ، ولو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظيم حقه عليها. «

مرافقة المتّقين الأخيار في الأسفار
حدثنا عبد الرحمن بن علي ، نبأ عبد الوهاب الحافظ ، انا المبارك بن عبد الجبار ، نبأ علي بن أحمد الملطي ، نبأ ابن دوست ، نبأ ابن صفوان ، نبأ القرشي ، نبأ محمد بن الحسين ، حدثنا بعض أصحابي قال : جاءني بهيم العجلي فقال : تعلم لي رجلا من جيرانك وإخوانك يريد الحج ترضاه لمرافقتي ؟ قلت : نعم ، فذهبت به إلى رجل به صلاح ودين ، فجمعت بينهما ، وتواطآ على المرافقة ، ثم انطلق بهيم إلى أهله ، فلما كان بعد أتاني الرجل فقال : أريد أن تزوي عني صاحبك ، ويطلب رفيقا غيري . فقلت : ولم ؟ فو الله ما أعلم بالكوفة له نظيرا في حسن الأخلاق والاحتمال.

قال : حدثت أنه طويل البكاء لا يكاد يفترّ ، فهذا ينغّض علينا العيش . فقلت له : إنما يكون البكاء أحيانا عند التذكرة ، أو ما تبكي أنت ؟ قال : بلى . ولكنه بلغني أنه أمر عظيم من كثرة بكائه. قلت : اصحبه فلعلك أن تنتفع به . قال : أستخير الله . فلما كان اليوم الذي أرادا أن يخرجا فيه جيء بالإبل ، فوطئ لهما ، فجلس بهيم يبكي في ظل حائط ، فوضع يده تحت لحيته ، وجعلت دموعه تسيل على خدّيه ، ثم على لحيته ، ثم على صدره ، حتى والله رأيت دموعه على خدّيه ثم على الأرض . فقال لي صاحبي : يا مخول ، قد ابتدأ صاحبك ، ليس هذا لي برفيق.

فقلت له : ارفق لعله ذكر عياله ومفارقته إياهم . فسمعها بهيم فقال : يا أخي ، والله ما هو ذاك ، وما هو إلا أني ذكرت بها الرحلة إلى الآخرة ، وعلا صوته بالنحيب ، فقال لي صاحبي : ما هذا بأول عداوتك لي ، ما لي ولبهيم ؟ إنما كان ينبغي أن ترافقوا بين بهيم وبين داود الطائي وسلام أبي الأخوص ، حتى يبكي بعضهم إلى بعض فيستشفون أو يموتون.

فلم أزل أرفق به ، وأقول له : لعلها خير سفرة سافرتها ، وكل ذلك لا يعلم به بهيم ، ولو يعلم ما صاحبه ، فخرجا وحجّا ورجعا . فلما جئت أسلّم على جاري قال لي : جزاك الله عني يا أخي خيرا ، ما ظننت أن في هذا الخلق مثل أبي بكر ، كان والله يتفضل عليّ في النفقة وهو معدوم وأنا موسر ، وفي الخدمة وأنا شابّ وهو شيخ ، ويطبخ لي وأنا مفطر وهو صائم .
قلت : كيف كان أمرك معه في الذي تكرهه من طول البكاء ؟ قال : والله ألفت ذلك البكاء ، وسرّ قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذي بنا الرفقة ، ثم ألفوا ذلك ، فجعلوا إذا سمعونا نبكي يبكون ، وجعل بعضهم يقول لبعض : ما الذي جعلهم أولى بالبكاء منّا ، والمصير واحد ؟ فيبكون ونبكي . ثم خرجت من عنده وأتيت بهيما ، وقلت : كيف رأيت

صاحبك ؟ قال : خير صاحب ، كثير الذكر لله عز وجل ، طويل التلاوة ، سريع الدمعة ، جزاك الله عني خيرا.

شوق وانزعاج عند وداع الحاج

حدثنا أبو الثنا محمود بن المظفر اللبان ، عن محمد بن نصر ، نبأ الحميدي ، نبأ أبو بكر ، عن السلميّ ، قال بعضهم : خرجت أم أيمن ببنت عليّ امرأة أبي علي الروذباريّ من مصر ، لما برز الحجاج إلى الصحراء ، فكانت الجمال تمرّ بها وهي تبكي وتقول:

وا ضعفاه ، وتنشد على أثر قولها:
فقلت دعوني وأتباعي ركابكم * أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد
وما بال عني لا يهون عليهم * وقد علموا أن ليس لي منهم بدّ
وتقول : هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت ، فكيف حسرة من انقطع عن رب البيت ؟

ولمهيار الديلمي في الاشتياق:
وما اتّبعت ظعن الحيّ طرفي * لأغنم نظرة فتكون زادي
ولكني بعثت بلحظ عيني * وراء الركب يسأل عن فؤادي

وله أيضا:
سل أبرق الحنان وأحسن به * أين لياليتا على الأبرق
وكيف بانات بسقط اللوى * ما لم يجدها الدمع لم تورق
هل حملت لا حملت بعدنا * عنك الصبا عرفا لمستنشق
أغناك صوب الدمع عن منة * أحملها للمرعد المبرق
دمعي على الخيف جنى ما جنى * بكاء حسّان على جلّق
لله دهر لك يوم النّقى * لولا وفاء الحب لم يعلق
يا سائق الأظعان رفقا وإن * لم يغن قولي للعسوف أرفق
لولا زفيري خلف أجمالهم * وحرّ أنفاسي لم تنسق
لا تبردوا بالعدل قلبي فما * استنجد الدمع على محرق
سمّيت لي نجدا على بعدها * يا وله المشأم بالمعرق
داو بها حبي فها مهجتي * أول مجنون بنجد رقي

وفي المعنى لبعضهم:

يا سائق العيس ترفّق واستمع * مني وبلّغ إن وصلت عني
وقف بأكناف الحجاز ناشدا * قلبي فقد ضاع الغداة مني
وقل إذا وصلت نحو أرضهم * ذاك الأسير موثق بالحزن
عرّض بذكري عندهم عساهم * إن سمعوك سائلوك عني
قل ذلك المحبوس عن قصدكم * معذّب القلب بكل فنّ
أقول قد أمّلت أن أزوركم * في جملة الوفد فخاب ظني
أقعد في الجدلان عن قصدكم * ورمت أن أسعى فلم يدعني

ومن وقائع بعض الفقراء
ما حدثنا به عبد الله ابن الأستاذ المروزي ، قال : رأى بعض المريدين في الواقعة شيخنا أبا مدين وجملة من الصوفية قد أحدقوا به ، فقال بعضهم لأبي مدين : ما معنى سر السر وحقيقة الحقيقة ؟ فقال : هو محل الأسرار ، وعند حقيقته عجزت الأوهام والأفكار ، وطاشت عقول ذوي الأبصار ، إذ العقول لا تعدو طورها ، ولا تعرف حدها ، جهل ذلك من جهله ، وعلمه من علمه ، فلا يدرك الحق إلا الحق ، ولا يعرف الحق إلا بالحق . فهذه خلقي وخليقتي ، وعلى هذا انطوت حقيقتي . فالتشوّق إلى هذا مما لا يدرك ، والخوض فيه واجب أن يترك.

فقال له السائل : أسألك عن التوحيد ما هو ؟ فقال : التوحيد همتي ، وهو شريعتي وسنّتي .
التوحيد هو الغاية القصوى ، والملجأ والمأوى . هو الأساس الذي قام به الوجود ، وعليه فترة كل مولود . لكن الناس فيه على مراتب ، فمنهم القريب ، ومنهم الصاحب.
فالرتبة العليا هي الترقّي من الأسماء والصفات إلى توحيد الذات . هناك أفنيت عمري ، وأتعبت خاطري وفكري ، إلى أن نلت منه المعنى ، ولاحظت ذاك الجمال الأسنى . وذلك بمنّ الله سبحانه ابتداء وانتهاء ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها .
ثم قال:
عمرت سرّي بك فأحييتني ، ومما سواك أبعدتني ، وبك عن الكونين أثنيتني ، وبالفضل منك ألهمتني . فأنا الفقير وأنت الغني .
ثم قال للسائل : اسمع مخلوقاته بعزّ كبريائه مذلولة ، والأشياء كلها من العرش إلى الثرى معلولة ، إذ هو سبحانه مذلّها بالقهر ، وقاهرها بالأمر ، ومصرّفها بقدرته فيما نفع وضرّ . قدرته في الثرى كقدرته في العرش والسماء ، وهو معكم أينما كنتم . أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . على العرش استوى ، وهو خالق العرش والثرى وما

بينهما . فالكل قائم به ، وممسوك بقدرته ولطفه . وما من ذرّة فما فوقها إلا وهو معها ، معية ليست بحلول وانتقال ، ولا تغيّر ولا زوال ، فالمخلوقات بأسرها ظل ، وهو سبحانه وتعالى حقيقة الكل.

ومن باب محاسن الكلام

ما قال الفضل بن سهل للمأمون ، وقد سأله حاجة لبعض بيوتات سمرقند ، وكان وعده تعجيل نفاذها ، فتأخر عن ذلك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، هب لوعدك مذكرا من نفسك ، وهب سائلك حلاوة نعمتك ، واجعل ميلك إلى ذلك في الكرم ، وحاشا على اصطفاء شكر الطالبين ، تشهد لك القلوب بحقائق الكرم ، والألسن بنهاية الجود.

فقال المأمون : قد جعلت إليك إجابة سؤالي عني بما ترى فيهم ، وأخذك بالتقصير فيما يلزم لهم من غير استئمار ولا معاودة.

وقال الفضل بن سهل للمأمون : يا أمير المؤمنين ، اجعل نعمتك صائنة لوجوه خدمك عن إراقة مائها في غضاضة السؤال.

فقال المأمون : والله لا كان ذلك إلا كذلك.

وصية بخلق كريم

روينا من حديث ابن مروان قال : أنشدنا المبرّد:

إذا اعتذر الصديق إليك يوما * من التقصير عذر أخ مقر

فصنه عن عتابك واعف عنه * فإن العفو سيمة كل حرّ

حدثنا يونس بن يحيى ، نبأ محمد بن ناصر ، عن الحسن بن أحمد ، عن محمد بن أحمد ، عن محمد الورّاق ، عن خالد بن محمد ، عن محمد بن علي ، عن بشر بن الحارث قال : رأيت على جبل عرفة رجلا قد حكم عليه الوله وهو يقول:

سبحان من لو سجدنا بالعيون له * على سنا الشوك والمحمى من الإبر

لم نبلغ العشر من مشعار نعمته * ولا العشير ولا عشر من العشر

هو الرفيع فلا الأبصار تدركه * سبحانه من مليك نافذ القدر

سبحان من هو أنسي إذ خلوت به * في جوف ليلي وفي الظلما وفي السحر

أنت الحبيب وأنت الحب يا أملي * من لي سواك ومن أرجوه يا ذخري

ومن باب من عمل من حيث العبودية

حدثنا عبد الواحد بن إسماعيل ، نبأ عمر بن عبد المجيد ، قال : أبو الحسن بن شمعون الواعظ قال : وصف لي رجل من العباد فسرت إليه ، فرأيت من فضله ما ملأ عيني وسمعي وقلبي ، فبتّ متعجبا من أمره ، فرأيت في النوم كأن القيامة قد قامت ، وكأن الناس يحاسبون ، فيؤمر بقوم إلى الجنة وبقوم إلى النار ، فنودي بالشيخ فأمر به إلى النار .

فرأيت ذلك ثلاث ليال متوالية ، فعرّفت الشيخ بذلك ، فقلت له : خفّف يرحمك الله من تعبك ، واقصر من تعبّدك . فنظر إليّ وقال لي : يا ابن شمعون ، هذا وأنت واعظ العارفين ، تأمرني أن أخفف من خدمة مولاي لما رأيت أني من أهل النار . إنما أنا عبد من جملة عبيده إن شاء نعّمني وإن شاء عذّبني . أمرني فامتثلت ، ونهاني فانتهيت ، فأمري بعد ذلك مصروف إليه.

فانصرفت من عنده ، وقد عظم تعجّبي من أمره . فلما كان الليل رأيت المنام بعينه ، فنودي بالشيخ وبين عينيه مكتوب بالنور يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ثم أمر به إلى الجنة . فبكرت إلى الشيخ مبشّرا له ، فقال : يا ابن شمعون ، إنما أدّبت بما رأيت لتعلم أن لله عبيدا لا يقطعهم عن خدمته عذاب ولا نعيم.

شعر

سبحان من ذكره عزّ لذاكره * وإن تحقّل في الأقوال واجتهدا
لم يتخذ سكنا في قدم عزّته * ولم يلده أب حقا ولا ولدا
ولا استعان بشيء في حقيقته * ولم يزل بعظيم العزّ منفردا
لا يبلغ الخلق من تعظيمه طرفا * ولو أقاموا على تعظيمه أبدا
سبحانه وتعالى في جلالته * هو المهيمن لا أشرك به أحدا

حكمة

روينا من حديث ابن مروان ، عن الحربي ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن الحسن بن أبي جعفر قال : قال أكثم بن صيفي : الإفراط في الأنس مكسب.
ومن حديثه ، عن يوسف بن عبد الله الحلواني ، عن عثمان بن الهيثم ، عن أبيه قال:
قال بزرجمهر الحكيم : احذروا أسطورة الكريم إذا شبع وصولة اللئيم إذا جاع . وبه قال أيضا : ارهب تحذر ، وأنعم تشكر ، ولا تمزح فتحقر.

خبر مناة

روينا من حديث أبي الوليد ، عن جده أحمد بن محمد ، عن سعيد بن سالم القداح ، عن عثمان بن ساج ، عن محمد بن إسحاق ، أن عمر بن لحيّ نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديد ، وهي التي كانت الأزود وغسان يحجّونها ويعظّمونها ، فإذا طافوا بالبيت ، وأفاضوا من عرفات ، وفرغوا من منى لم يحلّوا إلا عند مناة ، وكانوا يهلّون لها ، ومن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير ، وكان هذا الحيّ من الأنصار يهلّون لمناة ، وكانوا إذا أهلّوا بحجّ أو عمرة لم يظلّ أحدهم سقف بيت حتى يفرغ من حجّه أو عمرته . وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته ، وإن كان له فيه حاجة تسوّر من ظهر بيته لا يحز رتاج الباب رأسه . فلما جاء الله بالإسلام وهدم أمر الجاهلية أنزل الله عز وجل في ذلك : وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها.
وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ، ومن كان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام .
ومناة صخرة لهذيل.

موعظة

حدثنا محمد بن محمد ، نبأ الحريري ، نبأ أبو بكر الخياط ، نبأ ابن دوست ، نبأ ابن صفوان ، عن أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي جعفر مولى بني هاشم ، عن عمرو بن الحصين ، عن يحيى بن العلاء ، عن زيد العمي قال : شهدت جنازة هشام بن عبد الملك فسمعت كاتبه يقول:
وما سالم عما قليل بسالم * ولو كثرت أحراسه وكتائبه
ومن يك ذا باب شديد وحجب * فعما قليل يهجر الباب حاجبه
وتصبح بعد الحجب للناس عبرة * رهينة بيت لم تسيّر جوانبه
فما كان إلا الدفن حتى تحوّلت * إلى غيره أجناده ومواكبه
وأصبح مسرورا به كل كاشح * وأسلمه جيرانه وأقاربه

ووقف الفضل الرقاشي على المقبرة فقال:
يا أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة ، التي نطق بالخراب فناؤها ، وشيّد بالتراب بناؤها ، فمحلّها مقترب ، وساكنها مغترب ، لا يتواصلون تواصل الإخوان ، ولا يتزاورون

تزاور الجيران ، قد طحنهم بكلكله البلا ، وأكلهم الجندل والثرى . عليكم منّا سلام.
وأنشد:
سلام على أهل القبور الدوارس * كأنكم لم تجلسوا في المجالس
ولم تشربوا من بارد الماء شربة * ولم تأكلوا ما بين رطب ويابس
ألا خبّروني أين قبر ذليلكم * وقبر العزيز الباذخ المتشاوس

ورأيت على قبر باذخ لسيده مكتوبا شعر:
أرى أهل القبور إذا توافوا * بنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرا * على الفقراء حتى في القبور
لعمر أبيهم لو أبرزوهم * لما علموا الغنيّ من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالي * ولا عرفوا الإناث من الذكور
ولا البدن الملبس ثوب صوف * ولا البدن المنعّم في الحرير
إذا ما مات هذا ثم هذا * فما فضل الغنيّ على الفقير
وقام الحسن على قبر فقال : إن امرأ هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله ، وإن امرأ هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره.

شعر
تناجيك أجداث وهنّ صموت * وأجسامهم تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة * لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ما يقول القبر في كل يوم وليلة
حدثنا المكين بن رستم إمام مقام إبراهيم عليه السلام ، عن الكرخيّ ، عن العورجيّ ، عن المحبوبي ، عن أبي عيسى الترمذي ، نبأ محمد بن أحمد ، وهو ابن مدوية ، نبأ القاسم بن الحكم العرقيّ ، نبأ عبيد الله ، قال ابن الوليد الوضافي ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلّاه ، فرأى أناسا كأنهم يكتشرون فقال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا ذكر هادم اللذات ، الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا ، إنك كنت لأحب من يمشي على ظهري إليّ ، فإذا وليتك اليوم وصرت إليّ فسترى صنيعي بك ، فيتسع مدّ بصره ، ويفتح

له باب إلى الجنة . وإذا دفن العبد الفاجر الكافر قال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا ، أما إنك كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليّ ، فإن أوليتك اليوم وصرت إليّ فسترى صنيعي بك » . قال : « فيلتئم عليه حتى يلتقي وتختلف أضلاعه. «
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بأصابعه » ، فأدخل بعضها في جوف بعض ، قال : « ويقبض له تسعون تنينا ، لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا ، فتنهشه وتخدشه حتى يقضى به إلى الحساب. «
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار. «

وأنشد بعضهم:
كأني بأصحابي على حافتيّ قبري * يهيلون من فوقي وأعينهم تجري
ستنسون أيامي إذا ما رجعتم * وغادرتموني رهن دورية قفري
ألا أيها المذري عليّ دموعه * ستقصر في يومين عني وعن ذكري
عفا الله عني حين أصبح ثاويا * أزار فلا أدري وأجفى فلا أدري

قال عبيد الله بن عمير : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة ، فإن كنت في حياتك لله مطيعا كنت اليوم عليك رحمة ، وإن كنت لربك في حياتك عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا بيت الذي من دخلني مطيعا خرج مني مسرورا ، ومن دخلني عاصيا خرج مني مثبورا.
وخرج عطاء السلميّ إلى المقبرة ذات ليلة ، فلما توسطها نادى بأعلى صوته:
أهل المقابر قد تساوى بينكم * أين الوضيع من الكريم السيد
أين الملوك بني الملوك وأين من * قد كان في الدنيا قليل المحفد
أين الحسان ذوو النضارة والنهى * أين المليح من القبيح الأسود
أين الذين تجبّروا وتعظّموا * وعتوا عتوّا لم يكن بالمرشد

فأجابه من قبر مجيب ينشد شعرا:
إن المنيّة عاصفتهم بغتة * فهم خمود جوف قبر ملحد
قد دبّت الديدان في أجسامهم * وسعت هوام الأرض في الوجه الندي
كم من وجوه قد تناثر لحمها * ومفاصل بانت وبان من اليد
بات بعض الصالحين المنقطعين من أهل الخلوات في المقابر ليلة ، فبينما هو يفكر في شأنها إذ هتف به هاتف ينشد:

وقف بالقصور على دخلة * حزينا وقل أين أربابها
وأين الملوك ولاة العهود * رقاة المنابر غلّابها
تجيبك آثارهم عنهم * إليك فقد مات أصحابها

الدخلة بالضم : باطن الأمر . يقال : هو عالم بدخلته أي بباطن أمره . انتهى.
رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك
كتب بعض أدباء المغرب إلى بعض إخوانه بمكة:
أخي الأعز الأكرم الأفضل ، الأبرّ الأوفى الأوصل ، الذي أستوحش لفراقه ، أذوب أسى وكمدا إن لم أجتمع به في تلك المشاهد الكريمة ، وإلا قد بلغك الله المنى ، وأحلك عن قريب بعرفات ومنى . رسمته إليك من فاس والأشواق بعدك تصعد الأنفاس ، فإلى الله الكريم أشكو بينك ، وإليه سبحانه أتوسل وله أسأل أن يجمع بحرمه الكريم آخرا كما جمع أولا بيني وبينك.
فلقد فارقت وودّعت ، وأودعت الجوانح من تباريح الشوق ما أودعت ، وفطرت الأفئدة بحسب مقصدك المبارك المحرس وصعدت فيسرّ الله إلى تلك المثابة الأمنية عودة وصولك ، وبلغك من لقائها غاية سؤلك ، وسنى في ذلك الحرم الشريف المنيف بغية حصولك ، وأجرى فلكك بريح السلامة حين ينتهي إن شاء الله عن كل ولي من أولئك إلى تلك المشاهد المعظمة ، والمعاهد المكرّمة ، تحيته العاطرة وسلامه ، وتذكرة عند مباشرتك تقبيل الحجر الأسود واستلامه ، بحول الله عز وجل ، فإذا بدأت على بركة الله تعالى بأول المناسك ، فاشعر نفسك لبؤس المحبة أيها الناسك ، ومن أي مواقيت الحج أحرمت ،
وقد أشعلت بعد الاغتسال نار شوق الوقادة في قلبك وأضرمت ، فاغتبط أيها الوافد على حرم الله تعالى فقد استكرمت ، فارفع صوتك بالإهلال ، ملبيا دعوة ذي الجلال ، حتى إذا شارفت مكة الغرّاء ، وأن تجتلي في منصتها العروس الزهراء ،
فادخل على اسم الله وسنّة نبيه من باب بني شيبة ، وقل اللهم صن من لفح نارك هذه الشيبة ، فإذا اكتحلت عيناك بسناء الكعبة البيت الحرام وذهلت ، فهناك استهونت كل مشقة لقيتها في طريقك ، واستسهلت ودنوت حتى وقفت خلف الحجر الأسود ، وجعلته على يسارك وكبّرت ، وقبّلت حيث قبّل المصطفى صلى الله عليه وسلم واستعبرت ، وأخذت في الأشواط الثلاثة بالرمل ، وقد أيقنت ببلوغ أقصى الأمل.

ثم أكملت بالسعي مأمولك بقية أسبوعك ، فحينئذ تجد برد السلوة عن أوطانك

وربوعك ، ثم اركع ركعتي الطواف خلف المقام ، وادع لمن بعدك بالمقام ، وتعلق بالأستار داعيا عند الملتزم ، وتضلع عند شربك من ماء زمزم ، وانو فيه نيّة من أخلص لله عمله ، فماء زمزم لما شرب له ، ثم اجعل خروجك على باب الصفا والمروة ، وقف على درجاتها ، وادع بخلاص نفسك ونجاتها ، ثم انحدر في وادي إبراهيم عليه السلام ، فإذا بلغت الميل الأخضر فخذ في الرمل أخذ المجد إذا أحضر ، فإذا أتممت السعي فبادر بالحلاق ، وتجنب التقصير ، فللمحلقين وجبت الدعوة النبوية وجوب استحقاق ، فإن لم تكن معرفا فأخرج متى شئت للتنعيم ، واحرم من مسجد عائشة رضي الله عنها بعمرة ، وقل : طوبى لمن أفنى في هذه الأحوال السنيّة ، والمشاعر المرضية ، عمرة ، ولازم الحجر الكريم ، وقف داعيا تحت ميزابه ، وتذكر إخوانك بالدعاء ، وكلما أسلفت من خير تجزى به ، وصلّ على الرخامتين الخضراوين فهما علامتا قبري إسماعيل وأمه هاجر ، وقل : الحمد لله الذي جعلني ممن انقطع إلى حرمه المعظم وهاجر ، وإذا فتح باب الكعبة المعظمة المكرّمة فكن فيها أول داخل ، وأول خارج ، وهنئ قدميك تربيهما في تلك المدارج وتوخّ مصلى النبي صلى الله عليه وسلم متوسلا إلى الله ذي المعارج ، واستدع معاينة المقام الكريم عند باب الرحمة ، وقيل فيه ، واشرب ماء زمزم في أثر القدمين المباركين ، فطوبى لمن باشرهما بغية.

وفي أثناء مقامك تعهد المعاهد الشريفة والآثار ، وحرّك فيها شوقك المثار ، وزر المولد المقدّس المبارك ، واجعل فيه نظرك واعتبارك ، والمم بدار الخيزران وسائر تلك المنازل الشريفة والمواطن.

وصل بما أمكنك من الصدقة كل ثاو فيها وقاطن ، وزر القبور الطاهرة بالمعلّى ، واعل على جبل أبي قبيس وقيقعان ، فحقّ أن يشرف عليهما ويعلى . واقصد جبل حراء ، واصعد في ذروته ، ففيه رأى النبي صلى الله عليه وسلم أول علامات نبوّته . وارقأ جبل ثور ، ولج الغار ، وتذكر ثاني اثنين إذ هما فيه ، فنفس كل جبل عليه وغار . حتى إذا ظلّ شهر ذي الحجة ، وأحرم وفود الله لهلاله ، وبدا كل واحد بإهلاله ، وارتفعت بالتلبية الأصوات في أعقاب الصلوات ، وأقاموا على التلبية ، متأهبين ليوم التروية ، فيا لك من يوم تسابق فيه إلى منى بالصعود ، واستبشروا بمطالع السعود . فتعدّوا منى إلى عرفات ، موقنين برحمة الله عز وجل ومنازل الآمن في الغرفات ، مرتفعين عن بطن عرفة ، علما بأن من وقف فيه فقد ذهب حجه عامه ذلك وفات . ثم أصبحوا يوم عرفة وقد جلّلت الأرض فساطيط أهل العراق ، وسائر الآفاق ، كأنها قطع أزهار ذات ألوان ، صنوان وغير صنوان ، تخال البسيطة منها في بستان . فارتقوا جبل الرحمة ، ثم نزلوا إلى دار آدم يسألون ربهم المغفرة والرحمة . وفي أثناء ذلك ابتاعوا قرابينهم المتقبّلة ليأكلوا منها ، ويجعلوا بقاياها على البائس الفقير مسبلة ،

فإذا اغتسلوا وتطهروا للجمع بين الظهر والعصر في مسجد إبراهيم ، فهم أيها الأخ الأكرم في تلك المسالك المباركة وجدا وشوقا فحقّ أن تهيم . وهنالك لا تنس أخاك ، وحاشاك أن تنساه ، وواسه بدعوة ، فمثلك من واساه.

ثم اجتمعوا مع العشي بإزاء موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند الصخرات ، وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير والتلبية الأصوات ، وأسيلت العبرات ، وصعدت الزفرات ، وأثيرت بازدحام الركائب الغبرات ، وقد واجهوا الكعبة المقدسة واستقبلوها ، ورجوا الرحمة من الله عز وجل وأملوها ، واقفين شعثا غبرا ، لا يرى منهم إلا ذو مقلة عبرا ، يتذكرون بذلك الموقف العظيم موقف الحشر فما يستطيعون صبرا ، باسطو أيديهم لمولاهم الكريم الكفيل بارتقابهم ، يتضرعون إليه في فكاك رقابهم ، وحط أوزارهم التي حملوها باحتقابهم ، يباهي بهم الله عز وجل ملائكة السماء.

ويقول : اشهدوا بأني قد رحمتهم فأنا أرحم الرحماء.

وقد غصّت بذلك الجمع الأرض الأريضة ، والشمس تجنح للغروب مريضة ، حتى إذا وجبت ، حلت الإفاضة ووجبت ، فوصلوا مع الليل جمعا ، وقرنوا به بين المغرب والعشاء جمعا ، ومسجده المبارك قد استنار مشاعل وشمعا ، ولكثرة الضجيج والعجيج لا يستطيع أحد سمعا ، ولا تملك العيون دمعا ، وباتوا يتلفظون ويكسرون حصا الجمار ، وكلّ مسرور بسميره تلك الليلة ، فيا شرف تلك الأسمار ، وعند الأسفار وقفوا داعين ، ثم أفاضوا إلى منى مسرعين ، وأجازوا وادي محسّر بالنّظّ والرّمل ، فائزين من الله عز وجل بالصنع الأجمل ، مقتدين بما ورد في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمل ، فرموا جمرة العقبة المحللة ، ونفوسهم منبهجة متهللة ، ثم انقلبوا للحلاق ، والتقرب بالدم المهراق ، إلى المهيمن الخلاق ، وبعد ذلك ساروا الطواف الإفاضة ، لابسين من التقوى خير مفاضة ، ثم عادوا محلّين قد أتموا الحج ، وقضوا الثجّ والعجّ ، وأقاموا متنعمين أيام منى بالأكل والشرب ، وكل منهم قد أصبح آمن السّرب ، يرمون في كل يوم في محصّب الجمار الثلاث إحدى وعشرين جمرة ، والشوق يلهب في أحشائهم جمرة ، وأكثر الناس مع ذلك في بيعهم وشرائهم في غمرة ، وأهل الانقطاع إلى الله ، وتجار الآخرة في مسجد الخيف مقيلهم ، وذكر الله قيلهم ، يسألون ربهم الإقالة ، والرب بكرمه يقيلهم ، مثابرين على التهليل والتسبيح ، ظافرين بالمتجر الرّبيح ، ملمّين بزيارة موضع الذّبيح ، ثم تعجّلوا في يومين بالنفر ، فهنيئا لك أيها الأخ الكريم كونك في أولئك السفر ، فإذا تأهبت للزيارة الطيبة ، وطفت طواف الوداع ، فاستودع الله دينك وأمانتك ، فهو أهل الإيداع ، وسر على بركة الله ،

فإذا اجتزت بقبر أم المؤمنين ميمونة بسرف ، فامسك عنانك وقف ، واسكب دمعك فيه رحمة واذرف ، ففي ذلك الموضع كاتبها ، وابتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وفيه قضيت وفاتها ، ومنه تجيء زمرتها الطاهرة ورفاتها ، ثم عج في طريقك على خيمة أم معبد ، فقد حازت بحلول الرفيقين الكريمين فيها شرف الذكر آخر الأبد.
وإذا جئت بدرا فحيّ شهداءه بالسلام ، فهو أول مشهد نصر الله فيه الإسلام ، حتى إذا بدت لك أعلام المدينة ، فأبشر باحتلالك البلد الذي أظهر الله فيه دينه ، فإذا مررت بمسجد ذي الخليفة فعرّج عليه ولا تعرج عنه ، وحيّه بركعتين فهو المسجد المبارك الذي أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، حتى إذا جزت وادي العقيق فهنالك انزل وامش كرامة لمن حل في ذلك المنزل ، وادخل على اسم الله ، وعليك الوقار والسكينة ، واكس الخضوع والخشوع نفسك المسكينة ، فإذا دخلت مسجد الشفيع الرفيع فاقصد بعد ركعتي التحية روضة سيد دار السلام بالسلام ، وأمثل قبالة وجهه الكريم ، وحيّه صلى الله عليه وسلم بأفضل التسليم ، والزم هنالك أدب التوقير والتعظيم ، وقف ، وإياك أن تلمس الجدار وتلثم ، فقد نهى عن ذلك ، ولعلّ فاعله أن يأثم ، وسلم على الصديق ، والفاروق ، وزيريه وصاحبيه ، وقم كالمسين بين الكريمتين يديه ، فغدا ترجو الشفاعة لديه ، وإنه سلام أولئك إليه صلى الله عليه وسلم ، وحافظ على الصلاة بين قبره ومنبره عليه السلام ، فبينهما روضة من رياض الجنة ، وألمس الدرجة المباركة الباقية من المنبر الكريم موقف القدمين المقدّستين ، واتخذ التبرّك بلمسها جنة ، وطف على تلك المنازل الكريمة والديار ، واستقر مواطن البررة الأخيار ، وزر قبور أمهات المؤمنين وروضة العباس والحسن رضوان الله عليهم أجمعين ببقيع الفرقد ، وإن أضرم الوجد عليهم نار الحزن بين جوانحك وأوقد ، وحدّث نفسك باللحاق السريع بهم فكان قد عرّج في آخر البقيع على روضة ذي النورين عثمان بن عفان ، ومل إلى روضة فاطمة بنت أسد أم علي السابق إلى الإيمان ، ولا تنس عن يسارك إذا خرجت على باب البقيع قبر العمة الطاهرة صفية ، أم الزبير الذي كان حواري الرسول صلى الله عليه وسلم وصفية ، وامش إلى قباء مظهر الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء ، وزر بأحد عم المصطفى حمزة والشهداء ، فإذا أذن بالارتحال ، فأمل أن تجمع في الزيارة بين المساجد الثلاثة التي لا تشدّ إلا إليها الرحال ، مؤثرا سلوك المحجة البيضاء من السنّة ، ملتمسا بركة الحديث المأثور : « من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة » ، والضامن ملي ، وهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين ولي ، فاعمل ركابك إلى المسجد الأقصى ، واستقصي الطواف بجميع آثاره المقدسة ، فمثلك من استقصى ، وإن استطعت الإحرام منه أولا ، فهو أفضل عمل صالح يدّخر ، وقد ورد فيه حديث بمغفرة ما تقدم من الذنب وما تأخر ، حيث اختص المصطفى صلى الله عليه وسلم بالإسراء ، وعرج

به إلى السماء ، بعد أن صلى فيه بجميع الأنبياء ، وتبرّك بالصخرة المقدسة ، فمنها كان معراج سيد البشر ، وصلي خلفها ، فهي المكان القريب الذي ينادي المنادي منه للمنشر والمحشر ،
وادخل قبة السلسلة واركع فيها ، وادع لنفسك ونفوس إخوانك بتداركها بالتوبة وتلافيها ، وصلّ في محراب زكريا ، وإياك والرياء ، وفي محراب مريم حيث دخل عليها فوجد الرزق من الله لديها ، وأرق في محراب داود حيث كان تسوّر الخصم ، وصلّ فيه متوسلا إلى الله بشرف ذلك الاسم ، وواصل بالزيارة مبدئا لها ومعيدا ، موضع نزول المائدة التي كانت لبني إسرائيل آية وعيدا ، وأسمعوا على الكفر بعد نزولها وعيدا ،
ولا تمش في جميع تلك الأرض المقدسة إلا بانكسار واستحياء ، فإنك لا تخطو فيها خطوة إلا على مواطئ أقدام الأنبياء ، ولا تنس أن تتطهر في عين سلوان ، واذكر فيه من لم يحدّث نفسه عنك بسلوان ، ثم أخذت للخليل في الرحيل ، فابدأ في أول طريقك بقبر راحيل ، ثم بمولد المسيح ، وموضع مهده ،
وسل من الله قبول مساعيك ، واستعنه واستهده ، واعطف على موضع جذع النخلة الذي هزّت به مريم فأسقط عليها رطبا جنيّا فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، ثم المم في طريقك ، وحق لك الإلمام ، بقبر يونس ولوط عليهما السلام ، فإذا انتهيت إلى قبر الخليل ، وقبر إسحاق ويعقوب ، وقد حننت إليهم حنين الرقوب ، فهنالك تقبّل مزارك ، وتحط إن شاء الله أوزارك ، وخارج ذلك الحرم الخليلي على ما يذكر قبر يوسف الصديق ، والله أعلم بالتحقيق ،
فإذا قضيت بحول الله عز وجل وقوته من زيارة جميع تلك الآثار المقدسة إربك ، فلا تذكر بعدها مغربك ، فقد منّ الله عليك بتجديد عهد الوفادة عليها ، والنظر إليها ، وما ذكرتها لك على هذا النسق إلا تبرّكا بذكراها ، وتشوّقا للعودة الثالثة عسى نجدد العهد الكريم بها وأراها ، واستطابة للحديث معك فيها لأنك تعرف بالمعاينة معناها ، وليس من درى حقيقة الشيء كمن لا يدريه ،
وأين شوق آدم للجنة من شوق بنيه ؟
فعد إلى حرم الله العظيم ، وألق فيه عصا تسيارك ، وقر عينا بمآل اختيارك ، وأقم بقية عمرك فيه مستوطنا ، والنية الصادقة الخالصة لله عز وجل مستبطنا ، وقل رب تركت من إخواني عبيدا مشتاقين للعودة إلى حرمك ، متوسلين إليك في ذلك بفضلك وكرمك ، فسهّل بعزّتك وقدرتك مرامهم ، وسكّن بالوصول إلى كعبتك المقدسة المشرّفة غرامهم ،
وعرّفهم معاهدهم الكريمة بعرفات ، والمشعر الحرام ،
وشرّفهم بالمثول فيها قبل أن تقضي على مدتهم بالانصرام ،
وتفجأ أعمارهم قواطع الاخترام ، إنك سبحانك مولى المنن الجسام ، ومقدّر الحظوظ السنيّة لعباده والأقسام ، واقرأ عليك أيها الأخ الأسنى ، المختوم له إن شاء الله بالحسنى ، سلاما أعطر من الزهر عند الابتسام ، يتلقاه مسك دارين بالتنشق والابتسام ، ورحمة الله وبركاته.

وصية نبوية

روينا من حديث الهاشمي فيما يرويه من حديث أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل يوصيه:
»أقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر ، وأقلل من الذنوب يسهل عليك الموت ، وقدم مالك أمامك يسرّك اللحاق به ، واقنع بما أوتيته يخف عليك الحساب ، ولا تتشاغل عما فرض عليك بما قد ضمن لك ، إنه ليس بفنائك ما قسم لك ، ولست بلاحق ما زوي عنك ، فلا تك جاهدا فيما يصبح نافدا ، واسع لملك لا زوال له في منزل لا انتقال عنه. «

ومن حديثه أيضا عن ابن عباس قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما سكن حبّ الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث : شغل لا ينفك عناه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه . إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه . ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها على فانية لا ينفد عذابها ، وقدم لما يقدم عليه فيما هو الآن في يديه ، قبل أن يخلفه لمن سعد بإنفاقه ، وقد شقي هو بجمعه واحتكاره. «
روينا من حديث محمد بن العماد قال : كنا يوما عند إسحاق بن نجيح ، وعنده جارية يقال لها شادن ، موصوفة بجودة ضرب العود ، وشجو صوت ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه.

فأخذت العود وغنّت:
ظبيّ تكامل في نهاية حسنه * فزها ببهجته وتاه بصده
والشمس تطلع من فرند جبينه * والبدر يغرب في شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما * حسن البرية كلها من عنده
يا رب هب لي وصله وبقاءه * أبدا فلست بعائش من بعده

فطارت عقولنا وذهبت ألبابنا من حسن غنائها وظرفها ، فقلت : يا سيدتي ، من هذا الذي تكامل في الحسن والنّهى سواك ؟ فقالت:
فإن بحت نالتني عيون كثيرة * وأضعف عن كتمانه حين أكتم
يحكى عن الخنساء أنها دخلت على عائشة وعليها صدار من شعر ، فقالت لها عائشة رضي الله عنها : أتتخذين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أم المؤمنين ، إن

زوجي كان متلافا منفقا ، فقال لي : لو أتيت معاوية فاستعنت به ، فخرجت ، فلقيني صخر ، فأخبرته ، فشاطرني ماله ثلاث مرت ، فقالت امرأته : لو أعطيتها من شرارها يعني الإبل ، فقال:
والله لو أمنحها شرارها * وهي حصان قد كفتني عارها
وإن هلكت مزّقت خمارها * واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ونذرت أن لا أضعه حتى أموت.
حدثنا بعض مشايخنا من أهل الأدب ، قال عمرو : قال بعضهم : رأيت أعرابية بالتياح ، فقلت لها : أنشديني ، قالت : نعم ورب الكعبة ، قلت : فأنشديني ، فأنشأت:
لا بارك الله فيمن كان يخبرني * أن المحب إذا ما شاء ينصرف
وجد المحب إذا ما بان صاحبه * وجد الصبيّ بثديي أمه الكلف

فقلت : فأنشديني من قولك ، فقالت:
بنفسي من هواه على التنائي * وطول الدهر مؤتلف جديد
ومن هو في الصلاة حديث نفسي * وعدل الروح عندي بل يزيد

فقلت لها : إن هذا الكلام ممن قد عشق ، فقالت : وهل يعرى من ذلك من له سمع أو قلب ؟ ثم أنشدتني:
ألا بأبي والله من ليس شافعي * بشيء ومن قلبي على النأي ذاكره
له خفقان يرفع الجنب كالشجا * ويقطع أزرار الجريان ثائره
وروينا من حديث عمر بن يزيد الأسدي قال : مررت بخرقاء صاحبة ذي الرمّة ، فقلت لها : هل حججت قط ؟ فقالت : أما علمت أني منسك من مناسك الحج ؟ ما منعك أن تسلّم عليّ ؟ أما سمعت

قول عمك ذي الرمة وهو ينشد:
تمام الحج أن تقف المطايا * على خرقاء واضعة اللثام
فقلت لها : قد أثر فيك الدهر ، قالت : أما سمعت قول عمك العجيف العقيلي:
وخرقاء لا تزداد إلا ملاحة * ولو عمّرت تعمير نوح وحلت

قال : ورأيتها وإن فيها المباشرة ، وإن ديباجة وجهها لطريّة كأنها فتاة ، وإنها لتزيد يومئذ على المائة . وشبب بها ذو الرمة وهي ابنة ثمانين سنة.
حدثني أبو ذرّ بإشبيلية أن سبب أن سميت الخرقاء وهي ميّ ، وسمي ذو الرمة وهو غيلان ، أن رآها يوما فتعرّض إليها وبيده حبل بال لتعمل له نعله ، وكان قد انتقض ، وأراد

بذلك الكلام معها ، فقالت له : إني خرقاء يا ذا الرمة ، أي لا أحسن العمل . والخرقاء : التي لا تحسن العمل ، والصناع ضدها . والرمة : الحبل البالي . فجرى عليهما هذان الاسمان إلى هذا اليوم.

وروينا من حديث الهاشمي يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
»كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وأعدد نفسك في الموتى . وإذا أصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح . وخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لوفاتك ، فإنك لا تدري ما اسمك غدا. «
قال بعض الأعراب : الموت يقتحم على ابن آدم كاقتحام الشيب على الشباب ، ومن عرف الدنيا لم يفرح بها ولا بزخارفها ، ولم يحزن فيها على بلوى ، ولا طالب أغشم من الموت ، ومن عطف عليه الليل والنهار أردياه ، ومن وكل به الموت أفناه.

أصيب الحجاج بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان ، فقال : ليت أني وجدت إنسانا يخفف مصيبتي ، فقال له الرسول : أأقول ؟ قال : قل ، قال : كل إنسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت ، أو يقع البيت عليه ، أو يقع في بشر ، أو يغشى عليه ، أو يكون شيء لا يعرفه . فضحك الحجاج وقال : مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم حين وجّه مثلك رسولا.

قال عبد الله بن المعتز : أهل الدنيا كصور في صحيفة كلما نشر بعضها طوي بعضها . وقال أيضا : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام . ينظر هذا إلى قول الآخر:
فسيرك يا هذا كسير سفينة * بقوم جلوس والقلاع تطير

وقال الآخر : طلاق الدنيا مهر الجنة . وسئل أعرابي عن حال الدنيا ، فقال : هي جمة المصائب ، رنقة المشارب ، لا تمتع صاحبا بصاحب قال أبو الدرداء : ما أنصف الدنيا ، ذمّت بإساءة المسئ فيها ، ولم تحمد بإحسان المحسن فيها . غير أنه قال يوما : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وهو الذي يقول فيها أيضا : إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

وروينا من حديث الطفيل بن عامر العامري قال : خرجت يوما أريد الغارة ، وكنت رجلا أحب الوحدة ، فبينما أنا أسير إذ ضللت الطريق التي أردت ، فسرت أياما لا أدري أين

التوجّه حتى نفذ زادي ، فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ، ويئست من الحياة . فبينما أنا أسير إذ بصرت بقطيع غنم في ناحية من الطريق ، فملت إليها فإذا أنا بشاب حسن الوجه فقال : يا ابن العم ، أين تريد ؟ فقلت : أردت حاجة لي في بعض المدن ، وما أحسست بنفسي إلا وقد ضللت عن الطريق . قال : أجل ، إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام ، فانزل حتى تستريح وتطمئن ، وتريح نفسك وفرسك . فنزلت ، ورمى لدابتي حشيشا ، وجاءني بثريد كثير ولبن ، ثم قام إلى كبش فذبحه ، وأجّج نارا ، وجعل يكبّب لي ويطعمني حتى اكتفيت. فلما جنّ الليل قام وفرش لي .
ثم قال : قم فأرح نفسك ، فإن النوم أذهب لتعبك ، وأرجع لنفسك.
فقمت ووضعت رأسي ، فبينما أنا نائم إذ أقبلت جارية لم تر عيناي مثلها قط حسنا وجمالا ، فقعدت إلى الفتى ، وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه ما يلقى من الوجد به ، فامتنع عليّ النوم بحسن حديثهما.

فلما كان في وقت السحر قامت ورجعت إلى منزلها . فلما أصبحت دنوت منه ، فقلت له : من الرجل ؟ قال : أنا فلان ابن فلان فانتسب لي فعرفته ، فقلت : ويحك ، إن أباك لسيّد قومك ، وما حملك على وضع نفسك في هذا المكان ؟
فقال : أنا والله أخبرك ، كنت عاشقا لابنة عمي هذه التي رأيتها ، وكان هي أيضا لي وامقة ، فشاع خبرنا في الناس ، فأتيت عمي أن يزوّجنيها ، فقال : والله يا بني ما سألت شططا ، وما هي بأبرّ عنك ، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء ، وعمك يكره المقالة القبيحة ، ولكن انظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك.
فقلت : لا حاجة لي فيما ذكرت ، وتحمّلت عليه بجماعة من قومي فردّهم . وزوّجها رجلا من ثقيف له رئاسة وقدر ، فحملها إلى هاهنا ، وأشار بيده إلى خيم كثيرة بالقرب منا ، فضاقت عليّ الأرض برحبها ، وخرجت في أثرها ، فلما رأتني فرحت فرحا شديدا ، فقلت لها : لا تخبري أحدا بي منك بسبيل . ثم أتيت زوجها ،
فقال : أنا رجل من الأزد ، أصبت دما ، وإني خائف ، وقد قصدتك لما يعرف من رغبتك في اصطناع المعروف . ولي بصر بالغنم ، فإن رأيت أن تعطيني من غنمك فأكون في جوارك وكنفك فافعل .
قال : نعم وكرامة ، فأعطاني مائة شاة ، وقال لي : لا تبعد بها عن الحي ، وكانت ابنة عمي تخرج في كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف ، فلما رأى حسن حال الغنم أعطاني هذه ، فرضيت من الدنيا بما ترى.
قال : فأقمت عنده أياما ، فبينما أنا نائم إذ نبّهني وقال : يا أخا بني عامر ، قلت له : ما

شأنك ؟ قال : ابنة عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ، وما أظن ذلك إلا لأمر حادث.
وأنشأ يقول:
ما بال ميّة لا تأتي لعادتها * هل هاجها طرب أو صدّها شغل
لكن قلبي لا يغنيه غيركم * حتى الممات ولا لي غيركم أمل
أو تعلمين الذي بي من فراقكم * لما اعتذرت ولا طالك بك العلل
نفسي فداؤك قد أحللت بي حرقا * تكاد من حرّها الأنفاس تنفصل
لو كان غادية مني على جبل * لزلّ وانهدّ من أركانه الجبل

قال الطفيل : فو الله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح ، وقام ومرّ نحو الحي ، فأبطأ عني ساعة ، ثم أقبل ومعه شيء يحمله ، وجعل يبكي عليه ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : هذه ابنة عمي افترسها السبع ، فأكل بعضها ووضعها بالقرب مني فأوجع والله قلبي ، ثم تناول سيفه ، ومرّ نحو الحي فأبطأ هنيهة ، ثم أقبل إليّ وعلى عاتقه ليث كأنه حمار ، فقلت : ما هذا ؟ قال : صاحبي ، قلت : وكيف عملت به ؟
قال : إني قصدت الموضع الذي أصابها فيه ، وعلمت أنه سيعود إلى ما فضل منها ، فجاء قاصدا إلى ذلك الموضع ، فعلمت أنه هو فحملت عليه ، فقتلته . ثم قام فحفر في الأرض ، فأمعن وأخرج ثوبا جديدا ،
وقال : يا أخا بني عامر ، إذا أنا متّ فأدرجني معها في هذا الثوب ، ثم ضعنا في هذه الحفرة ، وهلّ التراب علينا ، واكتب هذين البيتين على قبرنا:
كنا على ظهرها والعيش في مهل * والدهر يجمعنا والدار والوطن
فخاننا الدهر في تفريق الفتنا * فاليوم يجمعنا في بطنها الكفن

ثم التفت إلى الأسد فقال:
ألا أيها الليث المدلّ بنفسه * هبلت لقد جرّت يداك لنا حزنا
وغادرتني فردا وقد كنت آلفا * وصيّرت آفاق البلاد لنا سجنا
أأصحب دهرا خانني بفراقها * معاذ إلهي أن أكون له خدنا

وقال : يا أخا بني عامر ، إذا فرغت من شأننا ، فصح في إدبار هذه الغنم ، فردّها إلى صاحبها . ثم قام إلى شجرة فاختنق حتى مات ، فقمت ، فأدرجتهما في ذلك الثوب ، ووضعتهما في تلك الحفيرة ، وكتبت البيتين على قبرهما ، ورددت الغنم على صاحبها.

وسألني القوم عن الرجل ، فأخبرتهم الخبر ، فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرنّ عليه تعظيما له . فخرجوا ، وأخرجنا مائة ناقة ، وتسامع بنا الناس ، فاجتمعوا إلينا فنحرنا ثلاثمائة ناقة ، وانصرفنا.

كتب جعفر بن محمد الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل : شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه.
وحدثنا بعض الأدباء ، قال : كتب علي بن هشام إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي:
ما أدري كيف أصنع ؟ أغيب فأشتاق ، وألقى فلا أشتفي . ثم يحدث لي اللقاء إذا طلبت منه الشفاء نوعا من الحرقة للوعة الفرقة.
وحدثنا محمد بن سعيد : قال رجل من قريش لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال:
خالد بن صفوان بن الأهتم . قال : إن اسمك لكذب ، ما أنت بخالد ، وإن أباك لصفوان ، وهو حجر ، وإن جدك الأهتم ، والصحيح خير من الأهتم . قال له خالد : من أي قريش أنت ؟ قال : من عبد الدار بن قصي بن كلاب ، قال : لقد هشمتك هاشم ، وأمتك أميّة ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، واقتصتك قصيّ ، فجعلتك عبد دارها ، تفتح إذا دخلوا ، وتغلق إذا خرجوا.
وحكي عن شهرام المروزي أنه جرى بينه وبين أبي مسلم صاحب الدولة كلام ، فما زال أبو مسلم يحاوره إلى أن قال شهرام : يا لقطة.
فصمت أبو مسلم ، وندم شهرام على ما سبق به لسانه ، وأقبل معتذرا وخاضعا ومتنصلا . فلما رأى ذلك أبو مسلم قال : لسان سبق ، ووهم أخطأ ، وإنما الغضب شيطان ، والذنب لي ، لأني جرأتك على نفسي بطول احتمالي منك ، فإن كنت متعمدا للذنب فقد شركتك فيه ، وإن كنت مغلوبا فالعذر سبقك ، وقد غفرنا لك على كل حال.
قال شهرام : أيها الملك ، عفو مثلك لا يكون غرورا . قال : أجل . قال : وإن عظيم ذنبي أن تدع قلبي يسكن . وألحّ في الاعتذار ، فقال أبو مسلم : فيا عجبا ، كنت تسيء وأنا أحسن إليك ، فإذا أحسنت أسأت.
روينا عن بعض إخواننا من أهل الأدب أن سليمان بن عبد الملك كان سبب موته أن استدعى يوما الجارية التي كانت على خزانة ملابسه ، فقال لها : ائتيني اليوم بثياب صفر.
فأتته بحلّة صفراء ، وعمامة صفراء ، وطيلسان أصفر ، من أحسن ما يكون . فتنظّف ، ولبس ، وتطيّب ، واستدعى صاحبة الوجه ، واستدعى بالمرآة ، فرأى وجهه وما عليه من البزّة الفاخرة ونضارة الملك ، فأعجبته نفسه ، وقال : والله لأخرجن اليوم على الناس ، وأصعد على المنبر ، وأتكلم من أحسن الكلام ، وما يليق بهذه الحالة.
وخرج يتبختر في مشيته زهوا وعجبا بنفسه ، فتعرضت له جارية يعرفها من جواريه ،

فخدمت ، وسلّمت ، وقالت : ما أحسن هذه الحالة التي أنت فيها ، لو تمّ ، ثم أنشدت:
ليس فيما بدا لنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فان
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للإنسان

فقال لها سليمان : يا فلانة ، ما حملك على هذا في هذا الوقت ؟ وتغيّر عليه الحال.
ثم إنه أكذب نفسه ، وتحامل على عقله بهواه ، ومضى لوجهه ، حتى خرج على قومه في زينته ، فأعجب الناس به ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بصوت يستوي في سماعه أقصى من في المجلس وأدناه ، وأبلغ وأسهب فأعجب ، وأوجز فأعجز . فبينما هو في أطيب ما يكون من الكلام أخذته الحمى ، فتحامل عليها ، فما زالت تخفض في صوته إلى أن سقط مغشيا عليه . ثم أفاق ، فحمل إلى منزله ورجلاه تخطّ في الأرض ضعفا ، وقوة من مرض . فلما دخل منزله استدعى الجارية التي تعرّضت له عند خروجه بالبيتين في صحن الدار ، فحضرت بين يديه ، فقال لها : يا فلانة ، أعيدي عليّ ما قلت عند خروجي .
فقالت له : يا سيدي ، ما أعرف ما تقول ، والله ما تعرضت إليك ، وكيف أجرؤ على التعرض إليك في صحن الدار وليست مرتبتي ؟ فعلم سليمان أن نفسه نعيت له ، فأوصى ، فلبث أياما ومات.

مثل سائر
أوفى من أمّ جميل ، وهي دوسية من قبيلة أبي هريرة رضي الله عنه ، فذكر أهل الأدب من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلا من الأزد ، فبلغ ذلك قومه بالسّراة ، فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهريّ ليقتلوه ، فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاذ بها ، فقامت في وجوههم ، ودعت قومها فمنعوه لها . فلما ولّي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظنت أم جميل أنه أخو ضرار بن الخطاب ، فأتته بالمدينة . فلما انتسبت عرف القصة ، فقال : يا أم جميل ، لست بأخيه إلا في الإسلام ، وقد عرفنا منّتك عليه . فأعطاها على أنها ابنة سبيل.

وأما وفاء السموأل بن عاديا ، فذكر أهل الأدب من وفائه أن امرأ القيس بن حجر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموأل دروعا له ، فلما مات امرؤ القيس بأنقرة ، غزا السموأل ملك من ملوك الشام ، فتخوّر منه السموأل ، فأخذ الملك ابنا له وصاح به : يا سموأل ، هذا ابنك في يدي ، وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي ، وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إليّ الدروع ، وإلا ذبحت ابنك ، قال : أجّلني ، فأجّله . فجمع أهل بيته ، فشاورهم

فكلهم أشاروا بدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه . فلما أصبح أشرف فقال : ليس إلى دفع الدروع سبيل ، فاصنع ما أنت صانع . فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه ، وكان يهوديا.
وانصرف الملك ، ووافى السموأل بالدروع الموسم ، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس . وقال في ذلك شعرا:
وفيت بأدرع الكنديّ إني * إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا عنده كنز وعيب * ولا وأبيك أعذر ما مشيت
بنى لي عاديا حصنا حصينا * وبئرا كلما شئت استقيت

وفي ذلك يقول الأعشى:
كن كالسموأل إذ طاف الهمام به * في عسكر كسواد الليل جرّار
خيّره خطّتا خسف فقال له * اختر وما فيهما حظ لمختار
فشكّ غير بعيد ثم قال له * اذبح أسيرك إني مانع جاري

وروينا من حديث الشعبي ، قال : قالت أم البنين ابنة عبد العزيز ، وهي أخت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكانت تحت الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصا ما لبسته ، أو طريقا ما سلكته . وكانت تعتق في كل يوم رقبة ، وتحمل على فرس في سبيل الله . وكانت تقول : البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة.

أخبرني أبو القاسم البخاري ، قال : أخبرني أبو عبد الله الغزّال بالمرية قال : سمعت أبا العباس بن العريف الصنهاجيّ ، عارف وقته ، يقول : ليس السخي من يسخى بماله ، إنما السخي من يسخى بنفسه على العلم.

في الحكمة
ثواب الجود : خلف ، ومحبة ، ومكافأة . وثواب البخل : حرمان ، وإتلاف ، ومذمّة.
سئل الإسكندر : ما أكبر ما شيّدت به ملكك ؟ قال : ابتداري إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم.
وكتب أرسطاطاليس : يا إسكندر ، اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلقه ، وتخلق آثاره ، وتميت الأفعال ، إلا ما رسخ في قلوب الناس . فأودع قلوبهم محبة أبدية تبقي بها حسن ذكرك ، وكريم أفعالك ، وشرف آثارك.

جاء الشاعر السبتي من قرطبة إلينا إلى إشبيلية ، وكان صاحب ديوان بها أبو عبد الله بن تاكفت رحمه الله ، فلم يجد من ينزله ، فكتب إلى صاحب الديوان أبياتا:
أتجعل بالفرزدق والكميت * وفي قيد الحيا شعر السبيتي
يروّعني بشعرهما أناس * وجهلا روّعوا حيا بميت
لئن أسكنتني بيتا رفيعا * لتسكن من ثنائي ألف بيت
فأمر له صاحب الديوان بمنزله ، ونزل وأخصب عليه . فلقيته فسألته فشكر حاله.

حكمة
قال إبراهيم عليه السلام : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ، قالوا : الثناء الحسن.
لما قدّم بزرجمهر إلى القتل قيل له : إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا ، وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تذكر به . فقال : أي شيء أقول ؟ الكلام كثير ، ولكن إن أمكنك أن تكون حديثا حسنا فافعل.

وأنشدنا بعض إخواننا قال : أنشدنا أبو القاسم بن فيرة الشاطبي قال : أنشدنا أبو العباس أحمد بن مسعود القيسي قال : أنشدنا أبو عامر بن حبيب ، عن أبي الحسن بن مفوز ، عن أبي عامر بن عبد البر ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن بن الفرضي لنفسه:
ما يشتهي قرب السلاطين * غير ضعيف العقل مغبون
لا تكذبن عنهم فما صحبهم * منهم على دنيا ولا دين
دنياهم بالخزي موصولة * فلا تسل عن دين مفتون
لا رأي لي في نيل دنياهم * حسبي بأن يسلم لي ديني

أخبرني بعض الحكماء قال : شكى رجل إلى أياس بن معاوية كثرة ما يهب ، ويصل به الناس ، وينفق . فقال : إن النفقة داعية الرزق . وكان جالسا على باب فقال للرجل : أغلق هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل يدخل فيه الريح ؟
قال : لا . قال : فافتحه ، ففتحه ، فجعلت الرياح تخترق في البيت .
فقال : هكذا الرزق ، أغلقت فلم يدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق.
حدثنا بعض شيوخنا قال : تنازع في الضيافة رجل عربي وآخر فارسي .
فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدنا لا يملك إلا بعيرا ، فإذا

حلّ به ضيف نحره له . فقال الفارسي : فنحن أحسن مذهبا في القرى منكم . قال : وما ذاك ؟ قال : نحن نسمي الضيف مهمان ومعناه أنه أكبر من في المنزل والمكان.
أخبرنا عبد الرحمن بن ميمون ، أنا أبو القاسم الرعيني قال : كان شيخنا أبو محمد عليم بن هانئ العمري من أشدّ الناس انقباضا عن أهل الدنيا ، وكان كثيرا ما ينشد الأبيات المنسوبة إلى الفقيه

الإمام يونس بن مغيث:
أقرّ إليك من ظلمي لنفسي * وسلّمني العبيد وأنت أنسي
لقاؤك مأملي وبك افتخاري * وذكرك في الدّجى قمري وشمسي
قصدت إليك منقطعا غريبا * لتؤنس وحدتي في قعر رمسي
وللعظمى من الحاجات عندي * قصدت وأنت تعلم سرّ نفسي

قال الشاطبي : ودخلت عليه رضي الله عنه عقيب عيد الفطر فقال لي : مرّ عليّ أمس بعض الأمراء في مركب فاخر وملبس باهر والناس يغبطونه بذلك . فقلت أبياتا وهي:
محالات تجرّ إلى محال * وأحوال تحول بكل حال
ملابس قد تبدّل ثم تبلى * وأجسام تؤول إلى اضمحال
فناء عاجل لو يقض مرّت * وكل إقامة تالي ارتحال
فما المغبوط من ركب المطايا * بعزّ أو تسربل في الجمال
ولكنّ المغبّط من تردّى * بثوب الذلّ رهبة ذي الجلال
فإن شئت البقاء بلا نفاد * وعزّ لا يكدّر بالزوال
فمت حيا تعش حيا وميتا * وتنعم بالكواعب في الظلال
وقم في الليل ويحك مستكنّا * وقل يا سيّدي اسمع مقالي
حياتي في الذي تدري وموتي * وجود الهجر من بعد الوصال
فنائي في بقائي لي بقاء * وأن يفنى فنائي لا أبالي
أجرني أن أرى نفسي أعذني * حبيبي أن يخيّل لي خيالي
وجد بالمجدّ ويحك في جهاد * وبع ما شئت مبخوسا بغالي

قال الشاطبي : كان سبب موت هذا السيد أنه اضطرّ إلى الاجتماع بالسلطان في نازلة نزلت به ، فسار إليه ، فلما جاء البلد الذي السلطان فيه ، خلا بنفسه في ليلة جمعة ، فصلى بسورة فيها سجدة ، فلما سجد سأل ربه الموت ولا يجتمع بالسلطان ، فانقطع كلامه وهو ساجد ، فرفع وهو كذلك ، فلبثت يومين وهو لا يتكلم ، ومات . وكان هذا الشيخ قد نهبت داره ، فجعل يبكي ، فاجتمع إليه الفقهاء والأدباء يصبّرونه ، ويهوّنون عليه ما جرى . فقال

لهم : ما أبكي لما جرى من ذهاب الدنيا ، لكن فيما رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
»ما استخف قوم بعالمهم وانتهكوا حرمته إلا سلّط عليهم العدو » . وتوفي الشيخ من عامه كما ذكرنا ، وسلّط العدو على البلد في العام الذي بعده ، فأخذهم شر أخذة ، وبقوا حديثا شنيعا على وجه الدهور . على أنه كان لهم عدد عظيم ، ومدد جسيم ، فلم يغن عنهم ذلك شيئا ، وظهر فيهم ما ذكره الشيخ رضي الله عنه.

ما جاء في صورة جبريل التي خلق عليها

قالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى : وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى ، قالت : رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح.
روينا من حديث إسحاق بن بشر القرشي ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام:
»إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون عليها في السماء » . قال : لن تقوى على ذلك . قال : « بلى » . قال : فأين تشاء أن أتمثل لك ؟ قال : « بالأبطح » . قال : لا يسعني ، قال : « بمنى » .
قال : لا تسعني ، قال : « بعرفات » ، فواعد ، فخرج النبي عليه السلام للوقت ، فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه في السماء ، ورجلاه في الأرض . فلما رآه النبي عليه السلام خرّ مغشيا عليه .
قال : فتحوّل جبريل في صورته التي عهده عليها ، فضمه إلى صدره وقال له : يا محمد ، لا تخف أنا أخوك جبريل . فلما أفاق قال : « يا جبريل ، ما ظننت أن لله في السماء خلقا يشبهك » .
فقال : يا محمد ، فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ، ورجلاه في التخوم السابعة ، وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوضع ، حتى لا يحمل عرش ربك إلا عظمته تبارك وتعالى لوضع الطير الصغير الذي يصبح في القائلة ، وتسميه العامة الأغزال والجفالة.

انتشار ولد إسماعيل وعبادتهم الحجارة

روينا من حديث أبي الوليد ، عن جده ، عن أبي سالم ، عن ابن إسحاق أن بني إسماعيل وجرهم من ساكني مكة ضاقت عليهم مكة ، فتفسحوا في البلاد ، والتمسوا المعاش ، فيزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنه كان لا يظعن من

مكة ظاعن منهم إلا احتملوا معهم من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم ، وصيانة بمكة وبالكعبة . حيثما حلوا وضعوه ، فطافوا به كالطواف ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة . وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره . فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالة ، وانتحوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، على أثر ما كان بقي فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل ، يتمسكون بها من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه.
ومن منظومات الشبلي في يوم عيد ، ما رويناه من حديث ابن باكويه قال : أنشدني أبو عمرة

الحسن الحنظلي قال : سمعت الشبلي ينشد يوم العيد:
ليس عيد المحب قصد المصلى * وانتظار الجيوش والسلطان
إنما العيد أن تكون لذي الحب * كريما مقرّبا في الأمان

وله في ذلك:
عيدي مقيم وعيد الناس منصرف * والقلب مني عن اللذات منحرف
ولي قرينان ما لي منهما خلف * طول الحميم وعيني دمعها يكفّ

وله في ذلك:
إذا ما كنت لي عيدا * فما أصنع بالعيد
جرى حبّك في قلبي * كجري الماء في العود

وحدثنا يونس بن يحيى قال : انا ابن منصور ، عن الحميدي ، عن أبي بكر الأردستاني ، عن السلمي قال : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقي يقول : سمعت الشبلي ينشد يوم عيد ، ولا أدري لنفسه أم لغيره:
الناس في العيد قد سرّوا وقد فرحوا * وما سررت به والواحد الصمد
لما تيقنت أنّي لا أعاينكم * غمّضت طرفي فلم أنظر إلى أحد

وحدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الباقي ، نبأ هنّا قال : سمعت محمد بن القاسم يقول : كان الشبلي ينوح يوم العيد ويصيح ، وعليه ثياب سود وزرق ، فاجتمع الناس إليه ، فسألوه عن حاله فقال:
تزين الناس يوم العيد للعيد * وقد لبست ثياب الزرق والسود

وأصبح الكل مسرورا بعيدهم * ورحت فيكم على نوح وتعديد
والناس في فرح والقلب في ترح * شتّان بيني وبين الناس في العيد

وحدثنا يونس بن يحيى قال : انا ابن ناصر ، حدثنا أبو الثناء محمود بن أبي المظفّر قال : حدثنا ابن خميس قال : انا الحميدي قال : أنا أبو بكر الأردستاني قال : انا السلمي قال : سمعت عبد الله بن إبراهيم بن العلاء يقول : قال رجل لأبي علي الروذبادي : غدا العيد ، فغيّر من زينتك ، فأنشد يقول:
قالوا غدا العيد ما أنت لابسه * فقلت خلعة ساق حبّه جزعا
فقر وضرّهما ثوبان تحتهما * قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها * يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي * والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

خبر هبل الصنم الذي كان بالكعبة
روينا من حديث هشام ، وابن إسحاق ، أن عمرو بن لحيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أمور ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام . فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟
قالوا : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض المغرب فيعبدونه ؟
فأعطوه صنما يقال له هبل - بفتح الهاء - فقدم به مكة ا ه .
حديث ابن هشام : قال ابن إسحاق : فقدم بصنم يقال له هبل - بضم الهاء - من هيت من أرض الجزيرة لم يكن من أهل البلقاء ، وهو أصح . وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها.

فنصبه على البئر التي كانت في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته . وكانت هذه البئر في جوف الكعبة على يمين من دخلها ، عمقها ثلاثة أذرع ، حفرها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ليكون فيها ما يهدى إلى الكعبة ، وكانت تسمى الأخسف .

وكان عند أهل هبل في الكعبة سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل إذا اختلفوا في العقل ، من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة عليهم ، فعلى من خرج حمله .
وقدح فيه نعم ، الأمر الذي أرادوه يضرب به في القداح ، فإن خرج قدح فيه نعم عملوا .
وقدح فيه لا ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح ، فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر .
وقدح فيه منكم ، وقدح فيه ملصق ، وقدح فيه من غيركم ، وقدح فيه المياه . فإذا أرادوا أن يحفروا المياه ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيث ما خرجوا به عملوا به .
وكانوا إذا أرادوا أن

يختتنوا غلاما ، وينكحوا جارية ، ويدفنوا ميتا ، أو شكّوا في نسب أحد منهم ، ذهبوا به إلى هبل ، ومائة درهم جزر ، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه.
ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب ، فإن خرج منكم كان منهم وسطا ، وإن خرج عليه من غيركم كان حليفا ، وإن خرج عليه ملصق كان ملصقا على منزلته فيهم لا بسبب له ولا خلف .
وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به نعم عملوا به ، وإن خرج لا أخّروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القداح.
قال ابن إسحاق : وكان هبل من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب . وكانت له خزانة للقربات ، وكانت له سبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح . وكان قربانه مائة بعير . وكان له حاجب ، وكانوا إذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا:
إنا اختلفنا فهب السّراحا * ثلاثة يا هبل فصاحت
الميت والعذرة والنكاحا * والمبرئ المريض والصحاحا

إن لم تقله فمن القداحا
روينا من حديث أحمد بن مروان ، عن محمد بن عبد العزيز الدينوري ، عن أحمد بن أبي الحواريّ ، عن أبي سليمان الداراني ، قال : قلت لراهب : يا راهب ، أي يوم أسرّ إليك ؟ قال : يوم لا أعصي الله عز وجل فيه.

روينا من حديث ابن أبي الدنيا ، عن محمد بن عمرو المالكي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إدريس بن يزيد ، عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من خلصت نيته ولو علة نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس.

وروينا من حديثه أيضا عن يحيى بن يوسف ، عن أبي معاوية ، عن عبد الرحمن بن زيد ، قال : كان أبي يقول : يا بنيّ ، أنوفي كل شيء تريد الخير ، حتى خروجك إلى الكناسة في حاجة.
وروينا من حديث الدينوري في كفارة الغيبة ، قال : نبأ أبو جعفر حمدان بن علي ، نبأ محمد بن علي الخزاعي ، نبأ عنبسة بن عبد الرحمن القرشيّ ، عن خالد بن يزيد المدني ، عن أنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته. «
وروينا من حديثه أيضا في أحب العباد إلى الله تعالى ،
قال : حدثنا محمد بن غالب ،

حدثني إسحاق بن كعب مولى ابن هشام ، نبأ عبد الحميد بن سليمان الأزرق ، عن سكين بن أبي سراج ، عن عبد الله بن دينار ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس ، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيّ العباد أحبهم إلى الله عز وجل ؟ قال : « أنصفهم للناس ، وإن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه دينا ، أو تسدّ عنه جوعة . ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إليّ من اعتكاف شهرين في المسجد . ومن كفّ غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ، ومن مشى مع أخ له في حاجة حتى يثبتها ثبّت الله قدمه يوم تزلّ الأقدام. «
وروينا من حديثه أيضا ، قال : نبأ أحمد بن محمد البراء ، نبأ عبد المنعم ، عن أبيه ، عن وهب بن منبّه ، قال : لما ضربت الدراهم والدنانير ، حملها إبليس وقال : سلاحي ، وقرّة عيني ، وثمرة قلبي بكما أطغي ، وبكما أكفّر بني آدم ، وبكما تستوجب النار بنو آدم حسبي.

قال وهب : فالويل ثم الويل لمن آثرهما على طاعة الله عز وجل.
حدثنا عبد الرحمن بن علي ، نبأ أبو المعتز الأنصاري ، أن جعفر بن أحمد ، نبأ أبو محمد الخلال ، نبأ أحمد بن محمد بن القاسم الرازي ، نبأ أحمد بن محمد الجوهري ، نبأ إبراهيم بن سهل المدائني حدثني سيف بن جابر القاضي ، عن وكيع ، قال :
قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت : أخطأت في خمسة أبواب من المناسك ، فعلّمنيها حجّام ، وذلك أني حين أردت أن أحلق رأسي وقفت على حجّام ، فقلت : بكم تحلق رأسي ؟ فقال:
أعراقيّ أنت ؟ قلت : نعم . قال : النسك لا تشارط عليه ، اجلس . فجلست منحرفا عن القبلة .
فقال لي : حوّل وجهك إلى القبلة ، فحوّلته ، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر ، فقال :
أدر الشقّ الأيمن من رأسك ، فأدرته ، فجعل يحلق وأنا ساكت ،
فقال لي:
كبّر ، فجعلت أكبّر حتى قمت لأذهب ، فقال لي : أين تريد ؟ قلت : رحلي ، قال لي : صلّ ركعتين ثم امض . قلت : ما ينبغي أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام إلا ومعه علم ، فقلت له : من أين لك ما أمرتني به ؟
فقال : رأيت عطاء بن رباح يفعل هذا.

ومن باب الأجواد والهمم العالية
ما حدثنا محمد بن إسماعيل ، نبأ أبو الفرج ، نبأ عبد الله ، انا المبارك بن عبد الجبار ، نبأ الحسين بن محمد ، انا ابن سويد ، نبأ ابن الأنباري ، حدثني أبي عن المغيرة بن

محمد بن عبد الرحمن ، عن سحيم بن حفص ، عن أبيه قال : حج يزيد بن المهلب ، فطلب حلّاقا يحلق رأسه ، فجاء فحلق رأسه ، فأمر له بألف درهم ، فتحير الحلّاق ودهش ، وقال:
هذه الألف لي امضي إلى أمي فلانة أبشّرها . فقال : أعطوه ألفا أخرى . قال الحلاق : امرأته طالق إن حلق رأس أحد بعدك . فقال : أعطوه ألفين آخرين.
حدثنا يونس بن يحيى قال : حدثنا ابن ناصر ، نبأ المبارك بن عبد الجبار ، نبأ أبو طالب العشاري نبأ ابن أخي تيمي ، نبأ أبو بكر القرشي نبأ عيسى بن عبد الله التميمي ، نبأ ابن إدريس ، حدثني أبي ، عن وهب بن منبه قال : كان يلتقي هو والحسن البصري في الموسم كل عام في مسجد الخيف ، إذا هدأت الرجل ونامت العين ، ومعهما جلّاس لهما يتحدثون معهما .
فبينما هما يتحدثان ذات ليلة مع جلسائهما إذ أقبل طائر له خفيق حتى وقع إلى جانب وهب في الحلقة ، فسلّم فردّ عليه السلام ، وعلم أنه من الجن ، فقال وهب : من الرجل ؟ قال : من الجن من مسلميهم ، قال : فما حاجتك ؟ قال : وتنكر أن نجالسكم ، ونحمل عنكم ، إن لكم فينا رواة كثيرة .
وإنا لحاضركم في أشياء كثيرة من صلاة وجهاد وحج وعمرة ، ونحمل عنكم العلم .
قال وهب : فأيّ رواة الجن عندكم أفضل ؟
قال : رواة الشيخ ، وأشار إلى الحسن رضي الله عنه.

ومن شعر علي بن أفلح في الخيف:
هذه الخيف وهاتيك منى * فترفق أيها الحادي بنا
واحبس الركب علينا ساعة * نندب الركب ونبكي الدمنا
فلذا الموقف أعددنا البكا * ولذا اليوم دموع تقتنا
زمنا كان وكنا جيرة * يا أعاد الله ذاك الزمنا
بيننا يوم أثيلات النقا * كان من غير تراض بيننا

واقعة لبعض الفقراء
حدثني عبد الله ابن الأستاذ المروزي بإشبيلية بالخفاقين بدار محمد اليشكري الناسخ قال : كنت بجاية في خدمة شيخنا أبي مدين ،
فقال له أبو طالب : أخبرني عن سر حياتك . فقال أبو مدين : بسر حياته ظهرت حياتي ، وبنور صفاته استنارت صفاتي ، وفي توحيده أفنيت همتي ، وبديمومته دامت محبتي .
فسر التوحيد في قوله : لا إله إلا الله . أنا والوجود بأسره حرف جاء لمعنى .
فبالمعاني ظهرت الحروف ، وبصفاته اتصف كل موصوف ، وبائتلافه ائتلف كل مألوف .
فمصنوعاته محكمة ، ومخلوقاته مسلمة ، لأنه

صانعها ومظهرها ، منه مبدأها ، وإليه مرجعها ، كما أظهرها ذرّا . ثم تلا : أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى . هو يا أبا طالب لوجوده المحرك ، والناطق الممسك ، إن نظرت يا أبا طالب بالحقيقة تلاشت الخليقة ، الوجود به قائم ، وأمره في مملكته دائم ، وحكمه في وجوده عام . حكم الأرواح في الأجسام ، فالحواس به بانت على اختلاف أنواعها ، اللسان منها للبيان ، وهو مع ذلك لا يشغله شأن عن شأن.
يا أبا طالب ، لما أمدّني بسره غرف فؤادي من بحره ، فامتلأ وجودي نورا ، وأثمر غيبة وحضورا ، وسقيت شرابا طهورا ، ففني ما كان باطلا وزورا ، فغشيت أنواره أخلاقي ، ونظرت إلى الباقي بالباقي.

ثم قال : هو الموصوف بالقدم ، ومخترع الوجود من العدم ، بنور جلاله أشرقت الظلم ، وهو ولي الكرم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ، وصلى الله على سيدنا محمد سراج الظلم.
وروينا من حديث ابن باكويه ، عن أحمد بن عبد الله بن عبد المؤمن ، نبأ إسماعيل بن القاسم ، نبأ عبد الله بن مبويه ، عن عبد الرحيم الدبيلي ، عن عثمان بن عمارة قال : وردت الحجر مرة فإذا أنا بمحمد بن ثوبان ، وإبراهيم بن أدهم ، وعبّاد المنفري ، وهم يتكلمون بكلام لا أعقله ، فقلت لهم : رحمكم الله ، بي شأن كما تروني ، أصوم النهار ، وأقوم الليل ، وأحجّ سنة ، وأغزو سنة ، ما أرى في نفسي زيادة ، فشغل القوم عني ، حتى ظننت أنهم لم يفهموا كلامي . ثم كانت من واحد منهم التفاتة فقال : يا غلام ، إن همّ القوم لم يكن في كثرة الصلاة والصوم ، وإنما كان همّ القوم في نفاذ الأبصار حتى أبصروا.

وروينا من حديث ابن باكويه أيضا ، عن عيسى بن عمر ، عن أحمد بن محمد القرشي ، عن إبراهيم بن عيسى ، عن موسى بن عبد الملك المروزي قال : قال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بامرأة في الحجر قد رفعت صوتها ، واستغرقت في حالها ، مناجية ربها ، وهي تقول : أتيتك من شقة بعيدة ، مؤملة لمعروفك ، فأنلني معروفا من معروفك تغنيني به عن معروف من سواك ، يا معروفا بالمعروف . فعرفت أيوب السختياني ، فسألنا عن منزلها ، وقصدناها وسلّمنا عليها ، فقال لها أيوب : قولي خيرا يرحمك الله ، قالت : وما أقول ؟
أشكو إلى الله قلبي وهواي ، قد أضرّا بي ، وشغلاني عن عبادة ربي . قوما فإني أبادر طي صحيفتي .
قال أيوب : فما حدّثت نفسي بامرأة قبلها ، فقلت لها : لو تزوجت رجلا يعينك على ما أنت فيه .
قالت : لو كان مالك بن دينار وأيوب السختياني ما أردته .
فقلت : أنا مالك بن دينار وهذا أيوب السختياني . فقال : أفّ لكما ،

لقد ظننت أنه يشغلكما ذكر الله عن محادثة النساء . وأقبلت على صلاتها ، فسألنا عنها ، فقالوا : هذه ملكية بنت المنكدر.

ومن حسن الخطاب
ما قال أبو وجرة الأسلمي حين قدم على المهلب أبي صفرة : أصلح الله الأمير ، إني قطعت إليك الدهناء ، وضربت إليك آباط الإبل من يثرب .
قال له المهلب : فهل أتيتنا بوسيلة أو عشيرة أو قرابة ؟
قال : لا ، ولكني رأيتك لحاجتي أهلا ، فإن قمت بها فأنت أهل لذلك ، وإن يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك.

قال المهلب : يعطى ما في بيت المال ، فوجد فيه مائة ألف درهم ، فدفعت إليه ، فأخذها وقال:
يا من على الجود صاغ الله راحته * فليس يحسن غير البذل والجود
عمّت عطاياك من بالشرق قاطبة * فأنت والجود منحوتان من عود

وفي هذا المجرى قوله:
تشبّ لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق
رضيعيّ لبان ثدي أم تحالفا * بأسجم داج عوض لا يتفرق
روينا من حديث عمرو قال : دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب ، وكان يستعمل الحواشي من الكلام ، فقال له : إني أجد معمعة في قلبي ، وقرقرة في بطني ، فقال له الطبيب : أما المعمعة فلا أعرفها ، وأما القرقرة فهي ضراط غير نضيج.

وروينا من حديثه قال : قال كعب القيسي لعروة بن الزبير : أذنبت ذنبا للوليد بن عبد الملك ، فاكتب إليه : لو لم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته ، لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب ولا تتعلق به الذنوب ، وقد استشفع بي إليك فوثقت له منك بعفو لا يخلطه سخط ، فحقق أمله فيّ وصدق نفسي فيك ، تجد الشكر وافيا بالنعمة.

فكتب الوليد : قد شكرت رغبته إليك ، وعفوت عنه لمعموله عليك ، وله عندي ما يحب ، فلا تقطع كتبك عني في أمثاله في سائر أمورك.

روينا من حديث أبي ودعان ، قال : نبأ علي بن محمد ، عن علي بن القاسم ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عبد الله بن روح ، عن شبابة ، عن بزرجر ، عن القاسم بن

عبد الرحمن ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما أنتم خلف ماضين ، وبقية متقدّمين ، كانوا أكثر منكم بسطة ، وأعظم سطوة ، أزعجوا عنها أسكن ما كانوا إليها ، وغدرت بهم أوثق ما كانوا بها ، فلم تغن عنهم قوة عشيرة ، ولا قبل منهم بدل فدية ، فارحلوا أنفسكم بزاد مبلغ قبل أن تؤخذوا على فجأة ، وقد غفلتم عن الاستعداد ، ولا يغني الندم ، وقد جفّ القلم. »

قال أبو حازم
طالبة ومطلوبة : طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه ، وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه.

روينا عن الحسن البصري أنه قال : بينما أنا أطوف إذ أنا بعجوز متعبدة ، فقلت : من أنت ؟
قالت : من بنات ملوك غسان . قال : فمن أين طعامك ؟ قالت : إذا كان آخر النهار جاءتني امرأة مزيّنة فتضع بين يديّ كوزا من ماء ورغيفين . قلت لها : أتعرفينها ؟
قالت:
اللهم لا . قلت لها : هي الدنيا ، خدمت ربك عز ذكره ، فبعثها إليك لتخدمك.

وحدثني بعض العارفين ، عن الشيخ العارف الكبير أبي عبد الله الغزالي الذي كان بالمرية من أقران أبي مدين ، وأبي عبد الله الهواري ، وأبي يعزى ، وأبي شعيب السارية ، وأبي الفضل السكري ، وأبي النجار ، وتلك الطبقة .
قال أبو عبد الله : كان يحضر مجلس شيخنا أبي العباس بن العريف الصنهاجي - وهو آخر من ظهر من المؤدبين في هذه الطريقة - رجل لا يتكلم ، فإذا فرغ الشيخ خرج .
فوقع في قلبي منه شيء أحببت أن أعرفه وأعرف موضعه ، وتبعته عشية يوم بعد انفصالنا من مجلس الشيخ من حيث لا يشعر بي.

فلما كان في بعض سكك المدينة ، يعني المرية ، وإذا بشخص قد تلقّاه من الهواء ، وانقضّ عليه انقضاض الطائر ، بيده رغيف حسن ، فتناوله منه ، وانصرف عنه ، فجذبته من خلفه وقلت له : السلام عليك ، فعرفني فردّ السلام ،
فقلت له : من هذا الشخص عافاك الله الذي ناولك الرغيف ؟ فتوقف ، فأقسمت عليه ، فقال : يا هذا ، هذا ملك الأرزاق يأتيني كل يوم بما قدّر لي من الرزق حيث كنت من أرضى ربي.

ومرّ زياد بن أمية مع أبيه بالحيرة ، فنظر إلى دير ، فقال لخادمه : لمن هذا ؟
فقال: دير حرقة بنت النعمان بن المنذر ، فقال : ميلوا بنا إليه لنسمع كلامها . فجاءت ، فوقفت خلف الباب ، فكلّمها الخادم ، فقال لها : كلّمي الأمير .
قالت : أوجز أم أطيل ؟ قال : بل أوجزي . قالت : كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا ، وما على الأرض أحد أعزّ منا ، فما

غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدوّنا . قال : فأمر لها بأوساق من شعير ، فقالت : أطعمتك يد شبعاء جاعت ، ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت . فسرّ زياد بكلامها . فقال لشاعر معه:
قيّد هذا الكلام ، لا يدرس .
فقال:
سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل * فتى ذاق طعم الخير منذ قريب

قيل للخنساء : صفي لنا صخرا . قالت : كان قطر السّنة الغبراء ، ودعاف الكتيبة الحمراء.
قيل : فمعاوية ؟ قالت : كان حيا الجدب إذا نزل ، وقرى الضيف إذا حلّ . قيل:
فأيهما كان عليك أحنى ؟
قالت : أما صخر فسقام الجسد ، وأما معاوية فجمرة الكبد ،
وأنشدت:
أسدان محمرّا المخالب نجدة * غيثان في الزمن الغضوب الأعسر
قمران في النادي رفيعا محتد * في المجد فرعا سؤدد متخيّر
عرض رجل بليلى الأخيليّة من قومها ، فقال:
ألا حيّيا ليلى وقولا لها هلا * فقد ركبت طرفا أغرّ محجّلا

فأجابته:
تعيّرني داء بأمّك مثله * وأي جواد لا يقال له هلا
روى لنا أبو عبد الله محمد بن زرقون أن ليلى الأخيلية دخلت يوما على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : يا ليلى ، هل بقي في قلبك من حب ثوبة فتى الفتيان شيء ؟
قالت : يا أمير المؤمنين ، وكيف أنساه وهو الذي يقول:
ولو أن ليلى في ذرى متمنّع * بنجران لالتفّت على قصورها
حمامة يطن الواديين ترنمي * سقاك من الغرّ الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعما * وبيضك في خضراء غض نضيرها
تقول رجال لا يضرّك نأيها * بلى كل ما شفّ النفوس يضيرها
أيذهب ريعان الشباب ولم أزر * كواعب في همدان بيض نحورها

قال : عمرك الله أن تذكريه.
روينا عن بعض الأدباء ببلادنا أن غانمة بنت عامر بلغها في زمان معاوية ثلب بني أمية بني هاشم وهي بمكة ، فقالت لأهل مكة:
أيها الناس ، إن بني هاشم سادت فجادت ، وملكت وملكت ، وفصلت وفصلت ،

واصطفت واصطفيت ، ليس فيها كدر عيب ، ولا أقلّ ريب ، ولا خسروا طاغين ، ولا خازين ، ولا نادمين ، ولا من المغضوب عليهم ، ولا الضالّين.
إن بني هاشم أطول الناس باعا ، وأمجد الناس أصلا ، وأعظم الناس حلما ، وأكثر الناس علما وعطاء.

منّا عبد مناف الذي يقول الشاعر فيه:
كانت قريش بيضة فتفلّقت * فالمحّ خالصها لعبد مناف
وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه ، وفيه يقول الشاعر:
عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف
ومنّا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث ، وفيه يقول الشاعر:
ونحن سنيّ المحل قام شفيعنا * بمكة يدعو المياه تفور
ومنّا ابنه أبو طالب عظيم قريش وسيّدها ،
وفيه يقول الشاعر:
أتيته ملكا فقام بحاجتي
ومنّا العباس بن عبد المطلب ، أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه ماله ، وفيه يقول الشاعر:
رديف رسول الله لم تر مثله * ولا مثله حتى القيامة يولد
ومنّا حمزة سيّد الشهداء ، وفيه يقول الشاعر:
أبا يعلى بك الأركان هدّت * وأنت الماجد البرّ الوصول
ومنّا جعفر ذو الجناحين ، أحسن الناس جمالا ، وأكملهم كمالا ، ليس بغدّار ، ولا جبّار ، بدّله الله بكلتا يديه جناحا يطير به في الجنة ، وفيه يقول الشاعر:
هاتوا كجعفرنا ومثل عليّنا * إنّا أعزّ الناس عند الخالق

ومنّا أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفرس بني هاشم ، وأكرم من احتفى وانتعل ، وفيه يقول الشاعر:
عليّ ألّف الفرقان صحفا * ووالى المصطفى طفلا صبيّا

ومنّا الحسن بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّد شباب أهل الجنة ، وفيه يقول الشاعر:
يا أجلّ الأنام يا ابن الوصيّ * أنت سبط النبي وابن عليّ
ومنّا الحسين بن علي ، حمله جبريل عليه السلام على عاتقه ، وكفى بذلك فخرا ، وفيه يقول الشاعر:

بّ الحسين ذخيرة لمجنّة * يا ربّ فاحشرني غدا في حزبه

يا معشر قريش ، إني والله آتية معاوية ، وقائلة له في بني أمية ما يعرق منه.
فتوجهت ، فلما سمع بقدومها أمر بدار الضيافة ، فنظّفت ، وألقى فيها فرش ، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه ، فلما دخلت المدينة أتت دارا فيها عمرو بن غانم . فقال لها يزيد : إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلي إلى دار ضيافته ، وكانت لا تعرفه ، فقالت : من أنت كلاك الله ؟ قال : أنا يزيد بن معاوية . قالت : لا رعاك الله يا ناقص ، لست بزائد ، فتغيّر لون يزيد ، وأتى أباه فأخبره ، فقال : هي أسنّ قريش ، وأعظمهم حلما .
قال يزيد : كم تعدّ لها ؟ قال : كانت تعدّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة عام ، وهي من بقية الكرام.
فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلّم عليها ، فقال : على أمير المؤمنين السلام ، وعلى الكافرين الهوان والملام ، ثم قالت : أفيكم عمرو بن العاص ؟
قال عمرو : ها أنذا ، فأسمعته ما يكره ، وأسمعت معاوية كذلك . فقال معاوية : أيتها الكبيرة ، أنا كافّ عن بني هاشم . قالت : فإني أكتب عليك كتابا ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ربه أن يستجيب خمس دعوات ، فلئن لم تنته جعلتها كلها فيك . فخاف معاوية ، فحلف أن لا يعود لمثل ما بلغها أبدا .
فهذا آخر ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة.
حدثنا أبو جعفر بن يحيى قال : لما استوثق أمر العراق لعبد الله بن الزبير ، وجّه إليه مصعب وفدا ، فلما قدموا عليه قال : وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلا من أهل الشام ، فقال رجل من أهل العراق : يا أمير المؤمنين ، علقناك ، وعلقت بأهل الشام ، وعلق أهل الشام إلى مروان ، فما

أعرف لنا مثلا إلا قول الأعشى:
علقتها عرضا وعلقت رجلا * غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
فما وجدنا جوابا أحسن من هذا . ينظر أيضا إلى هذا قول الآخر:
جننت بليلى وهي جنّت بغيرنا * وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وروينا من حديث ابن مروان قال : نبأ الحربي قال : أوصى بعض أهل العلم ابنه ، وكانت له حظوة من السلطان:
يا بني ، إياك أن تلبس من الثياب ما يديم النظر إليك ، وعليك بالبياض الناعم ، واجتنب الوشي ، قلما يلبسه إلا ملك أو غني ، وإياك أن يجد منك أحد خلوقا ، وعليك بالزنجبيل واللبان ، فإنه يطيب خلوف فمك ، ويصبح عليك بدنك ، ويحدّ لك ذهنك ، وإياك وحاشية الملوك أن تتعرض لهم ، فإنهم يرضيهم منك اليسير ما لم يروا منك تحاملا

لبعض على بعض ، وكن من العامة قريبا يكثر دعاؤهم لك ، ولا تنسب إلى دناءة ، فإنك لا تستقيلها ، والسلام.
حدثنا أحمد بن يحيى بقرطبة قال : اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن أهتم ، فذكر عمرو الزبرقان
قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إنه لمطعام ، جواد الكف ، مطاع في أدانيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان:
بأبي وأمي يا رسول الله ، إنه ليعرف مني أكثر من هذا ، ولكنه يحسدني . فقال عمرو:
والله يا نبيّ الله إن هذا لذ المروءة ، ضيق العطن ، لئيم العم ، أحمق الخال ، والله يا نبي الله ما كذبت في الأول ، ولقد صدقت في الآخر .
رضيت فقلت بأحسن ما أعلم ، وسخطت فقلت بأسوإ ما أعلم.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما. «
قال قسام بن زهير:
يا معشر الناس ، إن كلامكم أكثر من صمتكم ، فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكرة.
يقال : ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه . ومن لم يحفظ لسانه فقد سلّطه على هلاكه.

قال الشاعر:
عليك حفظ اللسان مجتهدا * فإن جلّ الهلاك في زلله
وأنشدنا أبو بكر بن خلف اللخمي في مجلسه:
يموت الفتى من عثرة بلسانه * وليس يموت المرء من عثرة الرّجل
ولأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في ذلك:
أحزن لسانك أن تقول فتبتلى * إن البلاء موكل بالمنطق

كان عندنا شاب صالح ، سأل أباه أن يتركه يمشي إلى خدمة أبي مدين بجباية ، ونحن بإشبيلية ، فأبى عليه والده ، وكان له أخ صغير ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لأبيه : « دع محمدا يمشي حيث سأل ، فإني سأبشره بالساحل » . فقصّ عليه وعلى أبيه ، فدعا بولده السائل وخلّاه لوجهه ، فأخذ الولد يبكي ، فقلت له : ما أبكاك مع هذه البشارة ؟
فقال:

أخاف من قوله تعالى : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ * . فقلت : لا جزاك الله عن نفسك خيرا ، ولا عن جهلك في تأويلك ، هو ما قلت . وسافر عنّا ، فلحق بأبي مدين ، فأكرمه مدة ، ثم هجره ، وطرده من عنده ، فلما كان بعد عشر سنين ، اجتمعت به بمنزلة بإشبيلية ، وقد بدّل الله حالة الموافقة منه بالمخالفة ، والطاعة بالمعصية ، والإيمان بالزندقة ، ففارقته ، وخرج ما عبر به رؤيا أخيه .
فنسأل الله العافية من كلمة تؤدي إلى الهلكة في دين أو دنيا.

ولبعضهم:
وجرح السيف تأسوه فيبرا * وجرح الدهر ما جرح اللسان
جراحات السنان لها التئام * ولا يلتام ما جرح اللسان

حدّث محمد بن قاسم رواية قال:
تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات ، كأنما رميت عن قوس واحدة.
قال كسرى : أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت.
وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتني وكنت أملكها.
وقال قيصر : لم أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت.
وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول.

ولبعضهم في المعنى:
لعمرك ما شيء علمت مكانه * أحق بسجن من لسان مدلل
على فيك مما ليس يعنيك قوله * بقفل شديد حيث ما كنت أقفل

روينا من حديث المالكي قال : حدثنا أبو صالح ، نبأ علي بن حجر ، قال بعض الحكماء : من طاب ريحه زاد عقله ، ومن نظفت ثيابه قلّ همّه.

روينا من حديث ابن أبي الدنيا ، نبأ محمد بن الحارث ، عن المدائني قال : قالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشرة ، تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في العبد ولا تكون في سيّده.
صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، والتذمم للجار والصاحب ، وصلة الرحم ، وقري الضيف ، وأداء الأمانة ، ورأسهن الحياء.

وقال بعضهم : كتمان سرّك يعقبك السلامة ، وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة ، والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على إفشائه.

وفي الحكمة : ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما كان في يده اللصوص فيخفيه ، ويمكّن عدوّه من نفسه بإظهار ما في قلبه من سرّ نفسه أو سرّ أخيه.
قال معاوية رضي الله عنه : ما أفشيت سرّي إلى أحد إلا أعقبني طول الندامة وشدة الأسف ، ولا أودعته جوانح صدري فحكّمته بين أضلاعي إلا أكسبني مجدا وذكرا وثناء ورفعة .
فقيل : ولا ابن العاص ؟ فقال : ولا ابن العاص.
وكان يقول : ما كنت كاتمه عن عدوّك فلا تظهر عليه صديقك .
يريد ، والله أعلم ، ما سمعت أبا بكر بن خلف بن مناف أستاذنا ينشده في مجلسه مرارا .
وفي وصيته أبياتا ويقول:
احذر عدوّك مرة * واحذر صديقك ألف مرة
فلربما هجر الصدي * ق فكان أعلم بالمضرّة

في الخبر المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كتم سرّه كانت الخيرة في يده ، ومن عرّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن . وضع أمر أخيك على أحسنه ، ولا تظنن بكلمة خرجت منه سوءا . وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله جلّ اسمه فيه . وعليك بإخوان الصدق فإنهم زينة عند الرخاء ، عصمة عند البلاء. «
روينا من حديث الدينوري عن الأصمعي ، على ما حدّث عنه الرياشي ، قال : كان يقول أبا الأسود : العمامة جنة في الحرب ، ومكنّة في الحر والقر ، وزيادة في القامة.
أنشدني بعض الأدباء ، وكان إلى جانبه من يحبّه ، فعبته بعض الحاضرين فيه بما لم يحسن

وجهه عند العاتب . فالتفت إلى المحب ، فقال وهو يسمعه:
رأى وجه من أهوى عدوي فقال لي * أجلّك عن وجه أراه كريها
فقلت له وجه الحبيب مراءة * وأنت ترى تمثال وجهك فيها
وذلك بقرطبة ، وكان الحبيب سعيد بن كرز ، والمحب أبو بكر الزهري.

وأنشدنا بعض الأدباء مما أنشده المازني لبعضهم:
لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني * إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم * ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقوّم * ومن شاء تعويجي فإني معوّج
وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا * ولكنني أرضى به حين أحوج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله * وأمكن من بين الأسنّة مخرج

روينا من حديث ابن ودعان ، قال : نبأ أبو عبد الله الصيرفي ، عن محمد بن القاسم ، عن أبي منصور ، عن الحجبي ، عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن أنس بن مالك ، قال:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا معشر المسلمين ، شمّروا فإن الأمر جد ، وتأهبوا فإن الرحيل قريب ، وتزوّدوا فإن السفر بعيد ، وخفّفوا أثقالكم فإن وراءكم عقبة كئود لا يقطعها إلا المخفّون . أيها الناس ، إن بين يدي الساعة أمورا شدادا ، وأهوالا عظاما ، وزمانا صعبا ، يتملك فيه الظّلمة ، ويتصدر فيه الفسقة ، فيضطهد الآمرون بالمعروف ، ويضام الناهون عن المنكر . فأعدوا لذلك الإيمان ، وعضّوا عليه بالنواجذ ، والجأوا إلى العمل الصالح ، وأكرهوا عليه النفوس ، واصبروا على الضرّاء ، تقضوا إلى النعيم الدائم. «
أنشد الحطيئة عمر رضي الله عنه ، وكعب الأحبار عنده ،
فقال:
من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، هذا الذي قاله مكتوب في التوراة . فقال عمر : كيف ذلك ؟
قال : في التوراة مكتوب : من يصنع الخير لا يضيع عندي ، ولا يذهب بيني وبين عبدي.
نسيان النعمة أول درجات الكفر

شعر:
يد المعروف غنم حيث كانت * تحمّلها كفور أم شكور
فعند الشاكرين له جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

مثل سائر
جزاء سنمار : وكان سنمار هذا رجلا بنّاء ، فبنى للنعمان بن المنذر الخورنق فأعجبه ، وكره أن يبنى مثله لغيره ، فقعد النعمان في أعلاه ، واستدعى سنمارا ، وأخذ يحدّثه ، وغمز بعض خدّامه أن يدفعه من أعلاه ، فسقط فمات ، فقيل فيه:
جزونا بني سعد بحسن بلائنا * جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
مثل سمّن الكلب يأكلك

أخذه بعضهم فقال:
هم سمّنوا كلبا ليأكل بعضهم * ولو ظفروا بالحزم ما سمّوا كلبا

وقال الآخر:
وإني وقيسا كالسمن كلبه * فخدّشه أنيابه وأظافره

مثل في عي بأقل
وكان بأقل هذا اشترى عنزا بأحد عشر درهما . فقيل له : بكم اشتريت العنز ؟
ففتح كفيه ، وفرّق أصابعه ، وأخرج لسانه ، يريد أحد عشر ، فعيّروه بذلك ،
فقال القائل:
يلومون في حمقه باقلا * كأن الحماقة لم تخلق
فلا تكثروا العذل في عيّه * فللصمت أجمل بالأموق
خروج اللسان وفتح البنان * أحبّ إلينا من المنطق
خبر الظبية التي كلّمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

روينا من حديث أحمد بن عبد الله ، نبأ أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريف ، نبأ أحمد بن موسى ، عن أنس بن أبي نصر بن عبد الله بن محمد بن سيرين بالبصرة ، نبأ زكريا بن يحيى بن خلّاد بن حسان بن أغلب بن تميم حدثني أبي ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن ضبة بن محصن ، عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت:
بينما النبي صلى الله عليه وسلم في صحراء إذا هاتف يهتف : يا رسول الله ، فالتفتّ فلم أر أحدا.
فمضيت غير بعيد ، فإذا الهاتف يهتف : يا رسول الله ، فالتفتّ فلم أر أحدا.
فمضيت غير بعيد ، فإذا الهاتف يهتف : يا رسول الله ، فاتّبعت الصوت ، فهجمت علي ظبية مشدودة في وثاق ، وإذا أعرابي منجدل في شمله نائم في الشمس .
فقالت الظبية : يا رسول الله ، إن هذا الأعرابي صادني قبيلا ، ولي خشفان في هذا الجبل ، فإن رأيت أن تطلقني حتى أرضعهما ، ثم أعود إلى وثاقي .
قال : « أو تفعلين ؟ » ، قالت : عذّبني الله عذاب العشار إن لم أفعل . فأطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضت ، فأرضعت الخشفين ثم عادت.
فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوثقها إذ انتبه الأعرابي فقال : بأبي وأمي أنت ، إني أصبتها قبيلا ، فلك فيها من حاجة ؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلت : نعم » ،
قال : هي لك ، فأطلقها ، فخرجت تعدو في الصحراء فرحا ، وهي تضرب برجلها الأرض ، وتقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

ولاية بني إسماعيل الكعبة وأمر جرهم
روينا من حديث أبي الوليد ، حدثني جدي ، نبأ سعيد بن سالم ، عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ابن إسحاق قال : ولد لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام اثنا عشر رجلا وأمهم أسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، فولدت له ثابت ، وقيدار ، وقياس ، وآزر ، وذابل ، ومنشى ، ومشنى ، وطيما ، وقطوار ، وقبس ، وقيدمان ، ومسمع ، وماشي ، ورما.
وكان عمر إسماعيل عليه السلام فيما يذكرون مائة وثلاثين سنة . فمن ثابت بن إسماعيل وقيدار نشر الله العرب . وكان أكبرهم قيدار وثابت ابنا إسماعيل . وكان من حديث جرهم وبني إسماعيل ، أن إسماعيل لما توفي دفن في الحجر مع أمه ، فولي البيت ثابت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليه.

ثم توفي ثابت بن إسماعيل ، فولي البيت بعده مضاض بن عمرو الجرهمي وهو جدّ ثابت بن إسماعيل أبو أمه ، وضمّ بني ثابت بن إسماعيل وبني إسماعيل إليه ، فصاروا مع جدهم مضاض ومع أخوالهم من جرهم ، وجرهم وقطورا يومئذ أهل مكة ، وعلى جرهم مضاض بن عمرو ملكا عليهم ، وعلى قطورا رجل منهم يقال له السميدع ملكا عليهم.
وكانا حين ظعنا من اليمن أقبلا سيّارة ، وكانوا إذا خرجوا من اليمن لم يخرجوا إلا ولهم ملك يقيم أمرهم.

فلما نزلا مكة ، رأيا بلدا طيبا ، وإذا ماء وشجر ، فأعجبهما ، فنزلا به ، فنزل مضاض بن عمرو بمن معه من جرهم أعلى مكة وقيقعان ، فحاز ذلك . ونزل السميدع أجيادين وأسفل مكة.
وكان مضاض بن عمرو يعشر من دخل مكة من أسفلها ، ومن كدى ، وكل في قومه على جباله لا يدخل واحد منهما على صاحبه في ملكه.

ثم إن جرهم وقطورا بغى بعضهم على بعض ، وتنافسوا الملك بها ، واقتتلوا بها ، حتى نشبت أو شبّت الحرب بينهم . وولاة الأمر بمكة مضاض بن عمرو ، وبنو ثابت بن إسماعيل ، وبنو إسماعيل ، وإليه ولاية البيت دون السميدع . فلم يزل بهم البغي حتى سار بعضهم إلى بعض ، فخرج مضاض بن عمرو من قيقعان في كتيبة سائرا إلى السميدع ، ومعه كتيبة عدّتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب ، تقعقع بذلك .
ويقال : ما سمّيت قيقعان إلا بذلك.

وخرج السميدع بقطورا من أجياد معه الخيل والرجال . ويقال : ما سمي أجياد إلا لخروج الخيل الجياد مع السميدع حتى التقوا بفاضح . فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل السميدع

وفضحت قطورا . ويقال : ما سمي فاضح فاضحا إلا لذلك . ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح ، فساروا حتى دخلوا المطابخ شعبا بأعلى مكة ، يقال له شعب عبد الله بن عامر بن كرين بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس . فاصطلحوا بذلك الشعب ، وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو . فلما جمع عمرو أهل مكة وصار ملكها دون السميدع ، نحر للناس وأطعمهم ، فأطبخ للناس فأكلوا .
فيقال : ما سمي المطابخ إلا لذلك .
قال : فكان الذي كان بين مضاض بن عمرو والجرهمي في ذلك الحرب بذكر السميدع وقتله وبغيه والتماسه ما ليس له:
ونحن قتلنا سيد القوم عنوة * فأصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبقى أن يكون سواءنا * بها ملك حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين جاول ملكنا * وعالج منّا غصّة تتجرع
فنحن عمّرنا البيت كنا ولاته * نحامي عنه من أتانا وندفع
وكنّا ملوكا في الدهور التي مضت * ورثنا ملوكا لا ترام فتوضع

قال أبو الوليد : قال ابن إسحاق : وقد زعم بعض أهل العلم إنما سمّيت المطابخ لما كان تبّع نحر بها ، وأطعم بها ، وكانت منزله . قال : ثم نشر الله بني إسماعيل بمكة ، وأخوالهم جرهم إذ ذاك الحكّام بها ، وولاة البيت ، كانوا كذلك بعد ثابت بن إسماعيل.

فلما ضاقت عليهم مكة ، وانتشروا بها ، انبسطوا في الأرض ، وابتغوا المعاش والتفسح في الأرض .
ولا يأتون قوما ، ولا ينزلون بلدا ، إلا أظفرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم وغلبوهم عليها ، حتى ملكوا البلاد ، ونفوا عنها العماليق ، ومن كان ساكنا بلادهم التي كانوا اصطلحوا عليها من غيرهم . وجرهم على ذلك بمكة ولاة البيت لا ينازعهم إياه بنو إسماعيل لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظام الحرم أن يكون فيه بغي وقتال.

قال أبو الوليد : وحدثني بعض أهل العلم ، قالوا : كانت العماليق هم ولاة الحكم بمكة ، فضيّعوا حرمة الحرم ، واستحلوا منه أمورا عظاما ، ونالوا ما لم يكونوا ينالوا ، فقام رجل منهم يقال له عموق فقال : يا قوم ، اتقوا الله على أنفسكم ، فقد رأيتم وسمعتم من أهلك من صدر الأمم قبلكم ، قوم صالح ، وهود ، وشعيب ، فلا تفعلوا ، وتوصلوا ، فلا تستخفوا بحرمة حرم الله ، وموضع بيته ، وإياكم والظلم فيه والإلحاد ، فإنه ما سكنه أحد قد فظلم فيه وألحد إلا قطع الله دابرهم ، واستأصل شأفتهم ، وبدّل أرضها غيرهم ، حتى لا يبقى لهم باقية . فلم يقبلوا منه ذلك ، وتمادوا في هلكة أنفسهم.

قالوا : ثم إن جرهما وقطورا خرجوا سيّارة من اليمن ، فأجدبت عليهم ، فساروا

بذراريهم وأنفسهم وأموالهم ، وقالوا : نطلب مكانا فيه مرعى نسمّن فيه ماشيتنا ، فإن أعجبنا أقمنا به ، فإن كل بلد نزل به أحد ومعه ذريّته وماله فهو وطنه ، وإلا رجعنا إلى بلادنا.
فلما قدموا مكة وجدوا ماء معينا ، وعضاها ملتفة من سلم وسمر ، ونباتا يسمّن مواشيهم ، وسعة من البلاد ، ودفاء من البرد في الشتاء.
فقالوا : إن هذا الموضع يجمع لنا ما نريد . فأقاموا مع العماليق ، فكان لا يخرج من اليمن قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ، وكان ذلك سنّة فيهم ، ولو كانوا نفرا يسيرا.
وكان مضاض بن عمرو ملك جرهم ، والمطاع فيهم.

وكان السميدع ملك قطورا ، فنزل مضاض بن عمرو على مكة ، فكان يعشر من دخلها من أعلاها ، وكان ناحيتهم وجه الكعبة ، الركن الأسود ، والمقام ، وموضع زمزم ، مصعدا يمينا وشمالا ، وقيقعان إلى أعلى الوادي .
ونزل السميدع أسفل مكة ، وإلى أجيادين ، وكان يعشر من دخل مكة من أسفلها . فكان حوزهم المسفلة ظهر الكعبة ، والركن اليماني والغربي ، وأجيادين ، والثنية إلى الرمضة . فبنيا فيها البيوت ، واتّسعا في المنازل ، وكثروا على العماليق ، فنازعتهم العماليق ، فمنعتهم جرهم ، وأخرجوهم من الحرم كله ، فكانوا في أطرافه لا يدخلونه . فقال لهم صاحبهم عموق : ألم أقل لكم لا تستخفوا بحرمة الحرم فغلبتموني ؟

فجعل مضاض والسميدع يقطعان المنازل لمن ورد عليهما من قومهما ، وكثروا ، وأعجبهم البلاد ، وكانوا قوما عربا ، وكان اللسان عربيا.

وكان إبراهيم خليل الله يزور إسماعيل ، فلما سمع بلسانهم وأعرابهم ، سمع كلاما حسنا ، ورأى قوما عربا ، وكان إسماعيل قد أخذ بلسانهم.

أمر إسماعيل أن ينكح فيهم ، فخطب إلى مضاض بن عمرو بنته دعلة ، فزوّجه إياها ، فولدت له عشر ذكور ، وهي زوجته التي غسلت رأس إبراهيم حين وضع رجله على المقام.

قال : وتوفي إسماعيل ، وترك ولدا من دعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، فقام مضاض بأمر ولد إسماعيل وكفلهم ، لأنهم بنو ابنته ، فلم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ، فكانوا ولاة البيت وحجابه ، وولاة الأحكام بها ، ثم إن جرهما استخفت بأمر البيت والحرم ، وارتكبت أمورا عظاما وأحدثوا إحداثا لم تكن ، فقام مضاض بن عمرو بن الحرث بن مضاض فيهم فقال:

يا قوم ، احذروا البغي فإنه لا بقاء لأهله ، قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق ، استخفوا بأمر الحرم فسلطكم الله عليهم فأخرجتموهم ، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ، ولا تظلموا من دخله وجاءه معظّما ، أو جاء بائعا ، أو مترغّبا في جواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوّفت أن تخرجوا منه خروج ذلّ وصغار.
فقال له مجدع : من الذي يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالا وسلاحا ؟

فقال له مضاض:
إذا جاء الأمر بطل ما تقولون ، فلم يقصروا عن شيء مما كانوا يصنعون ، وكانت لهم خزانة بئر في بطن البيت يلقي فيه الحلي والمتاع الذي يهدى له ، وهو يومئذ لا سقف له ، فتواعد له خمسة نفر من جرهم أن يسرقوا ما فيه ، فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم ، واقتحم الخامس ، فجعل الله أعلاه أسفله ، وسقط منكسا فهلك ، وفرّ الأربعة الآخرون.

ومن ذلك الوقت بعث الله حية سوداء الظهر بيضاء البطن ، رأسها مثل رأس الجدي ، فحرست البيت خمسمائة سنة.

كتاب حكيم إلى حكيم
روينا من حديث الدينوري ، عن محمد بن إسحاق ، نبأ هارون بن معروف قال:
كتب حكيم إلى حكيم:
أما بعد ، فقد أصبحنا وبنا من نعم الله ما لا نحصيه ، ولا ندري أيهما أشكر : أشكر جميل ما ينشر ؟ أم قبيح ما يستر ؟
وحدثنيه أيضا عن محمد بن يونس ، عن الأصمعي قال : قيل لمحمد بن واسع:
كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت موفورا بالنّعم ، وربنا يتحبب إلينا وهو غني عنّا ، ونتبغّض إليه بالمعاصي ونحن إليه فقراء.

ألا لو سمعت البدر بن المختار يقول ، وقد رأى عليّ ثوبا أحمر : الحمرة أجمل ، والخضرة أنبل ، والسواد أهول ، والبياض أفضل.

حدثنا يونس بن يحيى ، نبأ محمد بن عمرو بن يوسف ، نبأ أبو بكر بن ثابت ، عن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، عن أبي عصمة محمد بن أحمد بن عباد العبادي ، عن أبي علي الحسين بن محمد بن مصعب ، عن محمد بن عبد الله الواسطي ، عن العلاء بن عبد

الجبار ، عن نافع بن الجمحي قال : قالت أم محمد بن المنكدر لابنها : يا بنيّ ، إني أشتهي أن أراك نائما.
قال : يا أمه ، إن الليل لمهجم عليّ فيهولني ، فيدركني الصبح ولم أقض منه وطري.
حدثنا محمد بن محمد ، عن هبة الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الكريم ، قال:
أنشدني عبد الكريم بن هوازن القشيري إملاء لنفسه:
المرء من هذّب أحواله * وكان عن دعواه أقواله
تصاغر الإنسان في نفسه * أوفى لمعناه وأقوى له
وإن من يحمد أفعاله * أخاف أن ترجع أفعى له

وبه قال : أنشدني القشيريّ لنفسه:
يا نسيم الشمال بلّغ خطابي * واشف مني الجوى بحمل الجواب
طف بساحات ذلك الربع واحمل * ذرّة من تراب ذاك الباب
واهدها من متيّم مستهام * دائم الكرب ذائب الأتراب
قل لمولاي والذي ملء نفسي * والذي فيه ذلّتي وانتحابي
كنت أخشى الوشاة فيك ولكن * جفوة الحب لم تكن في حسابي

روينا من حديث ابن مروان قال : حدثنا علي بن الحسن ، حدثني أبي ، قال : جاء أعرابي إلى ابن طاهر وهو راكب فأنشده:
سألت عن المكارم أين صارت * فكل الناس أرشدني إليكا
فجد لي يا ابن طاهر أن فعلي * سيثني بالذي تولى عليكا
فقال له : كم ثمن هذين البيتين ؟ قال : ألفا درهم . قال : لقد أرخصت يا غلام ، أعطه أربعة آلاف درهم ، ثم أنشد:
صدقت ظني وظن الناس كلهم * فأنت أكرمهم نفسا وأجدادا
لا زلت في روضة خضراء واسعة * فأنت أخضرها روضا وأعوادا
فقال : يا غلام ، أعطه أربعة آلاف أخرى .
فقال:
لو كان قولي بهذا الشعر مستمعا * لكنت أحوى خراج الشرق والغرب
أنت الكريم الذي يعطي بلا نكد * وأنت تحيي الفتى قد مات من جدب
فقال ابن طاهر للغلام : أعطه أربعة آلاف درهم أخرى . فلما قبضها قال : أيها الأمير ، فملّني شعر ، ولم يضق صدرك.

همة شريفة وزهد كريم

قلت : دخلت مسجد العماد بن الحدوس بالموصل على المهذب ثابت بن عنبر الحلويّ ، وكان رفيع الهمة من أزهد الناس ، وكان يغلب عليه الأدب ، فاستنشدته في حاله ، فأنشدني ونحن في جماعة ، وهو من التجنيس:

إذا قنعنا بأدام بقلنا * وخلنا من الخلّ فخلنا
من ذكر لذّات الوجود * من التّرك خلنا
ففقرنا بخلنا على * ثراء من الخلة خلنا

من آثر آخرته على دنياه وغلب عقله على هواه

حدثنا عبد الرحمن ، نبأ عمر بن ظفر ، نبأ جعفر بن أحمد ، نبأ عبد العزيز بن علي ، نبأ أبو الحسن الصوفي ، قال : سمعت محمد بن داود قال : حدثني أبو الحسن اللؤلؤي قال:
كنت في البحر ، فانكسر المركب وغرق كل ما فيه . وكان في وطائي لؤلؤ قيمته أربعة آلاف دينار . وقربت أيام الحج وخف الفوات . فلما سلّم الله روحي ، ونجّاني من الغرق مشيت ، فقال لي جماعة كانوا في المركب : لو توقفت عسى أن يجيء من يخرج شيئا فيخرج لك من رحلك شيئا . فقلت : قد علم الله عز وجل ما مرّ مني ، وفي وطائي شيء قيمته أربعة آلاف دينار ، وما كنت الذي أؤثره على وقفتي بعرفة .
فقالوا : وما الذي ورثك هذا ؟ فقلت : أنا رجل مولع بالحج ، أطلب الربح والثواب ، فحججت في بعض السنين ، وعطشت عطشا شديدا ، فأجلست عديلي في وسط محملي ، ونزلت أطلب الماء ، والناس قد عطشوا ، فلم أزل أسأل رجلا رجلا ومحملا محملا : معكم ماء ؟
وإذا الناس شرع واحد ، حتى صرت في ساقة القابلة بميل أو ميلين ، فمررت بمصنع وصهريج ، وإذا رجل فقير جالس في أرض المصنع والماء ينبع من موضع العصا ، وهو يشرب ، فنزلت إليه ، وشربت حتى رويت ، وجئت إلى القافلة والناس قد نزلوا ، فأخرجت قربة ومضيت فملأتها ، فرآني الناس ، فتبادروا بالقرب ، فرووا عن آخرهم ، فلما روي الناس ، وسارت القافلة ، جئت لأنظر ،
وإذا البركة ملئت تلتطم أمواجها ، فموسم يحضره مثل هؤلاء يقولون:

اللهم اغفر لمن حضر هذا الموقف ولجماعة المسلمين ، أؤثر عليه الدنيا ، لا والله ، وترك اللؤلؤ وجميع قماشه . قال الشيخ : فبلغني أن قيمة ما كان غرق له خمسين ألف دينار.
ومما تضمنه الأشواق قول بعض العشاق ، يصرفه الصالحون في التخلف عن السياق ، المسارعين إلى مرضاة الله ومغفرته:

شيّعتهم فاسترابوني فقلت لهم * إني بعثت مع الأجمال أحدوها
قالوا فما نفس يعلو كذا صعدا * وما لعينك لا ترقأ مآقيها
قلت التنفس من أدمان سيركم * والعين تذرف دمعا من قذى فيها
روحي تسير إذا سارت ركائبكم * فإن عزمتم على قتلي فحثّوها

حدثنا عبد الرحمن بن علي الجوزي كتابة قال : وصلني كتاب من بعض إخواني من الحاج يتضمن الاستيحاش لي في طريق مكة ، فهيّج شوقي إلى تلك الأماكن .
قال : فكتبت إليه أبياتا منها:
أتراكم فالنقا فالمنحنا * يوم سلع تذكرونا ذكرنا
انقطعنا ووصلتم فاعلموا * واشكروا المنعم يا أهل منى
قد ربحتم وخسرنا فصلوا * بفضول الربح من قد غبنا
يا سقى الله الحمى أنتم به * ورعى تلك الرّبى والدمنا
سار قلبي خلف أجمالكم * غير أن الوهن عاق البدنا
ما قطعتم واديا إلا وقد * جئته أسعى بأقدام المنى
إن سقيتم ديمة هاطلة * فدموعي قد جرت لي أعينا
وأنادي كلما لبّيتم * في فؤادي أسفا وا حزنا
بدني نضو لأبدانكم * والذي أقلقني أني هنا
آه وا شوقي إلى ذاك الحمى * شوق محزون حليف شجنا
سلّموا مني على أربابه * أخبروهم أنني حلف الضنا
أنا مذ غبتم على تذكاركم * أتراكم عندكم ما عندنا
عرفكم تعرفه ريح الصبا * كلما مرّت به مرّ بنا
درّ درّ الوصل ما أعذبه * ليته يرضى بروحي ثمنا
زمنا مذ زال أولى زمنا * فأعاد الله ذاك الزمنا

روينا من حديث ابن مروان ، نبأ محمد بن عمرو ، نبأ محبوب بن المكرم قال:
قال يوسف بن أسباط : تخليص النية من فسادها أشدّ على العالمين من طول الاجتهاد.
روينا عن محمد بن يونس ، عن الأصمعي ، عن أبي الأشهب ، عن الحسن أنه قيل له : ما الإيمان ؟
قال : الصبر والسماحة . فقيل : ما الصبر والسماحة ؟
قال : الصبر عن محارم الله ، والسماحة بفرائض الله.

مجنون وعظ عاقلا فما ظنك بعاقلهم
قال ابن حبيب : قال عبد الله بن خالد الطوسي : لما خرج الرشيد إلى مكة ماشيا من أجل يمينه ، فرش له من العراق إلى الحجاز اللبود والمرعزي ، فاستند يوما وقد تعب إلى ميل ، فإذا بسعدون المجنون قد عارضه فقال:
هب الدنيا تواتيكا * أليس الموت يأتيكا
فما تصنع الدنيا بالدنيا * وظلّ الميل يكفيكا
ألا يا طالب الدنيا * دع الدنيا لشانيكا
كما أضحكك الدهر * كذاك الدهر يبكيكا

فشهق الرشيد شهقة وخرّ مغشيا عليه ، حتى فاتته ثلاث صلوات . ثم قال:
الحمد لله ثم الحمد لله * ما ذا على الأرض من ساه ولا ولاه
ما ذا يعاين ذو عينين من عجب * يوم الخروج من الدنيا إلى الله
ومن شعر المهدي محمد بن عبد الله بن تونارت في عبد المؤمن بن علي يقول:
تكاملت فيك أخلاق خصصت بها * فكلّنا بك مسرور ومغتبط
السنّ ضاحكة والكفّ مانحة * والصدر متّسع والوجه منبسط

خبر رويناه في مواقف يوم القيامة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة
حدثنا يونس بن يحيى بمكة تجاه الكعبة المعظمة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال:
أنا أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي ، أنا أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن موسى بن جعفر المعروف بابن الخياط المقرئ قال:
قرأ عليّ ابن سهل محمود بن عمر بن إسحاق العكبري ، وأنا أسمع ، قيل له:
حدثكم أبو بكر محمد بن الحسن النقاس ، نبأ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الطبري البروزي ، ثنا محمد بن حميد الرازي أبو عبد الله ، نبأ سلمة بن صالح ، انا القاسم بن الحكم ، عن سلام الطويل ، عن غياث بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، وزيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود قال:
كنت جالسا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعنده ابن عباس ، وحوله عدة جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال علي:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في القيامة لخمسين موقفا ، كل موقف منها ألف سنة » .

فأول موقف ، إذا خرج الناس من قبورهم ، يقومون على أبواب قبورهم ألف سنة ، عراة حفاة جياعا عطاشا ، فمن خرج من قبره مؤمنا بربه ، مؤمنا بنبيّه ، مؤمنا بجنّته وناره ، مؤمنا بالبعث والقيامة ، مؤمنا بالقضاء والقدر خيره وشره من الله ، مصدّقا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه ، نجا وفاز وغنم وسعد.
ومن شك في شيء من هذا بقي في جوعه وعطشه وغمّه وكربه ألف سنة ، حتى يقضي الله فيه بما يشاء . ثم يساقون من ذلك المقام إلى المحشر ، فيقفون على أرجلهم ألف عام في سرادقات النيران ، في حر الشمس ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، والنار من بين أيديهم ، والنار من خلفهم ، والشمس من فوق رؤوسهم ، ولا ظل إلا ظل العرش.
فمن لقي الله تبارك وتعالى شاهدا له بالإخلاص ، مقرّا بنبيّه صلى الله عليه وسلم ، بريئا من الشرك ومن السحر ، وبريئا من إهراق دماء المسلمين ، ناصحا لله ورسوله ، محبّا لمن أطاع الله ورسوله ، مبغضا لمن عصى الله ورسوله ، استظل تحت ظل عرش الرحمن عز وجل ، ونجا من غمّه.
ومن حاد عن ذلك ، ووقع في شيء من هذه الذنوب بكلمة واحدة ، أو تغيّر قلبه ، أو شك في شيء من دينه ، بقي ألف سنة في الحر والهمّ والعذاب ، حتى يقضي الله فيه بما يشاء . ثم تساق الخلق من النور إلى الظلمة فيقومون في تلك الظلمة ألف عام.
فمن لقي الله تبارك وتعالى لم يشرك به شيئا ، ولم يدخل في قلبه شيء من النفاق ، ولم يشكّ في شيء من أمر دينه ، وأعطى الحق من نفسه ، وقال الحق ، وأنصف الناس من نفسه ، وأطاع الله عز وجل في السر والعلانية ، وقضى بقضاء الله ، وقنع بما أعطاه الله ، خرج من الظلمة إلى النور في مقدار طرفة عين مبيضّا وجهه ، وقد نجا من الغموم كلها.
ومن خالف في شيء منها بقي في الغم والعذاب ألف سنة ، ثم خرج منها مسودّا وجهه ، وهو في مشيئة الله يفعل به ما يشاء . ثم يساق الخلق إلى سرادقات الحساب ، وهو عشر سرادقات ، يقفون في كل سرادق منها ألف سنة . فيسأل ابن آدم عند أول سرادق منها عن المحارم ، فإن لم يكن وقع في شيء منها جاز إلى السرادق الثاني ، فيسأل عن الأهواء ، فإن كان نجا منها جاز إلى السرادق الثالث ، فيسأل عن عقوق الوالدين ، فإن لم يكن عاقّا جاز إلى السرادق الرابع ، فيسأل عن حقوق من فوّض الله أمرهم إليه ، وعن تعليمهم القرآن ، وعن أمر دينهم وتأديبهم ، فإن كان قد فعل جاز إلى السرادق الخامس ، فيسأل عما ملكت يمينه ، فإن كان محسنا إليهم جاز إلى السرادق السادس ، فيسأل عن حق قرابته ، فإن كان قد أدى حقوقهم جاز إلى السرادق السابع ، فيسأل عن صلة الرحم ، فإن كان وصولا

لرحمه جاز إلى السرادق الثامن ، فيسأل عن الحسد ، فإن كان لم يكن حاسدا جاز إلى السرادق التاسع ، فيسأل عن المكر ، فإن لم يكن مكر بأحد جاز إلى السرادق العاشر ،
فيسأل عن الخديعة ، فإن لم يكن خدع أحدا نجا ، فنزل في ظل عرش الله عز وجل ، مقرّة عينه ، فرحا قلبه ، ضاحكا فاه . وإن كان قد وقع في شيء من هذه الخصال بقي في كل موقف منها ألف عام ، جائعا ، عطشا ، باكيا ، حزينا ، مهموما مغموما ، لا تنفعه شفاعة شافع .
ثم يحشرون إلى أخذ كتبهم بأيمانهم وشمائلهم ، فيحبسون عن ذلك في خمسة عشر موقفا:
كل موقف منها ألف سنة .
فيسألون في أول موقف منها عن الصدقات وما فرض الله عليهم في أموالهم ، فمن أدّاها كاملة جاز إلى الموقف الثاني .
فيسأل عن قول الحق والعفو عن الناس ، فمن عفا عفي عنه ، وجاز إلى الموقف الثالث .
فيسأل عن الأمر بالمعروف ، فإن كان أمر بالمعروف جاز إلى الموقف الرابع .
فيسأل عن النهي عن المنكر ، فإن كان ناهيا عن المنكر جاز إلى الموقف الخامس .
فيسأل عن حسن الخلق ، فإن كان حسن الخلق جاز إلى الموقف السادس .
فيسأل عن الحب في الله ، والبغض في الله ، فإن كان محبّا في الله ، مبغضا في الله عز وجل جاز إلى الموقف السابع .
فيسأل عن المال الحرام ، فإن لم يكن أخذ شيئا جاز إلى الموقف الثامن .
فيسأل عن شرب الخمر ، فإن لم يكن شرب من الخمور شيئا جاز إلى الموقف التاسع .
فيسأل عن الفروج الحرام ، فإن لم يكن أتاها جاز إلى الموقف العاشر . فيسأل عن قول الزور ، فإن لم يكن قالها جاز إلى الموقف الحادي عشر .
فيسأل عن الأيمان الكاذبة ، فإن لم يكن حلفها جاز إلى الموقف الثاني عشر .
فيسأل عن أكل الربا ، فإن لم يكن أكله جاز إلى الموقف الثالث عشر .
فيسأل عن قذف المحصنات ، فإن لم يكن قذف المحصنات جاز إلى الموقف الرابع عشر .
فيسأل عن شهادة الزور ، فإن لم يكن شهدها جاز إلى الموقف الخامس عشر .
فيسأل عن البهتان ، فإن لم يكن بهت مسلما نزل تحت لواء الحمد ، وأعطي كتابه بيمينه ، ونجا من همّ الكتاب وهوله ، وحوسب حسابا يسيرا.
وإن كان قد وقع في شيء من هذه الذنوب الكبائر ، ثم خرج من الدنيا غير تائب من ذلك ، بقي في كل موقف من هذه الخمسة عشر موقفا ألف سنة في الهمّ والغمّ والهول والحزن والجوع والعطش ، حتى يقضي الله عز وجل فيه بما يشاء.
ثم يقام الناس في قراءة كتبهم ألف عام ، فمن كان سخيا قدّم ماله ليوم فقره وحاجته وفاقته ، قرأ كتابه ، وهوّن عليه قراءته وكسي من ثياب الجنة ، وتوّج من تيجان الجنة ، وأقعد تحت ظل العرش عز وجل آمنا مطمئنا.

وإن كان بخيلا لم يقدّم ماله ليوم فقره وفاقته ، أعطي كتابه بشماله ، ويقطع له من مقطعات النيران ، ويقام على رؤوس الخلائق ألف عام في الجوع والعطش والعري والهمّ والغم والحزن والفضيحة ، حتى يقضي الله عز وجل فيه بما يشاء . ثم يحشر الناس إلى الميزان ، فيقومون عند الميزان ألف عام ، فمن رجح ميزانه بحسناته فاز ونجا في طرفة عين ، ومن خفّ ميزانه من حسناته ، وثقلت سيئاته ، حبس عند الميزان ألف عام في الهمّ والغمّ والحزن والعذاب والجوع والعطش ، حتى يقضي الله فيه بما يشاء.

ثم يدعى بالخلق إلى الموقف بين يدي الله تبارك وتعالى في اثني عشر موقفا ، كل موقف منها مقدار ألف عام ، فيسأل في أول موقف عن عتق الرقاب ، فإن كان أعتق رقبة أعتق الله رقبته من النار وجاز إلى الموقف الثاني . فيسأل عن القرآن وحقه وقراءته ، فإن أتى بذلك تاما جاز إلى الموقف الثالث . فيسأل عن الجهاد ، فإن جاهد في سبيل الله محتسبا جاز إلى الموقف الرابع .

فيسأل عن الغيبة ، فإن لم يكن اغتاب جاز إلى الموقف الخامس.

فيسأل عن النميمة ، فإن لم يكن نمّاما جاز إلى الموقف السادس .

فيسأل عن الكذب ، فإن لم يكن كذابا جاز إلى الموقف السابع .

فيسأل عن طلب العلم ، فإن كان طلب العلم وعمل به جاز إلى الموقف الثامن .

فيسأل عن العجب ، فإن لم يكن معجبا بنفسه في دينه أو دنياه أو في شيء من عمله جاز إلى الموقف التاسع .

فيسأل عن الكبر ، فإن لم يكن تكبّر على أحد جاز إلى الموقف العاشر .

فيسأل عن القنوت من رحمة الله عز وجل ، فإن لم يكن قنت من رحمة الله عز وجل جاز إلى الموقف الحادي عشر .

فيسأل عن الأمن من مكر الله ، فإن لم يكن آمن من مكر الله عز وجل جاز إلى الموقف الثاني عشر .

فيسأل عن حق جاره ، فإن كان أدى حق جاره أقيم بين يدي الله عز وجل قريرا عينه ، فرحا قلبه ، مبيضّا وجهه ، كاسيا ، ضاحكا ، فرحا ، مستبشرا . فيرحب به ربه تبارك وتعالى ، ويبشّره برضاه عنه ، فيفرح عند ذلك فرحا لا يعلمه أحد إلا الله عز وجل.

فإن لم يأت واحدة منهن تامة ، ومات غير تائب ، حبس عند كل موقف ألف عام ، حتى يقضي الله عز وجل فيه بما يشاء.

ثم يؤمر بالخلائق إلى الصراط ، وقد ضربت عليه الجسور على جهنم أرقّ من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، وقد غابت الجسور في جهنم مقدار أربعين ألف عام ، ولهيب جهنم بجانبها يلتهب ، وعليها حسك وكلاليب وخطاطيف .

وهي سبع جسور يحشر العباد كلهم عليها ، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام : ألف عام صعود ، وألف عام استواء ، وألف عام هبوط . وذلك قول الله عز وجل : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ يعني على تلك

الجسور ، وملائكة يرصدون الخلق عليها لتسأل العباد عن الإيمان بالله عز وجل ، فإن جاء به مؤمنا مخلصا لا شك فيه ولا ريب ولا زيغ ، جاز إلى الجسر الثاني .
فيسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث .
فيسأل عن الزكاة ، فإن جار بها تامة جاز إلى الجسر الرابع .
فيسأل عن الصيام ، فإن جاء به تاما جاز إلى الجسر الخامس .
فيسأل عن حجة الإسلام ، فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر السادس .
فيسأل عن الطهر ، فإن جاء به تاما جاز إلى الجسر السابع .
فيسأل عن المظالم ، فإن لم يكن ظلم أحدا جاز إلى الجنة.
وإن كان قصّر في واحدة منهن جلس على كل جسر منها ألف سنة ، حتى يقضي الله فيه بما يشاء.
فقال عبد الرحمن بن غنم : قال عبد الله بن مسعود : فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنا يا رسول الله نراك يوم القيامة في هذه المواطن كلها ، ولا تغيب عنّا ولا نغيب عنك حتى يفترق الناس إلى الجنة وإلى النار ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشأن يومئذ أعظم من ذلك ، والحوائج إلى الله عز وجل يومئذ أكثر من ذلك . ولكن إذا لم تروني في بعض هذه الحالات فأنا بين يدي الله عز وجل أشفع إلى الله عز وجل وأطلب ، أو عند أبواب الجنة أستفتحها ، فيفتح لي فأدخلها ، فأبشّر خدمكم وغلمانكم وأزواجكم بأنكم على أثري ، وآمرهم أن يعدّوا لكم فيستعدوا ، فيا لها من بشارات ويا لها من أصوات الجواري ، يدعو بعضها بعضا ، والغلمان يسعى بعضهم إلى بعض ، والمجامير تسطع في كل ناحية ، والأزواج على الأرائك ينظرون ، والرجال والنساء يساقون إلى الجنة زمرة زمرة ، وإلى الله يضحكون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون . فهنيئا مريئا لعباد الله الصالحين ، عباد رب العالمين .
والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل منهم ليستقبله من حين يدخل الجنة من بين وليد ووليدة ، وغلام وجارية ، وقهرمان وملك من الملائكة ، كلّ معه تحفة وطرفة وهدية يتحفونه بها ، ويسعون حواليه ، وبين يديه أكثر من ثلاثة آلاف كاللؤلؤ والمرجان ، ويتلقاه سبعون ألف ملك مع كل ملك منهم فرس ونجيب من ياقوت أحمر وأصفر ومرجان .
للخيل صهيل ، وللإبل رغاء ، ولا يعرقن ، ولا يرثن ، ولا يبلن ، ولا يمرضن ولا يهزلن ، ولهن أجنحة إذا شاءوا طارت بهم في الجنة ، وهنّ في السرعة أسرع من الطيور .
وإن في الجنة طيورا لا تؤكل ، لها رؤوس مثل الجبال ، أحسن ما خلق الله خلقا وريشا وأصواتا وكلاما ، لكل طير منها سبعون جناحا في منكبه ، وإن الطير الواحد منها ليظل الدنيا كلها بجناحه إذا نشره وبسطه ، يكونون على غرفهم قياما صفوفا ، يسبّحون الله عز وجل ويحمدونه ، ويقدّسونه العزيز الجبار بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها ، فيطرب أولياء الله بذلك طربا لم يطربوا قبله بشيء مما سمعوا ، ما خلا كلام الرحمن الملك

الجبار ، فإنه يسمعهم كلامه ، ويكلمهم ويناديهم ، ويقول لهم : سلام عليكم عبادي ، ومرحبا بكم ، حيّاكم الله ، سلام عليكم من الرحمن الرحيم الحي القيوم . طبتم فادخلوها خالدين ، طابت لكم الجنة ، فطيّبوا أنفسكم بالنعيم المقيم ، والثواب من الكريم والخلود الدائم .
أنتم المؤمنون الآمنون ، وأنا الله المؤمن المهيمن ، شققت لكم اسما من أسمائي ، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .
أنتم أوليائي ، وجيراني ، وأصفيائي ، وخاصتي ، وأهل محبتي . وفي داري سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين . أنتم المسلمون ، وأنا السّلام ، وداري دار السلام .
سأريكم وجهي ، كما سمعتم كلامي ، فإذا تجلّيت لكم وكشفت عن وجهي الحجب فاحمدوني ، وادخلوا إلى داري غير محجوبين عني بسلام آمنين ، فأقدموا عليّ ، واجلسوا حولي حتى تنظروا إليّ وتروني من قريب ، فأتحفكم بتحفتي ، وأجيزكم بجوائزي ، وأخصّكم بنوري ، وأغشيكم بجمالي ، وأهب لكم من ملكي ، وأفاكهكم بضحكي ، وأغلفكم بيدي ، وأشممكم روحي.

أنا ربكم الذي كنتم تعبدوني ولم تروني ، وتدعوني ، وتحبوني ، وتخافوني.

فو عزّتي ، وجلالي وكبريائي ، وعلوّي ، وبهائي ، وسنائي ، إني عنكم راض ، وأحبّ ما تحبون ، ولكم عندي ما تشتهي أنفسكم ، وتلذّ أعينكم ، ولكم عندي ما تدعون ، وما شئتم ، وكلما شئتم أشاء . فسلوني ، ولا تختشوا ، ولا تستحيوا ، ولا تستوحشوا ، وإني أنا الله ، الجواد ، الغني ، الملئ ، الوفيّ الصادق.

وهذه داري وقد أسكنتموها ، وجنّتي قد أبحتكموها ، ونفسي قد أريتكموها . وهذه يدي ذات الندى والظلّ ، مبسوطة ممتدة عليكم ، لا أقبضها عنكم ، وأنا أنظر إليكم ، لا أصرف بصري عنكم ، فاسألوني ما شئتم واشتهيتم ، فقد آنستكم بنفسي ، وأنا لكم جليس وأنيس .
فلا حاجة ولا فاقة بعد هذا ، ولا بؤس ، ولا مسكنة ، ولا ضعف ، ولا هرم ، ولا سخط ، ولا حرج ، ولا تحويل أبدا سرمدا . نعيمكم نعيم الأبد ، وأنتم الآمنون ، المقيمون ، الماكثون ، المكرمون ، المنعمون .
وأنتم السادة الأشراف الذين أطعتموني ، واجتنبتم محارمي ، فارفعوا إليّ حوائجكم أقضيها لكم ، وكرامة ، ونعمة. «
قال : « فيقولون : ربنا ما كان هذا أملنا ، ولا أمنيتنا ، ولكن حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم أبدا أبدا ، ورضاء نفسك عنّا.
فيقول لهم العليّ الأعلى ، مالك الملك ، السخي الكريم ، تبارك وتعالى : فهذا وجهي بارز إليكم أبدا سرمدا ، فانظروا إليه ، وأبشروا ، فإن نفسي عنكم راضية ، فتمتعوا ، وقوموا إلى أزواجكم فعانقوا وأنكحوا ، وإلى ولائدكم ففاكهوا ، وإلى غرفكم فأدخلوا ،

وإلى بساتينكم فتنزّهوا ، وإلى دوابكم فاركبوا ، وإلى فرشكم فاتكئوا ، وإلى جواريكم وسراريكم في الجنان فاستأنسوا ، وإلى هداياكم من ربكم فاقبلوا ، وإلى كسوتكم فالبسوا ، وإلى مجالسكم فتحدثوا .
ثم قيلوا قائلة لا نوم فيها ، ولا غائلة في ظلّ ظليل ، وأمن مقيل ، ومجاورة الجليل ، ثم روحوا إلى نهر الكوثر والكافور والماء المطهّر والتسنيم والسلسبيل والزنجبيل ، فاغتسلوا وتنعّموا ، طوبى لكم وحسن مآب .
ثم روحوا ، فاتكئوا على الرفارف الخضر ، والعبقري الحسان ، والفرش المرفوعة ، والظلّ الممدود ، والماء المسكوب ، والفاكهة الكثيرة ، لا مقطوعة ، ولا ممنوعة. “
ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ. «
ثم تلا هذه الآية : أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا.

ومن إنشاء المولى مدّ الله ظله

يوم المعارج من خمسين ألف سنة * يطير عن كلّ نوّام به وسنه
والأرض من جزر عليه شاهدة * لا يأخذنها لما يقضي الإله سنه
فكن غريبا ولا تركن لطائفة * من الخوارج أهل الألسن اللّسنة
وإن رأيت امرأ يسعى لمفسدة * فخذ على يده تجزى به حسنه
ولتعتصم حذرا بالكهف من رجل * تريك فتنته يوما كمثل سنه
قد مدّ خطوته في غير طاعته * ولم يزل في هواه خالعا رسنه

ولنا أيضا من قصيدة:
مواقف الناس في القيامة * مواقف الحزن والندامة
وتلك خمسون لا خلاف * فيها ولكن لها علامه
خمسون ألفا لها زمان * من عامنا ما أمدّ عامه

وروينا من حديث ابن أبي الدنيا قال : نبأ هارون بن أبي سفيان ، نبأ عبد الله بن بكير السهمي ، عن عبادة بن شيبة الحيطي ، عن سعيد بن أنس ، عن أنس قال:
بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : « رجلان من أمتي جيئا بين يدي رب العالمين ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لي مظلمتي من أخي . فقال : أعط أخاك مظلمته . فقال : يا

رب ، لم يبق لي من حسناتي شيء . قال : يا رب ، فليحمل عني من أوزاري » .
وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء .
ثم قال : « إن ذلك ليوم عظيم ، يحتاج الناس فيه أن يحمل من أوزارهم » .
قال : « فقال الله عز وجل للطالب : ارفع رأسك فانظر إلى الجنان ، فرفع رأسه فقال : يا رب ، أرى مدائن من فضة ، وقصورا من ذهب ، مكلّلة باللؤلؤ . لأي نبيّ هذا ؟ لأي شهيد هذا ؟
قال : هذا لمن أعطاني ثمنه . قال : يا رب ، ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه.
قال : بما ذا يا رب ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يا رب ، قد عفوت عنه . قال الله تعالى: خذ بيد أخيك وأدخله الجنة » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة. «

قلب تأثر من صادق مؤثر

حدثنا أبو العباس أحمد بن مسعود بن شداد سنة إحدى وستمائة قال : نبأ أبو جعفر بن العاص قال : نبأ يوسف بن القاسم الديار بكري ، نبأ جمال الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد القرشي الهكاري ، نبأ أبو الحسن الكرخي ، نبأ أبو العباس أحمد بن محمد بن الفضل النهاوندي قال :

سمعت شيخي جعفر بن محمد الخلدي يقول:
كنت مع الجنيد رحمه الله في طريق الحجاز حتى صرنا إلى جبل طور سيناء ، فصعد الجنيد ، وصعدنا معه ، فلما وقفنا في الموضع الذي وقف فيه موسى عليه السلام ، وقع علينا هيبة المكان ، وكان معنا قوال فأشار إليه الجنيد أن يقول شيئا فقال:
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى * برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه * صعب الذرى متمنعا أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق * نظرا إليه وصدّه سبحانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه * والماء ما سمحت به أجفانه

قال : فتواجد الجنيد ، وتواجدا ، فلم يدر أحد منا أفي السماء أو في الأرض ؟ وكان بالقرب منا دير فيه راهب ، فنادانا : يا أمة محمد ، بالله أجيبوني ، فلم يلتفت إليه أحد لطيب الوقت .
فنادانا الثانية : بدين الحنيفية ألا أجبتموني ، فلم يجبه أحد ،
فنادى الثالثة:
بمعبودكم ألا أجبتموني ، فلم يردّ عليه أحد جوابا .
فلما فترنا من السماع وهمّ الجنيد بالنزول قلنا له : إن هذا الراهب نادانا وأقسم علينا ولم يردّ عليه أحد .
فقال الجنيد : ارجعوا بنا إليه لعل الله يهديه إلى الإسلام . وناديناه ، فنزل إلينا وسلّم علينا . وقال : أيما منكم الأستاذ ؟ فقال الجنيد : هؤلاء كلهم سادات وأساتذة .
فقال : لا بدّ أن يكون واحد هو

أكبركم . فأشاروا إلى الجنيد . فقال : أخبرني عن هذا الذي فعلتموه ، هو مخصوص في دينكم أو معموم ؟ فقال : بل مخصوص . فقال : لأقوام مخصوصين أو معمومين ؟ قال : بل لأقوام مخصوصين . فقال : بأي نية تقومون ؟
فقال : بنية الرجاء والفرح بالله عز وجل.
فقال : بأي نية تسمعون ؟ قال : بنيّة السماع من الله تعالى .
فقال : بأي نية تصيحون ؟ قال:
بنية إجابة العبودية للربوبية ، لما قال الله تعالى للأرواح في الذر : أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا .
قال : فما هذا الصوت ؟
قال : نداء ربي . فقال : بأي نية تقعدون ؟
قال : بنيّة الخوف من الله تعالى . قال : صدقت . ثم قال الراهب للجنيد : مدّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله . وأسلم الراهب وحسن إسلامه.
فقال الجنيد : بم عرفت أني صادق ؟
قال : لأني قرأت في الإنجيل المنزل على المسيح ابن مريم أن خواص أمة محمد صلى الله عليه وسلم يلبسون الخرقة ، ويأكلون الكسرة ، ويرضون بالبلغة ، ويقومون في صفاء أوقاتهم بالله يفرحون ، وإليه يشتاقون ، وفيه يتواجدون ، وإليه يرغبون ، ومنه يرهبون . فبقي الراهب معنا على الإسلام ثلاثة أيام ، ثم مات رحمه الله تعالى.

ليس يعني بقوله يلبسون الخرقة هذه الخرقة المعروفة بين هؤلاء الصوفية ، وإنما يعني بلباس الخرقة لباس المرقعات لا المشهرات وخلقات الثياب ، أي لا همّ لهم في ملابسهم ، إنما تهمهم في لباس التقوى الذي هو خير .
ولذلك قال : ويأكلون الكسرة ، أي لا يهتمون بما يجعلون في بطونهم من ملذوذات الأطعمة ، وإنما طعامهم ما تيسر حسابه ، وتيسر لهم لا غير ذلك.

من زعم أن ذا القرنين حميري

روينا من حديث ابن الواسطي ، قال : نبأ عمر بن الفضل بن المهاجر ، عن أبيه ، عن الوليد بن حماد الرملي ، عن محمد بن العباس ، عن عمران بن موسى البغدادي ، نبأ السلام بن داود ، نبأ أحمد بن نباتة ، عن سلمة بن أبي سلمة الأبرش ، عن محمد بن إسحاق ، عن أبي مالك بن ثعلبة بن أبي القرظي ، قال : سمعت إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله يحدث ، عن أبيه ، عن جده يرفعه ، قال:
إن ذا القرنين كان ابن رجل من حمير ، وكان قد وفد إلى الروم ، فأقام فيهم . وكان أبوه يسمى الفيلسوف لعقله وأدبه .
فتزوج في الروم امرأة من غسان ، وكانت على دين الروم ، فولدت ذا القرنين ، فسمّاه أبوه الإسكندر . فهو الإسكندر ابن الفيلسوف الحميري ، وأمه رومية غسانية.

قال ابن إسحاق : قال أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي : ولذلك يقول تبّع الحميري لما فخرنا بأجداده في قصيدة يفخر بذي القرنين ، جده الأكبر:
قد كان ذو القرنين جدي مسلما * ملك تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثأط حرمد

حدثنا محمد بن العباس ، قال عمران بن موسى ، قال السّام بن داود : وليس كل الناس يعلم أنه من حمير ، ولا يعرف أباه ، وإنما نسبته الروم إلى أمه لأن أباه مات وهو صغير ، وخلّفه في حجر أمه . ولقد كان أبوه من أهل الملك والثروة.

ولنا في باب الفخر
إذا فلّ سيفي لم تفلّ عزائمي * فلي عزمات شاحدات صوارمي
وإلا فسل عنا الفتى هل وفت لنا * وأسيافنا يوما بقدر عزائمي
لنا الجود إن كنا سلالة حاتم * وما زال مذ قلدته في تمائمي

ومن باب الحياء من الله تعالى والتصديق
ما رويناه من حديث الخرائطي قال : حدثنا علي بن حرب ، نبأ محمد بن فضيل ، نبأ عمارة بن القعقاع ، عن أبي ذرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، أي الصداقة أفضل وأعظم أجرا ؟
قال : « إن تتصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تهمل ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، وقد كان لفلان كذا. «

أنشدنا إسماعيل ، أنشدنا محمد بن يوسف ، أنشدنا محمد بن جعفر ، سمعت محمد بن يزيد المبرّد ينشد:
أمهد لنفسك في الحياة فإنما * يبقى أغناك لمصلح أو مفسد
فإذا جمعت لمفسد لم يبقه * وأخو الفلاح قليله يتزيّد

ومن حديثه عن علي بن حرب ، عن خالد بن يزيد العدوي بمكة ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة الاشبلي ، عن مسلم بن أبي مريم ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت :
بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والناس حوله ، وأنا في حجرتي ، سمعته يقول:

»استحيوا من الله حق الحياء » ، حتى ردّدها مرارا .
فقال رجل : إنا لنستحي من الله يا رسول الله . قال : « من كان يستحي من الله فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر القبور والبلى » . فما زال يردد ذلك حتى سمعتهم يبكون حول المنبر.

ومن باب الغربة عن الوطن

شرود الغريب عن الوطن كالفرس الذي زايل أرضه ، وفقد شربه . وهو ذاو لا ينمي ، وذابل لا يبصر . عسرك في بلدك أعز من يسرك في غربتك:
لقرب الدار في الإقتار خير * من العيش الموسّع في اغتراب
ولبعضهم:
ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرة * إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فاشرب من باب الحجيلاء شربة * يداوى بها قبل الممات عليل
فيا أثلات القاع من بطن يوضخ * حنيني إلى أطلالكن طويل
ويا أثلات القاع قلبي موكل * بكنّ ووجدي خيركنّ قليل
ويا أثلات القاع قد ملّ صحبتي * مسيري فهل في ظلكنّ مقيل
أريد انحدارا نحوها فيردّني * ويمنعني دين عليّ ثقيل
أحدّث نفسي عنك أن لست راجعا * إليك فحزني في الفؤاد دخيل
ومما نظمنا في الربيع وأزهاره وما حباه الرفيع بأزهاره
أما ترى الروضة الغنّاء تضحك إذ * جادت على الأرض بالأزهار أنواء
تبسم الأرض إذ تبكي السماء فهل * بين السماء وبين الأرض شحناء
لا والذي بضروب الزهر أضحكها * ما ثم شحناء لكن ثم أشياء
إن السماء تقول الزهر من زهري * والأرض تأبى الذي قالته والماء

وقفت على نظم حسن الترصيع ، ونثر في الربيع ، وزهر بديع ، لأبي علي بن شبل الشاعر:
عرائس الأرض تجلى في غلائلها * وفي حليّ عليها صاغها الديم
تستنّ في حلل الأنواء مذهبة * في كل حاشية من نسجها علم
درّ من الأقحوان الغضّ زينه * حمر اليواقيت في المنثور ينتظم
كأنما بالسماء الأرض شامتة * تبكي السماء وثغر الأرض يبتسم

ركز بها الصيف أعلامه وضرب سرادقاته وخيامه ، وأظهر على الدنيا إنعامه ، حين جاء يعزل الشتاء البريد ، وسلّم إلى الصيف كتاب التقليد ، فبعث جيوشه وسراياه ، ولاطف بتحفه وهداياه ، فصنائعه إلى الأرض مشكورة ، وآلاؤه على الروض منثورة ، إذ لبست أرديته ومطارفه ، وحليت وشيه وزخارفه ، وألقت نصيفها المعنبر ، وتخمّرت بخمارها الأخضر ، بين ثرى مصندل ، وندّ مكفّر ، ونسيم معطّر ، وفضاء مفضّض ، وجو مخلق ، وترابيع ميادين من الآس والرياحين مستنّة الطوارق ، مصفوفة النمارق ، مفروز بالنوار بساطها ، معلمة بالأزهار:
فكأنما ترنو العيون إلى * ملح من الديباج في الزهر
وكأنما تطأ اللحاظ على * وشي نمته أنامل القطر
وكأنما لبس النسيم بها * نشر الخزامى وحقة العطر

حليّ بها القطر عقوده ، ونشر بها ملاءه وبروده ، وكتب في رؤوس الشقاق عهوده ، وشيا ، ووشما ، ورقما:
كأن عهد الربيع يهواها * فقد كساها وشيا وحلّاها
فهي كبكر تزف في خلع * شتى يحوز الجمال معناها

كأنما حبتها الجنة بزخارفها ، والفراديس بطرائفها ، وغذّاها السلسبيل ماء النعيم ، وجرت في بروجها عين التنسيم ، والتحقت بزرابيها ونمارقها ، واشتملت بسندسها واستبرقها ، فهي تباري السماء في استدارة أفلاكها ، والنجوم في انتظامها واشتباكها:
غير أن النجوم تطلع في اللي * ل وهذي تضيء في الأصباح
زاهرات لها نسائم نشر * ناميات الجسوم في الأرواح
وكأن الأنواء إذ نيّمتها * قلدت كل روضة بوشاح

حط فيها الأقحوان لثامه ، ونثر منها المنثور نظامه ، فتبدّدت جمانه ، وتغيّرت ألوانه ، فاكذبا مشبههما بالثغور المبتسمة ، واليواقيت المنظمة ، وهبّ النسيم على سننه ، فنبّه السوسن من وسنه ، ولاح البنفسج حنيق الأوداج ، لازوردي التاج ، واسترد الورد من الخدود حمرته ، والسرو من القدود قامته ، واستحال لون العشاق في النهار ، وانتقل صبغ الوجنات إلى الجلنار ، وذاب العقيق على الشقيق ، فانقض منه شرر كالحريق ، وسالت سرح القطارب ، كأنها زبانات العقارب ، وفتح النرجس من الذهب عيونا ، وأدار لها من اللؤلؤ الرطب جفونا ، ومدّ من الزمرد الأخضر متونا ، كغصون زبرجد أثمرت درّا ، وأثمر درّها تبرا ، كأنما استعار الزعفران من أحداقها ألوانا ، والكافور من جفونها بياضا ولمعانا ،

فهي قضيب من زمرّد بحدق ذهب ، وسط فضة بيضاء ، واستدارت شرف اللينوفر على خوط أملود لين العمود ، كأنما خرط من الجزع اليماني ، مؤذنا بالفرح والتهاني ، تارة يشخص إلى السماء شخوص الباهت الحيران ، وتارة يعوم في الماء عوم الظمآن ، وتفتح الأدريون كالعيون الناظرة ، والنجوم الزاهرة ، كأنما توّجته الشمس بأصائلها فهو شعر:
مجوسيّ الصلاة فكل وجه * بدور إذ ضياء الشمس دارا
دنانير لطبع النقش فيها * سواد حول سكتها استدارا
تريك قلانس الديباج ليلا * وتيجانا مشبّكة نهارا

وخطرت القبول على الأغصان ، فتمايلت كتمايل النشوان ، وتناوحت أشجارها ، وتجاوبت أطيارها ، وهرجت بأصواتها ، وترنمت بلغاتها ، فملأت الأسماع زجلا ، وأخرست العيدان خجلا ، فكأنها قينات الأوراق سائرها ، أو خطباء الأغصان منابرها ، من هزارات مغرّدات ، ووراشين مطربات ، بأفانين معجبات ، وورق من حمامات صادحات ، بأطواق الملوك مقلدات ، تترنم في فروع الأيك شجوا فتلهى عن سماع المسمعات ، بإرجاء فدران ، مفعمة الجدران ، غمرة الجداول ، جمة المناهل ، ينقض ماؤها انقضاض الفضة المسبوكة ، ويطرد حبابها اطراد الزرد المحبوكة ، كفرند سيوف مصلتات ، أو كبطون حيات على الرمضاء ملتويات .
شعر:
وكأن السماء تنثر درّا * فوق أرض من سندس خضراء
وعبير يثير من عبرات * السّحب مسكا يفوح في الفيحاء
شغلتنا الأطيار حين تغنّت * في ذراها عن أطيب ذاك الغناء
والحمد لله الذي دلّ بظواهر صنعته ، على دقائق حكمته ، فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ.

ومن منثور الحكم وميسور الكلم
من اكتفى باليسير استغنى عن الكثير . من صحّ دينه صحّ يقينه .
من استغنى عن الناس آمن من عوارض الإفلاس . الدين أقوى عصمة والأمن أغنى نعمة .
الصبر عند المصائب من أعظم المواهب . عيشك ما عشت في ظلّ يقيك وقوت يكفيك .
البخيل حارس نعمة وخازن ورثة . من لزم الطمع عدم الورع .
الحسد شرّ عرض والطمع أضرّ عرض . الرضا بالكفاف خير من السعي للإسراف .
أفضل الأعمال ما أوجب الشكر وأنفع الأموال ما أعقب الأجر .
لا تثق بالدولة فإنها ظلّ زائل ، ولا تعتمد على النعمة فإنها ضيف راحل.

مالك ما رجى يوميك وتوفر أجره عليك . الكريم من كفّ أذاه والقوي من غلب هواه . من ركب الهوى أدرك العمى . من غالب الحق لان ومن تهاون بالدين هان . المؤمن عزيز كريم والمنافق خب لئيم .

مالك ما رجى يوميك وتوفر أجره عليك . الكريم من كفّ أذاه والقوي من غلب هواه . من ركب الهوى أدرك العمى . من غالب الحق لان ومن تهاون بالدين هان . المؤمن عزيز كريم والمنافق خب لئيم.

إذا ذهب الحياء يحل البلاء . كل إنسان طالب أمنية ومطلوب منيّة . علم لا ينفع كدواء لا ينجع . أحسن العلم ما كان مع العمل ، وأحسن الصمت ما كان عن الخطل.

اعص الجاهل تسلم وأطع العاقل تغنم . من صبر على شهوته بالغ في مروءته . من أكثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب .

من تمسك بالدين عزّ نصره ، ومن استظهر بالحق ظهر قدره . من استقصر بقاه وأجله قصر رجاه وأمله . لا تبت على غير وصية.

وإن كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة ، فإن الدهر خائن وما هو كائن كائن . لا تخلّ لنفسك من فكرة تزيدك حكمة أو تفيدك عصمة .

من جعل ملكه خادما لدينه انقاد له كل سلطان ، ومن جعل دينه خادما لملكه طمع فيه كل إنسان .

من سلك سبل الرشاد بلغ كنه المراد . من لزم العافية سلم ومن عدم النصيحة ندم . انتهى.

وقال : ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ، ولا من شرط الكرام إزالة النّعم . فلا تأخذ بالسهو ولا تزهد في العفو ، وارحم من دونك يرحمك من فوقك .

وأحسن إلى من تملك يحسن إليك من يملكك . وقس سهوه في معصيتك بعمدك في معصيته ، وفقره إلى رحمتك بفقرك إلى رحمته.

اغتنم صنائع الإحسان وارع ذمة الإخوان ، فمن منع برّا منع شكرا ، ومن ضيّع ذمة اكتسب مذمة . بالراعي تصلح الرعية وبالعدل تملك البرية .

من عدل في سلطانه استغن عن أعوانه . الظلم مسلبة للنعم والبغي مجلبة للنقم . أقرب الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم .

من أكثر العدوان لم يأمن حلول النقم ، ومن آثر الإحسان لم يعدم موائد النّعم . من ساءت سيرته لم يأمن أبدا ، ومن حسنت سيرته لم يخف أحدا .

من طال عدوانه زال سلطانه . من ظلم عق أولاده ، ومن بغى نصر أضداده . من ساء عزمه رجع عليه سهمه . من ساءت سيرته سرت منيّته.

من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلكه وفناؤه . من ظلم نفسه ظلم غيره ، ومن ظلم لغيره ظلم نفسه .

من أساء اجتلب البلاء ، ومن أحسن اكتسب الثناء . لأن تحسن وتكفر خير من أن تسيء وتشكر .

من أحسن فبنفسه بدا ، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى .

من طال تعدّيه كثر أعاديه . من قبح ملكه حسن هلكه . شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم . من مال إلى الحق مال إليه الخلق .

من أساء الاختيار أساء الجوار . من سلّ سيف العدوان سلب عن السلطان . من أساء النية منع الأمنية.

وصية من زاهد تحتوي على فوائد
روينا من حديث ثابت قال : نبأ محمد بن علي الأصبهاني قال : سمعت أبا حامد الطبري يقول : سمعت أبا بكر الشبلي يقول في وصيّته : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها فانظر إلى مزبلة ، فهي الدنيا . وإذا أردت أن تنظر إلى نفسك فخذ كفا من تراب ، فإنك منها خلقت وفيها تعود . ومتى أردت أن تنظر ما أنت فانظر ما يخرج منك في دخولك الخلاء ، فمن كان حاله كذلك فلا يجوز أن يتطاول ، أو يتكبر على من هو مثله.

أحسن ما قيل في المرحاض وهو مما يلحق بهذا الباب
كنا بإشبيلية في تربة أبي القاسم بن وافد ، ومعنا أبو بكر بن حجاج الشاعر ، والنقّاش ينقش باب المرحاض من التربة ، فقلت لابن حجاج : يا أبا بكر ، لو علمت شيئا ينقشه النقاش على باب هذا المرحاض . فارتجل على البديهة يقول على لسان حال المرحاض:
أنا سيّد الدار يا سيدي * على أن حقي لا ينكر
أعرف للناس أقدارهم * ويأبون إلا بأن يفخروا
فمن قال عني مستقذر * فلولاه ما كنت أستقذر

وليس على ذكري من الأبيات إلا ما ذكرنا وجملتها ستة أبيات.
ولنا في النحول من باب النسيب:
صيّرني حبك معقولا * بحكمه وكنت محسوسا
لطفت حتى لا يراني الهوى * فلم يجد عندي تعريسا
فقلت لم نفسك أنت الذي * ألبستني الضرّاء والبوسا
حتى تحيرت وحيرتني * بيس الذي فعلته بيسا
أفنيتني عنك وعني فلم * تجد مقيلا فيه تنفيسا
قد كنت ليثا كاسرا نابه * وكانت أحشاي لكم خيسا
جار الهوى واعتلّ في نفسه * فهل سمعتم بالهوى بوسا
فأين جالينوس يأسوه أو * محيي العبدّا بيننا عيسى

ولنا في اتحاد المحب في الهوى:
إن الهوى ما أنا للحب حامله * والحكم للحبّ في الأشخاص ليس لنا
مثل الصفات لدى قوم أشاعرة * فلا الهوى هو غيري لا ولا هو أنا

إن الهوى وأنا بالعين متحد * فإن أمت فيه وجدا أو أعش فبنا
لولا الجمال الذي بالحب كلّفنا * لم يهلك الوجد قلب الصبّ والبدنا
إن النظام لتدري ما أفوه به * وقد أشرت إليها مرة بمنى

ولنا في معاتبة القلب والبصر:
تقول عيني لقلبي إن فكرك قد * رمى الجفون بدمع الوجد والسهر
فقال قلبي لطرفي لا تقول كذا * بل أنت عرّضتني للفكر بالنظر
لولا الجمال الذي ألقت نواظركم * هواه في خلدي لم نبل بالفكر
فالعتب للقلب جور من معاتبة * وإنما العتب في التحقيق للبصر
وها أنا حكم بالعدل بينهما * لعلمنا بالذي فيه من الخبر

ولنا من باب منازلات الحب:
لما تحكّم عين الشمس في بصري * تمكن الحبّ بالسلطان في خلدي
وأنزل الجند في نفسي منازلهم * كالموجد والشوق والتبريح والكمد
فعند ما أخذوا مني منازلهم * ناديت من لهب الأشواق في كبدي
الحبّ أرّقني والحبّ أقلقني * والحب يقتلني ظلما وليس يدي
والحب حمّلني ما لست أحمله * حتى بقيت له روحا بلا جسد

ولنا من باب القلب والبصر:
زعمت يا أيها المفتون بالحور * إن الفؤاد له دعوى على البصر
ألا ترى القلب محصورا بقلعته * وقد أحاطت به من عسكر الفكر
فقلت يحضر خصم القلب أن له * عليه دعوى من أجل الدمع والسهر
فعند ما حضرا في الحين قام لنا * عند الشهود بأن الذنب للنظر

ولبعضهم في باب النسيب:
أقول لأصحابي وقد طلبوا الصّلى * ألا فاصطلوا إن خفتم القرّ من صدري
فإن لهيب النار بين جوانحي * إذا ذكرت ليلى أحرّ من الهجر
فقالوا نريد الماء نسقي ونستقي * فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهري
فقالوا أين النهر قلت مدامعي * سيغنيكم فيض الدموع عن الحفر
فقالوا ولم هذا فقلت من الهوى * فقالوا لحاك الله قلت اسمعوا عذري

ولابن المعتز:
يا سائق الذود ردهنّه * ومن دموعي فروّهنّه

واقتدح النار من فؤادي * فإنها فيه مستكنّه
ولغيره:
يا قادح النار بالزناد * وطالب الجمر في الرّماد
دع عنك شكا وخذ يقينا * واقتدح النار من فؤادي

حكاية
حدثنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن قال : لما مشى أبو عمرو المرتين إلى الديار المصرية من الأندلس ، اجتمع هو والقاضي عبد الرحيم المعروف بالفاضل في مجلس السلطان ، فتذاكروا الأقاليم ، فأخذ القاضي عبد الرحيم يعرّض بصاحبنا أبي عمرو بن مرتين لما قدم المغرب ، بما رويناه من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال : نبأ محمد بن إسماعيل الكعبي قال : حدثني أبي ، عن حرملة بن عمران النجيبي ، عن أبي قبيل ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : خلقت الدنيا على خمس صور:
على صورة الطير رأسه ، وصدره ، وجناحيه ، وذنبه .

فالرأس : مكة والمدينة واليمن ، والصدر : الشام ومصر ، والجناح الأيمن : العراق ، وخلف العراق أمة يقال لها واق ، وخلف واق أمة يقال لها واق واق ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل .
والجناح الأيسر : السند ، وخلف السند الهند ، وخلف الهند أمة يقال لها ناسك ، وخلف ناسك أمة يقال لها منسك ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل.
والذنب : من ذات الحمام إلى مغرب الشمس .

ثم قال : وشرّ ما في الطير الذنب . فقال له أبو عمرو المغربي : ويكون الطير الطاوس ؟ فأخجله بين يدي السلطان ، فقال له السلطان : ما كان أغناك عن هذا ؟
مشورة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه الصحابة في قتال أهل الردة
روينا من حديث الرملي قال : حدثنا الحسين بن زياد الرملي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل الأزدي البصري قال:
لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلب أبو بكر الزكاة ، كفر بها قوم
وقالوا : قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد ، فما بال ابن أبي قحافة يسألنا ، والله لا نعطيه منها شيئا أبدا .
فاستشار أبو

بكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . فأجمع القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم ، وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم ، وتخيّلوا أنهم لا يقدرون على من ارتدّ من المسلمين .
فقال أبو بكر رضي الله عنه : لو لم أجد أحدا يؤازرني لجاهدتهم بنفسي وحدي حتى أموت أو يرجعوا إلى الإسلام ، ولو منعوني عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم حق الحق بالله .
فلم يزل أبو بكر يجاهد بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمقبل من المسلمين مدبرهم حتى عادوا جميعا إلى الإسلام ، ودخلوا فيما كانوا خرجوا منه.

شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم

روينا من حديث ابن حبان قال : حدثنا محمد بن يحيى المروزي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا محمد بن راشد ، عن مكحول ، عن موسى بن أنس ، عن أبيه قال : لم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيب ما يخضبه ولكن أبو بكر كان يخضب رأسه ولحيته ورأسه بالحناء والكتم حتى يفثؤ شعره .
وبه قال : حدثنا ابن الظهراني ، حدثنا محمد بن عمر الوليد الكندي ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شريك ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر قال:
كان شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو من عشرين شعرة ، وبه قال : حدثنا محمد بن العباس بن أيوب ، حدثنا محمد بن إسماعيل الواسطي ، عن الأوزاعي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختضبوا ، فإن اليهود لا تختضب ، فخالفوهم » .
وبه قال : حدثنا ابن رشيد ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الخزامي ، حدثنا أبو عمار هاشم بن غطفان يعني ابن عمارة بن مهران ، حدثنا عبد الله بن هدّاج من بني عديّ بن حنيفة ، عن أبيه ، وكان أبوه قد أدرك الجاهلية ، قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد صفر فقال : « خضاب الإسلام » . وجاءه رجل قد حمر فقال : « خضاب الإيمان. «

ما جاء في زهده عليه الصلاة والسلام

روينا من حديث ابن حبّان ، حدثنا أحمد بن جعفر الجمال ، حدثنا عبد الواحد محمد بن محمد البجلي ، ثنا يزيد بن هارون ، ثنا الجراح بن منهال ، عن الزهري ، عن العطاء ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر .
فقال : « يا ابن عمر ، ما لك لا تأكل ؟ » ، قلت : لا أشتهيه يا رسول الله .
قال : « لكني أشتهيه ، وهذه صبح رابعة لم أذق طعاما ، ولو شئت لدعوت ربي عز وجل فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر . فكيف يا ابن عمر إذا بقيت في قوم

يحبون رزق سنتهم ويضعف اليقين » . فو الله ما برحنا حتى نزلت : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لا يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتّباع الشهوات ، فمن كنز دينارا يريد به حياة باقية فإن الحياة بيد الله عز وجل . ألا وإني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبّئ رزقا لغد. «
الزهري هو عبد الرحمن بن عطاء.
وقالت عائشة رضي الله عنها : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شاة ولا بعيرا.
وفي رواية : ولا بقرة ، ولا أوصى.
روينا ذلك من حديث ابن حبّان ، عن إسحاق ، عن أحمد بن الصباح ، عن إسحاق الأزرق ، عن سفيان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن ذر ، عن عائشة رضي الله عنها.

إسلام خزيم بن فاتك

روينا من حديث ابن إسحاق ، وحديث أبي عبد الله الحاكم ، أما الحاكم فقال:
حدثنا أبو القاسم الحسن بن محمد السكوني ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، ثنا محمد بن شيم الحضرمي ، ثنا محمد بن خليفة الأسدي ، ثنا الحسين بن محمد بن علي ، عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم لابن عباس : حدثني بحديث يعجبني . فقال : حدثني خزيم بن فاتك .
وقال ابن إسحاق : حدثني سعيد المقبريّ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال خزيم بن فاتك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامي ؟
قال : بلى . قال : بينما أنا في طلب إبل لي ، قال ابن عباس : قال : إذ وجدتها فعقلتها ، وتوسدت ذراع بعير منها .
قال ابن إسحاق:
وناديت بأعلى صوتي : أعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه .
قال الحاكم : وكذلك كانوا يصنعون في الجاهلية ؟
قال : وإذا هاتف يهتف بي فقال:
ويحك عذ بالله ذي الجلال * والمجد والأنعام والأفضال
منزّل الحرام والحلال * ووحّد الله ولا تبالي
ما هول ذي الجن من الأهوال * إذ تذكر الله على الأميال
وفي سهول الأرض والجبال * وصار كيد الجن في سفال
إلا التقي وصالح الأعمال

قال ابن إسحاق : فذعرت ذعرا شديدا . فلما رجعت لي نفسي قلت:
يا أيها الهاتف ما تقول * أرشد عندك أم تضليل
بيّن لنا هديت ما الحويل
قال الحاكم : قال : فقال:
هذا رسول الله ذو الخيرات * بيثرب يدعو إلى النجاة
جاء بياسين وحاميمات * في سور بعد مفصلات
محرمات ومحللات * يأمر بالصوم وبالصلاة

ويزجر الناس عن الهنات
قال : فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : مالك بن مالك ، بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم على أرض نجد . قال : فقلت : لو كان ما يكفيني إبلي هذه لأتيته حتى أؤمن به .
فقال : أنا أكفيكها حتى أؤديها إلى أهلك سالمة إن شاء الله تعالى.
قال : فركبت بعيرا . قال ابن إسحاق : قال : فاتبعني وهو يقول:
صاحبك الله وسلم نفسك * وبلغ الأهل وردّ رحلك
آمن به أفلح ربي حقك * وانصره عزّ الإله نصرك

قال الحاكم : ثم أتيت المدينة ، فوافيت الناس يوم الجمعة ، وهم في الصلاة.
فقلت : يقضون صلاتهم ثم أدخل ، فإني ذلك إذ خرج إليّ أبو ذرّ فقال : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخل ، فدخلت ، فلما رآني قال : « ما فعل الشيخ الذي ضمن لك أن يؤدي إبلك إلى أهلك سالمة ؟ أما إنه قد أدّاها إلى أهلك سالمة ؟ » .
قلت : رحمه الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « أجل رحمه الله » . فقال خزيم : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحسن إسلامه.

خبر إلهي
حدثنا صاحبنا المسعودي عبد الله بدر بن عبد الله الحبشي الأستاذ ، ثنا يونس بن يحيى ، ثنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي ، ثنا عبد الأعلى بن عبد الواحد المليحي ، ثنا إسماعيل بن إبراهيم الهروي ، عن محمد بن عبد الله ، عن أحمد بن نجدة ، عن يحيى بن عبد الحميد ، عن ابن المبارك ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
»قال الله عز وجل : إن أغبط أوليائي عند المؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظّ من صلاة

أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر والعلانية ، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافا ، فصبر على ذلك » . ثم نقر بيده ثم قال : « عجلت منيّته ، وقلّت بواكيه ، وقلّ تراثه. «

وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روينا من حديث ابن عيينة قال : حدثنا عمرو بن دينار ، ثنا ابن عمر قال : كان رأس عمر في حجري لما طعن ، فقال : ضع رأسي بالأرض . قال : فظننت أن ذلك تبرّما ، فلم أفعل ، فقال : ضع رأسي بالأرض ، لا أمّ لك ، ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.

وروينا من حديث محمد بن جعفر قال : حدثنا أحمد بن بديل الأيامي ، ثنا أبو معاوية الضرير ، ثنا داود بن هند ، عن الشعبي قال : لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء ابن عباس فقال:

يا أمير المؤمنين ، أسلمت حين كفر الناس ، وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذله الناس ، وقتلت شهيدا ولم يختلف عليك اثنان . وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض.

فقال : أعد عليّ ، فأعاد عليه . فقال : المغرور من غررتموه . والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع.

في الخوف من الله تعالى

روينا من حديث ابن ثابت قال : حدثنا الحسن بن أبي بكر البزار ، عن عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، عن يعقوب بن سفيان ، عن أحمد بن أبي الحواري ، قال:

سمعت أباه سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي يقول:

مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

وأصل كل شيء في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل . وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب . وإن الجوع عنده في خزائن مدخورة فلا يعطي إلا لمن يحب خاصة .

ولأن أدع من عشائي لقمة أحب إليّ من أن آكلها ، وأقوم من أول الليل إلى آخره.

ولنا شعر:

إلهي لا تؤاخذني * على ما كان من زللي

ولا تنظر إلى فعلي * فإني سيئ العمل

وما لي غير حسن الظن * يا ثقتي ويا أملي
عجائب بيت المقدس التي صنعها الضحاك بن قيس الأزدي ، وقيل : الغساني
حدثنا غير واحد ، عن القاسم بن علي ، عن أبي القاسم السوسي ، عن إبراهيم بن يونس ، عن عبد العزيز النصيبي ، عن محمد بن أحمد الخطيب ، عن عمر بن الفضل فيما حدّث ، عن أبيه ، عن حماد الرملي ، عن محمد بن العباس ، عن عمران بن موسى ، عن السام بن داود ، عن أحمد بن نباتة ، عن سلمة الأبرش ، عن ابن إسحاق ، عن أبي مالك القرطبي ، عن إبراهيم .

وقيل : هو موقوف على السام بن داود قال:
لما توجه ذو القرنين إلى بيت المقدس ، وقد خضعت له الملوك ، رأى تلك العجائب التي وضعها الضحاك بن قيس في الزمان بحركات هندسية ، وطلسمات موضوعة.
فمن ذلك نار عظيمة اللهب ، فمن لم يطع الله في ليلته ثم نظر إليها أحرقته ، فإن كان قد أطاع الله ونظر إليها لم تضرّه.

ومن العجائب : أنه من رمى بيت المقدس بسهم رجع إليه سهمه.
ومنها : أنه وضع كلبا من خشب على باب بيت المقدس ، فمن كان عنده شيء من السحر إذا مرّ بذلك الكلب نبح عليه ، فإذا نبح عليه نسي ما عنده من السحر.
ومنها : أنه وضع بابا فإذا دخل الظالم من اليهود والنصارى على ذلك الباب ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظلمه.

ومنها : أنه وضع عصا في محراب المسجد ، فما يقدر أحد أن يمس تلك العصا إلا من كان من ولد الأنبياء ، فإن مسّها من ليس من أولاد الأنبياء احترقت يده.
ومنها : أنهم كانوا يحبسون أولاد الملوك في محراب بيت المقدس ، فمن كان من أهل الملكة إذا أصبح وجد يده مطليّة بالدهن.

وجعل سليمان بن داود عليهما السلام سلسلة معلقة من السماء إلى الأرض يقضي بها بين الخصمين ، فالصادق تتدلى إليه حتى يمسكها ، والكاذب لا ينالها ، حتى وقع المكر بين الناس . فكان سبب رفعها ، أن رجلا استودع رجلا مالا ، ثم غاب عنه حينا ، ثم جاء يطلب وديعته ، فأنكره ذلك ، فأتى إلى سليمان ، فقصّ عليه القصة ، فحكم عليه سليمان بالحكم ، وبعث معه الأمناء إلى الموضع ، وأخذ الرجل الذي أودع المال قناة ، فشقّها

وصبّ المال فيها وأطبقها ، ثم أخذ يتوكأ عليها شبيها بالعليل ، وقال لصاحب المال : خذ أنت هذه العصا حتى أمدّ يدي وأنال السلسلة ، فأخذ الرجل صاحب المال منه العصا ، وقال : اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل أودعني مالا ، وأني قد رددت ماله إليه . والمال في يد الرجل ولا يعلم ، اللهم إن كنت صادقا في مقالتي فأنلني السلسلة بقدرتك ، فنال السلسلة.

ثم قال : ردّ عليّ عصاي ، فردّ عليه عصاه ، وارتفعت السلسلة من ذلك اليوم . ونزل الوحي على سليمان ، فأخبره بالمكر ، وكان موضعها القبة التي على يسار الصخرة ، بناها عبد الملك بن مروان . وفي ذلك الموضع لقي النبي صلى الله عليه وسلم الحور العين ليلة الإسراء . وجعل سليمان بن داود أيضا تحت الأرض مجلسا وبركة ، وجعل فيها ماء ، وكان على وجه الماء بساط ، فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق ، ومن كان على الحق لم يغرق.

فلما رأى ذو القرنين هذه العجائب أوحى الله إليه:
إنك ميّت ، وإن أجلك قد حضر . وكان ذو القرنين قد أوسع أهل الأرض عدلا ، وكان آخر ملوك الأرض من أهل الخير . وقد كان كبر ودقّ عظمه ، ونحل جسمه ، وطعن في السن . فمات رحمه الله ببيت المقدس.
وزعم أهل العلم : أنه بدومة الجندل ، رجع إليها من بيت المقدس ، وقبره بها اليوم.
قيل : عاش خمسمائة عام.

ومن باب التقوى في الهوى:
فلما التقينا قالت الحكم بيننا * سوى خصلة هيهات منك مرامها
فقلت معاذ الله أطلب خصلة * نموت ويبقى بعد ذاك آثامها

ولعمرو بن أبي ربيعة في هذا الباب:
لعمر أبيها ما صبوت ولا صبت * إليّ وإني عن صبا لحليم
سوى قبلة أستغفر الله ذنبها * سأطعم مسكينا بها وأصوم

وللفرزدق من هذا الباب:
شمس إذا بلغ الحديث خيانة * أمسكن عنه غرائر أقمار
وحديثهن كأنها مرفوعة * من دينهنّ إذا جهرن سرار

وله أيضا ويعزى لغيره:
ويوم كإبهام الحبارى قطعته * بنعمة والواشون فيه تحرف
بلا محرم إلا كلام مودّة * علينا رقيبان التقى والتطرف
إذا ما هممنا صدّت النفس دونها * كما صدّ من بعد التهمّم يوسف

ومن نظمنا في هذا الباب ارتجالا:
علينا من التقوى رقيب مسلّط * إذا ما خلونا والهوى زائد البلوى
ولكن وقانا الله شرّ بلائه * بما جعل الرحمن فينا من التقوى
ولو لم يكن تقوى لكان اشتغالنا * إذا ما خلونا بالعتاب وبالشكوى
ويأبى الهوى القتال إلا صيانة * عن اللثم لما كان سلطانه أقوى
فحسبي أن أفنى إذا ما لقيته * وحسبي ما يلقى عن السمع في النجوى
حديث كزهر الروض عطّره الندى * وفي الطعم طعم المنّ فيه مع السلوى

مثل نبوي
من حديث الخليل بن أحمد قال : حدثنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج ، أنبأ ابن منيع ، ثنا عبد الأعلى بن حماد القرشي ، ثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أوس بن خالد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يحدّث إلا بسوء ما يسمع ، كمثل رجل أتى راعيا فقال : يا راعي ، اجزر لي شاة من غنمك ، فقال له : اذهب فخذ بأذن خيرها شاة ، فأخذ بأذن كلب الغنم. «

شعر
لعمرك ما للعبد كالرب حافظ * ولا مثل عقل المرء للمرء واعظ
لسانك لا يلقيك في الغيّ لفظه * فإنك مأخوذ بما أنت لافظ

وروينا من حديث عبد العزيز بن عمر قال : حدثنا أو محمد بن محمد القطواني ، ثنا عبد الجبار بن الحسن الخشنيّ ، ثنا محمد بن علي ، حدثنا محمد بن سليمان الحضرمي ، ثنا محمد بن العلاء ، ثنا معاوية بن سنان ، عن منصور بن سعيد الحمصي ، عن يونس بن حبّان العسكري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي على أمتي زمان تكثر فيه الآراء ، وتتبع فيه الأهواء ، ويتخذ القرآن مزامير ، ويوضع على ألحان الأغاني ، يقرأ بغير خشية ، لا يأجرهم الله على قراءته ، بل يلعنهم .
عند ذلك تهشّ النفوس إلى طيب الألحان ، فتذهب حلاوة القرآن . أولئك لا نصيب لهم في الآخرة .
ويكثر الهرج والمرج ، وتخلع العرب أعنّتها ، وتكفي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، ويتخذون ضرب القضيب فيما بينهم فلا ينكره منكر ، ويتراضون به ، وهو من إحدى الكبائر الخفية .
فويل لهم من ديّان يوم الدين ، لا تنالهم شفاعتي ، فمن رضي بذلك منهم ولم ينههم ندم بذلك يوم القيامة ، وأنا منه

بريء ، وعندها تتخذ النساء مجالس ويكون الجموع الكثيرة ، حتى إن المرأة لتتكلم فيها مثل الرجال ، ويكون جموعهن لهوا ولعبا ، وفي غير مرضاة الله ، وهي من عجائب ذلك الزمان ، فإذا رأيتموهم فباينوهم ، واحذروهم في الله ، فإنهم حرب لله ولرسوله ، والله ورسوله منهم بريء. «

ومن شذور الحكم

أفضل المعروف معونة الملهوف . من تمام الكرم أن تذكر الخدمة لك وتنسى النعمة منك ، وتفطن للرغبة إليك ، وتتعامى عن الجناية عليك . ومن تمام المروءة أن تنسى الحق لك ، وتذكر الحق عليك ، وتستكثر الإساءة منك ، وتستصغر الإساءة من غيرك إليك . من أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر . أحسن الأدب ما كفك عن المحارم ، وأحسن الأخلاق ما حثك على المكارم . الكريم يكرم عن السؤال ، ويحلم عن الجهال.

ومن وصايا الله تعالى لنبيّه داود عليه السلام

ما رويناه من حديث ابن ثابت قال : أنبأ أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن الصلت الأهوازي ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد العطار ، ثنا موسى بن هارون ، ثنا محمد يعني ابن نعيم بن هضيم قال : سمعت بشرا بن الحارث المشهور بالحافي يقول:

أوحى الله تعالى إلى نبيّه داود عليه السلام : يا داود ، لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا فيصدّك بمكره عن طريق محبتي ، أولئك قطاع طريق عبادي.

حكمة بالغة وحجة دامغة

روينا من حديث ابن ثابت قال : ثنا عبد الرحمن بن فضالة ، ثنا أحمد بن محمد بن إسماعيل ، ثنا أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي قال : قال يحيى بن معاذ الرازي:

مصيبتان للعبد لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته . قال له : ما هي ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله.

وصية أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه

روينا من حديث أبي بكر أحمد بن محمد الماروزي ، حدثنا محمد بن عباس

السامري ، ثنا مؤمن بن إسماعيل ، ثنا عبد الله بن أبي حميد ، عن أبي المليح ، أن أبا بكر رضوان الله عليه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:
إني أوصيك بوصية إن أنت قبلتها عني : إن لله عز وجل حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وإن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه عز وجل لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة.
واعلم أن الله عز وجل ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم . فيقول القائل : أين يقع عملي في عمل هؤلاء ؟ وذلك أن الله عز وجل تجاوز عن سيّئ أعمالهم ولم يثر به . واعلم أن الله عز وجل ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم . ويقول قائل : أنا خير من هؤلاء عملا وذلك أن الله عز وجل ردّ عليهم أحسن أعمالهم ، فلم يقبله . ألم تر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة في اتّباعهم الحق في الدنيا ؟ وثقل ذلك عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا حق أن يثقل.
ألم تر إنما خفّت موازين من خفّت موازينه في الآخرة في اتّباعهم الباطل في الدنيا ، وخفّ ذلك عليهم ؟ وحق لميزان لا يوضع فيه إلا باطلا أن يخف . ألم تر أن الله عز وجل أنزل آية الرخاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرخاء ، لكي يكون العبد راغبا راهبا ، لا يلقي بيده إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق.
فإن أنت حفظت وصيتي ، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، ولا بد لك منه . وإن أنت ضيّعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولن تعجزه.
وروينا من حديث محمد بن يوسف بن بشر ، حدثنا الفضل بن العباس بن أبي العباس الزيّات ، ثنا زكريا بن يحيى بن صبيح ، ثنا أبو بكر محمد الواسطي ، ثنا الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي ، ثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

كتب أبو بكر رضي الله عنه وصية:
بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤول الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذلك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدّل فلا أعلم الغيب ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.
قال أبو سليمان : والذي كتب وصية أبي بكر عثمان بن عفان رضوان الله عليهم أجمعين.

غزوة عبد الله بن جحش الأسدي
قال الله تعالى : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ.
روينا من حديث الواحدي قال : أنبأ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، أنبأ محمد بن عبد الله بن زكريا ، أنبأ محمد بن عبد الرحمن ، أنبأ أبو بكر بن أبي خيثمة ، أنبأ إبراهيم بن المنذر ، أنبأ محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : هذا كتاب مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قاتل فيها يوم بدر في رمضان سنة اثنين.
ثم قاتل يوم أحد في شوال سنة ثلاث.
ثم قاتل يوم الخندق في شعبان سنة خمس.
ثم قاتل يوم خيبر في سنة ستّ.
ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان.
وقاتل يوم حنين.
وحصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان.
قال الواحدي : أول قتال كان بين المسلمين والمشركين كان في غزوة عبد الله بن جحش التي نزل فيها قوله : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ الآية.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمته في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمة المدينة ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين : سعد بن أبي وقاص ، وعكاشة بن محصن ، وعيينة بن غزوان ، وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسهيل ابن بيضاء ، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد بن بكر.
وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتابا ، وقال : « سر على اسم الله ، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين ، فإذا نزلت ، فافتح الكتاب ، واقرأه على أصحابك ، ثم امض لما أمرتك ، ولا تستكرهنّ أحدا من أصحابك على السير معك. «

فسار عبد الله يومين ، ثم نزل ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم:
أما بعد ، فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل ببطن نخلة ، فترصد بها عير قريش ، لعلك أن تأتينا منه بخير.

فلما نظر عبد الله في الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه ذلك ، وقال : إنه

قد نهاني أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فإني ماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم مضى ومعه أصحابه لم يتخلف عنه أحد منهم ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقول نجران أضلّ سعد بن أبي وقاص وعيينة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه . واستأذنا أن يتخلفا في طلب بعيرهما ، فأذن لهما ، فتخلفا في طلبه ، ومضى عبد الله يتبعه أصحابه حتى نزلوا ببطن نخلة ، يمين مكة والطائف.

فبينما هم كذلك إذ مرّت بهم عير قريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة الطائف ، فيهم عمرو بن الحضرمي ، والحكم بن كيسان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، ونوفل بن عبد الله المخزومي.
فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم . فقال عبد الله بن جحش : إن القوم قد ذعروا منكم ، فاحلقوا رأس رجل منكم فليعرض لهم ، فإذا رأوه محلوقا آمنوا . وقالوا:
قوم عمّار لا بأس عليكم ، فحلقوا رأس عكاشة ، ثم أشرف عليهم ، فقالوا : قوم عمّار لا بأس عليكم ، فأمّنوهم.

وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة . وكانوا يريدون أنه من جمادى الآخرة.
وكانوا يرون أنه من جمادى وهو رجب . فتشاور القوم فيهم وقالوا : لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، وليمتنعنّ منكم.

فأجمعوا أمرهم في موافقة القوم . فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وكان أول قتيل من المشركين . واستأثر الحكم وعثمان ، فكانا أول أسيرين في الإسلام.
وأفلت نوفل فأعجزهم ، واستاق المسلمون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : قد استحلّ محمد الشهر الحرام ، فشهر يأمن فيه الخائف ، ويبذعر فيه الناس لمعاشهم ، فسفك فيه الدماء وأحلّ فيه الحرام . وعيّر بذلك أهل مكة من كان فيها من المسلمين ، وقالوا : يا معشر الصباة ، استحللتم الشهر الحرام ، وقاتلتم فيه.
وتفاءلت اليهود بذلك ، وقالوا : واقد وقدت الحرب ، وعمرو عمرت الحرب ، والحضرمي حضرت الحرب.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لابن جحش وأصحابه : « ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام » . ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، وعظم ذلك على أصحاب السرّية ، وظنوا أن قد هلكوا وسقط في أيديهم . فقالوا : يا رسول الله ، إنا قتلنا ابن الحضرمي ، ثم أمسينا فرأينا الهلال ، فإذا هو هلال رجب ، فلا ندري أفي رجب أصبناه أم

في جمادى ، وأكثر الناس في ذلك . فأنزل الله هذه الآية : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ الآية.
فأخذ صلى الله عليه وسلم العير ، فعزل منها الخمس ، فكان أول خمس في الإسلام ، وقسم الباقي بين أصحاب السرية ، فكان أول غنيمة في الإسلام.
وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بل نقفهم حتى يقدم سعد بن أبي وقاص وعتبة ، فإن لم يقدما قتلناهما » . فلما قدما فداهما.
فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقتل يوم بئر معاوية شهيدا.
وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافرا.
وأما نوفل فضرب فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فتحطم فيه فمات . وطلب المشركون جثته بالثمن.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوه ، فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدم » . ا ه والحمد لله وحده.

حكم

من حفر لأخيه كان حتفه فيه . ومن حفر لأخيه بئرا أوقعه الله في بئره . ومن أساء عليه تدبيرا جعل هلاكه في تدبيره . ومن أبدى سرّ أخيه أبدى الله أسرار مساويه . ومن جار حكمه أهلكه ظلمه . ومن جارت قضيته ومن ساء اختياره قبحت آثاره . من قلّ اعتباره قلّ استظهاره . من بغى على أخيه قتله بغيه . ومن جرى في مساويه كبا جريه . من خادع الله خدع ، ومن صارع الحق صرع . من ساء عقده سرّ فقده . من أمكن من مظلوم زال إمكانه ، ومن أحسن إلى ظلوم بطل إحسانه . من جار في سلطانه صغّره ، ومن منّ في إحسانه كدّره .
من تعدّى على ذويه تناهى في ظلمه وتعدّيه . من بخل على أهله لم يتصل به تأميل.

ومن أساء إلى نفسه لم يتوقع منه جميل . من أحسن الملكة آمن الهلكة . من أشفق على سلطانه أقصر عن عدوانه . من ظلم يتيما ظلم أولاده .
ومن أفسد امرأة أفسد معاده . من أحب نفسه اجتنب الآثام ، ومن رحم ولده رحم الأيتام . أفضل الملوك من أحسن في فعله ونيته وعدل في جنده ورعيته .
أعظم الملوك من ملك نفسه وبسط عدله . من سلّ سيف البغي أغمده في رأسه .
ومن استنّ أساس الشر أسسه على نفسه .
أقبح الأشياء سخف الولاة ، وظلم القضاة ، وغفلة الساسة ، وحسد السادة . ومن جانب الأخيار أساء الاختيار.

ومن ركب البغي لم يأمن مغبّته . ومن نكب عن الحق لم تحمد عاقبته . النميمة دناءة والسعاية رداءة ، وهما أسّ الغدر وأساس الشر ، فجنّب سبلها وتجنّب أهلها . من لم يرحم العيرة منع الرحمة . ومن لم يقل العترة سلب القدرة.

بناء عبد الملك بن مروان قبة الصخرة

روينا من حديث الواسطي قال : نبأ عمر بن الفضل بن المهاجر ، عن أبيه ، عن الوليد بن حماد الرملي ، نبأ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن منصور بن ثابت ابن الأستاذ ، نبأ أبو محمد بن منصور ، عن جده ثابت ، عن رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان من أهل بيت المقدس : أن عبد الملك بن مروان حين همّ ببناء الصخرة ، ومسجد بيت المقدس ، قدم من دمشق إلى بيت المقدس ، وبث الكتب في جميع عمله كله إلى جميع الأمصار : إن عبد الملك أراد أن يبني قبة على الصخرة ، صخرة بيت المقدس تكنّ المسلمين من الحر والبرد والمسجد . فكره أن يفعل ذلك دون رأي رعيته ، فلتكتب الرعية برأيهم وما هم عليه . فوردت الكتب عليه : إن أمير المؤمنين رأيه موفق رشيد ، نسأل الله أن يتم له ما نوى من بناء بيته وصخرته ومسجده ، ويجري ذلك على يديه ، ويجعله مكرمة ، ولمن مضى من سلفه . فجمع الصنّاع من جميع عمله كله ، وأمر أن يصنعوا له صفة القبة وسمتها من قبل أن يبنيها . فعملت له في صحن المسجد ، وأمر أن يبنى بيتا للمال في شرقي الصخرة ، وهو الذي فوق حرف الصخرة ، فأشحن بالأموال ، ووكّل على ذلك رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام على النفقة عليها ، وأمرهم أن يفرغوا المال عليها إفراغا ، دون أن ينفقوه إنفاقا . فأخذوا في البناء والعمارة حتى أحكم وفرغ من البناء ، ولم يبق لمتكلم فيها كلام .

كتب إليه بدمشق:

قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء صخرته والمسجد الأقصى ، ولم يبق لمتكلم فيها كلام . وقد تبقّى مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليها بعد أن فرغ من البناء وأحكم مائة ألف دينار ، فيصرفها أمير المؤمنين في أحب الأشياء إليه.

فكتب إليهما : قد أمر أمير المؤمنين لكما جائزة لما وليتما من عمارة ذلك البيت الشريف المبارك.

فكتبا : نحن أولى أن نزيده من حليّ نسائنا ، فضلا عن أموالنا ، فاصرفها في أحبّ الأشياء إليك.
فكتب إليهما : تسبك وتفرغ على القبة ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من

الذهب . وهيأ لها جلالين : جلال من لبود وجلال من أديم من فوقه ، فإذا كان الشتاء ألبسته ليكنّها من الأمطار والرياح والثلوج.
وكان رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام قد حفوا الحجر بدرابزين ساسم ، وخلف الدرابزين ستور ديباج مرخاة بين العمد . وكان في كل اثنين وخميس يأمرون بالزعفران أن يدق ويطحن ، ثم يعمل من الليل بالمسك والعنبر ، والماء والورد الجوري ، ويخرّ من الليل ، ثم يأمر الخدّام بالغداة فيدخلون حمام سليمان بن عبد الملك يغتسلون ويتطهرون ، ثم يأتون الخزانة التي فيها الخلوف ، فتلقى أثوابهم عنهم ، ثم يخرجون بأثواب جدد من الخزانة ، مروي وفوهي وشيء يقال له العصب ، ويخرجون منها مناطق محلّاة ، ويشدون بها أوساطهم ، ثم يأخذون الخلوف ، ويأتون الصخرة ، فيلطخون ما قدروا أن تناله أيديهم حتى يغمروها كلها ، وما لم تنله أيديهم غسلوا أقدامهم ، ثم يصعدون على الحجر حتى يلطّخون ما بقي ، ثم ترفع آنية الخلوف ، ويؤتى بمجامر الذهب والفضة والندّ والعود القماري المطرّى بالمسك والعنبر ،
فترخى الستور حول العمد كلها . ثم يأخذون في البخور حولها يدورون حتى يحول البخور بينهم وبين القبة من كثرته ، ثم تشمر الستور ، فيخرج البخور من كثرته حتى يبلغ رأس السوق ، فيشمّ الريح من ثمّ ، فيقطع البخور من عندهم.

ثم ينادي مناد في صفتّ البزازين وغيرهم : ألا إن الصخرة قد فتحت للناس ، فمن أراد الصلاة فيها فليأت.

فيقبل الناس مبادرين للصلاة في الصخرة ، فأكثر من يدرك أن يصلي ركعتين ، وأكثره أربعا.
ثم يخرج الناس ، فمن شمّوا رائحته قالوا : هذا ممن دخل الصخرة . ويغسل أثر أقدامهم بالماء ، ويمسح بالآس الأخضر ، وينشف بالشباني والمناديل ، وتغلق الأبواب ، وعلى كل باب عشرة من الحجبة ، ولا يدخل إلا يوم الاثنين والخميس ، ولا يدخلها إلا الخدّام .
قال : فكنت أسرجها في خلافة عبد الملك كلها باللبان المدنيّ والزيبق الرصاصي ، فكان الحجبة يقولون له : يا أبا بكر ، مر لنا بقنديل ندهن به ونطيّب به .
وكان يجيبهم إلى ذلك . فهذا ما كان يفعل بها في خلافة عبد الملك كلها . وكانت الأبواب ملبّسة ذهبا وفضة صفائح الأبواب.
فلما قدم أبو جعفر ، وكان شرقيّ المسجد وغربيّه قد وقع ، فرفع إليه : يا أمير المؤمنين ، قد وقع شرقيّ هذا المسجد وغربيّه .
وكانت الرجفة سنة ثلاثين ومائة . فقالوا له : لو أمرت ببناء هذا المسجد وعمارته . فقال : ما عندي شيء من المال . فأمر بقلع

الصفائح الذهب والفضة التي على الأبواب ، فضربت دنانير ودراهم وأنفق عليها . فلما فرغ منه كانت الرجفة الثانية ، فوقع البناء الذي أمر به أبو جعفر.
فلما قدم المهدي من بغداد ، وهو خراب ، فأمر ببنائه وقال : أنقصوا من طوله وزيدوا في عرضه ، فتمّ البناء في خلافته . وأمر ببناء الكنيسة التي تهدمت الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، بأمر المهدي.

هكذا روينا من حديث الرملي ، عن عبد الرحمن بن محمد بن منصور بن ثابت ، وكان بين القبتين ، من القبة إلى القبة كلاليب حديد ، وعوارض حديد ، فقلعها أبي لابن أبي يحيى . قال : وكانت الصخرة أيام سليمان بن داود ارتفاعها اثنا عشر ذراعا ، كل ذراع ذراع وشبر وقبضة . وكان عليها قبة من العود اليلنجوج ، عود مندليّ ، وارتفاع القبة ثمانية عشر ميلا ، وفوق القبة غزال من ذهب ، في عينه درة حمراء ، تقعد نساء أهل البلقاء يغزلون على ضوئها . وكانت أهل عمواس يستظلون بظل القبة إذا طلعت الشمس ، وإذا غربت استظل أهل بيت الرامة من الغور بظلها . وكان ولد هارون عليه السلام يجيئون إلى الصخرة ، ويسمونها الهيكل بالعبرانية .
وكانت تنزل عليهم عين زيت من السماء فتدور في القناديل فتملؤها من غير أن تمسّ.
وكانت تنزل نار من السماء في مثال سبع على جبل طور سيناء ، ثم تمتد حتى تدخل من باب الرحمة ، ثم تصير على الصخرة .
فيقولون ولد هارون : يا أدوناي ، وتفسيرها:
تبارك الرحمن لا إله إلا هو . فغفلوا ذات ليلة عن الوقت الذي كانت النار تنزل فيه ، فنزلت وليس هم حضور . ثم ارتفعت النار ، فجاءوا ، فقال الكبير للصغير : يا أخي ، قد كتبت الخطيئة ، ليس ينجينا من بني إسرائيل إن تركنا هذا البيت الليلة بلا نور ولا سراج . فقال الصغير للكبير : تعال حتى نأخذ من نار الدنيا ، فنسرج القناديل ، لئلا يبقى هذا البيت الليلة بلا نور ولا سراج . وأخذوا من نار الدنيا وأسرجوا ، فنزلت عليهم النار في ذلك الوقت ، فأحرقت نار السماء نار الدنيا ، وأحرقت ولد هارون.

قال : فناجى نبي ذلك الزمان فقال : يا رب ، أحرقت ولد هارون وقد علمت مكانهم . فأوحى الله عز وجل إليه : إني هكذا أفعل بأوليائي إذا عصوني ، فكيف بأعدائي ؟

قال : فكان في زمان بني إسرائيل إذا أذنب أحدهم الذنب كتب على جبينه خطيئته ، وعلى عتبة بابه : ألا إن فلانا قد أذنب في ليلته كذا وكذا . فيبعدونه ويزجرونه . فيأتي إلى باب التوبة ، وهو الباب الذي عند محراب مريم عليها السلام ، الذي كان يأتيها رزقها منه ،

فيبكي فيه ، ويتضرع ، ويقيم حينا . فإن تاب الله عليه محا ذلك عن جبينه ، فيقربه ب إسرائيل ، وإن لم يتب عليه أبعدوه وزجروه.
وبه إلى عبد الرحمن بن محمد يبلّغ به كعبا قال : مكتوب في التوراة أشيروا شلائم ، وهي بيت المقدس ، والصخرة يقال لها : الهيكل . أبعث إليك عبدي الملك يبنيك ويزخرفك.
وبه إلى عبد الرحمن قال : سمعت من يحكي عن خليل أنه غلب عليه النوم ذات ليلة عن يمين الصخرة ، فانتبه ، والناس قد انصرفوا ، والموضع خال ليس فيه أحد .
فقام يطفئ القناديل ، والأبواب مفتّحة ، فإذا بسبع من نار واقفا على حاجز الصخرة يتوقد نارا .
قال:
فطاش عقلي ، وقام شعر بدني ، وهبت ، ثم حملت نفسي على الصبر ، وجعلت أطفئ القنديل ، وهو يدور معي بحذائي على الحاجز حتى جئت إلى الباب القبلي ، فلما أغلقته وثب ، ففرق عند المنارة ، ولا لي به عهد ، فأقمت سنة ما هدئ روعي.

ومن باب النسب ، قال العباس بن الأحنف:
إني وجدت الهوى في الصدر إذ ركدا * كالنار بل زاد جوف الصدر متّقدا
النار تطفى ببرد الماء إن ضرمت * ولو ضربت الهوى بالماء ما بردا

وقال بعضهم:
إذا وجدت أوار الحب في كبدي * أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هذا يبرّد برد الماء ظاهره * فمن لحرّ على الأحشاء يتّقد

وفي ذلك لابن الرومي:
بعيني دموع لو جرين بقفرة * لأضحت بقاع الأرض من مائها وحلا
وفي القلب نار لو تصبّ على الورى * لمات جميع الناس واحترقوا كلّا
وله:
يا موقد النار قد هيّجت أشجانا * ولم أطق للذي هيّجت كتمانا
أوقدت نارا على علياء واحدة * وأوقد الشوق في الأحشاء نيرانا

وله:
يا موقد النار يذكيها ويخمدها * برد الشتاء بأرياح وأمطار
قم فاصطلي النار من قلبي مضرّمة * بالشوق تغن بها يا موقد النار
ويا أخا الذود قد طال الظماء بها * لم تدر ما الرأي في جدب وإقتار

رد بالظباء على عيني ومحجرها * تروي الظباء بدمع مسيل جاري
يا مزمع البين إن جدّ الرحيل فلا * كان الرحيل فإني غير صبّار

ولنا من النظاميات:
رعى الله طيرا على بانة * قد أفصح لي من صحيح الخبر
بأن الأحبّة شدّوا على * رواحلهم ثم راحوا سحر
فسرت وفي القلب من أجلهم * جحيم لبينهم تستعر
أتابعهم في ظلام الدّجى * أنادي بهم ثم أقفو الأثر
وما لي دليل على أثرهم * سوى نفس من هواه عطر
رفعن السّجاف أضاء الدجا * فسار الركاب لضوء القمر
وأرسلت دمعي أمام الركاب * فقالوا متى سال هذا النهر
ولم يستطيعوا عبورا له * فقلت دموعي جرين درر
كان الرعود للمع البروق * وسير الغمام لصوب المطر
وجيب القلوب لبرق الثغور * وسكب الدموع لركب النّفر
فيا من يشبّه لين القدود * بلين القضيب الرطيب النظر
ولو عكس الأمر مثل الذي * فعلت لكان سليم النظر
فلين الغصون للين القدود * وورد الرياض لورد الخفر

خبر إلهي

روينا من حديث مسلم قال : نبأ عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي قال : نبأ مروان يعني ابن محمد الدمشقي ، نبأ سعيد بن عبد العزيز ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روي ، عن الله تعالى أنه قال:
»يا عبادي ، إني حرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا. «
»يا عبادي ، كلكم ضالّ إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم. «
»يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم. «
»يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم. «
»يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم. «

»يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. «
»يا عبادي ، لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. «
»يا عبادي ، لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا. «
»يا عبادي ، لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا على صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر. «
»يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوافيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. «
روينا من حديث الخرائطي قال : نبأ علي بن داود القنطري ، نبأ عبد الله بن صالح ، نبأ الليث بن سعد ، عن حميد الطويل ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال:
خرجت إلى الربيع في زمانه ، وكنت أدخل إلى الجمع لشهودها . وكان طريقي على المقبرة ، قد خلت يوما ، فإذا بجنازة .
فقلت : لو اغتنمت شهودها فصليت عليها ، ثم صليت ركعتين خفيفتين لم أتقنهما ذلك الإتقان في نفسي ، ثم اضطجعت إلى جانب قبر فإذا صاحب القبر يقول : إليك عني ، فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون ، ونحن قوم نعلم ولا نعمل . صليت ركعتين خفيفتين لم تتقنهما في نفسك ذلك الإتقان .
قلت : نعم ، قال : ما سرّني أن الدنيا بحذافيرها لي بهما . قلت : فمن هاهنا ؟ فقال : كل مسلم . وكل قد نال خيرا.
وبه قال : نبأ علي بن داود ، نبأ عبد الله بن صالح ، نبأ يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
»قال الله عز وجل : إن عبدي المؤمن بمنزلة كل خير عندي ، يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه. «
وبه قال عبد الله بن صالح : نبأ معاوية بن صالح ، عن يحيى بن جابر الطائي ، عن أبي عائد الأزدي أنه قال:

أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عائد ، فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو ، فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه يقول : يا ابن آدم ، ما غرّك بي ؟
ألم تعلم أني بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أني بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أني بيت الحق ؟
يا ابن آدم ، ما غرّك بي وكنت تمشي حولي فدادا ؟
قال ابن عائد : فقلت لغضيف : وما الفداد يا أبا أسماء ؟
قال : كبعض مشيتك يا ابن أخي أحيانا.
قال غضيف : فقال صاحبي ، وكان أكبر مني ، لعبد الله بن عمرو : فإن كان مؤمنا فما ذا له ؟
قال : ذاك يوسع له في قبره ، ويجعله منزلة خضراء ويعرج بنفسه إلى الله تعالى.

روينا من حديث ابن ثابت قال : أنا أبو العباس الفضل بن عبد الرحمن الأبهري ، نبأ محمد بن إبراهيم بن علي قال : أنشدنا عبد الله بن رستم قال : رؤي على قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله مكتوب:
الموت بحر موجه غالب * يذهب فيه حبله السابح
لا يصحب المرء إلى قبره * إلا التّقى والعمل الصالح

وبه قال : انا محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد ، نبأ جعفر بن محمد الخالدي ، نبأ أحمد بن محمد بن مسروق قال : أنشدني بعض أصحابنا:
اجعل تلادك في المهم * من الأمور إذا اقترب
لا تسه عن أدب الصغي * ر وإن شكا ألم التعب
وذر الكبير فإنه * كبر الكبير عن الأدب
لا تصحب الصّلف المري * ب فقربه أحد الريب
واعلم بأن ذنوبه * تعدي كما يعدي الجرب

وبه قال : انا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن بشران ، نبأ محمد بن الحسين الآجري ، نبأ العباس بن يوسف الشملي ، نبأ محمد بن الحسين بن العلاء البلخي قال:
سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول:
يا ابن آدم ، طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها ، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها ، والدنيا قد كفيتها وإن لم تطلبها ، والآخرة بالطلب منك تنالها . فاعقل وشأنك.

وبه قال : سمعت أبا علي بن فضالة النيسابوري يقول : سمعت بقية بن علي الآمدي يقول : سمعت أبا الحسن الخضري يقول:

لا يغرّنكم صفاء الأوقات فإن تحتها آفات ، ولا يغرّنكم العطاء فإن العطاء عند أهل الصفاء مقت.
روينا من حديث ابن الواسطي قال : نبأ عيسى بن عبد الله ، انا علي بن جعفر نبأ محمد بن إبراهيم بن عيسى ، نبأ محمد بن النعمان ، نبأ سليمان بن عبد الرحمن ، نبأ أبو عبد الملك الجزري ، قال : علّم الله تعالى سليمان منطق الطير ، وعلّمه منطق الهوام . وكان له من النساء الحرائر سبعمائة وثلاثمائة سرّية . فلما خلا من سليمان سنون بدأ في بناء بيت المقدس ، فبلغ عدة من يعمل معه في بناء بيت المقدس ألف رجل ، عليهم قطع الخشب ، وبلغ عدّة البنائين في كل شهر عشرة آلاف رجل ، وبلغ عدة الذين يعملون في الحجارة عشرة آلاف رجل ، وبلغ عدة الذين يقومون عليهم ثلاثمائة أمين.

فلما بناه ، وزيّنه كما أحب من الذهب والفضة والأبواب المونقة ، صنع له مائة سكرة من الذهب ، في كل سكرة عشرة أرطال ، وأولج فيه تابوت موسى وهارون ، وأنزل الله عز وجل عليه الغمام ، وصلى سليمان عليه الصلاة والسلام فيه ، ودعا ربه ، فقال : يا رب أمرتني ببناء هذا البيت الشريف ، يا رب فلتكن يدك عليه الليل والنهار . وكل من جاءك يبتغي منك الفضل والمغفرة والنصر والتوبة والرزق ، فاستجب له من قريب أو بعيد.

وكان سليمان عليه السلام قد فرش أرض المسجد بالذهب والفضة : بلاطة من هذا ، وبلاطة من هذا . فلما جاء بختنصر خرّبه ، واحتمل منه ثمانين عجلة ذهبا وفضة ، وطرحه برومية . ولا تعجب من هذا ، فإن الذي حمل إلى الوليد لما فتحت الأندلس من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت إلى ذلك من الأحجار النفيسة ، دون الذهب والفضة ، مائة عجلة وثمانية عشرة عجلة.

وأما ابن أسمانوس ، فإنه لما غزا بني إسرائيل وسبى حلي بيت المقدس ، أحرق منه ما أحرق ، وحمل منه في البحر ألفا وسبعمائة سفينة حليا ، حتى أورده رومية.

أخبر بذلك حذيفة بن اليمان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليستخرجن المهدي ذلك حتى يؤديه إلى بيت المقدس ، ثم يسير المهدي ومن معه حتى يأتوا مدينة يقال لها القاطع ، وهي على البحر الأخضر المحيط ، ليس شيء خلفه إلا أمر الله عز وجل ، طول تلك المدينة ألف ميل ، وعرضها خمسمائة ميل ، لها ثلاثة آلاف باب. »

حدثنا بهذا الحديث جماعة ، عن القاسم بن علي الشافعي ، عن أبي القاسم السوسيّ ، عن إبراهيم بن يونس المقري ، عن عبد العزيز النصيبي ، عن محمد بن أحمد ،

عن عيسى بن عبد الله ، عن علي بن جعفر الرازي ، عن محمد بن سليمان بن مسكين بصور ، عن إسحاق بن زريق بن سليمان ، عن سليمان ، عن عثمان بن عبد الرحمن القرشي ، عن يزيد بن عمر ، عن منصور ، عن ربعي بن خراش ، عن حذيفة بن اليمان.

أقوال حسان في الحنين إلى الأوطان

فمن ذلك : الكريم يحنّ إلى أحبابه كما يحنّ الأسد إلى غابه . أرض الرجل ظئره وداره مهده . والغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله كالثور النادّ عن وطنه ، الذي هو لكل سبع فريسة ولكل رام قنيصة .

وقد قيل:
إذا ما ذكرت الصغر فاضت مدامعي * وأضحى فؤادي نهبة للهماهم
حنينا إلى الأرض الذي اخضرّ شاربي * وحلت بها عني عقود تمائمي
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه * وأرعاهم للمرء حق التقادم

وقد قيل:
يقرّ لعيني أن أرى من مكانه * ذرى عطفات الأجرع المتعاقد
وإن أرد الماء الذي عن شماله * طروقا وقد ملّ السرى كل واحد
وألصق أحشائي ببرد ترابه * وإن كان مخلوطا بسمّ الأساود

ومن قول أبي العباس بن الأحنف فيمن ظفر وعفّ:
أتأذنون لصبّ في زيارتكم * فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به * عفّ الضمير ولكن فاسق النظر

وأنشدني في هذا الباب أبو عبد الله القسطنطيني المذكر وعزاه للعباداني:
الحمد لله على أنني * قد تبت إلا من وجوه ملاح
ما بقيت فيّ سوى نظرة * فاسقة باطنها من صلاح

وأنشدني قاسم بن مرتين لبعضهم:
وما يستوي الصّابي ومن ترك الصبا * وإن الصبا للعيش لولا العواقب
وللرب مني جانب لا أضيعه * وللّهو مني والبطالة جانب

وأنشدني علي بن طاب الريح القبائلي:
أحبك حبا لا أعنّف بعده * محبا ولكني إذا ليم عاذره
أحبك يا سلمى على غير ريبة * ولا بأس في حب تعف سرائره

أنشدت هذين البيتين لمن كان لي بها غرام ، فلما سمعت قولي : أحبك يا سلمى على غير ريبة ، قال : إن كنت تقدر سرعة من غير بطء.

وأنشدني علي بن جابر في مجلسه:
تفنى اللذاذة ممن نال صفتها * من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبّتها * لا خير في لذة من بعدها النار

ومن هذا الباب ما تمثل به عبد الله بن الحسن الذي وصله السفّاح لما ولي الخلافة بألفي ألف:
أنس غرائر ما هممن بريبة * كظباء مكة صيدهنّ حرام
يحسبن من طيب الكلام زوانيا * ويصدّهن عن الخنا الإسلام

ومن باب الأخبار النبوية
ما رويناه من حديث عبد العزيز بن عمر ، نبأ محمد بن الحسن بن منصور ، نبأ عبد العزيز أحمد الحلواني ، نبأ أبو الحسين بن علي بن الحسين ، نبأ إبراهيم بن محمد بن خلف ، نبأ أحمد بن محمد العجلي ، نبأ عبد الله بن عبيد الله ، نبأ القاسم بن الفرج ، نبأ أبو الأسود النضر بن عبد الجبار ، نبأ أبو المغيرة المكي ، عن رجل من ولد الزبير اسمه محمد بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كفّ غضبه كفّ الله عذابه ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله معذرته. «

خبر آخر
من حديثه أيضا ، عن ابن المغيرة ميمون بن محمد بن معتمد المكحولي ، عن أبي طاهر محمد بن نصر القلانسي ، عن أبي نصر أحمد بن محمد ، عن عيسى بن الحسين ، عن خلف بن سليمان ، عن محمد بن سليمان القرشي ، عن إبراهيم ، عن أنس بن مالك قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تتصدق عن ميتك بصدقة حتى يجيء بها ملك من الملائكة على طبق من نور ، ويقوم على رأس قبره وينادي : يا صاحب القبر الغريب ، أهلك أهدوا لك هذه الهدية ، فينفسح له في مدخله في قبره ، وينوّر له » . قال : « فيقول : جزى الله

عني أهلي خيرا » . قال : « ولزيق ذلك القبر صاحبه يقول : ألم أخلّف أنا المال ؟ ألم أخلّف المال ؟ » ، قال : « فهو مهموم ، والذي أهدي إليه فرح مسرور. «
وبه إلى أبي المعتز أيضا : نبأ أحمد بن محمد النسفي ، عن أبي سهل محمد بن عبد الرحمن الشيباني ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر ، نبأ الحسين بن عمر بن أبي الأخوص ، عن محمد بن العلاء ، عن الحسن بن عطية ، عن سوار الهمداني ، عن زياد ، عن محمد ابن الحنفية وهو ابن أحمد بن محمد الإسماعيلي ، عن أبي الفضل محمد بن عبد الملك ، نبأ أبو حفص أحمد بن محمد المقري ، نبأ أبو سعيد الخليل بن أحمد الشجري ، نبأ أبو العروبة الحسن بن أبي معشر الحرّاني ، نبأ أبو المسيّب بن الواضح ، نبأ بقية بن الوليد ، عن ورقاء بن عمر ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صلى العبد في الخلاء فأحسن ، وصلى في الملأ فأحسن ، قال الله عز وجل : أنت عبدي حقا. «

حكم جوامع لضروب من المنافع
من رقى في درجات الهمم عظم في أعين الأمم . من بذل فلسه صان نفسه . من بسط يده العطاء استنبط لسان الثناء . من كبرت همّته كثرت قيمته . من كرم خلقه وجب حقه.
من أساء خلقه ضاق رزقه . من أجاب السفيه سفه . من سكت عن جوابه نبه.

شعر
إذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من إجابته السكوت
سكتّ عن السفيه فظنّ أني * عييت عن الجواب وما عييت
ولكني اكتسيت بثوب حلم * وجنّبت السفاهة ما بقيت

من قابل السخيف سخف ومن كرم عن مقابلته شرف . من قال الحق صدق ومن عمل به وفق .
من صدق في مقاله زاد في جماله . من هان عليه المال توجهت إليه الآمال.

من بسط راحته آنس ساحته . من بذل ماله استحمل ومن بذل جاهه استعبد . من جاد بماله جلّ ومن جاد بعرضه ذلّ . من أحسن إلى جاره زاد في استظهاره . من طمع في جاره زهد في جواره . أحسن الجدّ ما كان عند التعب وأحسن الصدق ما كان عند الغضب . خير الأموال ما قضى اللوازم وخير الأعمال ما بنى المكارم . خير المال ما أخذته من الحلال

وصرفته في النوال ، وشر المال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام . المواساة أفضل الأعمال والمداراة أجمل الخصال . يستدلّ على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله ، فما أفحش حكيما إلا أوحش كريما . إياك وفضول الكلام فإنها تخفي فضلك وتوكس قدرك.

خبر نبوي بتلطّف إلهي

روينا من حديث ابن ثابت ، نبأ أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى بن هارون بن الصلت الأهوازي ، نبأ أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي ، نبأ مسلم بن جنادة ، نبأ معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن اقترب إليّ شبرا اقتربت منه ذراعا ، وإن اقترب إليّ ذراعا اقتربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة . »

ومن حديث ابن ثابت في باب الفراسة

حدثنا يونس بن يحيى بن أبي البركات القصّار نزيل مكة ، نبأ الفضل بن يوسف ، نبأ أبو بكر بن ثابت الخطيب ، نبأ أبو الحسن علي بن أحمد بن نعيم الجارود البصري قال:

سمعت علي بن أحمد بن عبد الرحمن الفهري الأصبهاني يقول : سمعت أحمد بن عبد الجبار المالكي يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول:

حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبرّ ، ولا تنقص بالجفاء.

ثم حدّث ابن ثابت على ما حدثناه تاج الأمناء ، عن عمه الصائن هبة الله ، عن السمرقندي ، عن ابن ثابت قال : نبأ يحيى بن علي العجلي ، سمعت عبد الله بن محمد الدامغاني ، سمعت الحسن بن علي بن يحيى بن سلام ، قيل ليحيى بن معاذ : يروى عن رجل من أهل الخير قد كان أدرك الأوزاعي وسفيان أنه سئل : متى تقع الفراسة على الغائب ؟ قال : إذا كان محبا لما أحب الله مبغضا لما أبغض الله ، وقعت فراسته على الغائب . فقال يحيى:

كل محبوب سوى الله سرف * وهموم وغموم وأسف

كل محبوب فمنه خلف * ما خلا الرحمن ما منه خلف

إن للحب دلالات إذا * ظهرت من صاحب الحب عرف

صاحب الحب حزين قلبه * دائم الغصّة مهموم دنف
همّه في الله لا في غيره * ذاهب العقل وبالله كلف
أشعث الرأس خميص بطنه * أصفر الوجنة والطرف ذرف
دائم التذكار من حب الذي * حبه غاية غايات الشرف
فإذا أمعن في الحب له * وعلاه الشوق من داء كشف
باشر المحراب يشكو بثّه * وأمام الله مولاه وقف
قائما قدّامه منتصبا * لهجا يتلو بآيات الصحف
راكعا طورا وطورا ساجدا * باكيا والدمع في الأرض يكف
أورد الحق على القلب الذي * فيه حب الله حقا فعرف
ثم جالت كفه في شجر * ينبت الحبّ فسمّى واقتطف
إن ذا الحب لمن يعنى له * لا لدار ذات لهو وظرف
لا ولا الفردوس لا يألفها * لا ولا الحوراء من فوق غرف

ومن باب النسيب ما قاله الأديب
خليليّ للبغضاء حالي مبيّن * وللحب آيات ترى ومعارف
ألا إنما العينان للقلب رائد * فما تألف العينان فالقلب آنف

ولنا من هذا الباب:
إذا نظرت عيني لحسن زجرتها * حذار على قلبي فما ينفع الحذر
فهام به قلبي فأرسلت عبرتي * وسلطت من غيظي على عيني السهر
وذاب فؤادي رقة وصبابة * وأتلفه طول التعلل والفكر
وإني بين القلب والعين ميت * فبعضي من بعضي على قدم السفر
إذا قلت يا قلبي أجاب بحرقة * حنانيك لا تعتب سوى الحسن والنظر
أنا قائل للحب لست بمانع * حلول الهوى بالسمع كان أو البصر

ومن باب الإفراط في العشق:
أنا والله أرحم العشاقا * ويح من كان عاشقا مشتاقا
لو على العالمين قسم عشقي * أصبح الناس كلهم عشاقا

ولبعضهم في المعنى:
أحبك حبا لو يفاض يسيره * على الخلق ذاب الخلق من شدة الحب

واعلم أني بعد ذاك مقصّر * لأنك في أعلى المراتب من قلبي

ولنا في هذا الباب من قصيدة:
وبي منه ما لو كنت أنطق باسمه * إلى الخلق مات الخلق من قوة الحب

وكما قال الآخر:
وبي من الحب ما لو أن أيسره * يكون الفلك الدوّار لم يدر

وكما قال مجنون عامر:
ولو أن ما بي بالحصا فلق الحصا * وبالريح لم يوجد لهنّ هبوب
ولو أن أنفاسي أصابت بحرّها * جديدا إذا ضلّ الحديد يذوب
ولو أنني أستغفر الله كلما * ذكرتك لم تكتب عليّ ذنوب
كتمت الهوى في الصدر حتى أعلّني * ونمت به من مقلتيّ غروب

وكما قال الآخر:
واشرب قلبي حبّه ومشى به * تمشي حميّا الكأس في جسم شارب
يدبّ هواه في عظامي ولحمها * كما دبّ في الملسوع سمّ العقارب

ولنا في النظاميّات:
مرضي من مريضة الأجفان * علّلاني بذكرها علّلاني
هفت الورق في الرّياض وناحت * شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى * من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمسا فلما * أفلت أشرقت بأفق جناني
يا طلولا برامة دارسات * كم حوت من كواعب وحسان
بأبي ثم بي غزال ربيب * يرتعي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها فهو نور * هكذا النور محمد النيران
يا خليليّ عرّجا بعناني * لأرى رسم دارها بعيان
فإذا ما بلغتما الدار حطّا * وبها صاحبي فلتبكيان
وقفا بي على الطلول قليلا * نتباكى بل أبك مما دهاني
الهوى راشقي بغير سهام * الهوى قاتلي بغير سنان
عرّفاني إذا بكيت لديها * تسعداني على البكا تسعداني
وأذكرا لي حديث هند ولبنى * وسليما وزينب وعنان
ثم زيدا من حاجر وزرود * خبرا عن مراتع الغزلان

واندباني بشعر قيس وليلى * وبميّ والمبتلي غيلان
طال شوقي لطفلة ذات نثر * ونظام ومنبر وبيان
من بنات الملوك من دار فرس * من أجلّ البلاد من أصبهان
هي بنت العراق بنت إمام * وأنا ضدها سليل يماني
هل رأيتم يا سادتي أو سمعتم * أن ضدين قط يجتمعان
لو ترانا برامة نتعاطى * أكؤسا للهوى بغير بنان
والهوى بيننا يسوق حديثا * طيبا مطربا بغير لسان
لرأيتم ما يذهب العقل فيه * يمن والعراق معتنقان
كذب الشاعر الذي قال قبلي * وبأحجار عقله قد رماني
أيها المنكح الثريا سهيلا * عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقل يماني

ومما قيل في لذع الهوى:
إن كنت تنكر ما ألقاه من ألم * وما يضرم في قلبي معذبه
أشر بعود من الكبريت نحو فمي * وانظر إلى زفراتي كيف تلهبه

ذكر غزاة مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
ذكر غزاة مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وما عمل من الأعاجيب في بلاد الروم ودخوله القسطنطينية على أتم الروايات في ذلك إن شاء الله تعالى حدثنا ابن طليس ، وأبو اليمن ، وأبو الفرج ، كلهم عن القزاز ، نبأ أبو بكر بن أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، انا الشيخ أبو الحسن بن محمد بن أحمد زرقويه ، أنا أبو عمرو عثمان بن أحمد الدقاق قال : نبأ أبو علي الحسن بن سلام ، نبأ صبح بن بيان البغدادي ، نبأ يزيد بن أوس الحمصي ، عن عامر بن شرحبيل ، عن عبد الله بن سعيد بن قيس الهمداني ، وكان ممن خرج مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم ، قال : لما أراد عبد الملك بن مروان بن الحكم أن يوجه ابنه مسلمة إلى بلاد الروم ، أمر المنادي بأن ينادي في الناس أن يجتمعوا.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أن يوجه إليه رؤساء أهل العراق ، وكتب إلى عمر بن عثمان بن عفان وهو على الحجاز أن يوجه إليه رؤساء أهل الحجاز ، وكتب إلى أخيه محمد بن مروان بن الحكم وهو عامله على البصرة أن يشخص

إليه بنفسه وبرؤساء أهل البصرة ، وكتب إلى علقمة بن مروان وهو عامله على اليمن أن يوجه إليه رؤساء أهل اليمن.
فلما قدم الناس قام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إن العدو قد كلب عليكم ، وقد طمع فيكم ، وهنتم عليه بترككم الغزو له ، واستخفافكم بحق الله عز وجل ، وشغلكم عن الجهاد في سبيل الله . وقد علمتم ما وعد ربكم في الجهاد لعدوّه .
وقد أردت أن أغزو بكم غزوة كريمة شريفة إلى صاحب الروم أليون .
والله تعالى مهلكهم ، ومبدّد شملهم ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
وقد جمعتكم يا معشر المسلمين ، وأنتم ذوو البأس والشدة والشجاعة والنجدة . فإن من حق الله تعالى أن تقوموا لله تعالى بحقه ، ولنبيّه صلى الله عليه وسلم بنصرته . وقد أمّرت عليكم مسلمة بن عبد الملك ، فاسمعوا له ، وأطيعوا أمره ترشدوا وتوفقوا ، فإن استشهد فالأمير من بعده محمد بن خالد بن الوليد المخزومي ، فإن استشهد فالأمير من بعده محمد بن عبد العزيز .
وقد ولّيت الغنائم رجاء بن حيوة ، وصيّرته أمينا على مسلمة وعليكم . وقد ولّيت على تميم محمد بن الأحنف بن قيس ، وعلى همدان عبد الله بن قيس . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولّ غيري ، فإني آليت أن لا أكون أميرا أبدا .
فولّى على همدان صدقة بن اليمان الهمداني ، وعلى ربيعة عبد الرحمن بن صعصعة .
وولّى على طي ولخم وحزام عبد الله بن عدي بن حاتم الطائي . وولّى على قيس الضحاك بن مزاحم الأسدي .
وولّى على بني أمية وجماعة من قريش محمد بن مروان بن الحكم .

وولّى على كندة وغسان الأصبغ بن الأشعث الكندي . وولّي على أهل الحجاز عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وولّى على أهل الجزيرة والشام البطّال . وولّى على أهل مصر يزيد بن مرة القبطي . وولّى على أهل الكوفة الهيثم بن الأسود النخعي . وولّى على أهل البصرة سليمان بن أبي موسى الأشعري . وولّى على أهل اليمن جابر بن جبير المدحجي . وولّى على أهل الجبال عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي.

ثم أقبل على مسلمة بن عبد الملك فقال : يا بني ، إني قد ولّيتك على هذا الجيش فسر بهم ، واقدم على عدو الله أليون كلب الروم ، وكن للمسلمين أبا رحيما ، وارفق بهم ، وتعاهدهم . وإياك أن تكون جبارا عنيدا مختالا فخورا .
ثم أعرض الناس فانتخب منه ثمانين ألفا من أهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفا .
وقال : يا بني ، صيّر على مقدمتك محمد بن الأحنف بن قيس ، وعلى ميمنتك محمد بن مروان ، وصيّر على ميسرتك عبد الرحمن بن صعصعة ، وصيّر على ساقتك محمد بن عبد العزيز ،

وكن أنت في القلب ، وصيّر على طلائعك البطّال وأمره فليعس بالليل في العسكر ، فإنه أمين ثقة مقدام شجاع .
فإذا أردت بلاد الروم إن شاء الله تعالى فاقحم بالناس ، واقدم بهم إقداما واحدا ، حتى ترعب قلوبهم ، وتزلزل أقدامهم ، وتبدّد جمعهم ، وتهابك ملوكهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم أنهم سيلقونك بجمع كثير وسلاح ، فلا يهولنّك ذلك ، فإن الله مخزيهم ، وضارب وجوههم.
واعلم يا بنيّ إنما نصبتك لهذا الوجه ، وشرّفتك بهذا الجيش ، وصيّرته لك ذكرا وذخرا تذكر به أبدا ، فإياك أن تنكص أو تولّي منهزما ، فإنك إن فعلت ذلك استوجبت من الله المقت ، ومن عباده البغض ، ومن ملائكته اللعنة.

واعلم يا بني أنك إن نكلت وأبليت وقتلت ورميت ، والله الفاعل ذلك ، والقاتل لهم ، وهو رادّهم على أعقابهم خاسئين.

ثم أقبل على المسلمين فقال:
يا إخواني وأعواني ، هذا مسلمة ابني ، وهو سيفي وسهمي ورمحي ، وهو أميني ، جعلته عليكم ، وقد رميت به في نحر العدو والروم ، وقد علمتم أنه ثمرة قلبي ، وحبيب نفسي من صلبي لا من أصلابكم ، وقد وهبته لله عز وجل ، وبذلت دمه ومهجته طلبا لرضوان الله عز وجل ،
فأعينوه أنتم ، واعضدوه وانصروه ، وأقدموا إذا قدم ، وحثّوه إذا نكص ، وشجعوه إذا جبن ، وأيقظوه إذا نام ، وأنبهوه إذا سها ، ولا تغفلوا عنه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
ثم عانق مسلمة وقال : السلام عليك يا حبيبي ، وثمرة قلبي ، ثم قلّده سيفين : سيف عبد الملك وسيفه ، ثم عمّمه بعمامة بيضاء ، وحمله على فرس أشهب ، فخرج مسلمة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ، وذلك أول يوم من رجب ، وخرجنا معه ، وخرج عبد الملك معنا يشيّعنا حتى بلغ إلى باب دمشق ، فودّعنا عبد الملك بن مروان ورجع ، وخرجنا فدخلنا طرسوس ، وفيها نفر من المسلمين يسير ، فأمرهم مسلمة أن يقيموا ، ولم يغير تلك السنة.

قال عبد الله بن سعيد : فأقام القوم بها ، وخرجنا ، فلم نزل نسير حتى انتهينا إلى قريب من عمورية . وبلغ شمعون صاحب عمورية أن العرب قد غزتهم ، فبعث إلى رؤساء أهل القرى والمدن فاجتمعوا إليه ، فأقام بعمورية .
وأتى مسلمة الخبر بجمع شمعون له ، وأنه خارج إليه ، فجمع مسلمة الناس ثم قال لهم : قد علمتم جلب عدوّكم عليكم ، وطلبه لكم ، فإنه خارج ، وقد اجتمعوا ، واشتدّ أمرهم . فتعالوا فاجتمعوا ، فاجتمعنا ، فصيّر على المقدمة

محمد بن الأحنف ، وعلى الميمنة محمد بن مروان ، وعلى الميسرة عبد الرحمن بن صعصعة ، وصار هو في القلب.
قال عبد الله : فكنت معه في القلب ، قال : وأمر البطّال أن يتقدم في الطلائع ، فتقدم ، وتقدمنا معه ، فلقي البطال بطريقا من بطارقة شمعون ، فقاتله قتالا شديدا حتى انهزم ، فلحقناه ، فلما قربنا منه حمل على القوم ، وحمل محمد بن الأحنف في المقدمة ، فلم نزل نقاتل القوم يومنا وليلتنا حتى أصبحنا ، فلما أصبح الصباح صلى مسلمة الفجر ، وأمرنا بالتقدم ، فتقدمنا ، وزحف شمعون من المدينة ، فحمل وحملنا . ولقد رأيت البطال وقد حمل على القوم وهو يريدهم ، وحمل عبد الرحمن بن صعصعة فقتل وأسر ، ثم حمل عبد الله بن جرير فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم حمل محمد بن مروان فطعن طعنة منكرة ، ثم رجع إلى العسكر .
ثم حمل محمد بن عبد العزيز فقتل منهم نفرا كثيرا ، ثم حمل مسلمة بنفسه .
وحملت ، فقتلنا وأسرنا ، فلما نظر البطال إلى مسلمة يقاتل ترجّل ، وأقدم هو ، ومحمد بن الأحنف ، وعبد الرحمن بن صعصعة ، ورؤساء أهل العراق ، فقاتلوا ، وحثّوا على الركب .
وكان شمعون في عشرين ومائة ألف ، فما كان إلا ساعة حتى أقبل عبد الرحمن بن صعصعة يلهث ، فقال : أيها الأمير ، قد قتل شمعون ، فأقبل على المدينة ، وأقدم عليها ، فقال له مسلمة : فكيف علمت ذلك ؟ قال : لأني أسرت علجا فسألته أين شمعون ؟
فقال : قد كان أمام القوم وقد فقد .
فما كان بأسرع حتى أقبل البطال ومعه رأس شمعون ، فلما رأى مسلمة الرأس خرّ لله ساجدا ، ثم حمل ، وحملنا معه حملة واحدة ، فقاتلوا بقية يومهم ، فلما جننا الليل التجئوا إلى المدينة ، مدينة عمورية ، فأقمنا على بابها ، فخلوا المدينة وهربوا من الباب الآخر ، فدخلنا المدينة ، فأصبنا نساء وصبيانا ، فأخذناهم أسرى وغنمنا غنيمة كثيرة ، فبلغت غنيمة عمورية مائة ألف دينار وثمانية وثمانين ألف دينار ، واثنا عشر ألف شاة ، وألفا وستمائة فرس ، فبعث بهم مسلمة إلى عبد الملك ، ثم عرض الناس ، ففقد منهم ستمائة وثلاثين رجلا ، فخرج مسلمة ، وكتب إلى أبيه عبد الملك بما فتح الله سبحانه على يده ، وبما أصيب من المسلمين ، ويستأذنه في التقدم ، ويستأذنه في الغنائم ، فأمر أن تقسم الغنائم بين المسلمين ، ففعل ذلك رجاء بن حيوة ، ثم أمرنا مسلمة بالتقدم ، فقدمنا إلى التقفورية ، وفيها تقفور الأكبر ، وهو على ابنة أليون ملك الروم ، ومعه ستون ألف فارس ، ما فيهم راجل ، فخرج ، ثم حمل علينا حملة منكرة حتى أزالنا عن مراكزنا ، وردّنا على أعقابنا.
ثم إن مسلمة نادى بأعلى صوته : إلى أين يا أهل الشام ؟ فلا شام لكم إن غلبت الروم

على دياركم ، وإلى أين يا أهل العراق ؟ فلا عراق لكم إن ولّيتم من علوج الروم . اليوم يعلم الله منكم صدق اليقين.
ثم قام رجاء بن حيوة فقال:
يا معشر المسلمين إلى أين تنهزمون ؟ يا أهل العراق وأهل الدين وأهل الصدق ، من أهل الصلبان وعبدة الأوثان ، أما ترغبون ؟ أما ترجعون ؟ اثبتوا يثبت الله أقدامكم.
ثم أقبل شابّ من أهل الكوفة يقرأ : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ.
قال : فرجعنا إلى مصافّنا ، وحملنا ، وترجّل البطال ، وترجل مسلمة ، وترجل محمد بن مروان ، وترجل محمد بن الأحنف ، وترجل الناس ، فحمل تقفور لعنه الله على مسلمة ، فضربه بالسيف ضربة حتى خرّ مسلمة صريعا . ثم حمل على الناس حملة منكرة ، فانهزم المسلمون حتى أقبل عبد الرحمن بن صعصعة في الخيل ، وأقبل محمد بن عبد العزيز فحمل مسلمة ، وأفاق مسلمة من ضربته فنادى : يا أهل الإسلام ، اليوم يوجب الله لكم الرضوان ، أنا مسلمة لم أقتل ، فتراجع الناس ، وحملنا عليهم من خلفهم ، فلقد رأينا الجيف يومئذ كأنها التلول ، وجننا الليل ، وبادر البطال إلى باب المدينة ، وثبت عليها .
ثم حمل عليهم من خلفهم ، وحملنا عليهم من بين أيديهم . فقتل تقفور لعنه الله وعامة أصحابه ، فانهزموا بالليل ، وهم يريدون المدينة ، فلقيهم البطال ، فقتل وأسر ، وولّوا الأكتاف ، فقدمنا المدينة ليلا وهم لا يشعرون ، فقتلنا وأسرنا وغنمنا وسبينا.

فلما أصبحنا عرضنا مسلمة ، ففقد من المسلمين خمسمائة ، ونظر رجاء بن حيوة في الغنائم قال : فكانت غنائم التقفورية ستمائة ألف دينار سوى المتاع ، وإن مسلمة وهبه للمسلمين ، وأقمنا بالتقفورية عشرين ليلة ، ثم تقدمنا إلى السماوة الكبرى ، وهي مدينة عظيمة ، ولها أربعة أبواب من حديد ، فيها بطريق عظيمة الشأن يقال له أيفريظون ، فتحصّن بها ، وأقام بالمدينة ، فتقدمنا نحن إلى المدينة ، وأقمنا عليها أياما ، ونصبوا المجانيق على سورها ، ونصب مسلمة المجانيق عليها ، فرميناهم ورمونا ، وأحطنا بالمدينة من سائر الأبواب ، وصبرنا لهم ، وصبروا لنا أربعين ليلة ، ثم إن بطريقا من بطارقة أيفريظون كتب إلى مسلمة يسأله الأمان ، أن يفتح له بابا من أبوابها ، فبعث إليه البطال ، فأمّنه ، فلما جننا الليل فتح له الباب الأعظم ، فدخل البطال ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفتح له بابا آخر ، فدخل مسلمة ، وخرج أيفريظون من الباب الآخر ، وخلى المدينة ، ولحق بالمسيحية ، فقتلنا منهم ، وأسرنا منهم ، من غير أن يقتل أحد من المسلمين يومئذ إلا تسعة رهط ، وغنمنا غنيمة كثيرة.

ثم خرجنا من السماوة نريد المسيحية ، فلقينا شاس صاحب مقدمة أيفريظون في ثمانين ألفا ، وكان أيفريظون مقيما بالمسيحية ، فقتل منا شماس مقتلة عظيمة حتى ردّنا إلى سماوة . ثم رجعنا ، ورجعوا . فعند ذلك كانت الهزاهز . فقتل يومئذ من المسلمين ألف ومائة . ثم قتل شماس . فعند ذلك خرج أيفريظون من المسيحية ، فحمل عليه مسلمة بنفسه ، فطعن . ثم حمل عبد الرحمن بن صعصعة ، فطعن . ثم حمل عبد الله بن سعيد طعنة منكرة . ثم حمل محمد بن عبد العزيز ، فطعن . ثم حمل محمد بن مروان ، فطعن.

ثم حمل محمد بن الأحنف ، فطعن . ثم حمل البطّال ، فضرب على مفرق رأسه فخرّ صريعا . ثم حمل عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي ، فطعن .
ثم رجاء بن حيوة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم حمل الضحّاك بن يزيد السلمي ، فلم يزل يقاتل حتى طعن طعنة في بطنه ، فاستشهد رحمه الله .
ثم أفاق محمد بن عبد العزيز ، فحمل على القوم ، فلم يزل يقاتلهم حتى عقر فرسه . ثم حمل عليه أيفريظون ، فطعنه فخرّ صريعا . ثم ضرب عنقه ورمى به إلى المسلمين .
فانكسر الناس لقتل محمد بن عبد العزيز ، ولقتل الضحاك بن يزيد السلمي .
ثم أفاق مسلمة فحمل ، وحمل البطال على أيفريظون فضربه ضربة بالسيف على رأسه فخرّ ميتا .
ثم كبّر البطال ، وكبّر الناس ، وكبّر مسلمة ، وحملنا حملة واحدة ، ورفعنا رأس أيفريظون ، فانهزم أهل المسيحية .
فدخلنا فسبيناهم ، وغنمنا غنائمهم . قلت : فكم بلغت غنيمة أهل المسيحية ؟ قال : بلغت ألف ألف دينار واثنين وعشرين ألف دينار.

فقسمها رجاء بن حيوة بيننا . وأقمنا بالمسيحية ، وهي مدينة عظيمة على شاطئ الفرات ، لها ثمانية أبواب ، وفيها البساتين ، وهي أعمر بلاد الروم وأحصنها ، وأقمنا بها ستة أشهر.
فصارت بلاد الروم ما دون المسيحية إلى بلاد الشام كلها في يد مسلمة . ثم كتب إلى أبيه بذلك ، فكتب إليه يأمره بالتقدم .
قال : فتقدمنا إلى مدينة البوش ، وهي مدينة صغيرة ، إلا أن البوش كتب إلى أليون أن يمدّه ، فأمدّه بالخيل والرجال . فخرج إلينا في خمسين ألفا ، فلبثنا يوما وليلة ، وتقاتلنا قتالا شديدا . ثم إن البوش قتل ، فانهزم أصحابه ، ودخلنا المدينة.
قال عبد الله بن سعيد : فما رأيت مدينة كانت أكثر غنائم منها على صغرها ، أصبنا فيها ستمائة ألف أوقية من ذهب ، فقسمها رجاء بن حيوة بيننا .
قال : ثم خرجنا إلى القسطنطينية ، فما لقينا منهم أحدا حتى وردنا البحر ، فأقمنا على شاطئ البحر ثمانية أشهر.
ثم إن مسلمة بعث إلى أهل عمله من الروم ، فهيئوا لنا سفنا فركبنا فيها . فقاتلناهم في البحر ثلاثة أيام ، حتى وصلنا إلى الجزيرة التي فيها القسطنطينية ، والجزيرة التي فيها

القسطنطينية ثمانية فراسخ . المدينة منها أربع فراسخ ، والبقية جزيرة . فأقام مسلمة بتلك الجزيرة ، وبعث إلى أهل عمله من الروم أن يبنوا له مدينة : فرسخين في فرسخين ، فأقمنا فيها .
وصارت بلاد الروم كلها في يد مسلمة ما بين الشام إلى جزيرة القسطنطينية ، وجبي إليها الخراج . ونصب أليون ملك الروم على المدينة المجانيق ، وأقمنا بها سبع سنين.
وسمّاها مسلمة مدينة القهر ، لأنه قهرهم عليها.

قال عبد الله بن سعيد بن قيس : لقد غرسنا بها التفاح وأكلنا منه ، وغرسنا بها الكمثرى وأكلنا منها ، وأقمنا إقامة قوم لا يردون الرجوع إلى بلادهم . وكنا مع هذا نغزوهم في كل يوم ويغزونا ، ونقاتلهم ويقاتلونا .
حتى إذا جننا الليل رجعوا إلى القسطنطينية ، ورجعنا إلى مدينة القهر . فلم نزل على ذلك سبع سنين .
ثم تقدمنا إلى باب القسطنطينية ، فوقفنا على بابها سبعة أيام ، ما نفترّ ولا نرجع إلى مدينتنا . وإن مسلمة ليقاتل بنفسه ، وما يرجع ولا ينثني .
وأقبل البطّال فقتل منهم ما بين الخمسين إلى المائة ، حتى قتل في تلك الأيام ستمائة رجل.

قال : فلما اشتد حصارنا لهم كتب ملك الروم إلى مسلمة بن عبد الملك أمير العرب:
من أليون . أما بعد ، فقد أخربت بلادي ، وقتلت بطاركي ، وحصرتني في مدينتي ، وبلغت مني كل مبلغ .
وقد أردت أن أجمع عليك الجموع من الروم كلها ، ثم أصول عليك صولة واحدة أفرّق جمعك ، وأقلّ فيها أصحابك ، وأبدّد شملك .
ثم إني أحببت أن لا أفعل ذلك ، وقد عزمت على مصالحتك على أن ترجع إلى المسيحية فتقيم بها ، وأؤدّي إليك في كل سنة عشرة آلاف أوقية فضة ، وستة آلاف أوقية ذهب ، وخمسة آلاف رمكة ، على أن أحقن دماء أصحابك وأصحابي ، وعلى أن أسالمك وتسالمني ، فإن ذلك أبقى لك.
كتب مسلمة بن عبد الملك : بسم الله الرحمن الرحيم ، من مسلمة بن عبد الملك إلى أليون كلب الروم.
أما بعد ، فإنك ذكرت أن لو أردت أن تجمع الجموع ، فلو قدرت لفعلت ، ولكن الله مهلكك إن شاء الله تعالى ، وهذه أمدادي تأتيني من الشام ، وهم ذو البأس والشدة والقوة والنجدة ، وهم أصحاب الدين والقرآن ، لا يريدون إلا قتالك ، يطلبون بذلك الجنة ، لا يريدون الدنيا ، ولا ذهبا ولا فضة ، ولا يريدون الدنيا ولا أهلها . هم أشد حبا للموت منك للحياة ، يطلبون بذلك الجنة وجنات النعيم.

وأما ما ذكرت من أمر الصلح فإني قد آليت بيمين أن لا أرجع إلى بلادي حتى أدخل

مدينتك ، فإن أبررت يميني ، وإلا وقفت على بابها حتى أموت ، أو يفتحها الله سبحانه على يدي.
وأما ما ذكرت من مالك وما تصالحني عليه فإن ذلك حقير عندي ، ذليل في عيني ، إن كان قد عظم عليك كثرة ذلك فإنه لا يكثر عندي . وبعد ذلك فإني إن وصلت إلى مدينتك ، وإلا فهي الجنة.
فلما قرأ أليون الكتاب خرج إلى باب القسطنطينية ثم نادى : أنا أليون فأين مسلمة ؟
فدنا مسلمة قريبا من الباب ، ثم إن أليون قال لمسلمة : أنا قد ضمنت لك الرضا وفوق الرضا ، فارفق ولا تعجلنّ إلى قتالي ، فإني سأعدّ لك خيلا غير هذه الخيل .
قال له مسلمة:
أثبت مكانك . وأمرنا مسلمة أن نتهيأ في السلاح الشاك . فلما نظر أليون إلى ذلك هاله ، ونحن حينئذ ستون ألف مقاتل ، فهاله ذلك هولا شديدا .
فعندها قال لمسلمة : ما الذي تريد ؟ فقال له مسلمة : عزمت على أن لا أرجع حتى أدخل مدينتك .
قال له أليون : ادخل وحدك ولك الأمان . فقال له مسلمة : نعم ، على أن آمر البطّال وأصحابه يقفون على باب القسطنطينية ، ولا يغلقون الباب . فقالوا له : لك ذلك .
ففتح الباب الأعظم ، ولم يفتح قبل ذلك سبع سنين إلا لقتال ، وهو الباب الأعظم . فثبتنا عليه ، والبطال على المقدمة على الباب ثابت ، ما يزول ولا يتحرك.
قال مسلمة : إني داخل فاثبتوا على الباب .
فإن صليتم العصر ولم أخرج فاقحموا بخيلكم على المدينة ، فاقتلوا من أصبتم ، والأمير من بعدي محمد بن مروان .
فركب على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة ، متقلدا بسيفين ، سيف أبيه وسيف نفسه ، حتى دخل وبيده الرمح ، فصفّ له ملك الروم الخيل من باب المدينة إلى باب الكنيسة العظمى ، كلما مرّ بقوم ساروا خلفه وقد رمقوه بأبصارهم ، وهم يتعجبون من شجاعته وشدته وجرأته ، فلم يزل يتقدم حتى وصل قصر أليون . فخرج إليه أليون فقبّل يده ،
فقال مسلمة : أنت أليون ؟ فقال : نعم . قال : فأين الكنيسة العظمى ؟ قال : هذه . فدخل على فرسه ، فجزعت الروم من ذلك جزعا شديدا ، فلما دخل إلى الكنيسة نظر إلى صليبهم الأعظم وهو موضوع على كرسي من ذهب ، وعيناه ياقوتتان حمراوتان ، وأنفه زبرجدة خضراء . فلما نظر مسلمة إلى الصليب أخذه فوضعه على قربوس فرسه .
فقالت الرهبان لأليون : لا ندعه . فقال له أليون : إن الروم لا ترضى بهذا . فحلف لا يخرج حتى يأخذه .
فقال أليون للروم : دعوه يخرج به ، لكم عليّ مثله . دعوه يخرج ، وإلا دخل عليكم البطال .
فأخذه وخرج وهو على فرسه ، وأليون مسايره حتى إذا توسط المدينة رفع الصليب على الرمح .
فلما نظرت الروم

إلى ذلك همّوا به ، ثم فكّروا في خراب مدينتهم إن قتلوه . فنكسوا رؤوسهم فخرج والصليب على رمحه بعد العصر وقد همّ القوم بالدخول . فلما نظرنا إليه كبّرنا تكبيرة واحدة كادت الأرض تخور بهم . وسررنا بخروج مسلمة ، سرورا عظيما ، ورجعنا إلى مدينتنا ، فأقمنا بها سبعة أيام ونحن مسرورون ، ننتظر المال والدواب التي ضمنها أليون لمسلمة.
فكتب إليه مسلمة بن عبد الملك:

بسم الله الرحمن الرحيم:
من مسلمة بن عبد الملك إلى كلب الروم أليون.
أما بعد ، فإن الله تعالى قد أظفرني بك ، وأعلاني عليك ، وجعل لي خدّك الأسفل ، فلله الحمد والشكر كثيرا ، وأعزم بالله عائمة ثانية ، لتوجهن المال إليّ ، أو لأقدمنّ مدينتك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فكتب إليه أيضا أليون:
إلى الأمير مسلمة بن عبد الملك ، من عبده الذليل أليون.
أما بعد ، فقد وجهت إليك خمسة آلاف رمكة ، وعشرة آلاف أوقية فضة ، وستة آلاف أوقية من ذهب ، وتاجا مفصّصا بالدرّ والياقوت ، فهو لك خاصة.

أسألك أيها الأمير وأطلب إليك طلب العبد الذليل ، أن تخرج من هذه الجزيرة ، وتقيم في أي البلاد شئت من بلاد الروم إن أحببت ذلك.

فلما أتى مسلمة الكتاب والمال والدواب والتاج ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم عرض الناس فكانوا يومئذ أربعة وأربعين ألف رجل قد أصابهم الجهد ، فقسم المال بينهم ، وباع التاج من بعض بطارقة الروم بمائة ألف دينار ، فقسمه بيننا.

ثم خطبنا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:
أيها الناس ، إنني في غمرات الموت منذ سبع سنين ، لم أحب أن أخبركم ، كرهت أني أخبث أنفسكم ، وأفشلكم عن قتال عدوكم ، وقد توفي خليفتكم عبد الملك منذ سبع سنين ، وولّي الوليد بن عبد الملك ، وكتب إليّ يوم مات ، وقد ولّي سليمان بن عبد الملك ، وبايع له الناس ، وإنما وجّهت رجاء بن حيوة يوم وصلت إلى الجزيرة ، لأن الوليد كتب إليّ ، فلذلك وجّهته ، فبكى الناس بكاء شديدا ، ثم قالوا : أيها الأمير ، أنت أحقّ

بالخلافة ، فهلمّ نبايعك ، فقال : أيها الناس ، لله قد ركبت أمس في المشركين ، وأشقّ عصا المسلمين اليوم ، فأخالف أمرهم.
ألا إني قد بايعت لسليمان بن عبد الملك ، فبايعوا له ، فبايع الناس كلهم عند ذلك ، فأقمنا في الجزيرة بعد ذلك ثلاثة أشهر ، حتى أصلحنا سفننا ، وهيأنا أمرنا ، فأعطانا الغنائم .

ثم كتب إلى أليون ملك الروم:
بسم الله الرحمن الرحيم.
من الأمير مسلمة بن عبد الملك إلى أليون ملك الروم:
أما بعد ، فإني قد عزمت على الخروج من بلادك ، فأجمعت على ذلك ، وأحببت أن أحسن إليك كما طلبت العافية ، وقد خلفت عندك وديعة ، مسجدي هذا الأعظم ، فإياك ثم إياك أن تحرّك منه حجرا أو عودا ، فإني أقسم عليك بالله فأعزم لئن فعلت لأرجعن ، ثم لأقدمنّ عليك حتى يهلك الله ويخزيك ، وأما سوى ذلك من بناء فأنت أعلم ، فإياك أن تغير في أثري حتى أخرج من بلاد الروم ، فإنك إن فعلت فقد خالفت ونقضت ما بيني وبينك فلا أمان ، فأعزم بالله عزيمة ثانية لئن خالفتني أو رأيت سوءا ، لأقيمنّ عمري أو يظفرني الله بك ، مع أني أرجو أن يضيّع الله أمرك ، ويهتك سترك ، فافعل أو دع.

فكتب إليه ملك الروم:
للأمير مسلمة بن عبد الملك.
من أليون عبده الذليل : أما بعد ، فقد فهم كتابك ، ولك السمع والطاعة ، إني لا أعبر الجزيرة ولا أخرج حتى تخرج من بلاد الروم.
وأما المسجد ، فو ربّ المسيح ورب الصليب ، لا يهدم منه حجر ما كان لي سلطان ، ولا يكسر منه عود ، ولا يدخله أحد من الروم أبدا ما عمرت في الدنيا ، وقد وجّهت إليك ألف رمكة ، وألف أوقية من ذهب ، وألف ثوب بداكوني هدية لك ، فاقبلها أيها الأمير.

فلما أتاه الكتاب والهدية قبلها ، ثم وزعها بين المسلمين ، فما تفضّل بدينار ولا درهم ، ثم أمر البطّال أن يحمل المسلمين في السفن ، ويعبرهم الجزيرة ، فلم يزل ذلك دأبه ، وإنه لمقيم في المدينة حتى عبر الناس كلهم ، وبقي في مائة فارس ، فمضى بنفسه القسطنطينية فقال:
يا أليون ، إني ماض فهل لك في حاجة ؟ فخرج إليه أليون ، فسلّم عليه ، فلم يصافحه مسلمة ، فقبّل أليون رجله ، ثم قال أليون:

أيها الأمير الموفق الكبير ، ائذن لي حتى أسير معك ، فأبى ، وأمره أن يرجع إلى المدينة ، فرجع .
وإن مسلمة لواقف على باب المدينة حتى دخلوا كلهم إليها ، ثم أقبل فعبر الجزيرة هو والمائة فارس ، ولم يتخلف بالمدينة من المسلمين ، ولم يترك بها متاعا ولا مالا ولا زادا إلا حملناه معنا . فلما عبر مسلمة كبّر وكبّر المسلمون ، فأقمنا على شاطئ البحر سبعة أيام . وجاء أليون حتى دخل مدينة القهر فأقام بها ، فلما ارحلنا خرّبها كلها عن آخرها ما خلا المسجد . وأقبلنا حتى دخلنا المسيحية ، وأمر مسلمة أصحاب المسائح أن يلحقوا به ، فلم يخلف مسلمة أحدا ، وعبر الفرات ، وأقمنا بالمسيحية ، ووقع الموت والطاعون بالمسلمين ، فمات من المسلمين خمسة عشر ألف رجل ، فاغتمّ مسلمة لذلك غما شديدا وهاله ، وكان الخراج يحمل إليه فيقسمه بيننا ، ولم يحدث أليون ولا أصحابه حدثا .
وأخرب مسلمة مدينة المسيحية ، تحوّل عنها إلى التقفورية ، لأن أهل المسيحية كانوا همّوا أن يغدروا بالمسلمين . فخرّبها ، وقتل رجالها ، وسبى نساءهم . وأقام بالتقفورية ستة أشهر .
ثم عرض الناس ، فكانوا يومئذ خمسة وعشرين ألفا ، فاغتمّ لذلك مسلمة غما شديدا . وأتاه كتاب رجاء بن حيوة يخبره أن سليمان بن عبد الملك توفي ، وأمر أن يستخلف عمر بن عبد العزيز ، فإني قد بايعت له ، وبايع له الناس ، وهو عدل مرضي في الرعية ، ويقسم بينهم بالسويّة ، ورضيت به بنو أمية وقريش كلها ، ورضي به أهل الآفاق والأمصار ، ودخلوا في بيعته .
وقد كتب إليك كتابا يأمرك بالقدوم إليه ، ويعزلك عن بلاد الروم ، ويأمرك فيه بالبيعة له والطاعة .
فاقبل كتابه ، وانقد لأمره ، وأطعه ترشد إن شاء الله تعالى .
فإياك أن تخالف فتفسد ما أصلحت ، وتنقض ما أبرمت .
مع ما أتخوّف عليك من العقاب والعذاب الشديد ، في شقّك العصا ، وخلافك على الأمة .
فاقبل وصيتي فقد علمت نصيحتي لك ، والسلام . فأتاه كتاب عمر بن عبد العزيز وإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.
من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى مسلمة بن عبد الملك:
أما بعد ، فإن الله خلق الخلق على ما شاء من تقديره ، ودبّرهم بمشيئته وإرادته ، فله الحمد والشكر كثيرا . وكان مما قضى الله وقدّر أن ولأنّي أمر المسلمين ، وجعلني خليفة في الأرض ، فأسأل الله أن يخرجني مما أدخلني فيه سويا سليما خميصا ، لا تبعة عليّ في ذلك ولا عقاب ، فقد طال حزني بذلك ، ومرض قلبي ، وتفتّت كبدي ، وقد بايع لي بنو أمية كلهم ، وجميع الأمصار ، فادخل مع الجماعة ، واقدم بمن معك جميعا ، ولا تخلفنّ أحدا ، فقد عظمت المصيبة بالمسلمين.

فلما أتى مسلمة الكتاب تغيّر وجهه ، وتغيّر لونه ، ثم دعا محمد بن الأحنف ، وعبد الرحمن بن صعصعة ، وعبد الله بن جرير ، ورؤساء أهل الأمصار ممن معه ، فأدخلهم إلى رحله ، ثم قال : هذا كتاب عمر بن عبد العزيز ، فما ترون ؟ فقال محمد بن الأحنف : أرى أن تدخل فيما دخل فيه المسلمون ، وتكون مع الجماعة ، فإن الرشد والتوفيق مع الجماعة.
ثم قال لعبد الله بن جرير : وأنت ما ترى ؟ فقال : مثل مقالة صاحبه.
ثم قال لعبد الرحمن بن صعصعة : وأنت ما تقول ؟ فقال : أيها الأمير ، أقم في موضعك ولا تخرج إليه ، فإن طلب البيعة فبايعه ، وإن أبى خالفته وبايعك الناس ، فأنت أولى بذلك منه.
فقال له محمد بن الأحنف : اتق الله أيها الأمير ، فقد علمت مكانتك من العدو منذ سبع سنين ، فإياك أن يكون آخر أمرك إلى الدمار ، فهذا لأوّل الدمار أن تخالف السنّة ، وتشقّ العصا ، ولكن سر بنا فأنت موضع الفضل والشرف . ومع هذا أيها الأمير تلمّ بأهلك وقرابتك ، مع أنك بحمد الله ممن يحتاج إليه ويطلب ما عنده لثلاث خصال:
أما الواحدة فالفهم والعلم ، والثانية الشجاعة والبأس ، والثالثة الشرف في أهل بيتك . فلا تفسد هذه الخصال في الخلاف والشقاق.

قال مسلمة : فقد تكلمتم وقد علمت ما جاء من رجل منكم . فكلكم أراد النصيحة ، وكلكم أراد الشفقة . لا خير في عيش الدنيا مع الخلاف والخوف والرعب.
وقد ولّي هذا الرجل فأهل ذلك في ورعه ودينه ، وقد كتب إليّ رجاء بن حيوة بكتاب سرّني ما ذكر فيه من عدله وإنصافه ، ولا مثله يفسد مثلي ، ولا مثله يخلي مثلي . إنه أنظر لي من جميع إخواني ، وأقوم بحقي ، وأعرف بفضلي .
لأنه أبرّ بي من إخواني ، وأكرم عليّ مع مصاهرته وقرابته . وقد عزمت على الشخوص إليه ، فإن أكرم وقرّب فأهل ذلك ، وإن أبعد وتنحّى فبما سلف من ذنوبي.

فقلت له : وفّقك الله . فنعم ما رأيت إن بايعته . فصيّر على مقدمته محمد بن الأحنف ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن صعصعة ، وعلى الميسرة محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان ابنه ، وصار هو في القلب . وصيّر على السّاقة عبد الله بن سعيد ، وأخرب مدينة التقفورية . ثم خرجنا منها ، فلم نزل نسير حتى دخلنا عمورية . فأقمنا بها ثلاثة أيام.
ثم خرجنا منها ، وهدم مسلمة صورها ، وعزل جميع عماله من بلاد الروم . فقدمنا دمشق

في ثلاثين ألفا ، فدخلناها . وقد مات رجاء بن حيوة قبل ذلك بعشرة أيام ، فبلغ ذلك مسلمة فغمّه غما شديدا . وأقام بباب دمشق ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز فلم يأذن له في الدخول إلى المدينة ثلاثة أيام ، حتى طلب إليه جميع بني أمية . فأذن له ، فدخل ، فمضى ومضينا معه إلى منزل عمر بن عبد العزيز بالخيل والناس وهبة السفر . فلم يأذن له ، فرجع إلى منزله ، فلما كان من الغد ، وركبنا معه ألف رجل من القواد ، فلم يأذن له فرجع ، وركب إليه من الغد في أهل بيته ومواليه ، فلم يأذن له . وركب إليه من الغد في إخوانه وبني عمه ، فلم يأذن له . فرجع ومضى إليه من الغد وحده راكبا ، فلم يأذن له .
فرجع ومضى إليه من الغد راجلا ، فأذن له ، وعنده وجوه قريش ، ورؤساء أهل الشام . فسلّم عليه بالخلافة فرد عليه ردا ضعيفا ، ولم يأذن له بالقعود ساعة .
فبكى مسلمة وقال : ما أراني عاصيا ، فإن كنت عاصيا فقد عصى من هو خير مني ، وإن كنت مداهنا فقد داهن من هو خير مني .
فما جرمي إلا أن أنكيت في المشركين ، وأبكيت ، وقمت بحق الله تعالى ، وقتلت عدوّه ، ولم تأخذني فيه لومة لائم . فإنما فعلت بما أمرت ، وأوصيت بالدخول إلى المدينة العظمى ، فدخلت .
هذا كلامي وهذا عذري ، فاقبل مني أو دع .
فقال عمر بن عبد العزيز : يا مسلمة ، سرت بالمسلمين إلى أقصى بلاد الروم ، فقتلت الضعيف ، وأتعبت القوي ، تطلب الشرف ، وأردت الرئاسة.
أما كان يكفيك من القسطنطينية بلاد عمورية والقيام بها ؟ ولكنك أردت أن يقال:
هذا مسلمة بن عبد الملك شديد العزم . فالويل لك إن آخذك الله بقتل رجل من المسلمين.

ويحك يا مسلمة ، لقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
»الويل لمن أهلك نفسا مؤمنة « . فقد عفونا عنك ما كان من جهلك . اقعد ، فقعد.
فقال : هات يا مسلمة حدثني عن بلاد الروم . فقال مقاتل مولى عمر بن عبد العزيز:
سمعت مسلمة وهو يقول لعمر : ما رأيت بلادا تشبه القسطنطينية .
قال عمر : صفها لي.
قال : هي مدينة برية بحرية ، الخير فيها كثير ، من الفاكهة والطعام ، واللباس فيها ظاهر ، والدواب فيها فرهة . قال عمر : صف لي سورها ، وأبوابها ، وكنيستها العظمى ، وقصرها الكبير .
قال : أما سورها فحجارة ، وعرض السور ما يسير عليه مائة فارس عرضا . فأما الأبواب فإنها حديد عرض ما بين كل باب ميل . وأما الكنيسة العظمى فمن رخام مصفف مفصّص بالحجارة المذهبة وبالجوهر .
وأما قصرها فمن رخام ، ولم أدخله يا أمير المؤمنين .
قال عمر : أسألك بالله يا مسلمة هل جبنت حيث دخلتها ؟
قال مسلمة : لا والله يا أمير المؤمنين ما جبنت ، ولكني أجري ما كنت حيث دخلتها . قال : كيف رأيت أهل

الروم ؟ قال : قوم سوء وقلوبهم خائفة ، فإذا صدقوا هربوا . ولقد قتلنا منهم مقتلة عظيمة.
فالحمد لله على ذلك كثيرا . قال عمر : غفر الله لك . ثم وجّه سراقة بن عبد الرحمن أميرا على الثغور ، وأمره أن يبلغ العمورية ، فإذا بلغها لا يجوز إلى غيرها . وأقام مسلمة عند عمر بدمشق.

تأديب عمر بن عبد العزيز مسلمة بن عبد الملك

وبالإسناد قال مقاتل : ثم إن عمر بلغه أن مسلمة ينفق على مائدته ألف درهم في كل يوم . وكان عمر يطعم السّؤال من غلته ألف سائل في كل يوم ، يطعمهم ثلاثة ألوان وشواء.
وكان يأكل هو يوما لحما ، ويوما خلا وزيتا ، ويوما عدسا .
وكان قد سيّر الدنيا ثلاثة أيام:
يوما للقضاء ، ويوما لأهله ، ويوما لحوائج الناس ، والليل للعبادة . فكان إذا جنّه الليل لبس جبّة صوف ، وجعل الغلّ في عنقه والقيد في رجله ، ونادى : يا رب ، هذا عذاب الدنيا ، فكيف عذاب الآخرة ؟

ثم بعث إلى مسلمة يأمره أن يتغذى عنده ، فأتاه ، فأمر عمر بجفان السّؤال أن تهيّأ ، وهيأ له طعاما ، وأمر أن يحبس الطعام وأن يقدّم العدس.

فلما أبطأ عليهم الطعام ، وجاع مسلمة جوعا شديدا ، قال عمر : ويحك يا مقاتل ، إن أبا سعيد لا يصبر على الجوع ، فائتنا بما عندك . فأتاه بعدس ، فأكل أكلا منكرا حتى شبع ، ثم أتي بالطعام .
فقال عمر : كل يا أبا سعيد . فقال : قد اكتفيت . قال عمر : يا أبا سعيد ، تكفيك أكلة بدانقين ، وأنت تنفق على مائدتك ألف درهم كل يوم ؟ فقال مسلمة : أعطني عهد الله أن لا أعود إلى مثل ذلك ، فرجع عنه.

ومن أخبار عمر بن عبد العزيز

وبالإسناد قال مقاتل : رأيت قوما من العبّاد وقد أتوا محمد بن عمر بن عبد العزيز ، فسألوه عن عمل أبيه ، فقال : ما أذكر أني رأيته ، ولكني أدخل على أمي فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان ، فأسألها عن هذا إن شاء الله تعالى . فدخل عليها ، فقال : يا أمّه ما صنع أبي ؟
فإن الناس قد لجّوا عليّ في ذلك ، فقالت فاطمة ابنة عبد الملك : يا بني ، لا تريد أن تعلم ؟ قال لها : فإنهم لا يدعوني حتى أخبرهم . قالت : نعم ،
قل لهم : إن أبي كان من أعظم قريش ، وأرفههم مركبا ، وألينهم ثوبا ، وأطيبهم طعاما ، قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولّي الخلافة لبس الكرابيس والصوف ، وربما ادّهن بزيت العلة ، تعني زيت الماء ، ولا رفع ثوبا يدّخره ، ولا اتخذ أمة منذ ولّي إلى يوم مات ، فهذه كانت حالته.

قال مقاتل : فلما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال له : يا مقاتل ، إنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الإمام العادل إذا وضع في قبره نزل على يمينه ، وإذا كان جائرا نقل عن يمينه إلى شماله ، فاطّلع حتى تنظر إليّ . قال : فاطلعت ، فرأيته على يمينه والحمد لله.
قال مقاتل : رأيته قبل أن تخرج الروح من جسده وهو يضحك ، ويقول : لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ . ثم مات رحمه الله تعالى.

ولنا في الأخذ من السلطان وترك الأخذ من الناس للمنّة
إن الحلال من المكاسب همّتي * والأخذ من مال الفتوح أجانبه
تمضي المروءة أخذه من عالم * مذمومة أحواله ومذاهبه
تمتنّ من قبل العطاء وربما * سألت عليك بما يعير مدانبه
فلتجتنب أخذ الفتوح فإنه * يجني على الأعقاب منك عواقبه
إلا من السلطان فهو نصيبكم * مما تعيّن بالشريعة واجبه
هو عنده للمسلمين أمانة * فمتى حباك فخذه إنك صاحبه

قال ابن الواسطي : وقد ذكرت إسنادنا إليه ، حدثنا القاسم بن مزاحم ، عن محمد بن الحسن العسقلاني ، عن محمد بن عمرو بن الجراح الغزّي ، عن أبي الصلت شهاب بن خراش ، عن سعيد بن سنان ، عن أبي الزاهرية ، قال : أتيت بيت المقدس أريد الصلاة ، فدخلت المسجد ، وغفلت عن سدنة المسجد حتى أطفئت القناديل ، وانقطعت الرّجل ، وغلقت الأبواب . فبينما أنا على ذلك إذ سمعت له حفيفا له جناحان قد أقبل ، وهو يقول:
سبحان الدائم القائم ، سبحان القائم الدائم ، سبحان الحي القيّوم ، سبحان الملك القدّوس ، سبحان رب الملائكة والروح ، سبحان الله وبحمده ، سبحان العليّ الأعلى ، سبحانه وتعالى.

ثم أقبل حفيف يتلوه ويقول مثل ذلك ، ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها حتى امتلأ المسجد ، فإذا بعضهم قريب مني فقال : آدمي ؟ فقلت : نعم . قال : لا روع عليك ، هؤلاء الملائكة . قلت : سألتك بالذي قوّاكم على ما رأى ، من الأول ؟ قال : جبريل.

قلت : ثم الذي يتلوه ؟ قال : ميكائيل . قلت : من يتلوه بعد ذلك ؟ قال : الملائكة . قلت:
سألتك بالذي قوّاكم على ما أرى ، ما لقائلها من الثواب ؟
قال : من قالها سنة كل يوم مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة ، أو يرى له .
قال أبو الزاهرية : قلت : سنة وسنة كثير ، لعلّي لا أعيش ، فقلتها في يوم عدد أيام السنة ، فرأيت خيرا .
قال سعيد بن سنان : فقلت:

سنة والسنة كثير ، لعلّي لا أعيش فيها ، فقلتها في يوم عدد أيام السنة ، فرأيت خيرا . قال الحوسي : فقلت : سنة والسنة كثير ، لعلّي لا أعيش فيها ، فقلت في يوم عدد أيام السنة ، فرأيت خيرا .
قال محمد بن عمرو : فقلتها ثلاثة أيام أو أربعة ، كل يوم مائة مرة ، فكان الرجل يلقاني فيقول : رأيت لك كذا وكذا أظنه من ذلك . قلت : وقلتها أنا في ليلة فرأيت خيرا ، وقلتا وقالها صاحبي عبد الله الحبشي ، فرأى أو رؤي له خيرا.

ومن باب حب الوطن

ما قالت العجم اللسن:
من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها توّاقة.
وقال الحكيم : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن ، ولذلك قال أبقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تقطع بهواها ، وتفزع إلى غذاها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو قنع الناس بأرزاقهم قنوعهم بأوطانهم لما اشتكى عبد الرزّاق . والذي يؤيد ما ذكرناه من حب الوطن قول الله عز وجل حين ذكر الديار ، فخبر عن مواقعها من قلوب عباده.
فقال تعالى : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم.
وقال تعالى : وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا.
وقيل : لولا حبّ الناس الأوطان لخرب البلدان.
وقيل : من أمارات العاقل برّه لإخوانه ، وحنينه إلى أوطانه ، ومداراته لأهل زمانه.
كما قيل : (ودارهم فاللّبيب من دارى).
قالت العرب : حماك أحمى لك ، وأهلك أحفى لك.

حكمة

الغربة كربة ، والقلّة ذلّة.
وقال القائف : إذا أحسّت النفس بمولدها تفتحت مسامّها ، فعرفت النسيم ، وأكثرت الشميم.

وقال آخر : يحنّ اللبيب إلى وطنه كما يحنّ النجيب إلى عطنه.
وقال بعضهم : كما أن لحاضنتك حقّ لبنها ، فكذلك لأرضك حرمة وطنها.
وشبّهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم ، ثكل أباه وأمه ، فلا أم ترامه ، ولا أب يحرب عليه.
وفي المثل : أوضح من مرآة الغريب.

قالت الحكماء : أكرم الخيل أجزعها من السوط ، وأكيس الصبيان أشدّهم بغضا للكتاب ، وأكرم الإبل أشدهم حنينا إلى أوطانها ، وأكرم المهارى أشدها ملازمة لأمهاتها ، وخير الناس آلفهم للناس.

وقال بعض الشعراء في الوطن:
ألا ليت شعري والحوادث جمة * متى تجمع الأيام ما فرّق الشملا
وكل غريب سوف يمسي بذلّة * إذا بان عن أوطانه وجفا الأهلا
وأنشدنا أبو بكر بن سكر قال : كان المازني ينشد لعروة:
اقرأ على الوشل السلام وقل له * كل المشارب مذ هجرت ذميم
جبل ينيف على البلاد إذا بدا * بين الغدائر والزمان مقيم
لو كنت أملك منع ما بك لم يذق * ما في قلاتك ما حييت لئيم

وأنشدنا أبو جعفر أحمد بن يحيى الوزعي بمسجد ابن عتّاب بقرطبة لمجنون بني عامر:
إلى عامر أصبو وما أرض عامر * هي الرملة الوعساء والبلد الرحب
معاشر بيض لو وردت بلادهم * وردت بحورا للندى ماؤها عذب
إلى ما بدت للناظرين خيامهم * فثمّ العتاق القبّ والأسل القضب
وأنشدنا أبو الحسن علي بن خروف بمنزلي لامرأة من عقيل:
خليليّ من سكان ماوان هاجني * هبوب جنوب مرّها وانتسامها
فإن تسألاني ما ورائي فإنني * بمنزلة أعيا الطبيب سقامها

وأنشدنا:
أقول لقوم ألف الدهر بينهم * وبيني والأيام تحوي وتفرق
فإني وإن أحمدت عقد وصالكم * ففي غير مثوى أرضكم أتشرّق
سقى الله قومي كل يوم وليلة * عوارض مزن صوبها يتدفق

ومن باب العشاق والعشق

قال علي بن عبيدة : العشق أرواح تجول في الخليقة ، وفرح يجول في الروح ، وسرور ينشي الخواطر ، له مستقرّ غامض ، ويحل أطيب المساكن ، ينساب في الحركات ، ويهدئ القوي ، ويقوّي الضعيف.

ولبعضهم:
تقول أناس لو نعت لنا الهوى * وو الله ما أدري لهم كيف أنعت
فليس لشيء منه جزء أعدّه * وليس لشيء منه وقت موقت
بلى غير أني لا أزال كأنني * عليّ من الأحزان بيت مبيت
وأنضح وجه الأرض طورا بعبرتي * وأقرعها طورا بظفري وأنكت
وقد زعموا بي أنني لا أحبّه * فما لي أراه من بعيد فأبهت
إذا اشتدّ ما بي كان آخر حيلتي * له وضع كفي تحت خدّي وأصمت

وأنشدني ابن مرتين من هذا الباب:
الحبّ فيه حلاوة ومرارة * والحبّ فيه شقاوة ونعيم
الحب أهونه شديد قادح * والحب أصغر ما يكون عظيم
الحب صاحبه يبيت مسهّدا * ويطير من فؤاده ويهيم
الحب لا يخفى وإن أخفيته * إن البكاء على المحب نميم
الحب يشهد صادقا في وجهه * عند التنفس أنه مهموم
الحب داء قد تضمّنه الحشا * بين الجوانح والضلوع مقيم

حكاية

قال إبراهيم بن سعيد : كنت عند المأمون يوم نوروز ، فجاء الناس بهدايا ، فأمر بردّها استحقارا لها ، فردّت الهدايا . وكانت في المهديين امرأة معها هدية ، ولها رقعة مكتوب فيها:
ألم ترنا نهدي إلى الله ما له * وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولكننا نهدي إلى من نحبه * على قدرنا لا نحو ما قد يشاكله

قال : فأمر المأمون بقبول الهدايا.
حديث مرفوع ، رفعه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز إلى أبي هريرة قال:

بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس في أحفل ما يكون من أصحابه ، إذ أقبل إليه أعرابي من بني سليم باكيا .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : “ ما يبكيك يا أخا بني سليم ؟ “ ، قال : إني ربما قمت في صلاتي فيأخذني الهذيان ، وربما نمت فتأخذني الفكرة في منامي ، وربما أخذتني الوسوسة حتى كادت تفسد عليّ ديني .
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : “ يا سلمي ، هذا عمل إبليس لعنه الله . ألا أعلمك تسعة عشر اسما علّمنيها رب العالمين حين أسري بي إلى السماء السابعة ؟ أربعة منها مكتوبة على جبهة إسرافيل . وأربعة مكتوبة على جبهة ميكائيل . وأربعة مكتوبة على جبهة جبريل . وأربعة مكتوبة على جبهة عزرائيل . وثلاثة مكتوبة على جبهة الناموس الأكبر ، وهو أحد حملة العرش ، جناح له في المشرق ، وجناح له في المغرب . وعنقه مثنيّة تحت قائمة العرش ، لو أمره الجبار أن يلتقم السماوات وما بينهنّ وما فيهنّ وما عليهنّ كان أهون عليه من طرفة عين . “
قال : بلى يا رسول الله ، . فقال : “ يا أخا بني سليم ، إنها تسعة عشر اسما ما دعا بهنّ مهموم إلا فرّج الله عنه همّه ، ولا مغموم إلا فرّج الله عنه غمّه ، ولا غائب إلا ردّه الله عز وجل ، ولا مريض إلا شفاه الله تعالى ، ولا مديون إلا قضى الله دينه . ولم تكن هذه الأسماء في منزل إلا طرد الله عنه إبليس وجنوده . فإذا أمسيت وأصبحت فقل :
اللهمّ إني أسألك يا رحمن يا رحيم ، ويا جار المستجيرين ، ويا أمان الخائفين ، ويا عماد من لا عماد له ، ويا سند من لا سند له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا حرز الضعفاء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منقذ الهلكى ، ويا منجّي الغرقى ، ويا محسن ، ويا مجمل ، ويا منعم ، ويا مفضل ، ويا عزيز .
أنت الذي سجد لك سواد الليل ، وضوء النهار ، وشعاع الشمس ، وهفيف الشجر ، ودويّ النحل ، ونور القمر .
يا الله يا الله يا الله لا شريك لك . أسألك أن تصلّي على محمد وعلى آل محمد ، ثم تدعو حاجتك “ .ومن جواهر الكلم
طيب الأشياء العافية ، وأفضل الدارين الباقية . الطاعة حرز ، والقناعة عزّ ، والعلم

كنز ، والصمت فوز . الثقة مال المؤمن ، والرحمة من الله حظ المحسن . فمن وثق بالله أغناه ، ومن أحسن إلى خلقه نجّاه .
إن الدنيا لا تصفو لشارب ، ولا تفي لصاحب ، ولا تخلو من فتنة ، ولا تخلى من محنة .
فاعرض عنها قبل أن تعرض عنك ، واستبدل بها قبل أن تستبدل بك ، فإن نعيمها ينتقل ، وأحوالها وثمرتها تضمحل .
من أطاع الله عز وجل ارتفع ، ومن عصاه ذلّ فاتّضع من أطاع الله ملك ، ومن أطاع هواه هلك .
كم من جامع لمن لا يشكوه ، ومنفق فيمن لا يسرّه . من تمام العلم استعماله ، ومن تمام العمل استقباله ، فمن استعمله عمله لم يخل من رشاد ، ومن استعمله علمه لم يقصر عن مراد . ثمرة العلم أن تعمل به ، وثمرة العمل أن تؤجر عليه .
كل عزّ لا يوطده دين مذلة ، وكل علم لا يؤيده عقل مظلة . ذل من ليس له ظالم يعضده ، وضلّ من ليس له عالم يرشده . الزهد بصحة اليقين ، وصحة اليقين بصحة الدين ، فمن صحّ يقينه زهد في الثراء ، ومن قوي دينه أيقن بالجزاء.

وصية من شيخ ناصح لتلميذ قابل

روينا من حديث ابن ثابت قال : انا عبد الرحمن بن محمد بن فضالة النيسابوري ، انا محمد بن عبد الله بن شاذان قال : سمعت يوسف بن الحسين يقول : قلت لذي النون في وقت مفارقتي له من المجلس : من أجالس ؟ فقال : عليك بمجالسة من يذكّرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على باطنك ، ويزيد في عملك منطقه ، ويزهدك في الدنيا علمه ، ولا تعصي الله ما دمت قربه ، يعظك بلسان فعله ، ولا يعظك بلسان قوله.

ومن هذا الباب ما حدثنا المروزي ، عن الخشّاب ، نبأ عبد الله ابن الأستاذ قال:

دخل رجل من أصحابنا على أبي العباس الخشاب الزاهد ، فسلم عليه وقال له : يا أبا العباس ، أريد أن أقرأ عليك مما في هذا الكتاب ، لكتاب كان بيده ، ففتح ، فقرأ عليه من باب الورع والزهد والتوكل ، والخشاب ساكت . فقال الرجل : يا أبا العباس ، إنما قرأ عليك هذه الأبواب لتتكلم عليها . فقال له الخشاب : أقرأني فإني أنا ذلك الكتاب . فخرج الرجل من عنده ، ودخل إلى الشيخ أبي مدين ، وهو إذ ذاك بمدينة فاس ، فقال : يا أبا مدين ، اتفق لي مع الخشاب كيت وكيت ، فقال أبو مدين : صدق الخشاب ، هل قرأت عليه بابا ليس هو حاله ؟
فإذا كان حاله لا تفهمه ولا يؤثر فيك ، فكيف قوله ؟ فاتعظ الرجل.

أخبرني عبد الله ابن الأستاذ المروزي ، عن كشف أبي العباس الخشاب ، قال : خطر لأبي مدين طلاق زوجته ، واستخار الله ، ثم رأى أن يستأذن في ذلك أبا العباس الخشاب ، فإنه كانت له حالة تعليم من الله ، فوافق هذا الخاطر دخول الخشاب على أبي مدين ، فقبل

أن يكلمه أبو مدين ، قال له الخشاب : يا أبا مدين ، يقال لك : امسك عليك زوجك ، فمسكها .
ولهذا الخشاب عجائب . زرت قبره مع ابن يخلف بمدينة فاس ، فأتى خبر أنه يوم مات ما بقي
وليّ لله له خطوة إلا حضره.

وصية نوح عليه السلام لابنه

روينا من حديث أحمد بن محمد زياد ، قال : نبأ محمد بن عبد الملك الدقيقي ، نبأ خنيس ، نبأ
زياد قال : نبأ محمد بن عبد الملك ، نبأ زيد بن بكر بن خنيس ، عن محمد بن إسحاق ، عن
عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
»أوصى نوح ابنه فقال : لا أطوّل عليك ، احذر أن لا تنسى : اثنتان يستبشر الله عز وجل بهما
وصالح خلقه . واثنتان يحتجب الله بهما وصالح خلقه . فأما الاثنتان التي يستبشر الله عز وجل
بهما وصالح خلقه ، فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن السماوات والأرض وما بينهما وما فيهنّ لو
كنّ حلقة لقصمتها ، ولو كنّ في كفة لرجحت ، وسبحان الله وبحمده . فإنها صلاة الخلق ، وبها
يرزقون . وأما الاثنتان التي يحتجب الله عز وجل منهما وصالح خلقه ، فالشرك به والكبر. «
فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ، إني لأحبّ أن يحمل مركبي ، ويلين مطمعي ، ويحل
علاق صوتي ، وقبال نعلي ، فذلك كبر ؟
قال : « لا ، ولكن الكبر أن تبطر الحق ، وتغمص الناس » . واللفظ لابن الأعرابي . انتهى.

نصيحة

رويناها عن الحسن ، من حديث ابن ثابت قال : نبأ أحمد بن الحسين بن محمد بن ثابت قال : نبأ
أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله ، نبأ جدّي ، نبأ أبو بكر أحمد بن يحيى بن عمرو بن عتيق
العامري ، نبأ أحمد بن علي بن خلف ، نبأ سري بن المفلس السقطي ، نبأ يزيد ، عن المسعودي
، عن محمد ، عن عوف بن عبد الله ، قال:
سمعت الحسن يقول : يا ابن آدم ، لو أنك تجد حقيقة الإيمان ما كنت تعيب الناس بعيب هو فيك ،
حتى تبدأ بذلك العيب نفسك ، ولا تصلح عيبا إلا ترى عيبا آخر ، فيكون شغلك في خاصة نفسك
، وكذلك أحبّ ما يكون إلى الله إذا كنت كذلك.
ومن حديثه أيضا قال : انا محمد بن علي الأصبهاني التاجر ، نبأ أحمد بن محمود

القاضي بالأهواز ، نبأ محمد بن زكريا ، نبأ ابن عائشة قال : سئل علي بن الحسين عن صفة الزاهد في الدنيا ، قال : يتبلّغ بدون قوته ، ويستعد ليوم موته ، ويتبرم حياته.
حكاية شابّ اصطنعه الحق تعالى

روينا من حديث ابن ثابت قال : نبأ علي بن القاسم الشاهد بالبصرة قال : سمعت أبا الحسن أحمد بن محمد بن عيسى قال : سمعت يوسف بن الحسين يقول:
كان شابّ يحضر مجلس ذي النون بن إبراهيم المصري مدة ، ثم انقطع عنه زمانا ثم حضر عنده ، وقد اصفرّ لونه ، ونحل جسمه ، وظهرت آثار العبادة والاجتهاد عليه . فقال له ذو النون : يا فتى ، ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصّك بها ؟ فقال الفتى : يا أستاذ ، وهل رأيت عبدا اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ، ثم أسرّ إليه سرا ، أيحسن به أن يفشي ذلك السر ؟

ثم أنشأ يقول:
من ساررروه فأبدى السرّ مجتهدا * لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وباعدوه فلم يسعد بقربهم * وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يصطفون مذيعا بعض سرّهم * حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

قال : وحدثني يحيى بن علي بن عبد الله الدمغاني ، عن ابن سلام ، سمعت يحيى بن معاذ يقول : من عرف عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والمؤمن عن عيوب نفسه فتّاش ، والأحمق يسعى في لاش.
قال : وحدثنا عبد الرحمن ، عن أحمد بن مكحول قال : سئل حكيم : أي شيء أحلى ؟ قال : النصرة على العدو بعد الهزيمة ، والاستغناء بعد الحاجة ، والعظة في المجالس ، والغلبة للمتكلم.

كلام لبعض إخواننا فيمن أفناه الشوق
أملى علينا صاحبنا أحمد بن مسعود بن شدّاد المقري ، بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة ، فيمن أفناه الشوق وأودى به التوق ، وأماته التذكّر وأفناه التفكّر ، حتى صارت جزئياته وكلياته لله ، وحركاته وسكناته بالله ، ولحظاته وخطراته من الله ، وضمائره وسرائره مع الله ، فني به عنه ، لما منحه به منه ، وذلك حين زهد في شهواته ولذّاته ، وتجوهر في

صفاته وذاته ، فني بمولاه عن تربه ونفسه ، بما أولاه عن تربه ونفسه ، بما أولاه من قربه وأنسه ، عرض عرضه على الخلق ، وجاهر بجوهره لدى الحق ، حتى صار بين الأتراب من عالم التراب ، ومن أولي الألباب عند رب الأرباب ، بقي صورة في الفناء ، ومعنى في عالم الفناء ، فعين السعادة لم تزل تلاحظه من قبل الأزل ، فهو في عالم الصور معنا ، وفي عالم الأرواح يشاهد المعنى ، فلما أفناه موجده عن وجوده ، بما حباه من تطوله وجوده ، تحيط جوهر روحانيته ، في عرض إنسانيته ، وطمعت في الخلاص الأرواح ، من حصر أقفاص الأشباح ، هتفت بها هواتف الأقدار بالعشيّ والإبكار ، هذا يقرأ عليها : يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ،
وهذا يتلو عليها : وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ * فحينئذ هدرت بلابل بلبالها ، وغرّدت قماري أقمار أحوالها ،
وأنشدت لسان حالها:
يا حسرتي كيف ألقاهم ولي جسد * ولي فؤاد ولي سمع ولي بصر
مادا أقول إذا قالوا فديتهم * أين التحول وأين الدمع والسهر
إذا اعتذرت أجابتني محاسنهم * ما لامرئ لم يمت في حبنا عذر

مبشرة خير تدل على فتح ونصر
رأينا ونحن بسيواس في شهر رمضان ، والسلطان الغالب في ذلك الزمان يحاصر أنطاكية . فرأيت كأنه نصب عليها المجانيق ، ورماها بالأحجار ، فقتل زعيم القوم ، فأولت الأحجار آراؤه السعيدة ، وعزائمه التي يرميهم بها ، وإنه فاتحها إن شاء الله تعالى . فكان كما رأيت بحمد الله ، وفتحها يوم عيد الفطر ، وكان بين الرؤيا والفتح عشرون يوما ، وذلك سنة اثني عشر وستمائة ، فكتبت إليه من ملطية قبل فتحه إياها بأبيات أذكر فيها رؤياي ، وأذكر فيها ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى في النوم جبريل عليه السلام ، وقد جاءه بعائشة أم المؤمنين ، قبل أن يتزوج بها ، في سرفة حرير ، فقال له : هذه زوجتك ، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرها قال : « إن كان من عند الله سيمضيه » . فقلنا : نحن كذلك أدبا واقتداء . فكان من عند الله ، وفتح الله على السلطان بها كما كان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة.

وكانت الأبيات لروميات اتفاقا وهي:
قصدت بلاد الكفر تبغي فتوحها * فأبشر فإن الروم فيك لفي خسر
رأيت لكم رؤيا تدلّ على النصر * وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
قتلتم بأحجار المجانيق كبشهم * فأوّلها الآراء تعضد بالنصر

فدونك فانهض أيها الملك الذي * علا أمره فوق السماكين في النسر
وخذها من الله الكريم بشارة * تدل على التأييد والقهر والقسر
فإن كان عن حق سيمضي وجودها * وإن لم يكن ما فيه في الملك عن عسر
بذا جاء لفظ الشرع إذ جاء وحيه * برؤياه في أمر الحميراء بالسر
إذا جاء نصر الله والفتح فلتجد * بمالك من خير على العسر واليسر

روينا من حديث الواسطي قال : نبأ عيسى بن عبد الله الورّاق ، أخبرني علي بن جعفر الرازي ، نبأ عبد الله بن محمد بن مسلم ، نبأ موسى بن سهل النيسابوري الموصلي قال:
سكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة ببيت المقدس : عبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وابن أم حزام أبو أبي واسمه شمعون حليف الحضرموت ، وأبو ريحانة ، وسلامة بن قيصر الحضرمي ، وفيروز الديلمي ، وذو الأصابع ، وأبو محمد النجاري ، هؤلاء من أهل بيت المقدس .
ماتوا بها ، أعقب منهم عبادة بن الصامت ، وشداد ، وسلامة ، وفيروز ، ولم يعقب أبو ريحانة ، ولا ذو الأصابع ولا النجاري.

ذكر كعب الأحبار
إن الله تعالى قال في التوراة لصخرة بيت المقدس : أنت عرشي الأدنى ، ومنك ارتفعت إلى السماء ، ومن تحتك بسطت الأرض ، وكل ماء يسيل من ذروة الجبال من تحتك ، من مات فيك فكأنما مات في سماء الدنيا ، ومن مات حولك فكأنما مات فيك ، لا تنقضي الأيام والليالي حتى أرسل عليك نارا من السماء ، فتأكل آثار أكفّ بني آدم وأقدامهم منك ، وأرسل عليك ماء من تحت العرش فأغسلك حتى أتركك كالمهات ، وأضرب عليك سورا من غمام غلظه اثنا عشر ميلا وسياجا من نار ، وأجعل عليك قبة خلقتها بيدي ، وأنزل فيك روحي ، وملائكتي ، يسبحون فيك ، لا يدخلك أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة ، فمن يرى ضوء تلك القبة من بعيد يقول : طوبى لوجه يخرّ فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حائطا من نار ، وسياجا من الغمام ، وخمس حيطان من ياقوت ودرّ وزبرجد ، وأنت الأنظر ، وإليك المحشر ، ومنك المنتشر.

حدثني بهذا الحديث جماعة غير واحد ، عن القاسم بن علي ، عن أبي القاسم السوسي ، عن إبراهيم بن يونس ، عن عبد العزيز النصيبي ، عن محمد بن أحمد ، عن عمر ، عن أبيه ، عن الوليد ، عن إبراهيم بن محمد ، عن داود ، عن صدقة بن يزيد ، عن ثور بن يزيد ، عن عبد الله بن تبشر ، عن كعب الأحبار رضي الله عنه.

ومن باب العشق والعشاق ما ذكر عن المأمون وهو قوله
إن الهوان هو الهوى قلب اسمه * فإذا هويت لقد لقيت هوانا
فإذا تعبّدك الهوى فاخضع له * واسجد لإلفك كائنا من كانا

ولجميل بن معن في هذا الباب:
قد كنت أسمع بالمحبّ وذكره * فأضلّ منه عاجبا أتفكّر
حتى بليت بحبكم فوجدته * مرّا ولم أك قبل ذلك أشعر
فاليوم أعذر كل من أثبته * صبّا ومن ذاق الهوى يستشعر

ولام الضحّاك في هذا الباب فقال:
من كان لا يدر ما حبّ وصفت له * أو كان هيّابة أو كان لم يحد
الحبّ أوله روع وآخره * مثل الخزازة بين القلب والكبد

وقال آخر:
الحب أوله حلو وأوسطه * مرّ وآخره التوديع والأجل

وقال صاحب بثينة:
الحبّ أول ما يكون لجاجة * تأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا اقتحم الهوى لجج الهوى * جاءت أمور لا تطاق كبار

ولنا في هذا الباب:
الحبّ أوله نحبّ وأوسطه * موت وليس له حدّ فينكشف
فمن يقول بأن الحبّ يعرفه * فما لقوم به أعمارهم شغفوا
ولم يقولوا بأن الحبّ نعرفه * خلف ولكنه بالقلب يأتلف
فليس يعرف منه غير لازمة * البثّ والوجد والتبريج والأسف

ولنا من منشور الحكم والوصايا
قال الإسكندر : الحكم يرضي أحد الخصمين ويسخط الآخر ، فليستعملا الحق ليرضيهما جميعا.
وقال : لم صارت سير بلادكم قليلة ؟
قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا ، وحسن سيرتهم فينا .
فقال لهم : أيما أفضل ، العدل أم الشجاعة ؟
قالوا : إذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة.

بزرجمهر

العدل هو ميزان الباري سبحانه ، ولذلك هو متبرئ من كل زيغ وميل.

أنوشروان

قيل له : أي الخير أوفى ؟ قال : الدّين . قيل : فأي العدد أقوى ؟ قال : العدل.

أزدشير

قيل له : من الذي لا يخاف أحدا ؟ قال : الذي لا يخافه أحد . فمن عدل في حكمه ، وكفّ عن ظلمه ، نصره الحق وأطاعه ، وصفت له النعمة ، وأقبلت عليه الدنيا ، فتهنّى بالعيش ، واستغنى عن الجيش ، وملك القلوب ، وآمن الحروب ، وصارت طاعته فرضا ، وظلت رعيته جندا.

وإن أول العدل أن يبدأ الرجل بنفسه ، فيلزمها كل خلّة زكية ، وخصلة رضية ، في مذهب سديد ، ومكسب حميد ، ليسلم عاجلا ، ويسعد آجلا . وأول الجور أن يعمد إليها فيجنبها الخير ، ويعوّدها الشر ، ويلبسها الآثام ، ويغبقها المدام ، ليعظم وزرها ، ويقبح ذكرها.

أفلاطون

من بدأ بنفسه فساسها أدرك سياسة الناس . أصلحوا أنفسكم تصلح لكم آخرتكم.

أرسطو

أصلح نفسك لنفسك تكون الناس تبعا لك.

فيثاغورس

أحسن العظات ما بدأت به نفسك ، وأجريت عليك أمرك.

سقراط

من رضي عن نفسه سخط الله عليه الناس.

الأحنف بن قيس
من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم.
ابن المقنع
خير الأدب ما حصل لك ثمره ، وظهر عليك أثره . من تعزز بالله لم يذلّه سلطانه ، ومن توكّل عليه لم يضرّه إنسان . ليكن من حقك إلى الحق ، ومنزعك إلى الصدق ، فالحق أقوى معين ، والصدق أفضل قرين .
من لم يرحم منعه الله من رحمته ، ومن استطال بسلطانه سلبه الله قدرته . إن العدل ميزان الله وضعه للحق ، ونصبه للخلق ، فلا تخالفه في ميزانه ، ولا تعارضه في سلطانه ، واستعن على العدل بخلّتين:
قلّة الطمع ، وشدّة الورع . من طال كلامه شتم ، ومن قلّ احترامه شتم . باطل ما يقوم حق ، وكذوب ما لا ينتصف منه صدق . لا تحاجّ من يذهلك خوفه ، ويملكك سيفه ، فربّ حجة تأتي على مهجة ، وفرصة تؤدي إلى غصّة . وإياك واللجاج فإنه يوعر القلوب ، وينتج الحروب.
عيّ تسلم به خير من نطق تندم عليه ، فاقتصر من الكلام ما يقيم حجتك ، ويبلغك حاجتك ، وإياك وفضوله فإنها تزلّ القدم ، وتورث الندم ، عيّ يزري بك خير من براعة تأتي عليك.

ومن باب التذكير والنصائح
ما رويناه من حديث ابن ثابت قال : انا محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رزق الله البابي ، وأبو الحسن بن علي بن أحمد بن عمر المقرئ قال : نبأ جعفر بن محمد الخلدي ، نبأ إبراهيم بن نصر ، نبأ إبراهيم بن بشار قال : قلت لإبراهيم بن أدهم : أمرّ اليوم أعمل في الطين ، فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب من قد كفيته ، كأنك بما غاب عنك قد كشفت لك ، وبما أنت فيه قد نقلت عنه . يا ابن بشار ، كأنك لم تر حريصا محروما ، ولا ذا فاقة مرزوقا . ثم قال لي : ما لك حيلة ؟ قلت:
لي عند البقال دانق عن عملي ، قال : تملك دانقا وتطلب العمل ؟

ومن باب ما وجد منقوشا على الأحجار
ما رويناه من حديث ابن ثابت ، عن البزاز محمد بن الفرج قال : نبأ جعفر الخلدي ، نبأ أحمد بن محمد بن مسروق ، نبأ أبو محمد الأنصاري قال:

قرأت على حجر ببيت المقدس : رأس الغنى القنوع ، ورأس الفقر الخضوع . وقرأت على حجر بدمشق : كلّم من شئت فأنت نظيره ، واستغن عمّن شئت فأنت أميره ، واخضع لمن شئت فأنت أسيره . قال : وقرأت على حجر عند جبّ : كل من أحوجك الدهر إليه فتعرّضت له هنت عليه .
قال ابن ثابت : وأخبرني محمد بن الفرج ، عن جعفر الخلدي قال:

أنشدني أحمد بن مسروق شعرا:
إن كنت توقن أن ربّك رازق * وسألت مخلوقا فلست بموقن
أو كنت في شكّ من الرزق الذي * كفل الإله به فلست بمؤمن

ومن باب النسيب
ما قاله خالد بن يزيد فيما يقع بين العين والفؤاد من العناد:
القلب يحسد عيني لذّة النظر * والعين تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت * كم تنظرين رماك الله بالسهر
العين تورثه هما فتشغله * والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما * فاحكم فديتك بين القلب والبصر
ولنا في الحكم بينهما إجابة لهذا السائل الأديب بما هو الأمر عليه:
ذكرت يا أيها المفتون بالحور * وبالنسيب وما في الحب من سير
بين الفؤاد وبين السمع والبصر * وقائع لم تزل في سالف العصر
وطالما يبحثون الدهر عن حكم * ندب خبير بما يعطيه من أثر
فاسمع هديت صواب الحكم من حكم * عدل عليم بعين الأمر والخبر
إني لأحكم بين القلب والبصر * حكما تؤيّده أدلّة النظر
نعيم أهل الهوى وقف على النظر * والسمع واللثم والتعنيق والوطر
لا يدرك الحسن الحسنيّ طالبه * ما لم يقم شاهد من حاسد النظر
وهكذا كل ما للحسن مدركه * لا يستقل به عقل من البشر
فالقلب يحمل ما يعطيه من ألم * ومن نعيم وخير عالم الصّور
له النعيم كما أن العذاب له * والحسن آلته للنفع والضرر
وبعد أن أثبت العلم اليقين لكم * فلا تخاصم بين القلب والبصر
وإنما تلك أحوال يقول بها * أهل الهوى لم تكن نتائج الفكر

ولنا في الجواب:
ليس للعين لذّة * إنما تلك في الفؤاد
إنما الحسن آلة * وبه يبلغ المراد
ما له غير ما يرى * ما له لذة الوداد
وإذا كان هكذا * لم يكونا على عناد
هكذا الحكم فيهما * عند من يطلب السداد

ولبعضهم في هذا الباب:
فو الله ما أدري أنفسي ألومها * على الحب أم عيني المشومة أم قلبي
إذا لمت قلبي قال نفسك أذنبت * وإن لمتها قالت خذ العين بالذنب
فقلبي وطرفي قد تشاركن في دمي * فيا ربّ كن عوني على العين والقلب

وللعباس بن الأحنف:
اختصم العينان والقلب * وقالا جميعا ما لنا ذنب
فقلت نفسي ذهبت عنوة * بينكما هذا وذا لعب
فقال قلبي مقلتي أبصرت * لا ذنب لي يا أيها الصبّ
فقلت للعين سمعت الذي * يحيكه عن ناظرك القلب
فاستعبرت عند مقالي لها * وكان من خجلتها السكب

ولنا من هذا الباب:
لم هويت الهلال يا قلب قل لي * قال يا عين لم لحظت الهلالا
أنت أهديت إذ نظرت سقاما * وبلاء وشقوة وخبالا

ولخالد بن يزيد في هذا الباب:
كتب الطرف في فؤادي كتابا * فهو بالشوق والهوى مختوم
كان طرفي على فؤادي بلاء * إن طرفي على فؤادي مشوم

ولبعضهم في هذا الباب:
ويحك يا طرفي أما تستحي * حتى متى توردني حتفي
وأنت يا قلب إلى كم وكم * تتركني أدعو على طرفي
هذان قد صارا عدوّين لي * فأنت ما عذرك يا إلفي
تحلف لي أنك في كفي * وعضّ كفي منك في كفي

ولابن المعتز في هذا الباب:
إن عيني قادت فؤادي إليها * عبد حبّ لا عبد رقّ لديها
فهو بين الفراق والهجر موقو * ف بحزن منها وحزن عليها

وللعباس بن الأحنف في هذا الباب:
قلبي إلى ما ضرّني داعي * يكثر إسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا * كان عدوي بين أضلاعي

وله أيضا:
أقام قيامتي نظري * فمن يعدي على بصري
تعرّض لي الهوى غرا * فشيّبني على صغري
وكان هواك لي قدرا * فكيف أفرّ من قدري

ولنا فيه:
أقول للقلب قد أوردتني سقما * فقال عيناك قادتني إلى تلفي
لو لم تر العين لم تمس حليف ضني * وإن أمت فيه ما في الحب من خلف
لذاك قسمت ما عندي على بدني * من الضنا والجوى والدمع والأسف

ومما روينا في بنيان إيليا : حدثنا غير واحد ، عن القاسم بن علي بن الحسن ، نبأ أبو القاسم السوسي ، نبأ إبراهيم بن يونس المقري ، نبأ أبو محمد عبد العزيز النصيبي ، نبأ أبو بكر بن محمد بن أحمد بن محمد الخطيب بن الواسطي ، نبأ أبو بكر بن محمد بن أيوب بن سويد الحميري ، نبأ أبي ، نبأ إبراهيم بن أبي علية ، عن أبي الزاهرية ، عن رافع بن عمير ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى لداود : يا داود ، ابن لي في الأرض بيتا .
فبنى داود لنفسه بيتا قبل البيت الذي أمره به ، فأوحى الله عز وجل إليه : يا داود ، بنيت بيتك قبل بيتي . قال : أي رب ، هكذا قلت فيما قضيت : من ملك استأثر . ثم أخذ في بناء المسجد الذي أمر به ، فلما تمّ سور الحائط سقط ، ثم بناه ، فلما تمّ السور سقط ثلاثا . فشكى إلى الله عز وجل ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : إنه لا يصلح أن تبني لي بيتا.

قال : يا رب ولم ؟ قال : لما جرى على يديك من الدماء . قال : إي رب ، أو لم يكن ذلك في محبتك ورضاك ؟ قال : بلى ، ولكنهم عبادي ، وأنا أرحمهم . فشقّ ذلك عليه ، فأوحى الله عز وجل إليه : لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان. «

فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه ، فلما تمّ قرّب القرابين ، وذبح الذبائح ، وجمع بني إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه : قد أرى سرورك ببينان بيتي ، فسلني أعطيك.
.

قال : أسألك ثلاث خصال : حكما يوافق حكمك ، وملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه.
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اثنتان قد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون أعطي الثالثة » .
فقال العلماء في ذلك : دعوة نبيّ ، ورجاء نبي ، نرجو قبولها إن شاء الله تعالى ، وما ذلك على الله بعزيز.

ومن باب الغربة وذكر الوطن
قال بعضهم : أرض الرجل أوضح نسبه ، وأهله أخصّ حسبه.
وقيل لأعرابي : كيف تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ وانتقل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذلك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا ، ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليه كساه ، ويجلس في فيّه ، ويكتال الريح ، فكأنه في إيوان كسرى.

وأنشد أبو النصر الأسدي:
أحبّ بلاد الله ما بين ضارج * إلى قفوان أن تسحّ سحابها
بلاد بها نيطت عليّ تمائمي * وأوّل أرض مسّ جلدي ترابها

لإبراهيم بن محفوظ الرّبعي:
أحبّ الأرض تسكنها سليمى * وإن كانت بواديها الجدوب
وما عهدي بحبّ تراب أرض * ولكن من يحلّ بها حبيب

حدثنا أبو ذرّ مصعب بن محمد بن مسعود الخشني الخطيب الأديب قاضي كورة حيان بمسجد الأخضر بمدينة إشبيلية قال:

لما حملت نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه كرهت فراق أهلها ، فقالت لضبّ ، أخيها:
ألست ترى بالله يا ضبّ أنني * مرافقة نحو المدينة أركبا
أما كان في أولاد عمرو بن عامر * لك الويل ما يغني الخباء المحجّبا
أبى الله إلا أن أكون غريبة * بيثرب لا أمّ لديّ ولا أبا

وأنشدني ابن سكر بها بمسجد الشهداء:
ألا يا حبّذا وطني وأهلي * وصحبي حين تذكرني الصحاب
بلاد من غرانقة كرام * بهم حلي تميمتي الشباب
وما عسل ببارد ماء مزن * على ظمأ لشاربه يشاب

بأشهى من تلقّيكم إلينا * فكيف لنا به ومتى الإياب
وأنشدتني خديجة بنت عبد الوهاب بن هبة الله الصوفي القصّار قول الأعرابية التي كان يهواها بعض خلفاء بني العباس ، فتزوّج بها ، فلم يوافقها هوى البلاد ، فلم تزل تنحل وتعتلّ وتتأوّه ، مع ما هي عليه من النعيم واللذة والأمر والنهي ، فسألها عن شأنها ، فأخبرته بما تجد من الشوق إلى البراري وأحاليب الرعاء ، وورود المياه التي تعوّدت ، فبنى لها قصرا على رأس البرّية بشاطئ الدجلة سماه المعشوق ، يقابل مدينة سامرّاء من الجانب الآخر .

وأمر بالأغنام والرعاء أن تسرح بين يديها ، وتتراءى منها ، فلم يزدها ذلك إلا اشتياقا إلى وطنها ، فمرّ بها يوما في قصرها من حيث لا تشعر بمكانه ، فسمعها تنتحب وتبكي حتى ارتفع صوتها ، وعلا شهيقها ، وكبد الخليفة يتقطع رحمة ،
فسمعها تقول:
وما ذنب أعرابيّة قذفت بها * صروف النوى من حيث لم تك ظنّت
تمنّت أحاليب الرّعاة وخيمة * بنجد فلم يقضى لهلا ما تمنّت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبه * وبرد حصاه آخر الليل أنّت
لها أنّة عند العشاء وأنّة * سحيرا ولولا أنّتاها لجنّت

فخرج عليها الخليفة وقال : وقد قضى ما تمنّيت ، فالحقي بأهلك من غير طلاق ، فما مرّ عليها وقت أسرّ من ذلك ، وسرى ماء الحياة في وجهها من حينها ، فعجب الخليفة ، والتحقت بأهلها بجميع ما كان عندها في قصرها ، وكان الخليفة يهواها ، ويغشاها في أهلها إذا تصيّد.
فأخذ هذه الأبيات بعض الأدباء فقال:
وما ذنب أعرابية قذفت بها. . .
إلى آخر الأبيات .
ثم زاد:
يا عظم من شوقي إليكم وإنما * أجمجم أحشائي على ما أجنّت

خبر نبوي في مكارم الأخلاق
روينا من حديث أبي محمد عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : نبأ محمد بن أبي سهل السرخسيّ ، نبأ عبد العزيز بن أحمد الحلواني ، نبأ أبو علي الحصين بن خضر النسفي ، نبأ أبو بكر محمد بن الفضل ، نبأ عبد الله بن محمد بن يعقوب ، نبأ عبد الله بن محمد الهروي ، نبأ الحسن بن علي ، نبأ جعفر بن عون ، عن عبد الرحمن بن زياد بن

أنعم ، عن مسلمة بن يسار ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعاهد مسجدا بسراج اشتاقت إليه الجنة ، ومن صبر على المصيبات فله الجنة ، ومن فتر عن الفتنة أعتق الله رقبته من النار ، ومن عفا عن مظلمة عفا الله عنه يوم القيامة ، ومن كان سمحا في التقاضي فتحت له أبواب الجنة ، فيدخل من أي أبوابها شاء بغير حساب. »

ومن الحسان في فضل رمضان

روينا من حديث عبد العزيز أيضا ، نبأ أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد الخشني ببخارى ، نبأ أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد السعدي ، نبأ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحضرمي ، نبأ أبو حفص أحمد بن محمد العجلي ، نبأ عبد الله بن عبد الله ، نبأ أحمد بن نصر العتكي ، نبأ أبي ، نبأ عباد بن كثير ، عن أبي عبد الرحمن ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أبواب السماء تفتح أول ليلة من رمضان ، فلا تغلق إلى آخر ليلة . فليس عبد يصلي في ليلة إلا كتب الله له بكل سجدة ألفا وخمسمائة حسنة ، وبني له بيتا في الجنة من ياقوتة حمراء ، له سبعة آلاف باب من ذهب ، لكل باب منها قصر من ذهب موشّح بياقوتة حمراء .

فإذا صام أول ليلة من رمضان كان كفّارة إلى مثله من الحول ، وكان له بكل يوم يصومه ألف قصر موشح بياقوتة حمراء ، ويستغفر له سبعون ألف ملك من غدوه إلى تواري الحجاب ، وكان له بكل سجدة يسجدها من ليل أو نهار شجرة يسير في ظلها الراكب مائة عام. »

ومن أحسن الحكم

من صبر على طول الأذى دلّ على صدق التقى . من رفع حاجته إلى الله جلّ جلاله استظهر في أمره ، ومن رفعها إلى غيره وضع من قدره .

من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا . من أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . من ذكر المنيّة نسي الأمنيّة . من استعان بالله استغنى عن عباده ، ومن وثق به استظهر لمعاشه ومعاده .

أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ، ولم تزل الشبهة يقينه . خير الناس من أخرج الحرص عن قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربه . المعاونة في الحق ديانة ، والمعاونة في الباطل خيانة .

نصرة الحق شرف ، ونصرة الباطل سرف . أفضل الناس من كان بعيبه بصيرا ، وعن غيب غيره ضريرا .

أبصر الناس من أحاط بذنوبه ، ووقف على عيوبه . الدين سور ، واليقين نور . السعيد من خاف

العقاب فأمن ، وطلب الثواب فأحسن . الرشيد من أخلص الطاعة ، والغني من آثر القناعة.
ولنا:
ما العزّ إلا لربّ الناس والرسل * والمؤمنين ولكن عالم جهلوا
كما القناعة مال الحرّ يخزنه * بقلبه فلهذا ليس يبتذل
وقلنا : خير الأمور ما يسرّك في يوميك ، وأسعدك في داريك . الثقة بالله أقوى أمل ، والتوكل على الله أزكى عمل.

كلمات نافعة لخيرات جامعة
روينا من حديث ابن ثابت قال : أنا أبو الحسن محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلّد البزّار ، نبأ جعفر بن محمد بن نصر ، نبأ أحمد بن محمد بن مسروق ، نبأ محمد بن الحسين ، نبأ إسماعيل بن الترجمان : سمعت أبا جعفر المحولي ، وكان جمع بين العلم والعبادة ، قال:
حرام على قلب محبّ الدنيا أن يسكنه الورع الخفي . وأقول : أنا ولا والله الورع الجليّ . وحرام على نفس غلبها زبانية الناس أن تذوق حلاوة الآخرة ، وحرام على كل عالم لم يعمل بعلمه أن يتخذه المتّقون إماما.
وروينا من حديثه في باب وَاتَّقُوا اللَّهَ * و يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ:
قال أبو الحسن أحمد بن الحسين : قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن عطاء الروذبادي يقول : العلم موقوف على العمل ، والعمل موقوف على الإخلاص ، والإخلاص لله يورث الفهم « عن الله عز وجل. «

حديث حسن مرويّ عن الحسن
روينا من حديث ابن ثابت قال : نبأ إبراهيم بن مخلد بن جعفر القاضي ، نبأ محمد بن أحمد بن إبراهيم الحلبي ، نبأ محمد بن يونس ، نبأ مكي بن قمير العجلي ، نبأ جعفر بن سليمان ، عن سعيد بن طريف ، عن الأصبع بن نباتة ، قال:
دخلنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الحسن نعوده ، فقال له علي : كيف أصبحت يا ابن رسول الله ؟
فقال : أصبحت بحمد الله بارئا . قال : كذلك أنت إن شاء الله.
ثم قال الحسن : أسندوني ، فأسنده علي إلى صدره . فقال الحسن : سمعت جدي صلى الله عليه وسلم وقال لي يوما:

»يا بنيّ ، عليك بالقناعة تكن من أغنى الناس ، وأدّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، . يا بنيّ ، إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، توقى بأهل البلاء يوم القيامة ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صبا » . وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ.

ومما قيل في إفراط المحبة:
بلغ الهوى من قلبي المجهودا * والحب أخلقني وكنت جديدا
يا عاذلي لو ذقت من ألم الهوى * لوجدته صعبا عليك شديدا

كما قال الآخر:
ما للهوى أخذ الهوى بدمي * تحكم الحب في روحي وفي بدني
ما حل للحب أن الحب أعدمني * صبري وحرم أجفاني على الوسن

قال مجنون بني عامر:
وشغلت عن فهم الحديث سوى * ما كان منك وحبكم شغلي
وأديم لحظ محدثي ليرى * أن قد فهمت وعندكم عقلي

وكما قال الضحّاك:
يقولون مجنون بسمراء مولع * ألا حبذا جنّ بها وولوع
وكيف أطيع العاذلات وحبها * يؤرّقني والعاذلات هجوع
وإني لأخفي حبّ سمراء منهم * ويعلم قلبي أنه سيشيع

وكما قال أحمد بن طاهر:
جنون الهوى فوق الجنون ولا يرى * هوى عاقل إلا كآخر جاهل
يزين للمعشوق ما هو فاعل * ويغوي إذا ما لجّ في العذل عاذل

وكما قال الآخر:
محب بكت عيناه من حب قاتل * فيا قاتلا يبكي عليه قتيل
خليلي جفاني كان روحي لروحه * خليلا وهل يجفو الخليل خليل

وكما قال الآخر:
ونفس كان الهوى مولع * بها ليس بقصد إلا لها
أعللها بالمنى تارة * وطورا أصانع عذّالها
ولنا في النظاميات:

أغيب فيفنى الشوق نفسي فألتقي * فلا أشتفي فالشوق غيبا ومحضرا
ويحدث لي لقياه ما لم أظنه * مكان الشفا داء من الوجد آخرا
لأني أرى شخصا يزيد جماله * إذا ما التقينا نصرة وتكبّرا
فلا بدّ من وجد يكون مقارنا * لما زاد من حسن نظاما محرّرا

خبر الرجفة التي كانت ببيت المقدس
روينا من حديث ابن الواسطي قال : نبأ عمر قال : نبأ أبي قال : نبأ الوليد بن حماد الرملي قال : نبأ أبو عمير عيسى بن محمد قال : نبأ ضمرة ، عن رستم فارسي ، قال الرملي : وثنا عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن منصور بن ثابت قال : نبأ أبي ، عن أبيه ، عن جدّه:
إن أبا عثمان الأنصاري كان يحيي الليل بعد انصرافه من القيام في رمضان على البلاطة السوداء . قال : فبينما هو قائم في الصلاة إذ سمع صوت الهزة في المدينة ، وصراخ الناس واستغاثتهم.

وكانت ليلة قارّة مظلمة كثيرة الأمطار والرياح . قال : فسمعت قائلا يقول : أسمع صوته ولا أرى شخصه ، ارفعوها رويدا بسم الله ، فقلعت القبة حتى تبدّى لنا بياض السماء وأصاب وجهه رش المطر ، حتى أذّن رستم السادن الفارسي ، فسمع قائلا يقول : ردّوها رويدا بسم الله ، سوّوها عدّلوها ، سوّوها عدّلوها ، فردّت القبة على حكاية ما كانت . فقال لرستم لما فتح الباب عليه : اذهب فجئني بخبر أهلي حتى أنبئك بعجيب . فأخبره بخبر أهله أن قد أصيب قوم وسلم قوم ، فأخبرني ، فقال له:

سمع قائلا يقول : ارفعوها رويدا بسم الله ، قلعة القبة قلعا ، حتى بدا لنا بياض السماء ، أصاب وجهي رشّ المطر حتى أذّنت ، فلما أذّنت سمعت قائلا يقول حين أذّنت:
رويدا بسم الله ، سوّوها عدّلوها ، حتى أعيدت على حالها.

ومن باب من آثر محبة الله تعالى
روينا من حديث الخرائطي قال : نبأ إبراهيم بن الجنيد ، نبأ محمد بن الحسين ، نبأ عبد الملك بن قريب الأصمعي الباهلي ، قال : أصيبت امرأة من الأعراب بابن لها ، فأكمنت الصبر والعزاء عليه ، فقيل لها : ما رأيناك جزعت على ابنك هذا ؟ قالت : بلى ، ولكن آثرت رضا الله تعالى وطاعته على محبة الشيطان.

من حكم وهب بن منبّه
ما رويناه من حديث الخرائطي ، قال : نبأ علي بن الحسين النخغي قال : مكتوب في حكمة وهب بن منبّه : المال يفنى ، والبدن يبلى ، والعمل يبقى ، والذنوب لا تنسى ، والديّان حيّ لا يموت.
ثم قال منشدا علي بن الحسين لأبي العتاهية:
نموت وننسى غير أن ذنوبنا * وإن نحن متنا لا تموت ولا تنسى
ألا ربّ ذي عينين لا تنفعانه * وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

ومن فصيح كلام العرب في هذا الباب
رويناه من حديثه ، قال : نبأ إسماعيل بن أحمد بن معاوية بن بكر الباهلي ، قال : نبأ أبي ، عن الأصمعي ، قال : سمعت أعرابيا يقول : ما بقاء عمر تقطعه الساعات ، وسلامة بدن معرّض للآفات . ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو سبيله إلى الثواب . ولا أرى أحدا منّا إلا سيدركه الموت ، وهو عنه آبق.
قال : وأنشدني أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن القطوي لأبيه:
يأمل المرء أبعد الآمال * وهو رهن لأقرب الآجال
لو رأى المرء رأي عينيه يوما * كيف صول الآجال بالآمال
لتناهى وقصّر الخطو في الله * وو لم يغترر بدار الزّوال
قال الحسن بن الحسن البصري : ما أطال أحد الأمل إلا ساء العمل . رويناه من حديث الحميدي ، عن الحسن بن محمد بن إبراهيم الحناي ، عن محمد بن أبي الحديد ، عن أبي بكر محمد بن جعفر ، عن إبراهيم بن الجنيد ، عن بشر بن آدم ، عن الفضل بن عياض ، عن هشام ، عن الحسن . ا ه.
روينا من حديث الواسطي ، نبأ عيسى ، نبأ علي ، نبأ محمد بن إبراهيم ، نبأ محمد بن النعمان ، نبأ سليمان بن عبد الرحمن ، نبأ أبو عبد الملك الجزري ، قال : إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية ، وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية ، وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط كان بيت المقدس في رخاء وعافية.
وقال : الشام مباركة ، وفلسطين مقدسة ، وبيت المقدس قدس القدس.
ولقد روي عن يزيد الرقاشي أنه قال : من أراد أن يشرب ماء في جوف الليل فليقل:

يا ماء ، ماء بيت المقدس يقرئك السلام ، فإنه أمان بإذن الله تعالى . حدثني بذلك غير واحد ، عن قاسم بن علي الشافعي ، عن أبي القاسم السوسي ، عن أبي بكر ، عن إبراهيم بن يونس ، عن أبي محمد محمد بن عبد العزيز النصيبيّ ، عن أبي بكر محمد بن أحمد بن الخطيب ، عن أبي عبد الله ، عن ابن جعفر ، عن محمد بن إبراهيم ، عن ابن النعمان ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن ضرلة وأبي عبد الملك ، كلاهما عن يزيد الرقاشي.

وبه إلى إبراهيم قال : نبأ محمد بن سليمان بن الحويشي ، عن بكر بن جنيش قال:
كان سليمان بن داود إذا دخل بيت المقدس ، يعني المسجد ، وهو ملك الأرض ، يقلب بصره ، يطلب مجالس المساكين من العمي والخرس والجذمى ، فيدع مجالس الناس وينطلق ، فيجلس في جملة المساكين تواضعا ، لا يرفع طرفه إلى السماء . ثم يقول : إذا سئل عن ذلك مسكين جلس إلى المساكين.

روينا من حديث الرملي قال : نبأ محمد بن نعمان ، نبأ سليمان بن عبد الرحمن ، عن أبي عبد الملك ، عن غالب عن عبد الله بن الأعرج ، عن كعب قال:
لا تقوم الساعة حتى يزول البيت الحرام ، وبيت المقدس ، فينقادان إلى الجنة جميعا ، وفيهما أهلوهما ، والعرض والحساب ببيت المقدس.

موعظة
روينا من حديث محمد الحميدي قال : نبأ محمد بن إبراهيم ، نبأ ابن أبي الحديد ، عن أبي بكر بن جعفر قال : نبأ عمر بن شيبة قال:
قال عبد الملك بن قريب الأصمعي : ولي أعرابي ناحية من نواحي البصرة ، فكان يخطب بهم يوم الجمعة ، فقام يوما ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:
أيها الناس ، إنه في سنن من كان قبلكم لعظة ، وما أخطأ القائل حيث قال:
أين الملوك التي عن خطبها غفلت * حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت * أن السلامة منها ترك ما فيها
روينا من حديث الخرائطي قال : نبأ إبراهيم بن الجنيد ، نبأ محمد بن يحيى بن عبد

الكريم ، نبأ جعفر بن أبي جعفر السراري ، حدثني أبو جعفر محمد بن قدامة قال:
بلغنا أنه كان بالبصرة امرأة ، وكان إذا جنّها الليل ونامت كل ذي عين ، تخرّ ساجدة ، وتنادي في سجودها : أما لك يا مولاي عذاب تعذّبني به إلا النار ؟ ولا تزيد عليه حتى تصبح.
وبه قال : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام مرّ بأربعمائة ألف امرأة متغيّرات الألوان ، وعليهن مدارج الشعر والصوف ، فقال عيسى عليه السلام:
ما الذي غيّر ألوانكن معاشر النسوة ؟ قلن : ذكر النار غيّر ألواننا يا ابن مريم ، إن من دخل النار لا يذوق بردا ولا شرابا.

ومما قيل في الوطن : ميلك إلى موضع مولدك من كريم مجدك ، إذا كانت الطير تحنّ إلى أوكارها ، فالإنسان أولى بالحنين إلى أوطانه.
قالت الفرس : تربة الصبي تغرس في القلب رقة وحلاوة.
قيل لبعض العرب : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان ، والجلوس مع الإخوان.
قيل له : فما اللذة ؟ قال : التنقّل في البلدان ، والتنحّي عن الأوطان ، ثم أنشد:
طلب المعاش مفرّق * بين الأحبّة والوطن
ومصيّر جلد الرجا * ل إلى الضراعة والوهن
حتى يقاد كما يقا * د النضو في ثني الرسن
ثم المنيّة تأته * فكأنه ما لم يكن

ومن أحسن ما قيل في الآيات وحب الأوطان من الشعر:
وباشرتها فاستعجلت عن قناعها * وقد تستخفّ الطامعين المباشر
وخبّرها الروّاد أن ليس بينها * وأين قرى نجران والدرب ساتر
فألقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر
قيل لأعرابي : ما السرور ؟ قال : أوبة بغير خيبة ، وألفة بغير غبّة.
وقيل لآخر : ما السرور ؟ قال : غيبة تفيد غنى ، وأوبة تعطيك منى.
إذا هبّت الأرواح من نحو جانب * به أهل ميّ هاج قلبي هبوبها
هوى تذرف العينان منه وإنما * هوى كل نفس أين حلّ حبيبها

وقيل في الغربة:

وأنزلني طول النوى أرض غربة * إذا شئت لاقيت الذي لا أشاكله
فحامقته حتى يقال شجيّة * ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
ولو كنت في أهلي وجلّ عشيرتي * للاقيت فيهم أخرقا لا أواصله

ومما قال : من نفي هواه ومنع حماه:
ومستخفيات ليس يخفين دوننا * ويسحبن أذيال الصبا لذوي الشكل
مريضات رجع القول يله عن الخنا * تألّفن أهواء الرجال بلا بدل
جمعن الهوى حتى إذا ما ملكنه * نزعن وقد أكثرن فينا من القتل
قوله : مريضات ، رجع القول.
قوله تعالى : فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وهو غير المتّقي.

ومن هذا الباب قول الآخر:
لا والذي تسجد الجباه له * ما لي إلى تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به * ما كان إلا الحديث والنظر

قال النابغة:
زعم الهمام بأن فاها بارد * عذب مقبّله شهيّ المورد
زعم الهمام ولم أذقه إنه * يشفي بريا ريقها العطش الصدى

ومن هذا الباب قول ابن المعتز:
قد كان يكفيك ما بالجسم من سقم * لم زدتني سهرا لأمسّك السهر
عيني مورقة والجسم مختبل * والقلب بينهما تخلو به الفكر
يا مانعي لذة الدنيا بما رحبت * إني ليقنعني من وجهك النظر

ومن هذا الباب لأبي فراس:
الحبّ آمره والصون زاجره * والصبر أول ما يأتي وآخره
إن الفتى إن صبا أو شقّه غزل * فللعفاف وللتقوى مأزره
وأشرف الناس أهل الحبّ منزلة * وأشرف الحب ما عفّت سرائره

ومن هذا الباب لجميل بن معمر العذري:
وكان التفرّق عند الصبا * ح عن مثل رائحة العنبر
خليلان لم يقربا ريبة * ولم يستحقا إلى منكر

ومن التنبيهات
ما رويناه من حديث عبد العزيز قال : قال أبو ثابت عاصم بن الحسن ، انا محمد بن أحمد ، نبأ أحمد بن محمد المقري ، عن أحمد بن محمد العبدي ، عن أبي حكيم شداد بن سعيد ، عن مزاحم بن سعيد ، عن حباب بن إبراهيم ، عن محمد بن حرب الأبرش ، عن سعيد بن سنان ، عن أبي الزاهرية ، عن جرير بن نعيم قال : خمس خصال قبيحة في أصناف من الناس:
الحرص في القرّاء ، والحسد في السلاطين ، والبخل في الأغنياء ، والفترة في الشيوخ ، وقلة الحياء في ذوي الأحساب.

ومما قيل في الاعتذار عن البخل : قال علي بن الجهم:
أعاذل ليس البخل مني شجية * ولكن رأيت الفقر شرّ سبيل
يموت الفتى خير من الفقر للفتى * وللموت خير من سؤال بخيل

ومما قيل في البخل:
أراك تؤمل حسن الثنا * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
فكيف يسود أخي بطنة * يمن كثيرا ويعطي قليلا

وقال علي بن الجهم:
لعمرك ما الناس أثنوا عليك * ولا قرضوك ولا عظموا
ولا سابقوك على ما بلغت * من الصالحات ولا قدموا
ولو وجدوا لهم مطعنا * إلى أن يعيبوك ما أحجموا
ولكن صبرت لما ألزموك * وجدت بما لم تكن تلزم
وكان قراك إذا ما لقوك * لسانا بما سرّهم ينعم
وخفض الجناح ووشك النجاح * وتصغير ما أعظم المنعم
وأنت بفضلك ألجأتهم * إلى آن تعالوا بآن يكرموا

ومن أزاهر الحكم
شكر الإله بطول الثناء ، وشكر الموالاة بصدق الولاء ، وشكر النظير بحسن الجزاء ، وشكر من دونك بسبب العطاء . من أدام الشكر استدام البر . أحلى النوال ما وصل قبل السؤال . خير المبارّ ما أسديته إلى الأبرار . أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال . من

تمام الكرم إتمام النّعم . أحسن المقال ما صدق بحسن الفعال . من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه .
من زال معهود إحسانه استحال موجود إمكانه . من منع العطاء منع الثناء . من منع الإحسان سلب الإمكان . من عفّ عن الريبة كفّ عن الغيبة .
إخلاص التوبة تسقط العقوبة . إحسان النية موجب المثوبة . من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه.

آلام الناس سعيد لا يسعد به إخوانه ، وسليم لا يسلم منه جيرانه . من بخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه . إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا اصطنع إليك فانشره . من جاور الكرام أمن من الإعدام ، ومن جاور اللئام فقد الإنعام . من شرف منصبه حسن مذهبه . من طاب أصله زكى فعله . من أنكر حسن الصنيعة استوجب قبح القطيعة .
من كفر شمول النّعم استحل حلول النقم . من منّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعلمه حبط أجره . من رضي من نفسه بالإساءة شهد على نفسه بالرداءة .
من رضي بذمّ أخلاقه اعترف بلوم أعراقه . من رجع في هبته بالغ في خسّته . من أغلق عن أخيه بابه ذمّ الناس خلقه وآدابه.

من بخل على نفسه بخيره لم يجد به على غيره . من تصرف على حكم المروة دلّ على شرف الأبوة . من كرم على تحبيب الرجاء دلّ على كرم الآباء . الشكر أحسن حلية والأجر أفضل قنية . أفضل الكنوز أجر يدّخر ، وأنفس الثياب شكر ينشر.

أفضل العدد أخ وفيّ وأفضل الذخائر سقى زكيّ . السلطان السوء يخيف البري ويصطنع الدنيء ، والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل ، والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف ، والجار السوء يفشي السر ويهتك الستر . أخسّ الناس من أخذ بغير حق وأنفق على غير مستحق . من غدر شأنه غدره ، ومن مكر حاق به مكره . من حمد على الظلم مكر به ، ومن شكر على الإساءة سخر منه . من حق الملك أن يختار لرعيته ما يختار لنفسه ، ويعدّ سوء سيرته من شقاء جدّه ونحسه . المرء يجني بختاره تحلة آثاره .
شرّ الأفعال ما جلب المذامّ ، وشرّ الأقوال ما جلب الملام ، وشرّ الآراء ما خالف الشريعة ، وشرّ الأعمال ما هدم الصنيعة.

ومن باب ما قيل في التصوف
ما رويناه من حديث ابن ثابت قال : نبأ أبو طالب يحيى بن علي الدسكري ، نبأ علي بن بندار الأسترآبادي قال : سئل الشبلي عن التصوف ، قال : التصوف عندي ترويح القلوب بمراوح الصفاء ، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء ، والتخلّق بالسخاء ، والبشر في اللقاء.

وأنشد ابن ثابت قال : أنشدني الحسن بن محمد البلخي ، قال : أنشدني طاهر بن الحسين ، وهو أبو الحسن المخزومي ، لنفسه:
ليس التصوّف أن يلاقيك الفتى * وعليه من نسج المسيح مرقّع
بطرائق بيض وسود لفّقت * فكأنه فيها غراب أبقع
إن التصوّف ملبس متعارف * فيه لموجده المهيمن يخشع

تذكرة ربانية

رويناها من حديث ابن ثابت قال : نبأ علي بن القاسم بن الحسن الشاهد بالبصرة ، نبأ علي بن إسحاق المارداني ، نبأ الفضل بن محمد ، نبأ إسحاق بن إبراهيم الطبري ، قال:
قال الفضيل بن عياض : قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، إذا كنت أقلّبك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي ، فاحذر . لا أصرعك بين معاصيك . يا ابن آدم اتقني ، ونم حيث شئت . إن ذكرتني ذكرتك ، وإن نسيتني نسيتك ، والساعة التي لا تذكرني فيها عليك لا لك.

وممن وعظه الشيب فتبرّأ من العيب

ما رويناه من حديثه قال : نبأ عبد الرحمن بن محمد النيسابوري ، نبأ محمد بن عبد الله بن شادان الرازي ، سمعت أبا عبد الله القرشي يقول : كان لي جار شاب ، وكان أديبا ، وكان يهوى غلاما أديبا ، فنظر يوما إلى طاقات شعر بيض في عارضيه ، فوقع له شيء من الحق ، فهجر الغلام ، وتركه . فلما نظر الغلام إلى ذلك منه كتب إليه يقول:
ما لي جفيت وكنت لا أجفى * ودلائل الهجران ما تخفى
وأرك تشربني فتمزجنا * ولقد عهدتك شاربي صرفا
قال : فقلب الرقعة وكتب على ظهرها:
أنغام مع الشمط * سمتني خطة شطط
لا تلمني على جفا * ئي فحسبي بما فرط
أنا رهن بما جني * ت فذرني من الغلط
قد رأينا أبا الخلا * ئق في زلة هبط
ومن باب النسيب ما قيل في معاتبة الجواري:

ناديت قلبي بدمعي ثم قلت له * يا من يحبّ حبيبا لا يواتيه
فردّ قلبي على طرفي بزفرته * هذا البلاء الذي أوقعتني فيه

وقال الآخر:
يا قلب يا قلب يا مشوم * منك بلائي فمن ألوم
تعشق هذا وذا وهذا * لست على واحد تدوم

ولبعضهم في هذا الباب:
أغار طرفي على قلبي وأحشائي * بنظرة وقفت مني على دائي
وكنت غرّا بما تجني عليّ يدي * لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

ولبعضهم في هذا الباب:
أفيضي وانزفي العبرات عيني * فأنت فتنتني وجلبت حيني
وألهبت الفؤاد لهيب جمر * بحرقته يذوب الأسودين
فذوقي من فعالك مثل ما قد * أذقت القلب من صدّ وبين
جناية ناظر بالقلب تربى * على فعل الخوارج بالحسين

ومن هذا الباب:
يا جفونا سواهرا أعدمتها * لذة النوم والرقاد جفون
إن لله في العباد منايا * سلّطتها على العيون العيون

ومنه أيضا:
نظر العيون إلى العيون هو الذي * جعل العيون على القلوب وبالا
ونهيت نومي عن جفوني فانتهى * وأمرت ليلي أن يطول فطالا

ومن هذا الباب:
أمر الهوى ليل الشجيّ فطالا * ونهى الهوى عنه الملام فزالا
والذي ذهبنا إليه أدخل في النسيب من الأول ، فإن الأول في حكم نفسه فإنه الآمر والناهي .
والذي ذهبنا إليه بحكم الهوى ، لأن المحبّ لا حكم له مع سلطان الهوى ، فإنه الأقوى.

وللعباس بن الأحنف فيه:
خليليّ ما للعاشقين قلوب * وما للعيون الناظرات ذنوب
ويا معشر العشاق ما أصعب الهوى * إذا كان لا يلقى المحبّ حبيب

ومن باب الإفراط في الحب قول قيس المجنون:
إن البلاد وما فيها من الشجر * لو بالهوى عطشت لم ترو بالمطر
لو ذاقت الحبّ أرض الله لاشتغلت * أشجارها بالهوى فيها عن الثمر
ليس الحديد ولا صمّ الحجار إذا * فكّرت أقوى على البلوى من البشر

كلام في السماع لبعض إخواننا
سمعت صاحبنا أحمد بن مسعود بن شداد المقري الموصلي بمنزلي بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة يقول : السماع سر من أسرار الله تعالى التي لا عمارة للقلوب إلا بها ، وهي لطيفة من لطائف الغيوب التي هي قوت القلوب ، فإذا مررت بسربه ، فسر به ، وقف مع أهله على قدم التذلل ، وأمط عنك رداء التذلل ، فإنك لن تدرك الأرب إلا بلزوم الأدب ، ولن تبلغ المقصود إلا بحفظ العهود . ومن رام قضاء الأوطار اقتحم ركوب الأخطار . فإذا برز لك توقيع تقريبه ، فلا تخل تقرى به . فهذه عناية أصلها ثابت في القدم ، وفرعها نابت ظهر إلى الوجود من كمين العدم ، مشيرا إليه في قوله تعالى : أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، فلما كمنت نار قوله في زناد : قالُوا بَلى ، قرعتها صفى الصفا بواسطة هذه الآلات ، فبرقت بارقة من تلك النغمات ، فسمت الأرواح إلى تلك النسمات ، وشفّ الجوهر الروحاني في العرض الإنساني . فلما تنسمت الأرواح وسمت إلى ما به ، وسمت ، طارت بأجنحة الطرب إلى سماء الطلب ، فرتعت في رياض الأنس ، وكرعت في حياض القدس . فلما انبسطت على بساط البسيطة ، وتعززت بعزّ العزائم النشيطة ، تثبتت أقدام أقدامها ، وناحت حمام حمامها ، وغرّدت بلابل بلابلها ، وأنشدت بلسان حالها:
أبدا تحنّ إليكم الأرواح * ووصالكم ريحانها والرّاح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم * وإلى زمان لقاكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تحمّلوا * ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم * وكذا دماء البائحين تباح

حكاية الضّادي
حدثنا أحمد بن مسعود ، انا رسلان البغدادي قال : كان رجل بالبصرة يكثر من ذكر الضادات حتى وسم بالضادي ، وكان قاضيها يتمنى أن يقع له إليه حاجة ليسمع كلامه ، فدخل عليه بعض حجابه يوما وقال:

يا سيدي ، الضادي بالباب ، قال : ائذن له ، فمحصول ما يتكلم به ضادات ، وهو أن يقول : السلام عليك أيها القاضي ، إن فلانا ظلمني ، وأنا ضعيف ، فأقول له : الظلم بالظاء وليس بالضاد ، فأقهره ، فدخل عليه وقال : السلام عليك أيها القاضي الفاضل الأفضل ابن الأفضل ، إن ضرار بن ضمرة الضبي اهتضمني ، وعضّني ، وضلع ضلعي ، وأخذ ضيعة لي على الغياض بالضيعي ، اعترضها ضمانا ، ولم يعوّضني عنها ، وأنت أيها القاضي غضبان عليّ ، معرض عني ، نتعرض بعرض عرضك ، أن تمضي إلى ضرار بن ضمرة الضبي وتحضره بحضرتك إحضارا ، وتفرض لي عليه فرضا ، ليخضع ويضرع ، ويعوّضني البعض عن الضمان ، فإني ضعيف متضعّف ، مهضوض من بين الضعفاء ، فاهتضمني بضوضائه.

قال : فأقبل القاضي على خصمه وقال له : إن خصمك هذا لمجنون ، انطلق وخذ الضيعة.

فلما ولى أخذ الضادي بأهدابه وأنشد:

أيا من أقرض القاضي * له أرضي لكي يرضى
أهذا في القضا فرض * بأن ترضى ولا أرضى
قضى قاضيك في أرضي * قضاء ليت لم يقضى
فأين المعوض المقروض * لا عوضا ولا قرضا
ضعاف مهضم ضيم * مضت ضيعتهم أيضا

قال : فاستفرغ القاضي منه ضحكا فوقع له بالضيعة.

خليفة أمن وعدل في حال شغله باللهو والغزل

احتجب عبد الرحمن بقرطبة عن الناس سنين كثيرة في أكل وشرب ولهو وطرب ، فدخل عليه بعض من له عليه إدلال فقال:

يا أمير المؤمنين ، اشتغلت باللهو عما قلّدته من أمور المسلمين ، وفوّض إليك من القيام بهم والنظر في مصالحهم ، ورعي حق الله فيهم ، فقال:

يا هذا ، السّبل آمنة ؟ قال : نعم ، قال : قاضيكم يعدل ؟ قال : نعم ، قال : عدوكم مقهور ؟ قال : نعم ، قال : فما تريدون مني ؟

ودخل على هذا الخليفة يوما أرسال الإفرنج ، وقد ظهر لهم من عظيم الملك ما يرغبهم ، بسط لهم الحصر من باب قرطبة إلى باب الزهراء قدر فرسخ ، وجعل الرجال عن يمين الطريق ويساره ، بأيديهم السيوف الطوال العراض مجرّدة ، يجمع بين سيف الأيمن

وسيف الأيسر حتى صارت كعقد الحنايا ، وأمر بالإرسال أن يمشوا بين تلك في ظلالها ، كأنها ساباط ، فدخلهم من الرعب ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلما وصلوا إلى باب الزهراء فرش لهم الديباج من باب المدينة إلى مقعده على تلك الحالة من الترهيب ، وأقام في مواضع مخصوصة حجّابا كأنهم الملوك ، قعودا على كراسي مزخرفة ، عليهم الديباج والحرير ، فما أبصروا حاجبا إلا سجدوا له يتخيلون أنه الخليفة ، فيقال لهم : ارفعوا رءوسكم ، هذا عبد من عبيده ، إلى أن وصلوا به إلى ساحة مفروشة بالرمل ، والخليفة في وسطها قاعد ، عليه ثياب خلق قصار ، يساوي كل ما عليه أربعة دراهم ، وهو قاعد على الأرض مطرق وبين يديه مصحف وسيف ونار . فقيل للرسل : هذا السلطان ، فسجدوا له ، فرفع رأسه إليهم قبل أن يتكلموا وقال:
إن الله أمرنا يا هؤلاء أن ندعوكم إلى هذا ، وأشار إلى المصحف كتاب الله ، فإن أبيتم فبهذا ، وأشار إلى السيف ، ومصيركم إذا قتلناكم إلى هذا ، وأشار إلى النار . فملئوا منه رعبا ، وأمر بإخراجهم ، ولم يبدو كلاما ، فصالحوه على ما أراد.
هكذا يعزّ دين الله وإلا فلا.

ومن باب النصائح

ما كتبنا به إلى السلطان عز الدين الغالب ، بأمر الله كيكاوس ، جوابا عن كتاب وصل إلينا منه أيّده الله:

بسم الله الرحمن الرحيم.

وصل الاهتمام السلطاني الغالبي بأمر الله العزيز ، أدام الله عدل سلطانه ، إلى والده الداعي له ، فيتعين عليه الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الإلهية ، على قدر ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب ، إلى أن يقدر الاجتماع ، ويرتفع الحجاب.
فقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
" الدين نصيحة " . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ فقال : « لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » . وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين ، قد قلّدك الله هذا الأمر ، وأقامك نائبا في بلاده ، ومتحكما بما توفق إليه في عباده ، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم ، وأوضح لك محجّة بيضاء تسلك بهم عليها وتدعوهم إليها ، وعلى هذا الشرط ولّاك وعليه بايعناك ، فإن عدلت فلك ولهم ، وإن جرت فعليك وعليهم ، فاحذر أن أراك غدا يوم القيامة

بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا ، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم ، واستظهار المعاصي ، وتسليط نواب السوء على الرعية الضعيفة ، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض ، وأنت المسؤول عن ذلك.
فيا هذا ، قد أحسن الله إليك وخلع النيابة عليك ، فأنت نائب الله في خلقه ، وظله الممدود في أرضه ، فانصف المظلوم من الظالم ، ولا يغرنك أن وسّع الله عليك سلطانك ، وسوّى لك البلاد ووطّاها ، مع إقامتك على المخالفات والجور وتعدّي الحدود ، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات إمهال من الحق لا إهمال ، وما بينك وبين أن تقف على أعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى ، وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك ، فلا تكن من النادمين ، فإن الندم في ذلك الوقت غير نافع.
يا هذا ، ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين ، وقليل ما هم ، رفع النواقيس ، والتظاهر بالكفر ، وإعلاء كلمته ببلادك ، ورفع الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين وإمام المتقين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة ، من أن لا يحدثوا في مدينتهم ولا حولها كنيسة ، ولا ديرا ، ولا قلة ، ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا ما خرب ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعموهم ، ولا يأووا جاسوسا ، ولا يكتموا غشا للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الإسلام إن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين ، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس ، ولا يتشبّهوا بالمسلمين ، في شيء من لباسهم في قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا يتسمّوا بأسماء المسلمين ، ولا يتكنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجا ، ولا يتقلدوا سيفا ، ولا يتخذوا شيئا من السلاح ، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ، ولا يظهروا صليبا ، ولا شيئا من كتبهم في طرق المسلمين ، ولا يجاوروا موتى المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربا خفيفا ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا شعانين ، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين.
فإن خالفوا في شيء مما شرط فلا ذمة لهم ، وقد حل للمسلمين ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.
فهذا كتاب الإمام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يبنى كنيسة في الإسلام ، ولا يجدّد ما خرب منها » . فتدبر كتابي ترشد إن شاء الله تعالى ، ما لزمت العمل به . والسلام.

وكتب إليه أيضا:
إذا أنت أعززت الهدى وتبعته * فأنت لهذا الدين عزّ كما تدعى
وإن أنت لم تحفل به وتركته * فأنت مذل الدين تخفضه وضعا
فلا تأخذ الألقاب زورا فإنه * لتسأل عنها يوم يجمعكم جمعا
يقال لعزّ الدين أعززت دينه * ويسأل دين الله عن عزّكم قطعا
فإن شهد الدين العزيز بعزّكم * تكن مع دين الله في عزّه شفعا
وإن قال دين الله كنت بملكه * ذليلا وأهلي في ميادينه صرعى
وما زلت في سلطانه ذا مهانة * وفي زعمه بي أنه محسن صنعا
فما حجّة السلطان إن كان قوله * كما قلت فلتسكب لما قلته الدمعا
وأدمن لباب الله إن كنت تبتغي * تجاوره عن ذينك الضرب والقرعا
عسى جوده يوما يجود بنفحة * فيبرز عفو الله يدفعه دفعا
فيا ربّ رفقا بالجميع فيا لها * إذا اجتمع الخصمان من وقعة شنعا
فأنت إمام المتّقين ورأسهم * إذا لم تزل تجبر لدين الهدى صدعا
لكم نائب في الأمر أصبح ملحدا * وأضحى لأهل الدين يقطعهم قطعا
فما لك لم تغلبه واسمك غالب * وما لك لم تعزله إذ آثر النفعا
فيها أيها السلطان حقق نصيحتي * لكم وارعني منكم لما قلته سمعا
فإني لكم والله أنصح ناصح * أذود الردى عنكم وأمنعه منعا
وأجلب للسلطان من كل جانب * من الدين والدنيا المعارف والنفعا

حكم منثورة
أفضل الأعمال ما أثّل مجدا ، وأجمل الطلب ما حصّل حمدا . شرّ العمل ما هدم فخرا ، وشر الطلب ما قبح ذكرا . الحليم من لم يكن حلمه لفقد النصرة وعدم القدرة ، والجواد من لم يكن جوده لدفع الأعداء وطلب الجزاء ، والشجاع من لم تكن شجاعته لفوت الفرار وفقد الأنصار ، والصّموت من لم يكن صمته لكلة لسانه وقلة بيانه ، والمنصف من لم يكن إنصافه لضعف يده وقوة خصمه ، والمحبّ من لم تكن محبته لبذل معونة أو حذف مئونة . من خان أخاه زهد في أخوّته ، ومن أعان عليه خرج من مروءته.

وروينا من حديث ابن ثابت قال : أنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن رزق البزّار ، وأبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران المعدل ، نبأ إسماعيل بن محمد الصفّار ، نبأ أبو يحيى بن أسد المروزي ، نبأ معروف الكرخي قال:
قال بكر بن حبيش : إن في جهنم لواد تتعوّذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم سبع مرات ، وإن في الوادي لجبّا يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجب كل يوم سبع مرات ، وإن في الجب لحية يتعوّذ الجب والوادي وجهنم من تلك الحية كل يوم سبع مرات . يبدأ بفسقة حملة القرآن فيقولون : أي ربّ ، بدئ بنا قبل عبدة الأوثان ؟ فيقال لهم : ليس من يعلم كمن لا يعلم.

وروينا من حديثه أيضا ، عن ابن رزق قال : حدثنا أبو محمد بن جعفر محمد بن نصر الخلدي ، حدثني إبراهيم بن نصر المنصوري مولى منصور بن المهدي ، حدثني إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم إبراهيم بن أدهم قال:
وقف رجل مرة على إبراهيم بن أدهم فقال : يا أبا إسحاق ، لم حجبت القلوب عن الله عز وجل ؟ فقال : لأنها أحبّت ما أبغض الله ، أحبت الدنيا ، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، في نعيم لا يزول ولا ينفد ، خالدا مخلّدا ، في ملك لا نفاذ له ولا انقطاع.

ومن باب النسيب
ما قاله ابن الرومي في حلاوة الحب ومرارته . قال أبو بكر الصيدلاني في روايتنا:

أنشدنا أحمد الكاتب قال : أنشدني ابن الرومي:
وأزرق الفجر يبدو قبل أشهبه * وأول الغيث قطر ثم ينسكب
فمثل ذلك ودّ العاشقين هوى * بالمزح يبدو وبالإدمان يلتهب

وبلسان الوسوسة في هذا الباب:
الحبّ حلو أمرّته عواقبه * وصاحب الحب صبّ القلب ذائبه
استودع الله من بالقلب ودّعني * يوم الرحيل ودمع العين سائله
ثم انصرفت وداعي الحب يهتف بي * أرفق عليك فقد عزّت مطالبه

ولنا في هذا الباب:
الحبّ حلو إذا ما حبّنا وصلا * كما يمرّ إذا محبوبنا هجرا

منوّع الطعم في الحالات فهو كمث * ل الماء يتبع لون الكأس إن نظرا

وقال الحسن بن هانئ:
أوائل الحب حلاوات * وآخر الحب مرارات
ومشرع الحب دواعي الردى * ومنهل الحب بليّات
كم قد أباد الحب من معشر * أمسوا وهم في التراب أموات
فسوف إن دام بنا ذا الهوى * أموت والله كما ماتوا

ولبعضهم:
الحبّ يترك من أحبّ مدلّها * حيران أو يقضى عليه فيسرع

وقال الآخر:
ألا قاتل الله الهوى كيف يقتل * وكيف بأكباد المحبين يفعل
فلا تعذلوني في هواي فإنني * أرى سورة الأبطال في الحب تبطل

وقال أبو حفص في هذا الباب:
ليس أمر الهوى يدبّر بالراء * ي ولا بالقياس والتفكير
إنما الحب والهوى خطرات * محدثات الأمور بعد الأمور
ليس خطب الهوى بخطب يسير * ليس ينبيك عنه مثل خبير

ومن قول الكميت في هذا الباب:
الحبّ فيه حلاوة ومرارة * سائل بذلك من تطعّم أو سقي
ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها * فيما مضى أحد إذا لم يعشق

وقال بعضهم فيه:
رأيت أخا الحب الذي ليس يقصر * يقال له أعمى وإن كان يبصر
ويخبط كالعشواء في حالك الدجى * سواء عليه السهل والمتوعر

ومن باب طعم الحب:
وللحبّ أغصان تراها نظيرة * وفي طعمها للذائقين ذعاف
رأيت المنايا في عيون أو أنس * تميت بها الأرواح وهي ضعاف

ومن ذلك:
وقيل الهوى عذب فلما وردته * وردت كريها لا يسوغ لشاربه
وإني رأيت الدهر حين صحبته * محاسنه مقرونة بمعايبه

إذا سرّني في أول الأمر لم أزل * على حذر من غمّه في عواقبه

ومن ذلك:
الحبّ حلو البدء مرّ العقب * وأصعب الأدواء داء الحبّ
وصاحب الحبّ حليف الكرب * مذلّة العقل عميد القلب
رؤيا عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيما جرى على المشركين في يوم بدر
روينا من حديث الواحدي قال : نبأ أحمد بن الحسين الحيري ، ثنا أبو العباس أحمد بن يعقوب ، نبأ أحمد بن عبد الجبار العطاردي ، نبأ يونس بن بكير ، نبأ محمد بن إسحاق ، نبأ حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال:

وحدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم ، قبل مقدم ضمضم على قريش بمكة بثلاث ليال ، رؤيا أعظمتها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت : يا أخي ، لقد رأيت الليلة رؤيا ، ليدخلنّ على قومك شرّ وبلاء . قال : وما هي ؟ قالت : رأيت فيما يرى النائم أن رجلا أقبل على بعير له ، فوقف بالأبطح ، فقال : انفروا يا آل عذراء إلى مصارعكم في ثلاث .
فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم أرى بعيرا دخل به المسجد ، واجتمع إليه أناس . ثم مثل به بعيره ، فإذا هو على رأس الكعبة ، فقال : يا آل عذراء ، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث . ثم إن بعيره مثل به على رأس أبي قبيس فقال : انفروا يا آل عذراء إلى مصارعكم في ثلاث . ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل ، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت في أسفله ارفضّت ، فما بقيت دار من دور قومك ولا بيت إلا دخل فيه بعضها . قال العباس : والله إن هذه لرؤيا فاكتميها . قالت : وأنت فاكتمها.

فخرج العباس من عندها ولقي الوليد بن عتبة ، وكان له صديقا ، فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لابنه فتحدث بها ، فغشى الحديث . قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، فدخلت المسجد فإذا أبو جهل في نفر من قريش يتحدثون عن رؤيا عاتكة . فقال أبو جهل : يا أبا الفضل ، متى حدثت هذه النهية فيكم ؟ فقلت : وما ذاك ؟

قال : رؤيا رأتها عاتكة بنت عبد المطلب . أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم متربص بكم هذه الثلاث التي ذكرتها عاتكة ؟ فإن تكن عاتكة تقول حقا فسيكون ، وإلا كتبنا عنكم كتابا أكذب بيت في العرب . قال العباس : فما كان مني إليه من كبير شيء إلا أني

جحدت ذلك وأنكرته . قلت : ما رأيت شيئا ولا سمعت بها . فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني ، فقلن : صرتم لمثل هذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء ، وأنت تسمع ، فلم يكن عندك في ذلك غيرة . فقلت : والله لقد صدقني ، وما كان عندي في ذلك من غيرة ، إلا أني أنكرت ما قال ، فلا تعرضت له ، فإن عاد لأكفينكه.
فغدوت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شيئا فأشاتمه ، فو الله إني لمقبل نحوه ، وكان رجلا حديد النظر حديد اللسان ، إذ ولّي نحو الباب يشتد . فقلت في نفسي : ما له لعنه الله ؟
أكل هذا فرقا من أن أشاتمه ؟ وإذا هو سمع ما لم أسمع . سمع صوت عمرو بن ضمضم الغفاري وهو يصرخ بباطن الوادي ، واقف على بعيره بالأبطح قد رحله وشق قميصه وجدع بعيره ، يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان ، وتجارتكم قد عرض لها محمد وأصحابه ، الغوث الغوث . فشغله ذلك عني ، وشغلني عنه ما جاء من الأمر.
وتجهز الناس سراعا ، وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن يكون كعير ابن الحضرمي ؟
كلا . والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين ، إما خارجا وإما باعثا مكانه رجلا.
وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد . فأصابت قريش ما أصابها يوم بدر من قتل أشرافهم وأسر جبابرتهم.

قال ابن نجيح : كان أمية بن خلف قد أجمع العقود ، وكان شيخا كبيرا ثقيلا ، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهري قومه بمجمرة يحملها فيها نار ، حتى وضعها بين يديه فقال : يا أبا علي استجمر ، فإنما أنت من النساء . فقال : قبّحك الله ، وقبّح ما جئت به . ثم تجهز وخرج مع الناس.

وكان سبب تثبّط أمية عن الخروج ما رويناه أيضا من حديث الواحدي ، قال : نبأ أبو نصر أحمد بن محمد بن إبراهيم ، انا عبد الله بن بطاء ، أنا أبو القاسم ابن بنت منيع ، نبأ يعقوب بن إبراهيم الدورقي ، نبأ خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : انطلق سعد بن معاذ معتمرا ، فنزل على أمية بن خلف ، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ . فقال أميد لسعد : انتظر إذا انتصف النهار وغفل الناس ، انطلقت . فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال : من هذا الذي يطوف معك بالكعبة ؟ فقال : سعد ، فقال أبو جهل : تطوف بالكعبة آمنا وقد آويت محمدا وأصحابه ؟ قال : نعم . فتلاحيا بينهما . فقال أمية لسعد : لا

ترفع صوتك على أبي الحكم ، فإنه سيد أهل هذا الوادي . فقال له سعد : والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك إلى الشام . فجعل أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك ، وجعل يمسكه . فغضب سعد ، فقال : دعنا عنك ، فإني سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك . قال : إياي ؟ قال : نعم . قال : والله ما يكذب محمد . فرجع إلى أم صفوان ، فقال:
أما تعلمين ما قال أخي اليثربي ؟ قالت : وما قال ؟ قال : زعم أن محمدا يزعم أنه قاتلي.
قالت : والله ما يكذب محمد . فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ ، فقالت له امرأته : أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي ؟
فقال له أبو جهل : إنك من أشرف أهل الوادي ، فسر معنا يوما أو يومين ، فسار معهم ، فقتله.
وقد ذكرنا قصة غزوة بدر في هذا الكتاب ، ومقتل أمية بن خلف ، وغيره فيها.

قدوم حمير على أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه
روينا من حديث الرملي ، عن الحسين بن زياد ، عن أحمد بن عبد الله ، عن محمد بن يوسف ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، قال : قدمت حمير على أبي بكر رضي الله عنه معها ذو الكلاع الحميري ، بعدد كثير من أهل اليمن وعدّة حسنة . وجاءت مذحج فيها قيس بن هبيرة المرادي ، ومعه جمع عظيم من قومه ، فيهم الحجاج بن عبد يغوث ، وجاء حابس بن سعد الطائي في عدد كثير من طيّ ، وجاءت الأزد في عدد كثير وجمع عظيم ، فيهم جندب بن عمرو بن جمحة الدوسي ، وفيهم أبو هريرة الدوسي قيس.

فأمّر أبو بكر رضي الله عنه ميسرة بن مسروق العبسي عليهم ، وجاء ابن أشيم في بني كنانة.
فأما ربيعة وتميم فإنهم كانوا بالعراق ، وكانت دارهم عراقية ، وقلّ من شهدها منهم.
وكان أعظمهم وأجلّهم أهل اليمن . فمن هناك كثروا بالشام وكانوا سكانها وأهلها.

ومن باب النسيب
وما سرّني أني أطيق تصبّرا * ولا أنني أمسيت خلوا من الحبّ
إذا ما سألت الله عنك تسلّيا * فلست حقيقا بالإجابة من ربي
السماع في ذلك : تقول النفس الإنسانية اللطيفة الربانية الموجودة عن الروح الإلهي ، من قوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي * لهذا الروح ، لما طال حبسها في هذا الهيكل الضيّق ، عن السراج في تلك المسارح الواسعة الفضاء ، الصافية الإضاء ، حيث الروح

الأعلى ، والملائكة العلى ، بالمكانة الزلفى ، والنظر الأجلى ، ما سرّني أن أطيق تصبّرا عن اللحوق ، ولا أنني خلو من تعلق الهمم به والاشتياق إليه ، وكيف لا يكون ذلك مني وهو أصلي وكلي ؟ ولما تحيلت الأغراض منه عني بطول الحبس في عالم التركيب الأسفل ، تعطين التخليص والتسخير ، أردت إقامة الحجة على كل خاطر يحرّضني عن العدول عن هذه الحجة ، وعلمت أني لا بد لي من الرجوع إليه والنزول عليه ، والتخليص من هذه السّدفة الترابية واقع على كل حال ، والإقامة في عالم الفساد على الدوام محال .
سألت الله في السلوان عن هذا التعلق بالتضرع والإنابة ، وقد تحققت في ذلك عدم الإجابة ، فأرضيت الفريقين ، هيهات وكيف يسلو فرع عن أصله ؟ ولولاه ما غذاه الماء ، ولا امتدت إليه الأفياء .
ومنه قول الآخر:
يعيّرني قومي بذلّي في الهوى * وكم من ذليل في الهوى يكسب العزّا
إذا كنت تهوى فاجعل الذلّ جنّة * فإني رأيت الكبر من ذي الهوى عجزا

السماع في ذلك : لما كان الهوى محله النفس ، وكان تعلقه بالمجانس لها ، عيّره أهل الحجاب بذلته لمجانسه وشكله ، فقال لهم : ليس الأمر كما تزعمون ، فإن التعلق وإن كان بالمناسب ، فالمناسب هنا قوله : خلق آدم على صورته ، وليس كمثله شيء ، والتجلي في الصور مشروع ، والمناسبة في صور التجلي وهو روحها ، ومحبتها تنتج محبته ، ومحبته تورث كون المحبة من حيث هو حبيب له ، سمعا له وبصرا .
فأي عزّ ؟ وأية قوة ؟ وأي عظم يقاوم عزّ من هو مع الحق بهذه المثابة ؟ فهو قوله : وكم من ذليل في الهوى يكسب العزّا ، وذلّ الهوى جنة لهذا العز ، يتعلق الذمّ به دونه ، يقول : وإذا رأيت من يتكبّر في هواه فذلك لعدم مواصلة ، فيرى أن ذلك من كبر نفسه ، وهذا في جناب الحق غير لائق وفي سماع العارفين.

ومن باب النسيب قولنا
ألا يا نسيم الريح بلّغ مها نجد * بأني على ما تعلمون من العهد
وقل لفتاة الحي موعدنا الحمى * غديّة يوم السبت عند ربا نجد
على الربوة الحمراء من جانب الضوى * وعن أيمن الأفلاج والعلم الفرد
فإن كان حقا ما تقول وعندها * إليّ من الشوق المبرّح ما عندي
إليها ففي حرّ الظهيرة نلتقي * بخيمتها سرا على أصدق الوعد
فنلقى ونلقى ما نلاقي من الهوى * ومن شدة البلوى ومن ألم الوجد

أأضغاث أحلام أبشرى منامة * أنطق زمان كان في نطقه سعدي
لعلّ الذي ساق الأماني يسوقها * إليّ فيهدي روضها إلى جنا الورد
خبر إسحاق بن طلحة بن عبيد الله مع خرقة بنت النعمان بن المنذر

روينا من حديث الحميدي قال : حدثنا الحسن بن محمد بن إبراهيم ، نبأ محمد بن أحمد بن زيد الأصغر ، نبأ علي بن حرملة التميمي قاضي واسط ، عن مالك بن معوّل ، عن الشعبي ، عن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله قال:
دخلت على خرقة بنت النعمان بن المنذر ، وقد ترهّبت في دير لها بالحيرة وهي في ثلاثين جارية لم ير مثل حسنهن قط.

قلت : يا خرقة ، كيف رأيت في الدنيا غيرات الملك ؟ قالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا أمس.
إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها غبرة.
وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطّن لهم بيوم يكرهونه.
وإن على أبواب السلطان كإخوان الإبل من الفتن ، من أصاب من دنياهم شيئا أصابوا من دينه مثليه ، وقد قلت في ذلك شيئا ، فقلت : ما هو ؟ فقالت:
بينا نسوس الناس والأمر أمرنا * إذا نحن منهم سوقة نتنصّف
فأفّ لدنيا لا يدوم سرورها * تقلّب تارات بنا وتصرف

وبه إلى محمد بن جعفر بن سهل قال : نبأ علي بن داود القنطري قال : نبأ يحيى بن بكير ، نبأ يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن مطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن أبي هريرة قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن داود عليه السلام كان فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأطلعت يوما امرأته إلى الدار فإذا برجل وسط الدار ، فقالت : من أين دخل هذا ؟

والله لنفضحنّ عند داود . فلما جاء داود قال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع بمنع الحجاب . فقال : والله أنت أمين الله ملك الموت . فقبض روحه في موضعه.
وطلعت عليه الشمس ، فأمر سليمان عليه السلام الطير أن تضله بأجنحتها ، ففعلت ، فأظلمت عليهم الأرض فأمرها أن تقبض جناحا جناحا. «

قال أبو هريرة : يرينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف فعلت الطير ؟ قال : « وغابت يومئذ النسور. «

خبر عبد الواحد بن زيد مع الراهب

روينا من حديث ابن ثابت قال : انا الحسن بن أحمد بن إبراهيم الدورقي ، نبأ جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب ، نبأ محمد بن يونس نبأ شداد بن علي ، نبأ عبد الواحد بن زيد قال:
مررت براهب فناديته : يا راهب من تعبد ؟ قال : الذي خلقني وخلقك ، فقلت:
أعظيم هو ؟ قال : عظيم المنزلة ، جاوزت عظمته كل شيء . قلت : فمتى يذوق العبد الأنس بالله ؟ قال : إذا صفا الود حصلت المعاملة . قلت : فمتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهمّ فصار في الطاعة . قلت : متى تخلص المعاملة ؟ قال : إذا كان الهمّ همّا واحدا . قلت : كيف تحليت بالوحدة ؟ قال : لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . قلت : ما أكثر ما يجد العبد من الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرّهم . قلت : فما يستعان على قلة المطعم ؟ قال : بالتحري في المكسب والنظرة في الكسرة . قلت : زدني.

قال : كل حلالا ، وارقد حيث شئت . قلت : فأين طريق الراحة ؟ قال : خلاف الهوف.
قلت : ومتى يجد العبد الراحة ؟ قال : إذا وضع قدمه في الجنة . قلت : لم تخلّيت عن الدنيا وتعلّقت في هذه الصومعة ؟ قال : لأنه من مشى على الأرض عثر وخاف اللصوص ، فتعلقت فيها ، وتحصّنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض لأنهم سرّاق العقول ، فخفت أن يسرقوا عقلي ، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض وأحبّ قرب السماء ، وفكّر في قرب الأجل ، فأحبّ أن يرتحل إلى ربه . قلت : يا راهب من أين تأكل ؟ قال : من زرع لم أبذره ، بذره اللطيف الخبير الذي نصب الرحا يأتيها بالطحين ، وأشار إلى ضرسه.

قلت : كيف ترى حالك ؟ قال : كيف يكون حال من أراد سفرا بلا أهبة ، ويسكن قبرا بلا مؤنس ، ويقف بين يدي حكم عدل ؟ ثم أرسل عينيه فبكى.

قلت : وما يبكيك ؟ قال : ذكرت أياما مضت من أجلي لم أحقق فيها عملي ، وفكرت في قلة الزاد ، وفي عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار . قلت : يا راهب بم يستجلب الحزن ؟

قال : بطول الغربة ، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد ، ولكن الغريب صالح بين الفسّاق . ثم قال : إن سرعة الاستغفار توبة الكذابين ، لو علم اللسان ممّ يستغفر الله لجفّ في الحنك . إن الدنيا منذ يوم ساكنها الموت ما قرّت لها عين ، كلما تزوّجت الدنيا زوجا طلّقها الموت ، والدنيا من الموت طالق ، لم تقرّ عينها ، فمثلها كمثل الحية ، ليّن مسّها والسم في جوفها . ثم قال الراهب : يا هذا ، كما لا يجوز الزيف من الدراهم ، كذلك لا تجوز لا إله إلا الله إلا بنور الإخلاص ، إن الفضة السوداء لتزخرف بالفضة البيضاء . ثم

قال : عند تصحيح الضمائر يغفر الله الكبائر ، فإذا عزم العبد على ترك الآثام أتته من السماء الفتوح والدعاء المستجاب الذي تحرّكه الأحزان.
قلت : فأكون معك يا راهب وأقيم عندك ؟ قال : ما أصنع بك ومعي معطي الأرزاق ، وقابض الأرواح ، يسوق إليّ الرزق في كل وقت ، لم يكلفني جمعه ، ولم يقدر على ذلك أحد غيره.
وروينا أيضا من حديث ابن ثابت قال : انا علي بن أحمد الرزاز ، نبأ أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقاش ، نبأ محمد بن يحيى ، حدثني جعفر بن أبي جعفر الرازي ، قال:

كتب إبراهيم بن أدهم إلى أخ له:
بسم الله الرحمن الرحيم.
أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى من لا تحلّ معصيته ، ولا يرجى غيره ، ولا يدرك الغنى إلا به . من استغنى به عزّ وشبع وروي ، وانتقل عندما أبصر قلبه عما أبصرت عيناه من زهرة الدنيا ، فتركها وجانب شبهها ، فرضي بالحلال الصافي منها ، إلا ما لا بد له منه من كسرة يشدّ بها صلبه ، وثوب يواري به عورته ، أغلظ ما يجد وأخشنه.
وروينا من حديثه أيضا قال : حدثنا محمد بن عمر العكبري ، انا علي بن الفرج بن روح ، نبأ عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ، نبأ الحسين بن عبد الرحمن قال : كتب بعض الحكماء إلى أخ له:
أما بعد ، فاجعل القنوع ذخرا تبلغ به ، إلى أن يفتح لك باب يحسن لك الدخول فيه.
فإن الثقة مع القانع لا تخذل ، وعون الإله مع ذوي الإناءة . وما أقرب الصنع مع الملهوف.
وربما كان الفقر نوعا من آداب الله ، وخيرة في العواقب . والحظوظ ثمرات ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، فإنك تدركها في أوانها غدية . والمدبر لك أعلم بالوقت الذي يصلح فيه لما تؤمّل ، فثق بخيرته لك في الأمور كلها والسلام.

ومن حديثه أيضا في روايتنا قال : نبأ محمد بن عبد الملك بن بشران ، انا دعلج بن أحمد ، نبأ أبو الحسن محمد بن أحمد بن هارون العدوي ، نبأ عمرو بن الحباب ، نبأ يعلى بن الأشدق ، نبأ عبد الله بن جرادة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الأعمى من عمي بصره ، ولكن الأعمى من تعمى بصيرته. «
وروينا أيضا من حديثه قال : نبأ الحسين بن عمر بن برهان ، نبأ عبد الباقي بن نافع ،

نبأ بشر بن موسى ، نبأ عبيد الله بن صالح ، قال : كتب رجل إلى محمد بن السمّاك : صف لي الدنيا . فكتب إليه:
أما بعد ، فإن الله حفّها بالشهوات ، ثم ملأها بالآفات . مزج حلالها بالرزيات ، وحرامها بالتبعات . فحلالها حساب ، وحرامها عذاب.

شعر

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت * له عن عدوّ في ثياب صديق
روينا من حديث الخرائطي قال : نبأ حماد بن الحسن بن عنبسة الوراق ، نبأ سيار بن حاتم الغنوي ، نبأ جعفر بن سليمان الضبعي ، نبأ هشام الدستوائي ، قال : بلغني في خطبة عيسى عليه السلام : تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير العمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل . ويلكم علماء السوء ، الأجر تأخذون والعمل تضيّعون.
يوشك رب العلم أن يطلب علمه ، ويوشك أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه.

ولنا في القبر والتحريض على الغرس عليه:
مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال : « إنهما ليعذّبان ، وما يعذّبان في كبير . أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من البول » . ثم دعا بقضيب رطب فشقّه اثنين ، وغرس على كل قبر منهما واحدا ، وقال : « إنه ليخفّف عنهما ما لم ييبسا. «
في القبر أسرار يراها الذي * عنه غطاء الحسن مكشوف
فاذكروا فإن كل امرئ * بفعله في القبر مصروف
هذا الذي أذكره عندنا * وعند أهل الكشف معروف
عاينت قوما عذبوا في الصدا * كان لهم نقص وتطفيف
فهل لغصن البان من غارس * بقبرهم ففيه تخفيف
ما دام رطبا يانعا أخضرا * ولم يقم بالغصن تجفيف
تأسيا فإنه لم يقل * بأنه عليه موقوف
وفي تأسّينا به عصمة * منجية منه وتشريف
ولنا في قوله تعالى : فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ:
من آمن المكر من الله * فأمنه المكر من الله
هذا الذي يأمن من مكره * هل جاءه وحي من الله

كيف له بالأمن من مكره * جراءة منه على الله
هذاك جبريل على قربه * لا يأمن المكر من الله
فلذ بجنب الله واسترعه * وارجع إلى الله من الله
فالصادق المصدوق عبد أتى * بكله شوقا إلى الله
روينا من حديث القشيري رحمه الله قال : لما ظهر إبليس على ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان زمانا طويلا ، فأوحى الله تعالى إليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يا رب ، لا نأمن من مكرك . فقال الله تعالى : هكذا كونا لا تأمنا مكري.
كنت ببغداد في سنة ثمان وستمائة ، فرأيت في النوم ليلة الحادي عشر من رمضان قد فتحت أبواب السماء وفتحت خزائن المكر ، ونادى مناد : ما ذا أنزل الليلة من مكر الله ؟
فاستيقظت فزعا مما رأيت.

زيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسجد المدينة
روينا من حديث الواسطي هو ابن عبيد الله قال : نبأ عيسى ، أخبرني علي بن جعفر ، نبأ محمد بن إبراهيم ، نبأ محمد بن النعمان ، نبأ عبد الله بن الزبير الحميدي ، نبأ سفيان بن بشر بن عاصم ، أنه سمع سعيد بن المسيّب يحدّث أنه سمع كعبا قال:
كان للعباس دار ، فلما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يوسّع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ منه الدار ، فقال : ليس إلى ذلك سبيل ، أو اجعل بيني وبينك رجلا ، فجعل بينهما أبيّ بن كعب ، فقال أبيّ : إنه لما أمر سليمان عليه السلام ببناء بيت المقدس ، وكانت أرضه لرجل ، فأخذها منه سليمان عليه السلام ، فقال له الرجل : الذي أخذت منك خير أم الذي أعطيتني ؟ قال : بل الذي أخذت منك ، فقال له : إني لا أجير البيع ، حتى اشتراها منه بحكمه على أن لا يسأله كثيرا ، فسأله شيئا كثيرا ، فتخاصم هو وسليمان في ذلك إلى ربه عز وجل ، فأوحى الله إليه : إن كنت إنما تعطيه من عندنا فاعطه حتى يرضى ، فرضي العباس ، وقال : أما إذا كان ذلك كذلك فإني قد جعلتها صدقة مني للمسجد على المسلمين.

تذكرة نبوية باجتناب صفات دنيّة
روينا من حديث الخرائطي قال : حدثنا أبو قلابة البصري عبد الملك بن محمد بن

عبد الله ، نبأ عبد الصمد بن عبد الوارث ، نبأ هاشم الكوفي ، نبأ زيد الخثعمي ، عن أسماء بنت عميس الخثعمية قالت:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس العبد عبد تخيّل واختال ، ونسي الكبير المتعال.

بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المقابر والبلا . بئس العبد عبد بغى وعنا ، ونسي المبتدأ والمنتهى . بئس العبد عبد يخيّل الدين بالشبهات . بئس العبد عبد طمع يقوده . بئس العبد عبد هوى يضله. «
روينا من حديث الحميدي قال : نبأ الحناي ، عن ابن أبي الحديد ، عن أبي بكر ، عن أبي موسى قال : قال أبو حازم:
من اعتدل يوماه فهو مغبوط ، ومن غده شر يوميه فهو محروم . ومن لم ير الزيادة في نفسه كان في نقصان ، ومن كان في نقصان فالموت خير له . ومن كان غده أحسن يوميه ويومه أحسن من أمسه ، فهو رابح معنى به.

روينا من حديث الخرائطي قال : نبأ أحمد بن نبيل الأيامي ، نبأ أبو معاوية الضرير ، نبأ داود بن هند ، عن الشعبي قال:
لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء العباس فقال : يا أمير المؤمنين ، أسلمت حين كفر الناس ، وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذله الناس ، وقتلت شهيدا ، ولم يختلف عليك اثنان ، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض . فقال له : أعد عليّ ، فأعاد عليه . فقال : المغرور من غررتموه ، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع.

روينا من حديث الحميدي قال : حدثنا محمد بن إبراهيم ، عن محمد بن أحمد ، عن محمد بن جعفر ، نبأ إبراهيم بن الهيثم البلدي ، نبأ آدم بن أبي أياس ، نبأ شعبة ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه قال:
كان رأس عمر بن الخطاب رضي الله عنه على فخذي في موضعه الذي مات فيه ، فقال : ضع رأسي على الأرض ، فقلت : ما عليك كان على الأرض أو على فخذي ؟ فقال:
لا أمّ لك ، ضعه على الأرض ، فوضعته على الأرض ، فقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي.

قرأت على أبي ذرّ الخشني لأبي عمرو البجلي في الأمالي لأبي علي القالي:
تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

ألا يا حيّذا نفحات نجد * وريا روضه غبّ القطار
وعيشك أن يحل القوم نجدا * وأنت على زمانك غير زار
شهور تنقضين وما علمنا * بإنصاف لهن ولا سدار
فأما ليلهنّ فخير ليل * وأفضل ما يكون من النهار
وأنشدنا أبو بكر بن خلف بن صاف اللخمي رحمه الله للطائي:
كم منزل في الأرض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لأول منزل
نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحبّ إلا للحبيب الأول

ومما نظمته الأسواق بلسان الاشتياق قولنا في نظام الحسن عين الشمس بهاء الجمال:
يا حبذا سرحة الوادي وبانته * وحبذا زهر بالروض بسّام
أهدى النسيم لنا من عرفة خبرا * إن النسيم إذا ما هبّ نمّام
بكلّ فنّ من الألحان ناطقة * أطياره طربا والسرب نوّام
وفي ترجعها بالصوت لو علمت * للمستهام بعين الشمس أعلام
إن الهوى عجمة لا يستطاع له * حدّ ولكن له في النفس أحكام
منها النحول ومنها عبرة وجوى * ورقة وصبابات وتهيام
وما له آخر تحيي النفوس به * لأن أوله موت وأعدام
فإن تمادى الهوى بالحب أضعفه * كما يضعّفه قرب وإلمام

ومما قيل فيمن عشق فعفّ
وقد روينا فيه حديثا حسنا ، حدثناه محمد بن قاسم ، قال : حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني ، ولا أذكر الإسناد ، سند الحافظ السلفي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن وجدته سألحقه بالطرّة ، أو رحم الله عبدا عرفه فألحقه من طريق السلفي على هذا الحديث في كتابي هذا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعفّ ومات ، مات شهيدا. «
حدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثني نصر بن أبي الفرج ، عن علي الحصري ، أنا أبو القاسم ، انا أبي ثابت بن بندار ، أنا أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان أبو القمر الصيرفي ، أنا أبو بكر بن شادان ، أنبأ أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة ، قال:

دخلت على محمد بن داود في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : ما بك يا سيدي ؟
قال : حب من تعلم أورثني ما ترى ، يعني ابن جامع الصيدلاني .
قلت : فما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟
فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح والثاني اللذة المحظورة ، فأما النظر المباح فأورثني ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعني ما حدثني أبي ، عن سويد بن سعيد ، عن علي بن مسهر ، عن أبي يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عشق فكتم وعفّ وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة. «

قال : أنشدني لنفسه:
ما لهم أنكروا سوادا بخدّي * ه ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خدّه مدد الشع * ر فعيب العيون شعر الجفون

فقلت : قلبت القياس في الفقه وأثبته في الشعر ، فقال : غلبة الهوى وملكة النفوس دعتنا إلى ذلك.
أنشدنا ابن طباطبا العلوي في هذا الباب لنفسه رحمه الله:
إن عاد قلبي في الهوى وله * ولقيت عذالي بما كرهوا
أو كان شعري مودعا غزلا * أخفيته ورعا وأظهره
والله يعلم ما أتيت خنا * إن كثر العذال أو سفهوا
ما ذا يعيب الناس من رجل * خلص العفاف من الأنام له
إن همّ في حلم بفاحشة * زجرته همّته فينتبه
يقظانه ومنامه شرع * كلّ بكل منه مشتبه

وقال الآخر:
كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني * منه الحياء وخوف الله والحذر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم * وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحبّ لا إتيان معصية * لا خير في لذّة من بعدها كدر

ومن الأخبار النبوية
ما رويناه من حديث آصف بن زيد بن أحمد ، انا ميمون بن محمد ، أنا أبو شجاع محمد بن حمزة العلوي ، أنا أبو الطيب طاهر بن الحسين المطوعي ، انا أحمد بن علي

السعداني ، نبأ محمد بن محمد المؤذن ، نبأ حامد بن سهل ، نبأ عبد الله بن زياد الحارثي ، نبأ سيار بن حاتم أبو سلمة العمري ، نبأ أبو عاصم العبداني ، نبأ أبو الفضل الرقاشي ، نبأ محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال لي جبريل عليه السلام : إن الله تعالى يخاطبني يوم القيامة يقول لي : يا جبريل ، ما لي أرى فلانا في صفوف أهل النار ؟ قال : فأقول : يا رب ، إنّا لم نجد له حسنة يعود بها عليه خير اليوم . قال : يقول الله تعالى : إني سمعته يقول في الدنيا : يا حنّان يا منّان ، فائته فاسأله ما ذا عنى بقوله : يا حنّان يا منّان ؟ فآتيه فأسأله فيقول : هل من حنّان منّان غير الله ؟ فآخذ بيده من صفوف أهل النار فأدخله صفوف أهل الجنة. »

روينا من حديث مرفوع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطعم أخا له من جوعة أطعمه الله عز وجل من ثمر الجنة ، ومن سقاه من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم ، ومن كساه من عراء كساه الله عز وجل من خضر الجنة . ولم يزل في حرز الله وجواره وكنفه ما بقي عليه منه شيء. »

وروينا من حديث البرقي أبي عبد الله محمد بن محمد ، نبأ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الوراق ، نبأ خلف بن محمد ، نبأ أحمد بن حاتم نبأ ابن أبي كرامة الخير بن النضر ، انا عيسى بن موسى ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : « أن تحب ما يحب خالقك ، وأن تبغض ما أبغض خالقك ، وأن تتحرّج من حلال الدنيا كما تتحرّج من حرامها ، فإن حلالها حساب وحرامها عقاب ، وأن ترحم جميع المسلمين كما ترحم نفسك ، وأن تتحرّج من الكلام فيما لا يعنيك كما تتحرّج من الحرام ، وأن تتحرّج من كثرة الأكل كما تتحرّج من الميتة. »

ومن محاسن الكلام

من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في إكرام الدنيا ، وهو من هواه في ضلال ومن دنياه في زوال . أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله وما أهله ، فتعرّ من أمسك الماضي ، وتزوّد من يومك الفاني لغدك الآتي . كل يوم يسوق إلى غده ، وكل امرئ مأخوذ بجناية لسانه ويده . خير عملك ما استصلحت به يومك ، وشرّه ما استفسدت به قومك . الحذر خير من الهدر ، لأن الحذر يضعف الحجة والهدر يتلف المهجة . إياك والهدر فإن بكثرة

الكلام يزلّ اللسان ويمل الإخوان ويبرم الجليس ويسأم الأنيس ، فأقلل المقال وتوقّ الآمال . من أفرط في المقال زلّ ، ومن استخفّ بالرجال ذلّ . من قلّ كلامه بطن عيبه ومن كثر احترامه حسن غيبه ، فاقتصر من كلامك على اليسير وخذ في احترامك عن التقصير ، تستر عنك العيوب وتجمع على محبتك القلوب . من قبل توقّيه كثرت مساويه .
من حسنت مساعيه طابت مراعيه . من حسن الاختيار الإحسان إلى الاختيار . ما عزّ من ذلّ جيرانه ، وما سعد من شقى إخوانه.
إذا شرف الخلق لطف النطق . إذا كرمت السجية حسنت الطوية . من أعز فلسه أذلّ نفسه . حسن اللقاء يولد حسن الإخاء .
من كرم حلم ، ومن لطف شرف . عادة الكفران تقطع مادة الإحسان . المطل شر المنعين ، والباس أحد النجحين . من لم يشكر الإحسان لم يعدم الحرمان .
جهل يضعف حجتك خير من علم يتلف مهجتك ، فتحصّن بالجهل إذا نفع كما يتحصّن بالعلم إذا نفع . من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي .
قصّر كلامك تسلم وأطل احتشامك تكرم . من قال بلا احترام أجيب بلا احتشام . من نكر الخطاب أنكر الجواب.

من لم يحمل قيلا لم يسمع جميلا ، فلا تقولنّ ما يسوؤك جوابه ويضرك معابه.
لكل قول جواب ولكل فعل ثواب ، فلا تقولنّ مرّا تفعلنّ شرّا ، ولا تعوّدنّ نفسك إلا ما يكتب لك أجره ويحسن عنك نشره . لا تحاجّ سلطانك ولا تلاحّ إخوانك ، فمن حاجّ سلطانه قهر ومن لاح إخوانه هجر . إياك ومحاجّة من يفنيك قهره وينفذ فيك أمره . اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تشكرها.

إياك وما توحش به حرّا أو تطلب له عذرا ، فمن أوحش الأحرار زهد في عشرته ومن أكثر الاعتذار شك في عذرته.

ومن باب من لم تلحظه العيون لفقره وهو جمّ الفضائل

ما رويناه من حديث ابن ثابت قال : انا علي بن أحمد بن محمد المقري ، وعبد الملك بن مجهد بن عبد الله بن بشران ، نبأ محمد بن الحسين الآجريّ بمكة قال : نبأ بعض أصحابنا عن أبي الفضل الشكلي قال:
رأيت شابّا في بعض الطريق عليه خلق ، فكأني لم أحفل به ، فالتفت إليّ وقال:
لا تنب عني بأن ترى خلقي * فإنما الدّود داخل الصّدف
علمي جديد وملبسي خلق * ومنتهى اللبس منتهى العلف

ومن باب عز النفس بالغنى بالله

ما رويناه من حديث ابن ثابت قال : انا عبد الرحمن بن النيسابوري ، انا محمد بن عبد الله بن شاذان ، قال : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت ذا النون يقول : بينا أنا سائر في بعض الطرق ، فإذا فتى حسن الثياب ، حسن الوجه ، أثر التهجّد بين عينيه.

فقلت : حبيبي ، من أين أقبلت ؟ قال : من عنده.

فقلت : وإلى أين ؟ قال : إلى عنده . قال : فعرضت عليه النفقة ، فنظر إلي مغضبا ثم ولّى عني .

وأنشأ يقول:

وكافر بالله أمواله * تزداد أضعافا على كفره

ومؤمن ليس له درهم * يزداد إيمانا على فقره

لا خير فيمن لم يكن عاقلا * يمدّ رجليه على قدره

وأنشد ابن ثابت في روايتنا ، قال : أخبرني علي بن أحمد بن حفص الغازي ، قال:

أنشدنا أبو بكر محمد بن الحسين بمكة ، قال : أنشدني أبو بكر عبد الله بن حميد المؤدب:

ربّ ذي طمرين قد صا * ن من العالم سرّه

لا يرى إلا غنيا * وهو لا يملك ذرّه

ثم لو أقسم في شيء * على الله أبرّه

وأنشد في غير هذه الرواية من هذا الشعر بيتا رابعا في أوله وهو:

ربّ ذي طمرين فينا * يأمن العالم شرّه

ثم ساق الأبيات الثلاثة كما ذكرناها.

ومن باب كم من استغفار يحتاج إلى استغفار

روينا من حديث ابن ثابت قال : نبأ أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبي الفوارس ، انا محمد بن أحمد بن الورّاق ، سمعت عبد الله بن سهل الرازي ، سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : كم من مستغفر ممقوت وساكت مرحوم . قال يحيى : هذا استغفر الله وقلبه فاجر ، وهذا سكت وقلبه ذاكر.

سمعت بعض مشايخنا بقرطبة يقول : وقد حضر معنا متقشف ، رأى منه الشيخ ما لم نر ، وعرف منه ما لم نعرف ، الضمير الضمير ، ما هو بلباس الخلقان وخبز الشعير.

ومن الحكمة النافعة والألفاظ الجامعة
جود الرجل يحبّبه إلى أضداده ، وبخله يبغّضه إلى أولاده . ونسيان البرّ يؤدي إلى حطّ الشكر . من منع برّه طوى شكره . لا تسيء إلى من أحسن إليك ، ولا تعن على من أنعم عليك . من أساء إلى المحسن منع الإحسان ، ومن أعان على المنعم سلب الإمكان . ومن وفى لك فقد قضى حق الإسلام واستحق الإنعام . من جحد النعمى فقد الحسنى .
ما أقبح منع الإحسان مع حسن الإمكان . إذا أذنبت فاعتذر وإذا أذنب إليك فاغتفر ، فالمعذرة بيان العقل والمغفرة برهان الفضل . عادة الكرام الجود وعادة اللئام الجحود .
حسن النيّة أتمّ وألطف ، وكرم السجيّة أعظم فخرا وأشرف . من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم.

روينا من حديث أبي بكر بن ثابت قال : نبأنا أبو طالب بن يحيى بن علي بن الطيب العجلي بحلوان ، سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الله الدامغاني بها يقول : سمعت ابن سلام المعروف بحسن بن علوية الواعظ ، سمعت أبا زكريا يحيى بن معاذ الرازي يقول:
بدء أمري في سياحتي ، خرجت من الري فوقع في قلبي شأن المئونة ، فتفكرت في نفسي ، فإذا بهاتف يهتف في قلبي : أخرج ما في الجيب حتى نعطيك من الغيب.

وحدثني أبو عبد الله المروزي بمروز قال : سمعت الشيخ أبا مدين شعيب نزيل بجاية يقول : من عرف الله من الجيب رزقه من الجيب ، ومن عرفه من الغيب رزقه من الغيب.

وروينا من حديث ابن ثابت قال : انا عبد الرحمن بن محمد النيسابوري ، نبأ محمد بن عبد الله بن بهلول الفقيه ، نبأ أحمد بن علي بن أبي حميرة ، قال : سمعت سهل بن عبد الله يقول : حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل.

روينا من حديثه أيضا قال : انا محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد البزار ، حدثنا جعفر بن محمد بن نصير ، نبأ أبو العباس أحمد بن مسروق الطوسي ، قال : حدثني يحيى الجلا ، وكان من عباد الله الفاضلين ، قال : سمعت بشرا ، يعني الحافي ، يقول لجلسائه:
سيحوا ، فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا وقف تغيّر واصفرّ.

ومن حديثه قال : انا أحمد بن الحسين بن السمّاك ، سمعت أبا بكر البرقيّ بدمشق يقول : سمعت أبا بكر الدقاق يقول : بني أمرنا هذا على أربع : لا نأكل إلا عن فاقة ، ولا ننام إلا عن غلبة ، ولا نسكت إلا عن خيفة ، ولا نتكلم إلا عن وجد.
وحدثنا ابن ثابت قال : أخبرنا عبد الرحمن بن محمد النيسابوري ، قال : انا

محمد بن عبد الله المذكور ، قال : سمعت أبا القاسم البصري بهراة يقول : من لم يكن في حاله قويا وبمعروفه غنيا ، صار وقته فوتا وحياته موتا.

ولنا من باب من التذّ بالهوى

لذيذ الهوى مرّ لدى كل جاهل * كما مرّه حلو لدى كل عاقل
فيا رب لا تخلي فؤادي من الهوى * ولا تخلني ما عشت من عذل عاذل
تطيب لنا الذكرى إذا ذكرت لنا * فعيش الفتى في البين ذكر العواذل
فما أعذب التعذيب ممن أجبّه * فكيف مذاق الحبّ عند التواصل
يلطّفني لطفا وظرفا ورقة * ويورثني الإقدام عند النوازل
فمالي لا أهوى الهوى وألذّه * وفيه إذا أنصفت كل الفضائل

ولنا من هذا الباب:

لكل شخص من هواه * في هواه ما نوى
إن النعيم بالهوى * ليس النعيم بالجوى
الحزن من آثاره * وسلب أسباب القوى
والوجد والتهيام والت * بريح من حكم الهوى
وصاحب السلطان في * ما قد ذكرناه الهوى

ومن باب من سأل الشفاء من الهوى

ما رويناه من قول مجنون بني عامر:
وما سرّني أني خليّ من الهوى * على أن لي ما بين شرق إلى غرب
فهذا دعائي كل يوم وليلة * بطول الليالي أو أغيّب في التراب
فلا خفف الرحمن ما بي من الهوى * ولا رفع الرحمن من حبّكم جنبي
ولا خير في حبّ بغير بليّة * ولا خير فيمن لم يمت من جوى الحبّ

ومنه مع وجود اللذة به:
مرارة الحبّ طعم الحب أيسرها * وقد وجدت أمر الحبّ أحلاه
ومشفق جاء مسرورا بتهنئة * فلم يرم إن بكى حزنا وعزّاه
ولأبي جعفر الشطرنجي:

تجنّب فإن الحبّ داعية الحب * فكم من بعيد وهو مستوجب القرب
وأطيب أيام الهوى يومك الذي * يقدّر فيه بالعتاب وبالعتب
تفكر فإن حدّثت أن أخا الهوى * نجا سالما فارج النجاة من الحب

وأنشدنا أبو القاسم بن مرتين لبعضهم:
ولي فؤاد إذا طال العذاب به * هام اشتياقا إلى لقيا معذّبه
يفديك صبّ لو يكون له * أعزّ من نفسه شيئا فداك به

ولوهب في معناه:
تعمل الأجفان بالدعج * عمل الصهباء في المهج
قل لظبي يسترقّ له * مهج الأحرار بالدعج
أنت والأجفان ما لحظت * من فتور العين في حرج
كيف أدعو الله أسأله * فرجا ممن به فرجي

كتاب أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى أهل اليمن يحرّضهم على غزو الروم بالشام وما قالوا في ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم.
من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من قرئ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن ، سلام عليكم .
أما بعد:
فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد ، وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا . قال الله تعالى : جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك ، وعسكروا وخرجوا ، وأحسنت في ذلك نيّتهم ، وعظمت في الخير حسنتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم ، وإلى إحدى الحسنيين ، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون العمل ، ولا يترك أهل عدوانه حتى يدينوا بالحق ويقرّوا بحكم الكتاب ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حفظ الله لكم دينكم ، وهدى قلوبكم ، وزكى أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين والصابرين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
وبعث بهذا الكتاب مع أنس . قال الرملي : فحدثنا الحسين بن زياد ، عن أبي

إسماعيل أحمد بن عبد الله ، عن محمد بن يوسف ، عن ثابت البناني ، عن أنس قال:
أتيت أهل اليمن جناحا جناحا ، وقبيلة قبيلة ، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر رضي الله عنه ، فإذا فرغت من قراءته قلت : الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

بسم الله الرحمن الرحيم.
أما بعد ، فإني رسول المسلمين إليكم ، ألا وإني قد تركتهم معسكرين ، لم يمنعهم من الشخوص إلى عدوّهم إلا انتظاركم ، فعجّلوا إلى إخوانكم ، رحمة الله عليكم أيها المسلمون . قال : وكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع في هذا القول يحسن الرد عليّ ويقول : نحن سائرون ، وكنا قد فعلنا ، حتى انتهيت إلى ذي الكلاع ، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال ، دعا بسلاحه وفرسه ، ونهض في قومه من ساعته ، ولم يؤخر ذلك ، وأمر بالعسكر ، فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن ، وسارعوا ، فلما اجتمعوا إليه قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال:
أيها الناس ، إن من رحمة الله إياكم ونعمته عليكم أن بعث فيكم رسولا ، وأنزل عليكم كتابا ، فأحسن عنه البلاغ ، فعلّمكم ما يرشدكم ، ونهاكم عمّا يفسدكم حتى لا يفسدكم ، حتى علّمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ورغّبكم في الخير في ما لم تكونوا ترغبون ، ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم ، فلينفر من أراد معي النفر الساعة . فنفر بعدد من أهل اليمن كثير ، وقدموا على أبي بكر . قال : فرجعنا نحن فسبقناه بأيام ، فوجدنا أبا بكر رضي الله عنه بالمدينة ، ووجدنا ذلك العسكر على حاله ، ووجدنا أبا عبيدة يصلي بأهل ذلك العسكر .
فقدمت حمير على أبي بكر ومعها نساؤها وأولادها ، ففرح أبو بكر بمقدمهم ، فلما رآهم أبو بكر قال:
عباد الله ، ألم نكن نتحدث فنقول : إذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نصر الله المسلمين وخذل المشركين ، فأبشروا أيها المسلمون ، فقد جاءكم النصر من الله.

قال : وجاء قيس بن هبيرة بن مكسوح المرادي ، وكان من فرسان العرب في الجاهلية ، ومن أشرافهم وأشدّائهم ، ومعه جمع كثير من قومه ، حتى أتى أبا بكر ، فسلّم عليه ، ثم جلس إليه ، فقال لأبي بكر : ما تنتظر بيعة هذه الجنود ؟
فقال أبو بكر : ما كنا ننتظر إلا قدومكم . قال : فقد قدمنا ، فابعث الناس الأول فالأول ، فإن هذه البلدة ليست ببلدة خفّ ولا كراع . قال : فخرج أبو بكر يمشي ، فدعا يزيد بن أبي سفيان فعقد له ، ودعا زمعة بن

الأسود بن عامر من بني عامر بن لؤي فعقد له ، وأوصاهم وبعثهم ، كما ذكرنا في كتابنا هذا.
كريم أخلاق دليل على طيب أعراق
روينا من حديث المالكي قال : حدثنا محمد بن عبد العزيز ، نبأ المضاء بن الجدود ، عن محمد بن عبد الله القرشي ، عن أبيه ، قال أبو الدرداء:
ما من رجل من المسلمين إذا أصبح إلا اجتمع هواه وعمله ، فإن كان هواه تابعا لعمله فيومه صالح ، وإن كان عمله تابعا لهواه فيومه يوم شر.
من عمل على قوله صلى الله عليه وسلم
" كل أمر لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم ".

روينا من حديث الدينوري ، نبأ محمد بن موسى ، عن أبيه قال : سمعت الأصمعي يقول : قال حميد الطويل:
ما سايرت ثابتا البناني في حاجة قط إلا كان أول ما يبدأ به : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ثم يذكر حاجته.

ومن حديثه أيضا ، عن يزيد بن إسماعيل ، عن قبيصة ، عن سفيان الثوري ، أن جعفر بن محمد قال:
إذا جاءك ما تحبّ فأكثر من الحمد لله ، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار . قال سفيان : فانتفعت بهذه المواعظ.
أما مسلم بن الحجاج فذكر في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في السرّاء : « الحمد لله المنعم المتفضل » ، وكان يقول في الضرّاء : « الحمد لله على كل حال«

من راقب الله في حال القضاء حذرا من سوء القضاء
روينا من حديث ابن مروان ، عن علي بن الحسين بن عبد العزيز ، عن ابن عائشة قال:
نظر شريح إلى رجل يقوم على رأسه وهو يضحك ، وشريح في مجلس القضاء ، فقال : لم تضحك وأنت تراني أتقلّب بين الجنّة والنار ؟

وصية عليّ بن عبيد للمأمون في الحسد
داو الحسد إذا وجدت حسّه بقمعه بالتوبيخ وصغّر قدر من عرفته به ، فإنه لا يدفع النعمة عن المحسود ولا تصل إليك ولو زالت عنه .

وعلى كل مخلوق نعمة وإن خفيت عليك ، والنّعم أنواع وضروب ، ما يبلي الله في النفس من السلامة ويهب من العافية في الجوارح أفضل من عرض الدنيا ، وربّ حاسد لمن هو في أعظم من نعمته التي حسده عليها ، فلو شغل بشكر ما أعطى كان أجدى عليه في المزيد .

وفي الحسد اثنتان : كمد يثلم القلب وكدر يحدث في العيش . ورأيت البغي من جهل المعرفة لسرعة نصر الله لمن بغى عليه ، وهو من فروع الحسد . وإياك أن تضيفه قلبك ليلة أو تقيم له يوما واحدا ، فإن صرعة صاحبه لا تقال ، وكاد يكون بمعزل من حفظ الله وغير مصاحب بالصّنع .موعظة لبعض الأعراب بما تؤول إليه الدنيا من الخراب

روينا من حديث الخرائطي قال : حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، نبأ محمد بن الحسين ، سمعت الأصمعي يقول :
سمعت أعرابيا يذكر قوما تغيّرت أحوالهم وتبدّد شملهم يقول : نزلت دورهم العبرة بعد الحبرة ، وأيام السرور فتنة الأحزان .

ثم قال :
وأنشدني أبو محمد المريمي :إن عيشا إلى الفناء مصيره * لحقيق أن لا يدوم سروره
وسرور يكون آخره المو * ت سواء طويله وقصيرهحكمة ممن جعل حسن الصورة نعمة
روينا من حديث الأصمعي قال : قال بعضهم : التمس حوائجك من صباح الوجوه ، فإنّ حسن الصورة أول نعمة تلقاك من الرجل .

روينا من حديث المالكي ، عن إبراهيم الحربي ، قال : نبأ داود بن رشيد قال : كان يقول : عنوان صحيفة المسلم حسن خلقه .

قال المالكي : وحدثنا عبد الرحمن بن معروف ، عن داود بن مجبر قال : قال بعض الحكماء : صدرك أوسع سرّك ، فإنّ سرّك من دمك . من صحّت ديانته تمت مروءته ، لأن الديانة تصده عن المحارم وتحثه على المكارم . من الكرم حسن العفو عن سهو الذنوب ،

وترك البحث عن سوء العيوب . الفعل نتيجة العقل ، والعقل نتيجة الشرف . كن بعيد الهمم إذا طبت كريم الظفر إذا غلبت ، جميل العفو إذا قدرت ، كثير الشكر إذا ظهرت . إن من الشريعة أن تبجل أهل الشريعة ، ومن الصنيعة أن ترب أهل الصنيعة .
لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته ، وارتضيت وثيرته ، وعرفت فضيلته ، وبينت عقله عيب خفي يحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله ، فإنك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ، ولا يقع منه ذنب . واعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا .
ولا تجر فيها على حكم الهوى ، فإن في اعتبارك بها واختيارك لها ما يرشدك لما تطلب .
أحسن رعاية الحرمات وأقبل على أهل البيوتات ، فإن رعاية الحرمة تدل على كرم الشيمة ، والإقبال على ذوي المروءة يعرب عن شرف الهمة .
أحسن إلى من كان له قدم في الأصل وسابقة في الفضل ، ولا يزهدنك فيه سوء إدبار الدولة عنه فإنك لا تخلو في اصطناعك له وإحسانك إليه من نفس حرة تملك رقها ومكرمة توفي حقها ، فإن الدنيا تجبر كما تكسر وتقبل كما تدبر .
من زرع خيرا حصد أجرا ، ومن اصطنع أجرا استفاد شكرا .
من شرائط المروءة أن تتعفف عن الحرام وتتنظف من الآثام وتنصف في الحكم وتكف عن الظلم ، ولا تؤثر دنيا على شريف ، ولا تسن ما يعقب الوزر والإثم ، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم.

وروينا من حديث ابن ثابت قال : نبأ أبو بكر أحمد بن محمد بن جعفر الأخرم ، أنا أبو علي عيسى بن أحمد بن محمد الطوماري ، نبأ محمد بن يونس ، نبأ عبد الله بن داود التمار ، نبأ إسماعيل بن عباس ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أبي أمامة قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة ، وإن لباس الصوف يورث في القلب التفكر ، والتفكر يورث الحكمة ، والحكمة تجري في الجوف مجرى الدم . فمن كثر تفكره قل طمعه وكلّ لسانه ، ومن قلّ تفكّره كثر طمعه وعظم بدنه وقسا قلبه ، والقلب القاسي بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، قريب من النار. «

ما روينا من حديثه أيضا قال : نبأ محمد بن الحسين بن أحمد الأهوازي قال:
سمعت أبا بكر الدنف الصوفي يقول:
سمعت جامع بن أحمد يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : ليكن بيتك الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة . فإما أن تموت بدائك ، أو تصل إلى دوائك.
موعظة مالك بن دينار لوالي البصرة
من حديث ابن ثابت قال : حدثنا علي بن المظفر الأصفهاني ، انا حبيب بن الحسين ،

نبأ محمد بن أحمد السطوني ، عن حسن بن جعفر بن سليمان الضبعي ، عن أبي جعفر بن سليمان قال:
مرّ والي البصرة بمالك بن دينار يرفل ، فصاح به مالك : مرّ وأقلّ من مشيتك هذه.
فهمّ خدمه به ، فقال : دعوه ، ثم قال له : ما أراك تعرفني ؟
فقال له مالك : ومن أعرف بك مني ؟ أما أوّلك نطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة ، ثم أنت بينهما حامل العذرة . فعرف الوالي صحة ما قاله وأن وضع القول موضعه ، فاستحى ونكس رأسه وانصرف.

ومما قيل في باب النسيب:
يا من شكا ألما في الحبّ شبّهه * في القلب بالنار من شوق وتذكار
إني أعظّم ما بي أن أشبّهه * بما يقاس إلى مثل ومقدار
للحبّ نار على قلبي مضرّمة * لا تبلغ النار منها عشر معشار

وقال الآخر في معناه:
يحنّ إليّ من بالعقيقين قلبه * حنينا يبكّي الورق في غصن السدر
تنفست لما باح قلبي بذكره * فأمسكت من خوف الحريق على صدري
وو الله لو فاضت على الصدر عبرتي * لأحرق أدنى حرّها لهب الجمر

ولنا في هذا المعنى من قصيدة:
لو نفس من هواي هو على * جمر لظى أحرقته أنفاسي
ولو تجارت للحبّ خيل هوى * فازت به في السّبق أفراسي

وقال الصنوبري:
دخول النار للمهجور خير * من الهجر الذي هن يتّقيه
لأن دخوله في النار أدنى * عذابا من دخول النار فيه

وقال الآخر:
لو كان قلبي من نار لأحرقه * لأن أحزانه أزكى من النار
الماء ينبع منها في محاجرها * يا للرجال لماء فاض من نار

وقال الآخر:
للشوق في مضمر الأحشاء ناران * وللمدامع في خدّيّ خدّان
نار تضرّم أحشائي بلوعتها * ونار شوق تفيض الدمع من شان
فالقلب في حرق الأحشاء محترق * فناظري غرق في ماء أجفاني

فمن رأى الماء للنيران مقترنا * تمازجا وهما في الأصل ضدان

حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مع الصحابة وما قالوا له حين حدّث نفسه بغزو الروم
روينا من حديث الرملي قال : نبأ الحسن بن زيد الرملي ، نبأ محمد بن عبد الله الأزدي البصري ، قال : لما دوح الله العرب ، وانتهت الفتوح من كل وجه إلى أبي بكر ، واطمأنت العرب بالإسلام ، وأذعنت به ، واجتمعت عليه ، حدّث أبو بكر نفسه بغزو الروم ، فأسرّ ذلك في نفسه ، فلم يطلع عليه أحدا .
فبينما هو في ذلك إذ جاءه شرحبيل ابن حسنة فقال : يا خليفة رسول الله ، أتحدّث نفسك أن تبعث إلى الشام جندا ؟
فقال : نعم ، قد حدّثت نفسي بذلك وما أطلعت عليه أحدا ، وما سألتني عنه إلا لشيء عندك .
فقال : أجل ، إني رأيت فيما يرى النائم كأنك في ناس من المسلمين فوق جبل ، فأقبلت تمشي معهم حتى صعدت على قبّة عالية على الجبل ، فأشرفت على أناس ، ومعك أصحابك أولئك ، ثم هبطت من تلك القبة إلى أرض سهل دمثة ، فيها القرى والعيون والزرع والحصون ،
فقلت:
يا معشر المسلمين ، شنّوا الغارات على المشركين ، فأنا ضامن لكم الفتح والغنيمة . وأنا فيهم ، ومعي راية ، فتوجهت إلى قرية فدخلتها ، فسألوني الأمان ، فأمّنتهم ، ثم جئت فوجدتك قد انتهيت إلى حصن عظيم ، ففتح لك ، وألقوا إليك السلم ، وجعل لك عرش ، فجلست عليه ثم قال لك قائل : قاتل يفتح الله لك وتنصر ، فاشكر ربك ، واعمل بطاعته ، ثم قرأ عليك : إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً قال : ثم انتبهت.

قال أبو بكر : نامت عينك . ثم دمعت عينا أبي بكر رضي الله عنه . فقال : إنما الجبل الذي رأيتنا نمشي عليه حتى صعدنا منه إلى القبة العالية فأشرفنا على الناس ، فإنّا نكابد من أمر هذا الجند مشقّة ويكابدونا ، ثم يعلو بعد ويعلو أمرنا ، وإن نزولنا من القبّة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزروع والحصون والعيون والقرى ، فإنّا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش .
وأما قولي : شنّوا عليهم الغارة فإني ضامن لكم بالفتح والغنيمة ، فإن ذلك توجّهي للمسلمين إلى بلاد المشركين وأمري إياهم بالجهاد في سبيل الله . وأما الراية التي كانت معك فتوجّهت بها إلى قرية من قراهم فدخلتها ، فاستأمنوك فأمّنتهم ، فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك .
وأما الحصن الذي فتح الله على يديّ فهو ذلك ، يفتح الله على يدي . وأما العرش الذي رأيتني جالسا عليه ، يرفعني

الله ويضع المشركين . وأما أمري بطاعة ربي وقرأ عليّ هذه السورة ، فإنه نعى إليّ نفسي ، فإن هذه السورة حين أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن نفسه نعيت إليه .
ثم سالت عينا أبي بكر رضي الله عنه ،
فقال:
لآمرنّ بالمعروف ، ولأنهينّ عن المنكر ، ولأجاهدنّ من ترك أمر الله عز وجل ، ولأجهزنّ الجيوش إلى العادلين بالله في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى يقولوا : الله أحد ويؤدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإذا توفّاني ربي لم يجدني مقصّرا ، ولا في ثواب المجاهدين زاهدا . ثم إنه أمر الأمراء ، وبعث إلى الشام على ما ذكرنا في هذا الكتاب.

قال محمد بن عبد الله البصري : لما حدثت بهذا الحديث ، فحدثني الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ، وكانت له صحبة ، قال : لما أراد أبو بكر تجهيز الأجناد إلى الشام ، دعا بعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، وأنا فيهم .
فقال:
إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ، ولا تبلغ الأعمال جزاءها ، فلله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم ، قد جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم ، وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ، ولا تخذوا إلها غيره . فالعرب بنو أمّ وأب ، وقد أردت أن أسفّرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيدا ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين ، مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأيي الذي رأيت . فأشار عليّ امرؤ بمبلغ رأيه.

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:
الحمد لله يخص بالخير من شاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قد والله أردت لقاءك لهذا الأمر ، والرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن . فقد أصبت وأصاب الله بك سبل الرشاد ، سرّب إليهم الخيل في أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تبعها الجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومعزّ الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله صلى الله عليه وسلم.
ثم إن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قام فقال:
يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما الروم وبنو الأصفر حدّ حديد وركن شديد ، والله ما أرى

أن تقحم الخيل عليهم إقحاما ، ولكن تبعث الخيل تغير عليهم في أداني أراضيهم ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك أضرّوا بعدوّهم ، وغنموا من أداني أراضيهم ، فقووا بذلك على قبالهم . ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن ، وإلى أقاصي ربيعة ومضر ، فتجمعهم إليك جمعا ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك . ثم جلس وسكت ، وسكت الناس.

فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه : ما ترون رحمكم الله ؟ فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:
إني أرى أنك لأهل هذا الدين مشفق ، وإذا رأيت رأيا لعامتهم رشدا وصلاحا وخيرا فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين ، ولأمتهم.

فقال طلحة ، والزبير ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار : صدق عثمان فيما قال . ما رأيت من أمر فامضه ، فإنّا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، ولا نتّهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك . فذكروا هذا وشبهه ، وعلي بن أبي طالب في القوم لا يتكلم.

فقال أبو بكر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ قال : أرى أنك مبارك ميمون الناصية ، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم ، نصرت إن شاء الله . فقال أبو بكر : بشّرك الله بخير ، من أين علمت هذا ؟

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهرا على من ناوأه ، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين. «

فقال أبو بكر رضي الله عنه : سبحان الله ، ما أحسن هذا الحديث ، لقد سررتني سرّك الله في الدنيا والآخرة.

ثم إنّ أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال:
أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزّكم بالجهاد ، وفضّلكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهّزوا عباد الله إلى غزو بلاد الروم بالشام ، فإني مؤمّر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أميركم . ولتحسن نيّتكم وسيرتكم وطعمتكم ف إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . قال : فسكت الناس ، فو الله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم ، لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم.

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا معشر المسلمين ، ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعاكم لما يحييكم ؟
فقام خالد بن سعيد بن العاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:
الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، بعث محمدا بالهدى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * . فإن الله منجز وعده ، ومعزّ دينه ، ومهلك عدوّه . ثم أقبل على أبي بكر فقال : إنّا غير مخالفين لك ، ولا متخلفين عنك ، وأنت الوالي الناصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنا ، ونطيعك إذا أمرتنا ، ونجيبك إذا دعوتنا . ففرح أبو بكر بمقالته ، وقال له : جزاك الله من أخ خيرا ، فقد أسلمت مرتغبا ، وهاجرت محتسبا ، وهربت من دينك من الكفار ، لكي يطاع الله ورسوله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، فسر رحمك الله.
قال : فتجهّز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ، ثم أتى أبا بكر وعنده من المهاجرين والأنصار أجمع ما كانوا ، فسلّم على أبي بكر رضي الله عنه ، ثم قال : والله لأخّر من رأس حالق ، أو يخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحب إليّ من أن أبطئ عنك أو أخالف أمرك ، والله ما أنا في الدنيا راغب ، ولا على البقاء فيها بحريص ، وإني أشهدكم أني وإخواني وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله تعالى ، مقاتل المشركين أبدا ، حتى يهلكهم الله ، أو نموت عن آخرنا.
فقال له أبو بكر : خيرا . ودعا له المسلمون بخير . وقال له أبو بكر : إني لأرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده ، بإقامة كتابه ، واتّباع سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم.
فخرج هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته . وكان أول من عسكر ، فأمر أبو بكر بلالا فنادى في الناس : أن انفروا إلى عدوّكم بالشام . وأرسل إلى يزيد بن أبي سفيان ، وإلى عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وشرحبيل ابن حسنة ، فقال : إني باعثكم في هذا الوجه ، ومؤمّركم على هذه الجنود ، وأنا موجّه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه ، فإذا قدمتم البلد ، ولقيتم العدو ، واجتمعتم على قتالهم ، فأميركم أبو عبيدة بن الجراح ، وإن لم يلقكم أبو عبيدة ، وجمعكم الحرب ، فأميركم يزيد بن أبي سفيان.
فانطلقوا ، فتجهّزوا.
فانطلق القوم يتجهّزون . وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكره الإمارة ، واستعفى أبا بكر ، فأعفاه . ثم إن الناس خرجوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين

وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة ، في كل يوم ، حتى اجتمع الناس وكثروا . فخرج أبو بكر ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثير ، حتى انتهى إلى عسكرهم ، فرأى عدة حسنة ، ولم يرض كثرتها للروم ؟ فقال لأصحابه : ما ذا ترون في هؤلاء ؟ أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال له عمر : ما أرضى هذه العدة لبني الأصفر . فأقبل أبو بكر على أصحابه فقال لهم : ما ذا ترون ؟ فقالوا : نحن نرى أيضا ما رأى عمر .
فقال أبو بكر : أفلا نكتب كتابا إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الجهاد ونرغّبهم في ثوابه ؟
فرأى ذلك جميع الصحابة . فقالوا له : نعم ما رأيت . فكتب إليهم ، فأجابوه وأقبلوا ، وتجهّزوا إلى الشام . فكان الفتوح والنصر . وقد ذكرنا ذلك كله في كتابنا هذا.

وصية عثمان بن عفان رضي الله عنه

روينا من حديث الأصمعي ، عن العلاء بن الفضل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقا مقفولا ، ففتحوه ، فوجدوا فيه حقّة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان بن عفان : يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله من الآمنين برحمة الله.
وروينا من حديث الخرائطي قال : حدثنا علي بن داود ، نبأ محمد بن عبد العزيز الرملي ، نبأ محمد بن خميس ، عن عبد العزيز الزهري ، عن طاوس قال : جاء رجل إلى محمد بن يوسف وهو على اليمن ، فقال : إن معي صفة الأبنية ، وهو قبر من قبور الجاهلية . قال طاوس : فأرسلني معه ، فأتينا موضعا ، فحفروا ، فإذا باب ودرجة ، وإذا بامرأتين ناشرتي الشعر على سريرين ، وعليهما حبرات مكففات بالديباج ، وبينهما عسيب من فضة ، مكتوب بالذهب : أنا حنا ، وهذه أختي رضوى ابنتا تبّع ، متنا لا نشرك بالله شيئا.

انتهى بحمد الله وعونه كتاب « المسامرات » للعالم العامل ، القطب الواصل ، العارف الغارف ، من بحر المعارف سيدي محيي الدين بن العربي الحاتمي الطائي نفعنا الله به وبعلومه ، آمين.

فهرس المحتويات

*

تم بحمد الله تعالى رب العالمين
عبدالله المسافر بالله

.